
د. إبراهيم ياسين الخطيب

القدس

بين أطماع الصليبيّين وتفريط الملك الكامل الأيّوبيّ

القدس

بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل الأيوبي

بسم الله الرحمن الرحيم



هاتف ٤٦٥٠٦٢٤
فاكس (٠٠٩٦٢٦)
٤٦٥٠٦٢٤
ص.ب. ٢١٥٣٠٨
عمان ١١١٢٢
الأردن

الموقع
عمان
شارع الملك حسين
بناية الشركة المتحدة
للتأمين

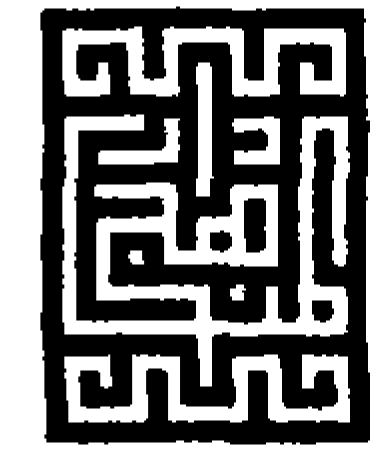
الطبعة الأولى
١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر ٢٠٠١/٥/٩٥٣
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبات والوثائق الوطنية ٢٠٠١/٥/٩٣٨

د. إبراهيم ياسين الخطيب

القدس

بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل الأيوبي



المحتويات

المقدمة.. ١١

تمهيد
أحوال المشرق في القرن السادس/ الثاني عشر

١- الدولة الزنكية.. ١٧
٢- ظهور الأيوبيين.. ١٨
٣- تأسيس الدولة الأيوبية.. ١٩
٤- النظم الحضارية عند الأيوبيين.. ٢١

الباب الأول
سيرة الملك الكامل

الفصل الأول
الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين

أولاً: خلفاء صلاح الدين.. ٢٩
ثانياً: النـــزاع بين خلفاء صلاح الدين.. ٣١
أ-النـــزاع بين الأخوين الأفضل والعزيز.. ٣٣
ب - تآمر الملك العادل على الملك الأفضل.. ٣٦
ثالثا: تولى الملك العادل السلطنة.. ٣٨
أ- تولى الملك الأفضل مصر.. ٣٨
ب- تحالف الأخوين الأفضل والظاهر ضد العادل.. ٣٩
جـــ- عزل الملك الأفضل.. ٤٠
د- إعادة توحيد الدولة الأيوبية.. ٤١
هـــ- فشل تحالف الأفضل والظاهر ضد الملك العادل.. ٤٢
رابعا: الصراع بين الملك العادل والصليبيين.. ٤٣

أ- فشل استرداد بيت المقدس.. ٤٣
ب- فشل الحملة الصليبية الرابعة.. ٤٦
جـ- الغارات المتبادلة بين المسلمين والصليبيين ٤٩
د- وفاة الملك عموري الثاني ٥٢
هـ- الحملة المنحارية ٥٤

الفصل الثاني

حياة الملك الكامل

أولا: نشأة الملك الكامل ٦١
ثانيا: ثقافة الملك الكامل.. ٦٢
أ- الحياة الدينية.. ٦٣
ب- الحياة الأدبية.. ٦٤
جـ- شعر الملك الكامل.. ٦٥
د- الحياة العلمية.. ٦٧
هـ- صفات الملك الكامل.. ٦٨
ثالثا: نشاطات الملك الكامل في عهد الملك العادل.. ٧٠
أ- محاصرة ماردين.. ٧٠
ب- دعم الملك العادل في دمشق.. ٧١
جـ- فتح إرمينية.. ٧٢
د- إكمال بناء قلعة الجبل.. ٧٣
هـ- إرسال الملك المسعود إلى اليمن.. ٧٣
رابعا: أسرة الملك الكامل.. ٧٤
أ- زوجات الملك الكامل.. ٧٤
ب- أولاد الملك الكامل.. ٧٤
خامسا: تولى الملك الكامل السلطنة.. ٨١
سادسا: محاولات خلع الملك الكامل.. ٨٤

أ- مؤامرة ابن مشطوب ٨٤
ب- مؤامرة الملك الصالح نجم الدين أيوب.................................. ٨٨
جـ- تخوف الملك الكامل من الأمراء.................................. ٨٩
سابعاً:وفاة الملك الكامل.. ٩٠

الباب الثالث
سياسة الملك الكامل الداخلية

الفصل الأول
سياسة الملك الكامل الداخلية في مملكته

أولا: سياسة الملك الكامل الإدارية والأمنية والقضائية.......................... ٩٨
أ- توفير الأمن الداخلي.. ١٠٠
ب- وقف الفساد في الدواوين.. ١٠٣
جـ- معالجة الأزمة في الكنيسة القبطية ١٠٥
ثانيا: سياسة الملك الكامل الاقتصادية والمالية.................................. ١٠٦
١- الزراعة.. ١٠٦
٢- الصناعة.. ١١٠
٣- إصلاح النظام النقدي ١١٢
ثالثا: سياسة الملك الكامل التعليمية والعمرانية................................. ١١٧
أ- التعليم ١١٧
ب- العمران.. ١٢٠
رابعاً: حياة الشعب في ظل الملك الكامل.. ١٢٥
أ- ظاهرة الغلاء والأوبئة والمجاعات...................................... ١٢٨
ب- السخرة.. ١٢٩
جـ- الرشوة ١٣٠
د- المصادرة والظلم الاجتماعي.. ١٣٠
هـ- سرقة الأموال العامة.. ١٣١
خامساً: بعض رجالات الملك الكامل.. ١٣١

أ- أولاد شيخ الشيوخ ١٣٣
ب- ابن دحية.. ١٣٥
جـ- الحافظ زكي الدين المنذري.. ١٣٦

الفصل الثاني

سياسة الملك الكامل في الممالك الأيوبية

أولاً: علاقة الملك الكامل والممالك الأيوبية إلى عام ٦١٨ .... ١٤٢
ثانياً: العلاقات بين الملك الكامل والملوك الأيوبيين من عام ٦١٨........................ ١٤٤
ثالثاً: اختلاف الملوك الأيوبيين وسيطرة الكامل على دمشق........................ ١٧٠

الفصل الثالث

سياسة الملك الكامل في الممالك الإسلامية

أولاً: علاقة الملك الكامل والخلافة العباسية........................ ١٧٩
ثانياً: علاقة الملك الكامل واليمن........................ ١٨٧
ثالثاً: علاقة الملك الكامل والدولة الخوارزمية........................ ١٩٥
رابعاً: علاقة الملك الكامل مع سلاجقة الروم........................ ٢٠٣
خامساً: علاقة الملك الكامل والأراتقة........................ ٢٠٩

الباب الثالث

القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل الأيوبي

الفصل الأول

سياسة الملك الكامل من الحملة الصليبية الخامسة

أولاً: الإعداد للحملة الصليبية الخامسة........................ ٢٢٤
أ- دعوة البابا للحملة الصليبية الخامسة........................ ٢٢٤
ب- خطة الحملة........................ ٢٢٦

ثانياً: سير الحملة.. ٢٢٨
أ- مرابطة الملك الكامل في العادلية ٢٢٩
ب- محاولات الملك الكامل التصدي لغزو الفرنج........................ ٢٣١
جـ- آثار وفاة الملك العادل ٢٣٤
د- محاولات الصلح.. ٢٣٦
ثالثاً: إعداد الملك الكامل مصر والشام لقتال الصليبيين........................ ٢٤٠
أ- تخريب بيت المقدس ١٢١٩/٦١٦........................ ٢٤١
ب- المناوشات بين المسلمين والصليبيين........................ ٢٤٢
جـ - عرض الملك الكامل التنازل عن القدس........................ ٢٤٣
رابعاً سقوط مدينة دمياط ٢٤٥
أ- أحكام حصار دمياط ٢٤٥
ب- سقوط دمياط في أيدي الصليبيين ٢٤٧
جـ- الخلافات بين الصليبيين.. ٢٤٩
خامساً: فشل الحملة وانسحاب الصليبيين ٢٥٠
أ- استصراخ الملك الكامل العالم الإسلامي........................ ٢٥٠
ب- خطة الملك الكامل لمواجهة العدوان........................ ٢٥١
جـ- المناوشات بين الملك الكامل والصليبيين........................ ٢٥٢
د- حشد الملك الكامل للقوات للمواجهة الحاسمة........................ ٢٥٣
هـ- الزحف الصليبي على القاهرة ٢٥٦
و- عرض الملك الكامل تسليم القدس للصليبيين ....
ز- المعركة الفاصلة.. ٢٥٨
سادسا: دور الملك الكامل في استسلام الصليبيين وطلبهم الصلح........................ ٢٦١
أ- الصلح بين الكامل والصليبيين.. ٢٦١
ب- أسباب فشل الحملة.. ٢٦٦

الفصل الثاني

تسليم بيت المقدس

أولاً: الظروف التي هيأت تسليم بيت المقدس ٢٧٢
أ- حالة مصر وبلاد الشام بعد الحملة الخامسة........................ ٢٧٢
ب- استنجاد الملك المعظم بالخوارزميين........................ ٢٧٣
جـ- اتصال الملك الكامل بالإمبراطور فردريك الثاني........................ ٢٧٤
د- شخصية الإمبراطور فردريك الثاني وطموحاته ٢٧٥

ثانياً: الاتصالات بين الملك الكامل والإمبراطور فردريك II ٢٧٧
ثالثاً: سير الحملة الصليبية السادسة ٢٧٩
أ- إقلاع الإمبراطور إلى بلاد الشام ٢٨١
ب- وفاة الملك المعظم ....
جـ- الموقف في بلاد الشام منذ وصول فردريك الثاني ٢٨٢
د - المفاوضات بين الكامل وفردريك الثاني ٢٨٣
رابعاً: تخاذل الملك الكامل وتسليم القدس للصليبيين.. ٢٨٧
أ- صلح يافا.. ٢٨٨
ب- زيارة الإمبراطور بيت المقدس ٢٩١
خامساً: صدى تسليم بيت المقدس للإمبراطور فردريك الثاني ٢٩٤
أ- رفض المسلمين للاتفاق.. ٢٩٤
ب- معالجة الملك الكامل لموقف المسلمين الرافضين للصلح ٢٩٥
جـ- رفض الصليبيين للصلح ٢٩٨
د- تعليقات عامة على الصلح.. ٣٠٢
هـ- مدى الالتزام باتفاقية الصلح.. ٣٠٣
سادسا: استمرار العلاقة بين الملك الكامل والإمبراطور فردريك........................ ٣٠٤

الفصل الثالث

سياسة الملك الكامل التجارية الخارجية

أولا: العلاقات التجارية الأيوبية في عهد الملك الكامل.. ٣١٢
ثانيا: المعاهدات التجارية.. ٣١٥
ثالثا: السلع التجارية ٣٢٢
رابعا: الطرق التجارية.. ٣٢٥
خامسا:الرسوم الجمركية.. ٣٢٨
الخاتمة.. ٣٣٣
الملاحق.. ٣٤١
المصادر والمراجع.. ٣٦٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

بعون الله تعالى يسرني أن اضع بين يدي القارئ الكريم كتابي هذا "**القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل الأيوبي**". إن هذا الكتاب ذو أهمية كبيرة لكل عربي ومسلم، إذ يوضح "الطريق الذي انتهجه الصليبيون لاحتلال بيت المقدس في ظل انقسام المسلمين إلى دويلات متصارعة، وتعاون بعضها مع الصليبيين، إننا نعيش اليوم في وضع أقرب ما يكون إلى ذلك الوضع الذي عاشه أجدادنا قبل حوالي ثمانية قرون، فالقدس تتعرض للخطر الصهيوني الذي تدعمه الولايات المتحدة والدول الغربية، والمسلمون منقسمون إلى دويلات تنخرها ريح الفرقة والتخاذل والإقليمية، وربما التعاون مع يهود . تاركين للفلسطينيين مواجهة هذا الخطر (الذي لا قبل لهم به).

شهدت سوريا ومصر في القرنين الخامس والسادس الهجريين عدة هجمات صليبية أدت إلى قيام إمارات صليبية في الرها، وأنطاكية، وطرابلس، وبيت المقدس، وأدرك المسلمون خطر هذه الهجمات، فبدأت محاولات متتالية لتوحيد المسلمين ومقاومة الزحف الصليبي، وقد نجح عماد الدين زنكي في إثارة مشاعر المسلمين، ووضع أساس حركة الجهاد، وتوحيد جهود بعض الإمارات الإسلامية، ونبذ ما بينها من منازعات، أملا في حشد طاقاتها لمواجهة العدوان الصليبي، وسار على نهجه ابنه نور الدين محمود.

تابع صلاح الدين جهود سابقيه في بناء الوحدة الإسلامية. فأسس الدولة الأيوبية في مصر والشام والحجاز واليمن، وكبح جماح الصليبيين بعض الوقت، ومد أن

انتقل إلى الرفيق الأعلى حتى بدأت بذور التفكك تنخر دولته، فتجزأت بين أبنائه، وخلفائه، غير أن أخاه الملك العادل استطاع أن يحسم النزاع وأن يسيطر على الموقف عندما قسم البلاد بين أبنائه، واحتفظ لنفسه بنوع من السيادة العليا، والحرية في تصريف الأمور. كما حاول تسوية النزاع مع الصليبيين بوسائل سلمية، وعقد معاهدات متتالية لتجسيد ذلك، فاطمأن على استقرار دولته هذه المعاهدات، غير أن الصليبيين نكثوا العهد، وهاجموا دمياط عام ٦١٥هـ-١٢١٨م على غير ما اعتقد الملك العادل.

كان الملك الكامل نائبا لوالده على مصر، فوقع عليه عبء الجهاد ومقاومة العدوان الصليبي، واستطاع أن يحشد قوات المسلمين وإجبار الصليبيين في دمياط على إخلاء المدينة بموجب معاهدة بين الطرفين، وما أن انسحب الصليبيون حتى بدأت سلسلة من النزاعات بين الملك الكامل وأخوته، حتى أصبح تاريخ هذه الفترة قصة تطفح بالمؤامرات والحروب بين أفراد الأسرة الأيوبية، وكل منهم يطمع في أن يوسع إمارته على حساب أخيه وجاره.

ويبدو أن الملك الكامل كان ذا قدرة عالية في استغلال الظروف المحيطة، وكبح طموحات أخوته، ونجح في نهاية المطاف بالسيطرة على الأيوبيين، واستخدام المفاوضات الدبلوماسية مع الصليبيين، فاستعان بالامبراطور فردريك الثاني لتحقيق أهدافه ضد أخوته ، فاستغل الأخير ذلك، وعقد مع الملك الكامل معاهدة استطاع بموجبها أن يحرز ودون قتال أكثر مما أحرزه الصليبيون في الحملة الصليبية الثالثة بالحرب.

يشمل الكتاب، مقدمة، تمهيداً، وثلاثة أبواب، وخاتمة.

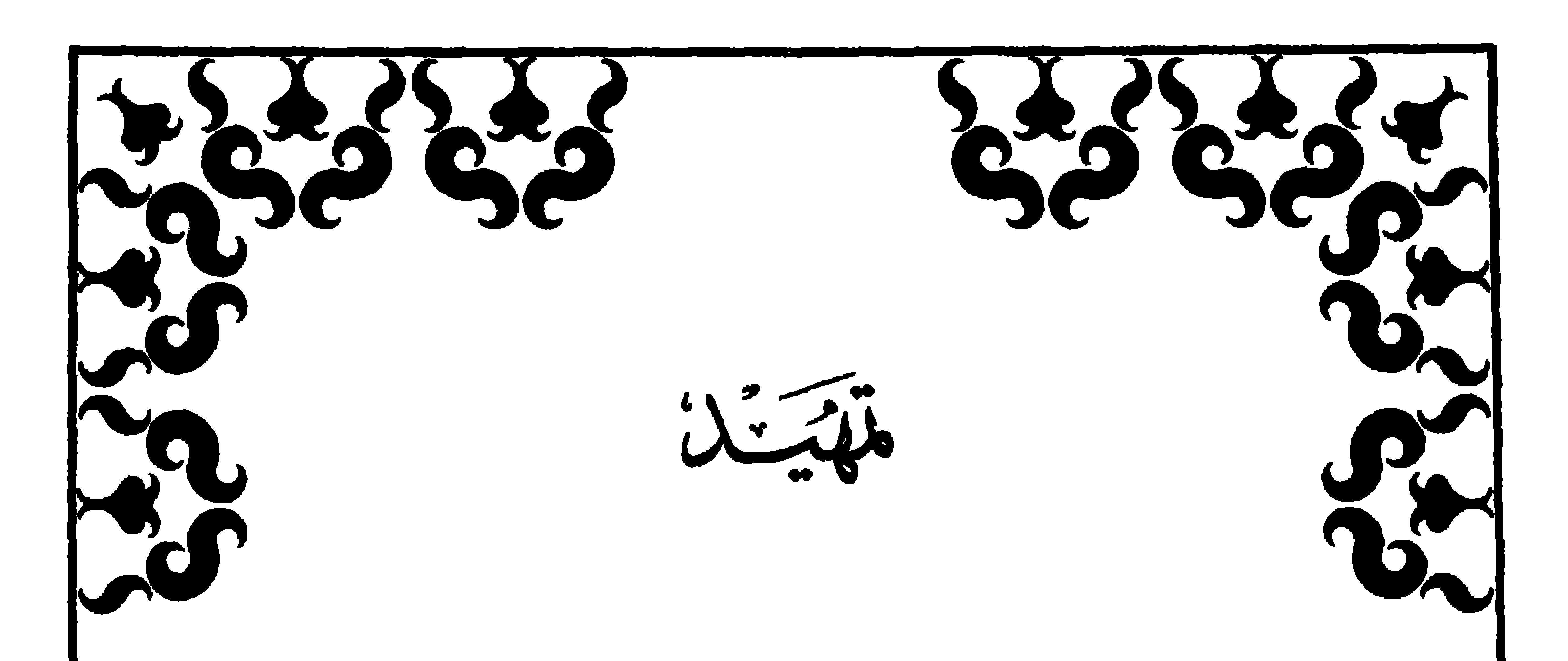
استهل المؤلف الكتاب بلمحة تاريخية عن الأحداث التي سبقت حياة الملك الكامل في التمهيد، لربط أحداث الكتاب بالفترة التي سبقتها بأسلوب مناسب.

وخصص **الباب الأول** لسيرة الملك الكامل، حيث قسمه إلى فصلين، وضح في الأول منهما أحوال المشرق قبل الملك الكامل، فيما ركز في الفصل الثاني على حياة الملك الكامل، ونشأته وثقافته وأسرته وولايته ووفاته.

وشمل **الباب الثاني** سياسة الملك الكامل الداخلية، وقسم إلى ثلاثة فصول، ضم الأول منها سياسة الملك الداخلية في مصر، وعولج في الثاني علاقة الملك الكامل مع الممالك الأيوبية، ونوقش في الفصل الثالث علاقة الملك الكامل مع الخلافة العباسية واليمن، وغيرها من الممالك الإسلامية كالدولة الخوارمية والاراتقة والسلاجقة الروم، والإشارة بعجالة قصيرة عن علاقة الملك الكامل والتتر.

أما **الباب الثالث** فقد تحدث الباحث فيه عن سياسة الملك الكامل الخارجية، وقُسِّم إلى ثلاثة فصول: وضح في **الفصل الأول** منها سياسة الملك الكامل الدفاعية لمواجهة العدوان الصليبي على مصر:وخصص **الفصل الثاني** للتفريط ببيت المقدس وتسليمها للامبراطور فردريك الثاني، إثرعقد صلح يافا، وركز في **الفصل الثالث** على العلاقات التجارية بين إمارة الملك الكامل والأقطار الأخرى، وانتهى بخاتمة توضح أبرز ما توصلت إليه الدراسة، وأكملت الكتاب بتثبيت بعض الملاحق المهمة، وتثبيت المصادر والمراجع التي استخدمت، والفهارس.

قسمت موضوع الكتاب إلى ثلاثة أبواب لتسهيل معالجة الموضوع، ولتغطيته بشيء من الدقة والشمولية والتفصيل، فضلاً عن ارتباط المعلومات التي جاءت في كل باب مع بعضها، وقد آثرت أن أعالج سيرة الملك الكامل في باب خاص به لإبراز البيئة والجو الأسري الذي عاش فيه ، ومدى تأثير ذلك في سياسته.



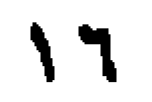
أحوال المشرق في القرن السادس/ الثاني عشر

١-الدولة الزنكية

٢-ظهور الأيوبيين

٣-تأسيس الدولة الأيوبية

٤-النظم الحضارية عند الأيوبيين



تمهيد

أحوال المشرق في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)

شهد العالم الإسلامي انقسامات شديدة في أوائل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، فقد كانت الخلافة العباسية تئن من وطأة الصراع على السلطة بين أفراد البيت السلجوقي الذي يسيطر على المشرق، كما كانت الخلافة الفاطمية في خريف عمرها، فعجزت عن حماية بعض ممتلكاتها أمام الزحف الصليبي، فيما كانت بلاد الشام منقسمة إلى كيانات مدينية متنازعة، أشهرها أتابكية دمشق.

وقد أدت هذه الظروف إلى نجاح الصليبيين في احتلال أجزاء من بلاد الشام[1]، وإقامة مملكة بيت المقدس وإمارات: الرها، وأنطاكية وطرابلس.

١- الدولة الزنكية:

تصدى المسلمون للزحف الصليبي بالرغم من خلافاتهم إذ تولى آق سنقر صاحب حلب مقاومتهم، إلا أنه قتل عام ٤٨٧/١٠٩٥، تاركا ابنه عماد الدين في العاشرة.

التحق عماد الدين بخدمة السلطان محمود السلجوقي فولاه الموصل لكفايته عام ٥٢١/١١٢٧[2]، فنشر الأمن واستولى على حلب وحمص

---

(١) انظر ملحق رقم(١).

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٣١/١.

وحماه[1]، أملاً في توحيد بلاد الشام ومحاصرة الصليبيين، ووقف زحفهم، وقد تمكن من كبح جماحهم، وتحرير الرها عام ٥٣٩/١١٤٤[2] ولكنه أغتيل بعد عامين.

تابع نور الدين بن عماد الدين زنكي رسالة والده في مقاومة الفرنجة، وتوحيد بلاد الشام، فوحد حلب والموصل، ودمشق، ومصر، وأصبحت دولته تحيط بالإمارات الصليبية. إلا أنه توفي عام ٥٦٩/١١٧٤[3]، بعد ما أسس دعائم الدولة الزنكية.

تولى الملك الصالح إسماعيل بعد أبيه نور الدين، وخطب له بالشام، ومصر، واليمن، وضربت السكة باسمه، وكان في الحادية عشرة من عمره، فتسلط عليه الأمراء، وتنازعوا فيما بينهم، فاستغل الصليبيون ذلك وتطاولوا على بانياس، كما طمع عز الدين زنكي صاحب الموصل في إجتزاء بعض أراضي الدولة.

٢- ظهور الأيوبيين:

ينتسب الأيوبيون إلى أيوب بن شادي بن مروان وهم من أشراف الأكراد في أذربيجان[4]، وقد اشتهروا في رحاب عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، إذ كان نجم الدين أيوب والد صلاح الدين حاكما لتكريت، ثم التحق وأخوه أسد الدين شيركوه في خدمة عماد الدين صاحب الموصل، وساعداه في فتح حلب والرها وكان أسد الدين قائدا لجيش نور الدين الذي استولى على دمشق عام ٥٤٩/١١٥٤[5]، وأصبح أسد الدين مقدماً للحملات التي أرسلت لإنقاذ مصر من

---

(١)أبو شامة، الروضتين، ١١٨/١، ابن الوردي، تتمة المختصر، ٥٣/٢.

(٢) ابن الأثير، م.ث، ٦/٨.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ١٢٥/٩.

(٤) أبو شامة، الروضتين، ١٢٩/١.

(٥) ابن الأثير، م.س، ٤٠/٩.

العدوان الصليبي بين عامي ٥٥٩/١١٦٤- ٥٦٤/١١٦٨، وكان صلاح الدين أحد قادة الفصائل في جيش عمه أسد الدين في الحملات الثلاث[١].

تمكن أسد الدين شيركوه من ضم مصر لمملكة نور الدين في الحملة الثالثة، وأصبح وزيراً للدولة الفاطمية[٢]، فقبض على زمام الأمور، ووزع الإقطاعات على عساكره، ولكنّه توفي بعد شهرين من تسلمه الوزارة، فاختار العاضد الخليفة الفاطمي صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب وزيراً خلفاً لعمه شيركوه[٣].

أحسن صلاح الدين لجميع العسكر فأطاعوه مع أنه كان في الحادية والثلاثين، ونظم مصر، وكسب ود الناس فأحبوه[٤]، وما لبث أن قطع الخطبة للخليفة الفاطمي، وأقام شعائر الدعوة العباسية، فكسب ثقة سيده نور الدين محمود، وأصبح نائباً له في مصر، وقائداً للقوات النورية في هذه البلاد.

٣- تأسيس الدولة الأيوبية:

ذكرنا أن نور الدين محمود توفي عام ٥٦٩/١١٧٣، فأعلن صلاح الدين ولاءه لابنه الملك الصالح، وأمر بإقامة الخطبة له، وأرسل إليه كتاب تعزية[٥]، غير أن أمراء الملك الصالح إسماعيل ناصبوا صلاح الدين العداء خوفاً من ضياع مكانتهم، كما تنازعوا فيما بينهم على السلطة، فأصبحت أراضي الدولة نهباً للصليبيين، وصاحب الموصل، وكثرت الفوضى في البلاد، واستاء بعض الأمراء لتردي الأوضاع في دمشق، فاستدعوا صلاح الدين لوضع حد لهذه الفوضى.

---

(١)ابن الأثير،الكامل، ٩/٦٠-٦٨.

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٦/٤٠.

(٣) ابن الأثير، م.س ٩/١٠٢.

(٤) ابن عبري، تاريخ مختصر الدول، ٢١٣.

(٥) ابن الأثير، م.س، ٩/١٢٧، أبو شامة، الروضتين، ١/٢١٦.

وكان صلاح الدين قد أحس بمسؤوليته التاريخية تجاه الدولة الزنكية بعد وفاة نور الدين، وشعر بخطورة الموقف بسبب الفراغ الذي أحدثته الوفاة أمام الزحف الصليبي، فجعل نصب عينيه أن يملأ الفراغ، ويكمل رسالة نور الدين فلبى دعوة الأمراء بدمشق عام ١١٧٤/٥٧٠[١]. ازداد عداء أمراء الملك الصالح لصلاح الدين، وتعاونوا مع الصليبيين لإبعاده من الشام، إلا أن صلاح الدين استطاع الثبات، وانتزاع اعتراف الملك الصالح به عام ١١٧٥/٥٧١ كسلطان لمصر ودمشق.

تابع صلاح الدين اجتزاء دولة الزنكيين شيئا فشيئا بعد وفاة الملك الصالح إلى أن ملك جميع أجزاء دولة الزنكيين، وأصبح سلطان مصر والشام والجزيرة. وبذلك عُدّ المؤسس الحقيقي للدولة الأيوبية[٢].

تفرغ صلاح الدين لمواجهة الصليبيين بعد توحيده البلاد المحيطة بهم، فهزمهم في حطين عام ١١٨٧/٥٨٣، وحرر بيت المقدس، وما لبث أن حرر معظم المدن التي يحتلها الصليبيون على ساحل بلاد الشام، فهرعت أوروبا، وجمعت جموعها في حملة صليبية جديدة بقيادة الملك الفرنسي فليب اغسطس (Philippe Auguste) وملك بريطانيا ريتشارد قلب الأسد (Richard, Lion's Heart) فعاد الأول بعد مدة، وقارع الثاني صلاح الدين في حرب دامية بين مد وجزر، ولكن ريتشارد، وصلاح الدين لم ينجحا في حسمها، فلجآ إلى الحوار الذي انتهى بصلح الرملة عام ١١٩٢/٥٨٨[٣]، وشمل:

- احتفاظ الصليبيين بما افتتحوه من بلاد الشام حتى يافا.
- السماح للصليبيين بتأدية الحج إلى بيت المقدس.

---

(١) المقريزي، السلوك، ٥٨/١.

(٢)ابن الأثير، م.س، ١٢٩/٩.

(٣) أبو شامة، الروضتين، ٩٦/٢، ابن واصل، مفرج الكروب، ٢١٦/٢.

- السماح للمسلمين والصليبيين بحرية الانتقال إلى الأراضي التي يحتلها الطرف الآخر، وما كاد يتم الاتفاق حتى سارعت جماعات من الصليبيين المجردين من السلاح ممن يحملون إذناً من الملك ريتشارد إلى زيارة الأماكن المقدسة في بيت المقدس.

وبدأ عهد جديد من العلاقات الطيبة بين المسلمين والفرنج، واختلط عسكر الطرفين، وتبادلوا التجارة ودخل الحجاج النصارى القدس، وزاروا كنيسة القيامة، وعاد ريتشارد إلى بلاده.

وتفقد صلاح الدين بيت المقدس، وبعض المدن ثم عاد إلى دمشق، فمرض، وما لبث أن مات عام ٥٨٩/١١٩٣، بعد حكم استمر حوالي أربعة وعشرين عاماً، قضى منها ست عشرة سنة في الجهاد، نجح خلالها في دمج الكيان الزنكي كله في دولة أيوبية قوية قادرة على مواجهة الصليبيين، وبناء مجتمع قوي متماسك، ووثق به الناس وأحبوه وآمنوا بصدقه، وتجرده، وتضحيته، فاجتمعوا حوله، ورأوا فيه أميراً من طراز جديد، إذ بسط الإحسان لعدوه، ومد يده لأسيره، فقيّده بالعفو، والرحمة، وعطف على شعبه فأشاع روح المودة في قلوب الرعية، وارتفع بمستوى القادة من وهْدَه التنازع، إلى صعيد التعاضد في سبيل هدف عظيم هو تحرير ما يحتله الصليبيون.

٤- النظم الحضارية عند الأيوبيين:

ذكرت في الصفحات السابقة أن صلاح الدين أسس المملكة الأيوبية على انقاض دولة الزنكيين، وقد شملت مصر والحجاز واليمن وبلاد الشام والجزيرة الفراتية، وأصبح يعرف بالسلطان، وتولى جميع السلطات، فرسم السياسة العامة للبلاد وقضى على آثار المذهب الشيعي، وعزز المذهب السني، ودعا في المساجد للخليفة العباسي في بغداد، واتخذ القاهرة حاضرة ملكه، ولما كان كثير الاشتغال بأمر الجهاد فقد

استحدث وظيفة نائب السلطنة لينوب عنه أثناء غيابه، وقبل وفاته وزع أقاليم البلاد على أبنائه واخوته وأقاربه، واتخذ كل منهم لقب ملك، وكان هؤلاء الملوك يدبرون شؤون مناطقهم المحلية، تاركين الشؤون المركزية والهامة للسلطان، واستمر هذا النظام سائداً عند الأيوبيين إلى أن انقرضت دولتهم.

اعتمد الأيوبيون على النظم التي أرساها صلاح الدين، والتي كان معظمها سائداً في البلاد في العهد الزنكي، فاستمرت النظم الإدارية والاقتصادية والاجتماعية في مصر والشام والجزيرة الفراتية، وطبق الأيوبيون الشريعة الإسلامية في القضاء، فاستنبطوا القوانين من القرآن الكريم والسنة المحمدية، وكان القضاة يتولون الحكم بين المتخاصمين بعدالة، فيما يشرف المحتسب على شؤون السوق والتعليم والحرف المختلفة، والبناء.

واهتم الأيوبيون بالتعليم، فشيدوا المدارس، والمساجد، وبنوا الربط والزوايا، والخوانق، وأوجدوا المكتبات، واستقطبوا العلماء من العالم الإسلامي، وأغدقوا عليهم، بل تنافس الأمراء والحكام والمحسنون في بناء المراكز التعليمية، والانفاق عليها احتساباً لوجه الله، وتقرباً إليه، وقد شهدت البلاد حركة ثقافية نشيطة، وصدر العديد من المؤلفات في مختلف المواضيع.

وكان المجتمع الأيوبي جزءاً من الخلافة العباسية، وامتداداً للمجتمع الإسلامي يتكون من طبقة حاكمة معظمها من الأكراد والأتراك[1]، وأصحاب الاقطاعات، وطبقة رجال العلم الذين كسبوا احترام السلاطين والعامة.

وكان الفلاحون والصناع والتجار يشكلون الطبقة الثالثة، وكان المسلمون والنصارى واليهود يتمتعون بالحقوق كافة، ولا سيما ممارسة شعائرهم الدينية، والاحترام*.

---

(١) المقريزي، الخطط، ٢/١٥٩.

وانتشرت في العهد الأيوبي ظاهرة التصوف والاكثـــار مـــن بنـــاء الزوايـــا والخانقاوات والربط، كما اهتم الأيوبيون بالفروسية، والصيد.

وكان القطاع الاقتصادي منتعشاً، فشجع الأيوبيون الزراعة، والصناعة، ووفروا الأجواء المناسبة لانعاش التجارة الداخلية، والخارجية بتوفيرهم الأمن، وكانت مـــوارد بيت المال تعتمد على الزكاة والخراج والجزية([1]) والعشور والغنيمة والمكوس، وكانت هذه الموارد تنفق على خدمات البلاد من بناء الجسور وكري الأنهار، وشراء السـلاح، ودفع رواتب الجند والموظفين. وأولى الأيوبيون العملة عنايتهم فشددوا علـــى نقـــاء الدينار الذهبي وعدم تزويره حفاظاً على قدرته الشرائية.

وكان الجيش على درجة عالية من الكفاءة في عهد صلاح الديـــن، وحـــاول السلاطين الذين خلفوه العناية به، ودعم الأسطول لحماية الحدود، ومقاومة عـــدوان الصليبيين المستمر.

وحاول السلاطين الأيوبيون الحفاظ على وحدة البلاد، واقتفاء أثر صلاح الدين في تنفيذ سياستهم العامة باختلاف بسيط، إلا أن تضارب مصالح الأمراء الأيوبيـــين، وعدم وضوح أسلوب اختيار السلطان أدى إلى تنازع الأمراء والاحتكام إلى السلاح.

---

(١) الجزية ضريبة يدفعها أهل الذمة، وكانت تسمى الجوالي.

الباب الأول

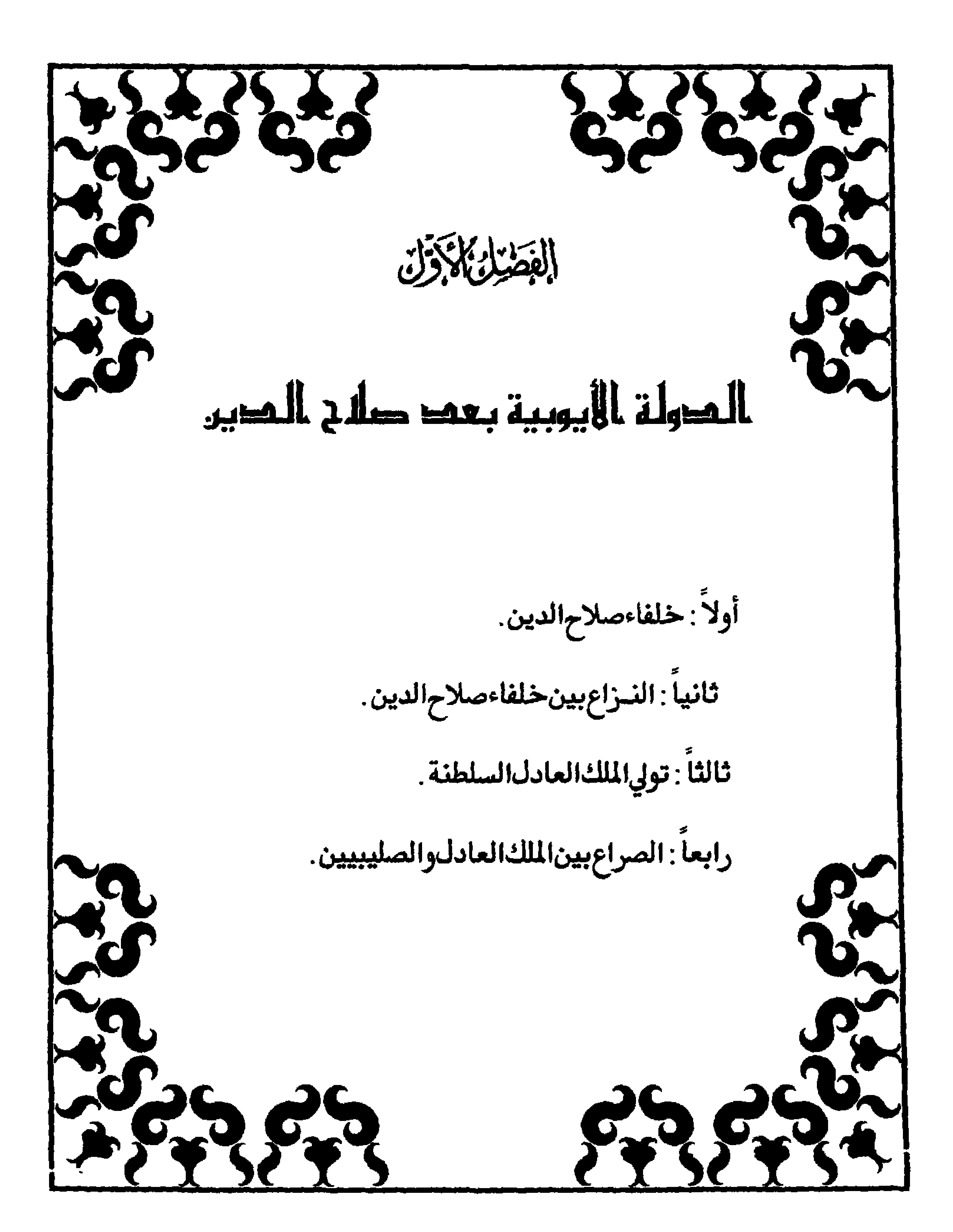
سيرة الملك الكامل

يتناول هذا الباب سيرة الملك الكامل وقد قسمت الباب إلى فصلين، يتحدث الفصل الأول عن الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين، حيث عاش الملك الكامل حياته الأولى قبل توليه السلطة واكتسب خلالها الكثير من الأنماط السلوكية والإدارية، بالإضافة إلى الأفكار التي تعلمها من والده، والتي علمته أسلوب اتخاذ القرار الحاسم، وأساليب مواجهة القضايا السياسية، فشمل الفصل خلفاء صلاح الدين والأملاك التي آلت إليهم والنزاع بينهم، وخصصت الجزء الأكبر من الفصل للملك العادل وتوليه السلطنة، وتوحيده للدولة الأيوبية، ومحاولاته معالجة الهجمات الصليبية على بلاد الشام، وحرصه على اعتماد أسلوب المحاورة مع الصليبيين كلما أمكن ذلك.

وخصصت الفصل الثاني لحياة الملك الكامل نشأته، وثقافته وأسرته، وزوجاته وأولاده، والأعمال العسكرية والسياسية التي شارك فيها قبل توليه السلطة، وحاولت معالجة المؤامرات التي تعرض لها الملك الكامل من قبل الأمير ابن المشطوب، وبعض القادة العسكريين فضلاً عن حكاية ادعاء زوجة الملك الكامل تطلع ابنه الملك نجم الدين أيوب بن الكامل إلى السيطرة على الحكم أثناء غيابه عن مصر، وانتهى الفصل بعجالة عن وفاة الملك الكامل.

قسمت هذا الباب إلى الفصلين التاليين أملاً في إبراز البيئة التي عاش فيها الملك الكامل أيامه الأولى، والتي أثرت في سياسته وإدارته، فضلاً عن الدراسة الشاملة لأسرته أولاداً وبنات وزوجات لتوضيح أثر ذلك في العلاقات التي كانت تربطه والملوك الأيوبيين، ولا سيما مع أصحاب حماة وحلب والكرك، والذين تزوجوا من بناته.


٢٦



الفصل الأول

الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين

أولاً : خلفاء صلاح الدين.

ثانياً : النزاع بين خلفاء صلاح الدين.

ثالثاً : تولي الملك العادل السلطنة.

رابعاً : الصراع بين الملك العادل والصليبيين.

٢٨

الفصل الأول

الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين

حاولت أن أوضح في هذا الفصل أوضاع الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين لأنها البيئة التي عاش فيها الملك الكامل، فاكتسب بعض الخبرات من مجريات أحداث هذه الفترة، التي ربما أثرت في سياسته الداخلية والخارجية، ولا سيما اتخاذ أسلوب المحاورة مع الصليبيين.

وقد شمل الفصل انقسام أملاك الدولة الأيوبية بين خلفاء صلاح الدين، وفشل الخلفاء في كظم غيظهم، وتوحيد كلمتهم مدة من الزمن، إلى أن تمكن الملك العادل من حسم الموقف، والتخلص من أبناء صلاح الدين تدريجيا والاستيلاء على السلطنة، والانفراد في حكم البلاد، ثم مواجهة الملك العادل الهجمات الصليبية المحلية والخارجية، ومحاولته اتباع سياسة سلمية تنهي الصراع معهم، أملاً في إيجاد حياة مستقرة في البلاد.

أولاً: خلفاء صلاح الدين.

أحس صلاح الدين أن إدارة مملكته تحمل في ثناياها بذور انهيارها، لاتساعها ولكثرة القلاقل التي تنتظرها بعد وفاته، فحاول عام ٥٧٠/١١٨٤ أن يرسي قواعدها، معتقداً أن تقسيم البلاد بين أبنائه وأقاربه سينقذها من ذلك، فخص أبناءه بالأجزاء الرئيسة من المملكة، واستبقى المناصب الثانوية لاخوته وأقاربه[1].

---

(١) اسمت غنيم، الدولة الأيوبية والصليبيون، ٥٨.

وعندنا توفى صلاح الدين ترك دولة مترامية الأطراف تشمل مصر والجزيرة العربية وبلاد الشام والجزيرة الفراتية[١]، وفراغاً لم يستطع أحد من أبنائه السبعة عشر أو إخوانه أن يملأه، وما أن توفي حتى بدأ انقسام المملكة بين الورثة كما يلي:

١- ملك الملك الأفضل بن صلاح الدين دمشق والقدس وبعلبك وصرخد وتبنين وبصرى إلى الداروم[٢] (دير البلح) حتى حدود مصر[٣].

٢- انفرد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين بحكم مصر[٤].

٣- استولى الظاهر غياث غازي بن صلاح الدين على حلب وجميع أعمالها وشمال سوريا كحارم وتل باشر واعزاز ومنبج[٥].

٤- أخذ الملك العادل سيف الدين أبو بكر شقيق صلاح الدين الشوبك والكرك والجزيرة الفراتية[٦] أي حران والرها وسميساط وقلعة جعبروميا فارقين ودياربكر. وكانت هذه المنطقة لا تتناسب مع مكانته وقدراته[٧].

٥- احتفظ سيف الإسلام طغتكين أخو صلاح الدين باليمن وجزيرة العرب[٨].

٦- احتفظ الملك المجاهد أسد الدين شيركوه الصغير بتدمر وحمص والرحبة[٩].

٧- أخذ الملك الأمجد مجد الدين بهرامشاه بن فرخشاه بعلبك وأعمالها.

---

(١) انظر ملحق، ٢،٣.

(٢) الداروم قلعة قرب غزة على الطريق المؤدي إلى مصر.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٢٢١/٩.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٠٣/٦.

(٥) ابن الأثير: م.س، ٢٢٧/٩.

(٦) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٨/٢٧٦

(٧) ابن واصل، مفرج الكروب، ٣٧٨/٢.

(٨) عماد الدين الكاتب، الفتح القسي، ١٣٦.

(٩) ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٧٢/١٢.

٨- استمر الملك المنصور الأول محمد بن تقي الدين عمر في حكم حماه.

٩- تولي الملك الظافر خضر بن صلاح الدين بصرى من قبل أخيه الملك الأفضل.

وكان ثمة بعض البلدان والحصون بأيدي جماعة من أمراء الدولة، فاحتفظ كل بولاية، إذ استمر عز الدين مسعود الأول الزنكي في حكم الموصل، كما احتفظ أخوه عماد الدين زنكي الثاني في حكم سنجار[١]، وقطب الدين سقمان الثاني الأرتقي في حكم حصن كيفا وآمد[٢]، وكذلك تولى ناصر الدين منكوريوس منطقة صهيون[٣].

ثانياً: النزاع بين خلفاء صلاح الدين:

عندما توفي صلاح الدين حضر أخوه الملك العادل وشارك في تقبل التعازي مع أبناء أخيه[٤]، وبعد انتهاء العزاء طلب الملك الأفضل (وهو ابن صلاح الدين الأكبر) من بعض الأمراء والمماليك أن يجددوا مبايعته، ويحلفوا له يمين الولاء والطاعة، فاشترط بعضهم[٥]، "أن يكون له خبز يرضيه"، وامتنع قسم آخر عن البيعة قائلاً "أنا ليس لي خبز (اقطاع) فعلى أي شيء أحلف؟"، وكان كثير ممن نشأوا في ظل الدولة الصلاحية يتخوفون من أن تصير حال الدولة بعد صلاح الدين إلى الشقاق والنزاع، وممن أوجس خيفة من ذلك القاضي الفاضل، فكتب إلى الملك الظاهر غياث صاحب حلب إثر وفاة السلطان[٦]، كتاب تعزية جاء فيه "إن وقع اتفاق بينكم فما

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ٢٤٣/٩.

(٢) م.ن.

(٣) أبو الفداء، المختصر، ٦٣/٣.

(٤) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٦٢/٨.

(٥) ابن الأثير، م.س، ٢٢٥/٩.

(٦) محمد كرد علي، خطط الشام، ٧٣/٢.

عدمتم شخصه الكريم، وإن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلية، أهونها موته وهو الهول العظيم".

لم تنفع وصية القاضي الفاضل، وأمنية الأصدقاء المخلصين، كما لم تنفع الملك الأفضل تلك المبايعة التي دعا إليها القادة والأمراء في دمشق، بينما كان أبوه يعاني سكرات الموت "معتذراً بأن المرض قد اشتد، وما يعلم ما يكون، وما يفعل هذا إلا احتياطا على جاري عادة الملوك"[1].

هيأت فرص النزاع بين خلفاء صلاح الدين، وتتابعت مقدماتها فكان من الواضح أن نصيب الملك العادل من ذلك الإرث العظيم لم يكن يعدل مكانته ومقدرته، وسابقته في الجهاد، ومشاركته في بناء المملكة الأيوبية، وهو الذي كان صلاح الدين يستشيره في معضلات الأمور، فيبين عن رأي ودهاء وحنكة، فلا بدع أذن في أن يطمح بتغيير تلك القسمة بينه وبين أبناء إخوته، وليس فيهم من يدانيه في حسن السياسة، وكثرة التجربة، وبعد النظر.

واغتنم الفرنج وفاة صلاح الدين، وانشغال الأيوبيين بالعزاء، فقاموا بخطوة استطلاعية جريئة للتعرف على مدى قدرة خلفاء صلاح الدين على الاحتفاظ بوحدتهم، واستولوا على مدينة جبيل وقلعتها عام ١١٩٤/٥٩٠[2]، فلم يتحرك الملك الأفضل، ولا رجاله لاستردادها[3].

وانتهز صاحب الموصل عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي فرصة موت صلاح الدين فتحرك لاحتلال البلاد الشرقية، وعندما علم الملك العادل بذلك اتجه إلى الشرق، وأقام في قلعة جعبر[4]، لشل أية حركة يحاول صاحب الموصل القيام بها[5].

---

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية، ٢٤٨.
(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٦/٣.
(٣) قدري قلعجي، صلاح الدين الأيوبي، ٤٧٢.
(٤) أبو شامة، الروضتين، ٢٢٦/٢.
(٥) ابن الأثير، الكامل، ٢٢٩/٩.

أ-النــزاع بين الأخوين الأفضل والعزيز:

خالف الملك الأفضل سيرة أبيه، فأبعد بعض مستشاريه وأمراء دولته الغيوريـــن على بقائها، فنقموا عليه، واجتمعت الأمراء الصلاحية، ورأوا أن يكون الأمر لأخيـــه العزيز صاحب مصر، ذلك أن الملك الأفضل كان سيء السيرة، وضعيـف الإرادة، ولا يصلح أن يتولى السلطنة بعد والده، إذ أقبل على اللعب وسماع الأغـــاني، وتظـاهر بلذاته(١)، وعجز عن مواجهة الفرنج في جبيل(٢)، وكانت آنذاك مع أحـــد الأمـــراء الأكراد، فسلمها للصليبيين مقابل مبلغ من المال(٣).

استاء الملك العزيز لسوء تصرف أخيه الملك الأفضل وتركه أمر الدولـــة في يـــد وزيره(٤)، وهم بانتزاع الشام منه إثر تشجيع الأمراء الصلاحية له، وعندما علم الملـــك الأفضل بذلك، هم بمراسلة أخيه العزيز يستعطفه، فمنعه وزيره ضياء الدين بن الأثير(٥) وحسن له محاربته، فمال الأفضل لرأي وزيره، وزادت الوحشة بين الأخوين.

قصد الملك العزيز الشام عام ٥٩٠/١١٩٤، فنـــزل بالقصير(٦) مـــن الغـــور ثم حاصر دمشق، وضيق الخناق عليها(٧)، فاستنجد الملك الأفضل بعمه الملك العـــادل، وكانت هذه الفرصة التي كان الملك العادل في انتظارها ليتدخل في شؤون أبناء أخيـــه، ويحركهم لخدمة أغراضه الخاصة، فاستجاب له عمه، وقدم إلى دمشق، واصطحـــب معه صاحب حلب الملك الظاهر غازي، وصاحب حماه ناصر الدين بن تقـــي الديـــن

---

(١) المقريزي، السلوك، ١٣٦/١.

(٢)جبيل: احدى الثغور في ساحل الشام، وهي مدينة تقع على بعد ١٨ميلاً شمالي بيروت، وبها قلعـــة حصينـــة القلقشندي، صبح الأعشى، ١١١/٤.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٢٠/٦.

(٤) أبو شامة، الروضتين، ٢٢٧/٢، محمد زغلول سلام، ضياء الدين بن الأثير، ٢٢.

(٥) ابن تغري بردي، م.س، ابن الوردي، تتمة المختصر، ١٦٦/٢.

(٦) الشونة الشمالية الحالية، يوسف غوانمة، إمارة الكرك الأيوبية، ١٧٥.

(٧) ابن الأثير، الكامل، ٢٣١/٩، المقريزي، م.س، ١٤٤/١.

عمر، وأسد شيركوه صاحب حمص، وتدارسوا الأمر مع الملك الأفضل، واتفقـــــوا على تسوية الخلاف، والوقوف في وجه الملك العزيز، والمحافظة على أمـــلاك الملـــك الأفضل[1].

بعث الملك العادل إلى ابن أخيه العزيز يشفع في الملك الأفضـــل، ويســـتأذنه في الاجتماع به[2]، ولما احتمعا قال الملك العادل للملك العزيز[3] "لا تخـــرب البيـــت، وتدخل عليه الآفة، والعدو وراءنا من كل جانب، وقد أخذوا جبيـــل... ارجـــع إلى مصر، واحفظ عهد أبيك، وأيضاً فلا تكسر حرمة دمشق، وتطمع فيها أحداً".

اجتمع الأمراء الأيوبيون، وتمت التسوية بين الأخوين الأفضل والعزيز، واستقرت القاعدة على الأمور التالية:

١- يحتفظ الأفضل بدمشق وطبرية، وأعمالها كالغور[4].

٢- يأخذ العزيز بيت المقدس، وما جاورها من أعمال فلسطين[5].

٣- يأخذ الملك الظاهر جبلة واللاذقية[6].

٤- يعطى الملك العادل إقطاعا في مصر.

طيب الملك العادل نفس أبن أخيه الملك العزيز، واستجاب لطلبه، وزوجه احدى بناته[7]، لتمتين أواصر الأسرة الأيوبية، كما أظهر العادل حرصه على وحدة البيـــت الأيوبي، والدفاع عن مصالح المسلمين ضد الصليبيين[8].

---

(١) ابن الأثير، الكامل ٩/٢٣١.
(٢) أبو الفداء، المختصر، ٣/٩١.
(٣) ابن تعري، النجوم،٧/١٢١.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣/ ١؛ ابن تغري، م.س، ٦/١٤٤.
(٥) ابن الأثير، م.س، ٩/٢٣١.
(٦) م.ن. ٩/٢٣٢.
(٧)المقريزي، السلوك، ١/١٤٦.
(٨) ابن تغري بردي، م.س، ٦/١٢١.

عاد الأمراء الأيوبيون كل إلى بلده، ودقت البشائر في القاهرة فرحا بالصلح بين أولاد الناصرية، وزينت الأسواق بمقدم الملك العزيز إلى القاهرة[1]. هم الملك الأفضل بمكاتبة أخيه صاحب مصر لتعزيز أسباب الصلح بينهما، فأثناه خواصه عن ذلك[2]، وعاد إلى التمادي في لهوه، وتشاغل عن أمور الناس، واحتجب عن الرعية، فسمي "الملك النوام"[3]، وفوض الأمر لوزيره ضياء الدين بن الأثير[4].

وازدادت الوحشة بين الأخوين، إذ أبعد الملك الأفضل مجموعة أخرى من رجال والده[5] من بلاطه، كالأمير ميمون القصري، وسنقر الكبير، وعز الدين أيبك وغيرهم، كما فرّ بعض المستشارين والأمراء الذين ساءتهم تصرفات الملك الأفضل إلى مصر[6]، وكان الملك العزيز يرحب بهم، ويستشيرهم، فوجدوا الفرصة المناسبة لبذر بذور الفرقة بين الأخوين، الأفضل والعزيز، بل أوغروا صدر الملك العزيز على أخيه، فقال عز الدين أسامة صاحب كوكب الهوى وعجلون للعزيز[7] "إن الله يسألك عن الرعية، إذ أن الرجل (الأفضل) قد غرق في اللهو والشرب، وتحكم به وزيره الضياء بن الأثير الجزري، وقد أفسد أحوال دولته برأيه الفاسد، وحمل أخاك على مقاطعتك، وحسن له نقض اليمين، فإن من شروطها صفو الوداد، وصحة النية... فاقصد البلاد، فإنها في يدك قبل أن تحصل في الدولة من الفساد ما لا يمكن تلافيه".

وكان الملك العزيز قد كسب ثقة الناس إذ ألغى الضرائب التي كانت تثقل كاهلهم، وبنى المدارس، وخصص الأوقاف للإنفاق عليها، وعلى أعمال البر والخير.

---

(١) المقريزي،السلوك، ١ /١٥٠.

(٢) م.ن.

(٣) ابن تغري، بردى، م.ن، ١٢٢/٦.

(٤) ابن الوردي، تتمة المختصر، ١٦٦/٢.

(٥) المقريزي، م.س، ١٣٧/١.

(٦) ابن الأثير، الكامل، ٢٣٤/٩

(٧) ابن تغري بردي، النجوم، ١٢٣/٦.

شجعت وسوسات الأمراء الملك العزيز على التدخل في شؤون أخيه الملك الأفضل، ومحاصرة دمشق ثانية عام ٥٩١/١١٩٥، فاستنجد الملك الأفضل بعمه الملك العادل، وأخيه الملك الظاهر غازي، فاستجابا له، واتجها إلى دمشق، واستطاع الملك العادل أن يحرض أمراء جيش العزيز عليه، واتفق الجميع على انتزاع مصر من الملك العزيز فعلم الأخير، وعاد منهزما إلى مصر، وتبعه الملك العادل والأفضل إلى بلبيس[١]، فتدخل القاضي الفاضل في الإصلاح بينهم، وتقرر أن[٢]:

- تعود القدس وجميع فلسطين إلى الملك الأفضل.
- يقيم الملك العادل في مصر ويُعْطى إقطاعاً هناك، وكان العادل قد اجتمع سراً بالعزيز، وحفزه على الصمود ووعده بإعادة الأفضل إلى دمشق، حيث يتم عزله.

ب- تآمر الملك العادل على الملك الأفضل:

أقلع الملك الأفضل عن اللعب واللهو عام ٥٩٢/١١٩٦. واتجه إلى الزهد والعبادة، وأظهر التوبة وأزال المنكرات وواظب على الصلاة[٣]، وشرع في نسخ مصحف بيده وأهمل شؤون المملكة، وفوض أمرها إلى وزيره ضياء الدين بن الأثير، فازداد تسلط الأخير واختلت الأحوال من سيء إلى أسوأ، فضج الناس من سوء الحكم وإهمال مصالح الناس، وكثر شاكو الملك الأفضل، وأعلنوا سخطهم عليه[٤].

اطلع الملك العادل على سوء تدبير الملك الأفضل، وقبيح سيرته، فانحرف عنه، ونهاه فلم ينته، وأخذ العادل يظهر في مركز الأحداث أملا في الوصول إلى السلطنة،

---

(١) المقريزي، السلوك، ١/١٣٧.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١/٤٢٠.

(٣) ابن الأثير، م.س، ٩/٢٣١، أبو الفداء، المختصر، ٢/٩١.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ٣/٦١.

كما استمال بعض الأمراء حتى يتمكن من اجتذاب معظمهم، وأخذ يبذل مساعيه لإيقاع النزاع بينهم لتصفية الأمور لصالحه(١).

وجد الملك العزيز أن الفرصة مواتية لعزل أخيه الأفضل ووزيره، واتفق وعمه العادل أن يقصد دمشق لانتزاعها من الملك الأفضل(٢)، وفي عام ١١٩٦/٥٩٢ اتجه الاثنان إلى دمشق، وحاصراها، واستمالا الأمير العزيز بن ابي غالب الحمصي المسؤول عن حماية الباب الشرقي لمدينة دمشق، ففتحه لهما في عصر يوم ٢٧رجب(٣) فدخل الملك العادل وصحبه المدينة(٤)،فيما بقى الملك العزيز في الميدان الأخضر غربي دمشق، فلم يشعر الملك الأفضل إلا وعمه داخل المدينة، فاضطر إلى قبول ما فرضه عمه وأخوه عليه بحيث:

- يأخذ الأفضل صرخد الواقعة شرقي بصرى(٥).
- يملك الملك العادل دمشق وأواسط الشام(٦).
- يتولى الملك العزيز السلطنة، ويذكر اسمه في الخطبة، وينقش على السكة، وتبقى له مصر وبيت المقدس(٧).

خرج الملك الأفضل من دمشق، وأخرج معه وزيره ضياء الدين بن الأثير داخل صندوق خوفا عليه(٨)، ذلك أن الأهالي هموا بقتل الوزير لإساءته إليهم.

---

(١) ابن واصل،مفرج الكروب ١٠٦/٣.

(٢) أبو الفداء، م.س، ٩٧/٢.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٢٣٦/٩.

(٤) ابن واصل، م.س، ٦٢/٣.

(٥) أبو شامة، الروضتين، ٢٣١/٢، ابن الأثير، م.س، ٢٣٩/٩.

(٦)ابن الأثير ا م.س، ٢٣٩/٩.

(٧) المقريزي، السلوك، ١٦٦/١، ابن تغري بردي، النجوم، ١٢٦/٦.

(٨) أبو الفدا، المختصر، ٩٢/٣، ابن وردي، تتمة المختصر، ١٦٧/٢. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ١٨٨/٥.

ثالثاً: تولى الملك العادل السلطنة:

أصبحت دمشق بيد الملك العادل، فكانت هــذه أول خطــوه في وصولــه إلى السلطة وحكم البلاد، فقد "أشاع أنه نائب العزيز[1]" وبرزت شــخصيــة الملــك العادل، وأصبح الحكم بين أولاد أخيه، وكبير الأيوبيين وزعيمهم وصار عليه لم شعث المسلمين، وتعبئة قواهم والتصدي للصليبيين، ولا يتم ذلك إلا بتوليه السلطنة، فــأخذ يعمل للوصول إليها.

أ- تولي الملك الأفضل مصر:

توفى الملك العزيز عثمان صاحب مصر عام ٥٩٥/١٢٩٨ لدى سقوطه عن ظهر جواده[2]، وكان ابنه الأكبر ناصر الدين محمد الملقب بالملك المنصور في العاشرة مــن عمره، فرأى فريق من الأمراء وقادة الجند في مصر أن يتولى الملك الأفضل الوصايــة على ابن أخيه المنصور[3] لضعف شخصية الأول، حتى يتاح لهم التدخل في شــؤون الدولة، واتفق على أن لا يذكر اسم الوصي على العرش في خطبة الجمعــة[4]، ورأى فريق آخر أن يتولى الملك العادل، ولكن الفريق الأول بــادر إلى اســتدعاء الملــك الأفضل.

اتجه الملك الأفضل إلى مصر، ولما وصل إلى بلبيس التقاه العسكر فتنكر منه الأمير فخر الدين جهاركس وفارقه إلى العادل، وتبعــه عدد من العســكر، وســاروا إلى الشام، ولما استقر بالقاهرة كتب إلى عمه الملك العادل يخبره بوصوله إلى مصر حفظــاً لدولة ابن أخيه[5] وأعلمه أنه لا يخرج عما يأمره به عمه[6]، غير أن الملــك الأفضــل

---

(١) أبو شامة، الروضتين، ٢٣١/٢.
(٢) المقريزي: السلوك، ١٧/١. أبو الفداء، م.س، ٩٧/٣.
(٣) أبوشامة، م.س، ٢٣٥/٢.
(٤) م.ن.
(٥) المقريزي: م.س، ١٧٨/١.
(٦)م.ن.

استولى على أمر مصر، و لم يبق للمنصور إلا الاسم، وقبض على بعض الأمراء، وفر آخرون[1].

ب- تحالف الأخوين الأفضل والظاهر ضد العادل:

يبدو أن الملك الظاهر غازي صاحب حلب كان قد أدرك أهداف عمه الملك العادل في إبقاء الخلاف بين أخويه الملك الأفضل والملك العزيز، فقرر معاندة عمه ومحاولة التخلص منه، ولذلك غضب الظاهر غازي على أخيه الأفضل لأنه كتب لعمه أنه وصل مصر، ولن يخرج عن أمره، فكتب إلى الأفضل يقول[2] "أخرج عمنا من بيننا، فإنه لا يجيء علينا منه خير... وأنا أعرف به منك، وأقرب إليه، فإنه عمي كما هو عمك، وأنا زوج ابنته، ولو علمت أنه يريد لنا خيراً لكنت أولى به منك"، وأشار عليه بقصد دمشق وأخذها من عمه العادل، وأن ينتهز الفرصة لانشغال عمه بحصار ماردين.

ارتاح الملك الأفضل لرسالة أخيه السابقة، واتفق الأخوان على القضاء على سيادة عمهما الملك العادل[3] وتعاون معهما أسد الدين شيركوه بن محمد صاحب حمص، واغتنم الأفضل بُعد عمهما عن دمشق، وانشغاله في محاصرة ماردين، فسار بعساكر مصر إلى الشام، بعد ما استناب بمصر الأمير سيف الدين أزكش، وحاصر دمشق، وسرعان ما وصلت عساكر حلب لدعم جند مصر، فضيقوا الخناق على المدينة، ولكنهم لم يحاولوا اقتحامها، وعندما علم الملك العادل بالأمر، ترك ابنه الملك الكامل على حصار ماردين، واندفع مسرعا إلى دمشق، وأخذ يبذر بذور الشك والخوف بين الأخوين، فأرسل إلى الملك الظاهر غازي، وقال له[4] "أنا أسلم إليك

---

(١) المقريزي، السلوك، ١٧٩/١.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٢٤٣/٩، ابن تغري بردي، النجوم، ١٤٧/٦.

(٣) أبو الفداء، المختصر، ٩٧/٣.

(٤) المقريزي، م.س، ١٨١/١.

دمشق، وأنت السلطان" فطمع الظاهر، واختلف الأخوان، ورحل الملك الأفضل إلى مصر(١) والظاهر إلى حلب بعد ما حرقوا ما عجزوا عن حمله.

جـ- عزل الملك الأفضل:

طارد الملك العادل ابن أخيه الأفضل، وهزمه في بلبيس(٢) فدخل الأفضل القاهرة وأغلق أبوابها(٣)، إلا أن الجند انفضوا من حوله، فاستسلم لعمه العادل، عام ٥٩٦/١٢٠٠ وتنازل عن مصر لعمه، ووافق أن يملك ميافارقين(٤)، ورأس العين وسروج وسميساط(٥).

وأصبح الملك العادل أتابكا لابن الملك العزيز(٦)، ولكنه بعد مدة قصيرة أحضر الأمراء، وقال لهم(٧) "أنه قبيح بي أن أكون أتابك صبي مع الشيخوخة والتقدم، والملك ليس بالإرث، إنما هو لمن غلب أنه كان يجب أن أكون بعد أخي الناصر صلاح الدين، غير أني تركت ذلك إكراماً لأخي، ورعاية لحقه، فلما كان من الاختلاف ما علمتم، خفت أن يخرج الملك عن يدي، ويد أولاد أخي، فسست الأمر إلى آخره، فما رأيت الحال ينصلح إلا بقيامي فيه، ونهوضي بأعبائه"؛ واستفتى العلماء والفقهاء الموالين له بالصورة الآتية(٨) "هل تجوز ولاية الصغير على الكبير؟ فقالوا لا، لأن الولاية من الأصل إذا كانت غير صحيحة، فكيف تصح النيابة؟" ... وعندئذ قطع خطبة

---

(١) المقريزي، السلوك، ٨١/١.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٢٤٩/٩.

(٣) المقريزي، م.س، ٨٢/١.

(٤) أبو الفدا، المختصر، ٩٨/٣.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٥٦/٤.

(٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٤٩/٦.

(٧) المقريزي، م.س، ١٨٣/١.

(٨) م.ن.

المنصور وخطب لنفسه سلطانا على مصر والشام[1]، ولابنه الملك الكامل ولياً للعهد، وسلطاناً من بعده.

وكان من الممكن أن يفهم قول العادل على أنه مناداة بمبدأ جديد من مبادئ السيادة يعارض نظام الحكم الوراثي، ولكنه لم يناد بهذا الرأي إلا لخدمة مصالحه الخاصة، بدليل أنه جعل الحكم وراثيا من بعده في أبنائه.

د- إعادة توحيد الدولة الأيوبية:

أصبح الملك العادل زعيم الأيوبيين، وصار سلطان البلاد جميعها[2] وبيده ملك مصر، وبيت المقدس، ودمشق فضلا عن أملاكه في الجزيرة[3]، ووقع على كاهله مسؤولية القيام بالحكم، ومواجهة الخطر الصليبي المتنامي، بل أصبح يسير الأمور وفق هواه ومشيئته[4].

وخطب للملك العادل أبي بكر بن أيوب بالقاهرة يوم الجمعة ٢١ من شوال ١١٩٩/٥٩٦. وبهذا نظم الملك العادل دولته فقسم البلاد بين ابنائه، فأناب عنه ابنه الملك الكامل في حكم مصر، وولى ابنه الملك المعظم عيسى ملك دمشق، وأعطى ابنه الأشرف موسى حران، وخلاط والرها، ومنح ابنه الفائز المنطقة الشرقية، وابنه الأوحد ميافارقين، واحتفظ لنفسه بالإشراف التام على جميع أنحاء الدولة[5]، وصار العمدة في كل الممالك[6] يتنقل في ممالك أولاده، ، وهكذا أعيد توحيد الجبهة الإسلامية أمام الصليبيين، وحكمها رجل قوي هو الملك العادل[7].

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٦٦/٤.
(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٦٠/٦.
(٣) م.ن، ١٧٩/١.
(٤) ابن الأثير، الكامل، ٢٤٣/٩، ابن تغردي، م.س، ١٤٧/٦.
(٥) أبو الفدا، المختصر، ٩٧/٣.
(٦) المقريزي، السلوك، ١٨١/١.
(٧) م.ن.

هـ- فشل تحالف الأفضل والظاهر ضد الملك العادل:

اتفق الأخوان الملك الأفضل والظاهر غازي ثانية على محاربة الملك العادل وانتزاع دمشق[1]، وساعدهما في ذلك الأمراء الصلاحية[2]، وبخاصة الأمير فخر الدين جركش، والأمير سنقر لغضبهما من عزل الملك المنصور. وحاصر المتحالفون دمشق مدة شهرين عام ٥٩٨/١١٠١ وكان بها الملك المعظم عيسى، فأسرع الملك العادل قادما من مصر وأقام في نابلس[3] وبعث من هناك قوة لدعم ابنه المعظم، وبذا فشل الأخوان في اقتحام المدينة، كما نجح الملك العادل في الإيقاع بين الأخوين، فرفعا الحصار عام ٥٩٨/١٢٠١، وسار الأفضل إلى حمص وانتزع الملك العادل سروج منه[4]، وتقدم الملك العادل إلى دمشق، ثم اتجه إلى حماة، وتظاهر أنه ينوي المسير إلى حلب، فخاف الظاهر، واستعد للحصار، وراسل عمه، ولاطفه وأهدى إليه، ووقعت بينهما مراسلات أدت إلى الاتفاق بينهما، وانتظم الصلح على أن:

- يكون للعادل مصر ودمشق وبيت المقدس وجميع ما بيده ويد أولاده.
- يكون للظاهر حلب وأعمالها.
- يكون للمنصور حماة وأعمالها.
- يعطى الأفضل سميساط[5].
- اتفق الجميع على أن يكون الملك العادل سلطان البلاد جميعها، وحلفوا على ذلك، وخطب للعادل في حلب عام ٥٩٨/١٢٠١[6]، واسترضى الملك الظاهر

---

(١)أبو الفداء، المختصر. ٩٣/٣.

(٢) الأمراء الصلاحية هم مماليك السلطان صلاح الدين، ابن الأثير، م.س، ٢٥٨/٩.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٢٠/٣.

(٤)سروح بين حران ونصيبين في الجزيرة، ياقوت، معجم البلدان، ٧٣١/٢.

(٥)سميساط بلدة قرب حران، ياقوت، م.ن، ٢٥٨/٣.

(٦) أبو شامة، الروضتين، ٢٣٦/٢.

غازي عمه، واعتذر إليه، فقبل عذره وسامحه، وأبقاه في حلب[1]. على أن يكون ٥٠٠ فارس من عسكر حلب في خدمة الملك العادل.

وفي عام ١٢٠٢/٥٩٩ أخرج الملك العادل الملك المنصور من مصر، ونفاه مع إخوته وامهم إلى الرها، لكي يباعد بينه وبين المماليك الصلاحية الذين استمروا في ولائهم له.

رابعاً: الصراع بين الملك العادل والصليبيين:

سئم ريتشارد قلب الأسد القتال في فلسطين، واضطر إلى عقد صلح الرملة مع صلاح الدين دون أن تحقق الحملة الصليبية الثالثة هدفها في استرداد بيت المقدس، ولكنها نجحت في استرداد ساحل مملكة بيت المقدس الصليبية بما فيه حيفا وعكا ويافا وأرسوف وقيساريه، وبذلك حافظت على وجود قاعدة لها في عكا تستطيع منها تهديد بيت المقدس بين الحين والآخر، ومع أن القدس نفسها بقيت في يد المسلمين، إلا أن الصليبيين استمروا بالمحافظة على اسم مملكة بيت المقدس، مما يدل على تصميمهم على استعادة المدينة المقدسة، وكان أول من حكم هذه المملكة في عهدها الجديد هنري دي شامبني (Henry of Champagne) ابن أخت الملك الانجليزي ريتشارد قلب الأسد، والزوج الثالث للملكة إيزابيلا وريثة مملكة بيت المقدس (Isabel).

أ- فشل استرداد بيت المقدس:

تطلع الصليبيون إلى استرداد بيت المقدس بعد وفاة صلاح الدين، وقد شجعهم على ذلك النزاع بين ورثة صلاح الدين وانقسام كلمتهم، بالإضافة إلى قرب انتهاء الهدنة التي عقدها صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد.

---

(١) المقريزي، السلوك، ١٩٢/١.

وقد أعطت المنازعات الفرصة إلى هنري دي شامبني ملك بيت المقدس في عكا عام ١١٩٢-١١٩٧م أن يعيد قدراً من الأمن والطمأنينة إلى مملكته ، كما أغرت الامبراطور هنري السادس (Henry) امبراطور ألمانيا للعمل لإعداد حملة على بيت المقدس لاستعادتها، وتحقيق أطماعه في الشرق، فأعد حملة صليبية بقيادة كونراد (Conrad) رئيس أساقفة ميتز (Maitz)، وقد وصلت طلائع هذه الحملة عكا عام ١١٩٧/٥٩٣[١]، و لم يرحب الملك هنري دي شامبني بهذه الحملة بعض الوقت، إذ أمر الملك هنري رجاله باستخدام القوة ضد الصليبيين[٢]، بينما أخذ الألمان يعتدون على الأراضي الإسلامية، فقتلوا بعض المسلمين في أطراف بيت المقدس، وأسروا العديد من الرجال، وغنموا شيئاً كثيراً[٣]، ثم أغاروا على الخليل[٤]. طلب الملك العادل النجدة من مختلف المناطق الإسلامية، وتصدى للألمان قرب عكا[٥]، وسرعان ما دعم الملك هنري دي شامبني الألمان والتقى وقوات المسلمين في معركة حاسمة عند تل عجول قرب غزة، فانتصر المسلمون وأسروا جماعة صليبية[٦]، وملكوا غنائم كثيرة[٧]، وتابع الملك العادل تقدمه ففتح يافا[٨] ثم سار إلى صيدا وبيروت وخربهما[٩]، وأثناء ذلك توفى الملك هنري دي شامبني عام ١١٩٨/٥٩٤[١٠].

---

(١) Eracles, Recueil des Historiens des croisades. H. occ. Vol.٢. p,٢١١.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ٨٨٠/٢.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ٧٤/٣.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ٨٩/٩.

(٥) أبو شامة، الروضتين، ٢٣٣/٢.

(٦) ابن واصل، م.س، أبو شامة، م.س، ٢٣٥/٢

(٧) ابن واصل، م.س، ابو شامة، م.س، ٢٣٥/٢.

(٨)المقريزي، السلوك، ١٧١/١.

(٩) ابن الأثير، م.س.

(١٠) Eracles, Recueil des Historiens des croisades. H. occ. Vol.٢,p. ٢٢٠.

تزوج الملك عموري (Guy) لوزجنان (ملك قبرص) الملكة ايزابيلا لملء عـــرش مملكة بيت المقدس، وبذلك أصبح عموري ملكــاً لقــبرص وبيــت المقــدس في آن واحد[1]، فدعم القوات الصليبية في الشام، ووجـــه حملة إلى بيروت تمكنـــت مـــن احتلالها عام ٥٩٤/١١٩٨ بعد ما هرب صاحبها عز الدين أسامة وجميع من معــه[2]، فخسر المسلمون قاعدة بحرية هامة كانت تهدد خطوط مواصلات الصليبيين بين عكــا وطرابلس[3] ، وحاول أمير أنطاكية بوهمند (Bohmond) استغلال الموقف، فزحـــف علي جبلة واللاذقية لاحتلالهما، ولكن الملك الظاهر صاحب حلب كان له بالمرصــاد، فعاد من حيث أتى.

تطلع الألمان إلى التقدم نحو بيت المقدس بعد فتحهم بيروت فحـــاصروا حصـــن تبنين، لكن المسلمين قاتلوا قتال من يحمي نفسه[4]، وسرعان ما تقاطرت الامـــدادات تحت قيادة الملك العزيز من مصر عام ٥٩٤/١١٩٨[5]،وكان قد انتشر خـــبر وفـــاة الامبراطور الألماني قبل وصوله الديار المقدسة، فضعف حماس الألمـــان، وأخـــذوا في الرحيل إلى صور فتابعهم المسلمون يأسرون ويقتلون[6].

فشِل الألمان في حملتهم، فأدرك عموري انه ليس بمقدوره مواجهـــة المســـلمين لوحده في بلاد الشام، لذلك تطلع إلى السلام مع الملك العادل، وكان العادل أيضـــاً راغباً في الصلح لانشغاله في تثبيت دعائم ملكه، والقضاء على مشـــاكله الداخليـــة، ويبدو أن المحادثات التي أجراها مع الملك ريتشارد قلب الأســـد أثـــرت في نظرتـــه

---

(١)سعيد عاشور، مصر والشام، ١٣٤.

(٢) ابن الأثير الكامل، ٢٣٧/٩.

(٣) Grousset, Histoire de Croisades p. ١٥٧

(٤) ابن الأثير، م.س، ٢٣٨/٩.

(٥) أبو شامة الروضتين، ٢٣٣/٢، أبو الفدا، المختصر، ٩٥/٣.

(٦) ابن واصل، مفرج الكروب، ٧٦/٣.

للعلاقات مع الصليبيين، فمال إلى تسوية الأمور معهم بالحوار من اجل بناء علاقات سلمية سليمة[1].

ترددت الرسل بين الملك العادل والملك عموري في الصلح، وسرعان ما انتظم بينهما في عام ٥٩٤/١١٩٨ على ما يلي:

- يستمر الصلح لمدة ثلاث سنوات[2].
- إحياء بنود صلح الرملة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد[3]، الذي عقد عام ٥٨٩/١١٩٣.
- احتفاظ الصليبيين بمدينتي جبيل وبيروت.
- اقتسام صيدا مناصفة بين الطرفين.

ب- فشل الحملة الصليبية الرابعة:

نظر الصليبيون إلى محاولات الملك العادل توحيد الجبهة الإسلامية، والتوفيق بين أبناء أخيه صلاح الدين بعين القلق فتطلعوا إلى احتلال مصر، لأنها مركز القوة الحقيقية لكثرة سكانها، ووفرة مواردها[4]، ثم المسير إلى بلاد الشام لاستعادة بيت المقدس.

بدأ الإعداد للحملة عام ٥٩٦/١١٩٩، وقد تولى البابا أنوسنت الثالث (Innocent) الإعداد لها[5]، إذ كان حريصاً على تأكيد المكانة القيادية للبابوية، فدعا كلاً من فرنسا وانجلترا وألمانيا إلى المشاركة في الحملة، ونجح في القيام بنشاط

---

(١) م.ن.

(٢) Stevenson, The Crusaders in East, ٢٩٤.

(٣) ابن واصل، مفرج ٧٨/٣، المقريزي، السلوك، ١٤١/١.

(٤) م.ن. ١٩٦/١.

(٥) Grousset, Historiedes Croisades P.٣/١٧١.

دعائي ضخم، فاستجاب عدد كبير من شعوب هذه الدول، ولا سيما الفرنسيون، حتى أنها تكاد تعد حملة فرنسية[1]، وكانت أهم مشكلة للحملة هو توفير السفن التي تحتاج إليها. ذلك أن مهاجمة مصر لا بد أن تتم عن طريق البحر، لأن سوريا كانت بأيدي المسلمين[2].

اجتمعت الحملة في البندقية، وبدأت المفاوضات مع الحكام لإعداد السفن وتموين الحملة، فيما كانوا يتفاوضون مع الملك العادل، لعقد معاهدة تجارية نالت البندقية بمقتضاها ميزات كبيرة في مصر[3]، اتفق زعماء الحملة مع البندقية على نقل المشاركين فيها مقابل ٨٥ ألف مارك[4]، واستيلاء البندقية على نصف الأراضي التي يفتحها الصليبيون[5]، غير أن قادة الحملة عجزوا عن دفع الأجور، فاستغل دوق البندقية الموقف، واقنع قادة ا لحملة باحتلال مدينة زارا[6] وانتزاعها من المجريين مقابل إعفاء الحملة من أجور النقل، وبذلك نجح بتحويل الحملة لاحتلال القسطنطينية.

وقد علل المؤرخون أسباب انحراف الحملة عن هدفها بما يلي:

- التنافس السياسي والتجاري بين البندقية والصليبيين، إذ كانت البندقية تخشى على مصالحها التجارية مع مصر في حالة نجاح أهداف الحملة، واحتلال مصر.
- رغبة البندقية في الحصول على مزيد من الامتيازات التجارية في المشرق، وبخاصة بعد فقدانها بعض هذه الامتيازات إثر تخريب حي جالية البندقية في القسطنطينية[7].

---

(١)آرنست باركر، الحروب الصليبية، ٩٦.

(٢) م.ن.

(٣) فايد عاشور، العلاقة بين البندقية والشرق، ١٣٣.

(٤) Runciman, A History of Crusades. P ٣/١١٤.

(٥) م.ن.

(٦) تقع زارا على ساحل دلماشيا وهي ميناء على بحر الادرياتيك وكانت قد ثارت على البندقية وانضمت إلى ملك المجر، فايد عاشور، م.س. ١٣٣، ، ادعى البنادقة أن المجريين انتزعوها منهم (باركر ١٠٠).

(٧) ابن الأثير، الكامل، ٢٦٩/٩، باركر، الحروب الصليبية، ٩٨.

- الحقد الذي يكنه الصليبيون للدولة البيزنطية لعدم مساعدتهم اثناء الحمـــلات السابقة على بلاد الشام[1]، وكانت قد جرت دعاية تدعي أن بيزنطه ظلـــت باستمرار خائنة العالم المسيحي، ويجب أن تجبر لدعم الحملة علـــى مصـــر، فأرضى ذلك مطامع بعض القادة الذين تطلعوا لاستباحة كنـــــوز بيزنطـــة وأقاليمها.
- رغبة البابا في السيطرة على الموقف بعد إسقاط الكنيسة الشرقية.
- عجز الصليبيين عن جمع أجور نقل الحملة إلى مصر جعلهم تحت ســــيطرة البنادقة إلى حد كبير.

احتل الصليبيون القسطنطينية عام ٦٠١/١٢٠٤، وأصبح بلدوين Baldwin أمير الفلاندرز أول أباطرة اللاتين، وفازت البندقية بنصيبها، فقد ضـــم دوق البندقيـــة إلى دولته ٣/٨ أملاك الامبراطورية البيزنطية[2]، وأصبح أحد البنادقة توماس ماروســـيني بطريركاً.

"أساء الصليبيون لأهالي القسطنطينية، فقتلوا أعداداً كبيرة من الرجال والنســـاء والأطفال، ونهبوا بعض ما وقع بأيديهم حتى من الكنائس[3]، إلا أن البيزنطيين تمكنـــوا من طرد الصليبيين بعد حوالي ستين عاماً[4]"[5].

---

(١) Runciman, op, cit, p.٣L١١٦.

(٢) آرنست، باركر، الحروب الصليبية، ١١٣.

(٣) أبو شامة، ذيل الروضتين، ٥٢.

(٤) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢/١٨٣.

(٥) قام الإمبراطور الكسيوس بانقلاب ضد الامبراطور اسحق كومنيوس عام ١١٩٥، وهرب ابـــن اســـحق إلى أوربا، فاحتل الصليبيون القسطنطينية عام ١٢٠٤، وأباحوا المدينة، وعين كونت فلاندرز امبراطورا في كنيسة أيا صوفيا، وتوماس ماروسيني البندقي الجنسية بطرقاً للقسطنطينية. ابن الوردي ، تتمة المختصـــــر ٣/١٠٥، عاشور، ١٣٨.

ويعتقد بعض المؤرخين أن الحملة الصليبية الرابعة جاءت باكورة فشل الحركة الصليبية بأكملها[1]، إذ طغت المصالح الاقتصادية لدول أوروبا، وأصبحت التجارة هي المكانة الأولى في تفكير الصليبيين، كما جعلت الطريق البري إلى الشام عبر القسطنطينية وآسيا الصغرى أشد خطورة على الصليبيين[2].

جـ- الغارات المتبادلة بين المسلمين والصليبيين:

لم تفتر همة الصليبيين في الاندفاع نحو الشرق لانتزاع بيت المقدس من المسلمين، بل استمرت الجماعات الأوروبية تندفع نحو الشام لقتال المسلمين، ففي عام ١٢٠٢/٥٩٩ وصل إلى عكا حوالي ٣٠٠ فارس من الفلمنكيين، ثم لحقت بهم مجموعات صغيرة من الفرنسيين[3]، وحاولوا مهاجمة المسلمين وارهابهم، إلا أن الملك عموري حاول تهدئتهم، وأشار بالتريث إلى أن تظهر نتائج الحملة الصليبية الرابعة، ولكنهم اتجهوا إلى اللاذقية وجبلة، فتصدى لهم الملك المنصور صاحب حماة، وأنزل بهم هزيمة شديدة قرب اللاذقية، وقتل عدداً منهم، وأسر عدداً آخر نقلهم إلى مدينة حماة[4].

وكان يتزعم الغارات فرسان الاسبتارية في كل من حصن الأكراد وحصن بيوين بين حمص والساحل، ولكنهم هزموا مما اضطرهم إلى توقيع الهدنة مع المسلمين[5]، وفي عام ١٢٠٣/٦٠٠ اجتمع الفرنج لقصد القدس، فخرج الملك العادل من دمشق، وجمع العساكر، ونزل على الطور مقابلاً لهم[6]، ولكن الطرفين لم يشتبكا.

---

(١) Grousset, Histoire des croisades, p.٣/١٧٥.

(٢) Runciman, Ahistory of the Crusades, P.٣/١٣٩.

(٣) Stevenson. the Crusaders in the East, P.٢٩٦.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٤٣/٣، المقريزي، السلوك، ١٩٤/١.

(٥) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ٥١.

(٦) أبو الفدا، المختصر، ١٠٥/٣.

وفي عام ١٢٠٤/٦٠١ خرج اسطول عموري إلى مصر، وعبر النيل من جهـــة الرشيد وتوغل حتى وصل لمدينة فوه، وأقام خمسة أيام ينهب ويسبي دون أن يتمكـــن المسلمون من مقاومته لعدم وجود أسطولهم في المنطقة[١]، وقام أحد أعوان العـــادل، وكان يحكم قلعة صيدا فهاجم بعض السفن في البحر وأسر سفينتين للصليبيين عـــام ١٢٠٤/٦٠١ قرب قبرص، فاحتج عموري الثاني[٢]، ولكن شـــكواه لم تحـــد مـــن هجمات أسطول المسلمين، فتربص الملك عموري الثاني بقافلة من السفن الإســـلامية قادمة من مصر إلى الشام، واستولى على ما فيها من بضائع، واسر بحارتهـــا[٣]، كمـــا استعان بفرسان الداوية والاسبتارية. وأغار على الجليل فوصل إلى كفر كنا، بل أنـــه عزم على قصد بيت المقدس، وانتزاعها[٤]، وسرعان مـــا اســـتدعى الملـــك العـــادل العساكر، ورابط جنوبي كفر كنا لمراقبة حركة الصليبيين، واستمر الحال كذلك بضعة أشهر[٥]، ولكن الملك العادل رفض طلب أمرائه الانقضاض على الصليبيين[٦] ويبـــدو أن العادل رأى ألا ينهك قواته في مناوشات محلية، بينما هنـــاك حملـــة (الرابعـــة) في طريقها إلى بلاد المسلمين، ولذلك "أظهر قـــدراً كبيراً من السياســـة والـــتريث، ولم يغامر في حرب جدية مع الفرنج، وقد شجعت هذه السياسة الملك عموري الثـــاني أن يحترم الصلح مع المسلمين، وعدم المبادأة بعدوان كبير ضدهم قبل وصـــول الحملـــة الرابعة، مع التأهب المستمر لرد أي عدوان من قبل المســـلمين، والقيـــام بمظـــاهرات عدوانية بين الحين والآخر لإرضاء الطموحات المحلية للصليبيين، وتخويف المسلمين[٧]".

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ٢٥٦/٩.

(٢) Grousset, Histoire des Croisades P.٣/١٨٤.

(٣) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ١٢.

(٤) ابن الأثير، م.س، ٢٦٥/٩.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٥٩/٣، المقريزي، السلوك، ١٩٦/١.

(٦) ابن واصل، م.س، ابن الأثير، م.س.

(٧) سعيد عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين، ٧٢.

عندما تيقن عموري الثاني من انحراف الحملة الصليبية إلى القسطنطينية، وفقـــد الأمل في تقدمها نحو الشام أو مصر بادر إلى طلب هدنة مع الملك العادل، فوجد هـــذا الطلب قبولاً لدى الأخير، إذ كان حريصاً على التعامل مع الصليبيين بعقلية متفتحـــة، وبروح التسامح الديني، والمصالح التجارية المشتركة[١].

وتم عقد معاهدة بين الطرفين عام ١٢٠٤/٦٠١، تنازل فيها الملك العادل عـــن يافا[٢] ومناصفات اللد والرملة وصيدا[٣] بالإضافة إلى الناصرة[٤].

غير أن الغارات المتبادلة استمرت، فحاول فرسان الاسبتارية الاعتداء على حصن بعرين، فتصدى لهم صاحب حماة، ولكنهم أعادوا الكرة وهاجموا مدينة حماة نفســـها، فانبرى لهم الملك المنصور وطردهم[٥] ولولا صموده لقضوا على سكان المنطقة، ممـــا اضطر الطرفين إلى عقد هدنة[٦].

وفي عام ١٢٠٤/٦٠١، أغار الصليبيون على حمص، فقتلوا وأســـروا[٧]، كمـــا هاجموا ضواحي اللاذقية، وقتلوا بعض المسلمين، وغنموا[٨]، ولما اشـــتدت غـــارات الفرنج على اللاذقية أرسل صاحب حلب حملة قوية على حصن المرقب، فحـــاصرت الحصن، وهدمت برجه، وأسرت، وعادت بالغنائم[٩].

---

(١) Grousset, Histoire des Croisades, ٣/١٨٤.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٠٥/٣.

(٣) أبو الفدا، المختصر، ١٠٦/٣، ابن الوردي، تتمة المختصر، ١٨٣/٢.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ٢٦٥/٩.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم، ١٨٧/٦، ابن العماد، شذرات الذهب، ١/٥.

(٦) أبو الفدا، م.س، ١٠٦/٣.

(٧) المقريزي، السلوك، ١٩٧/١.

(٨) م.ن.

(٩) ابن واصل، م.س ١٦٥/٣.

د- وفاة الملك عموري الثاني:

توفي الملك عموري الثاني عام ٦٠٢/١٢٠٥، فعاد العرش إلى الملكة إيزابيلا ثم إلى كبرى بناتها "الأميرة ماري" من هنري دي شامبني، وكانت في الرابعة عشرة من عمرها، فتولى حاكم بيروت جان دي برين الوصاية على وريثة عرش مملكة بيت المقدس لخمس سنوات، ومرت هذه المرحلة بهدوء إلى حد ما، وإن كان قد تخللها بعض المناوشات.

قام فرسان الاسبتارية عام ٦٠٣/١٢٠٦ بالإغارة على حمص، ووصلوا إلى أسوار المدينة[١]. فأرسل صاحب حلب مدداً للدفاع عن المدينة، فانسحب المعتدون، وفي ٦٠٤/١٢٠٧ استولى قراصنة قبرص على عدد من السفن الإسلامية، فغضب الملك العادل، واحتج لدى ملك بيت المقدس جان دي ابلين. فأعاد الأسرى[٢]، وانتهى الإشكال.

حاول العادل إرهاب الاسبتارية عام ٦٠٤/١٢٠٧، فحشد قواته، وخيم فيها قرب مدينة حمص، عند بحيرة قدس[٣]، ثم حاصر القليعات، وأخذها صلحاً[٤]، وأطلق صاحبها[٥] وتقدم نحو طرابلس، فصالحه صاحبها بوهمند الرابع[٦] على أن يطلق أسرى المسلمين[٧]، وكان قد قصد حصن الأكراد بعد ما دعمه أمراء الجزيرة الفراتية بالجند[٨]، فأسر حوالي ٥٠٠ صليبي، وغنم الشيء الكثير[٩]، واتجه بعد ذلك إلى

(١) ابن تغردي، النجوم الزاهرة، ١٩٦/٦.
(٢) ابن الأثير، الكامل، ٢٩٧/٩.
(٣) ابن تغري بردي، م.س، ١٩٦/٦، ابن واصل، مفرج الكروب، ١٧٢/٣.
(٤) ابن الأثير، م.س.
(٥) ابن الأثير، م ن، ٢٩٧/٩
(٦) أبو الفدا، المختصر، ١٠٨/٣.
(٧) المقريزي، السلوك، ١٩٩/١.
(٨) ابن واصل، م.س، ١٧٣/٣.
(٩) أبو الفدا، م.س، ١٧٣/٣.

برج أعناز إلى الجنوب الشرقي من حصن الأكراد، وأسر حاميته، وغنم منه الأموال والسلاح(١).

وفي عام ٦٠٧/١٢١٠ بلغت الأميرة ماري (Maria) سن الرشد، فاختار ملك فرنسا فليب عريساً لها جان دي برين (Jeaune de Brienne) وكان في الستين من عمره، وتزوجا وتوج جان ملكاً على مملكة بيت المقدس في كاتدرائية صور.

انتهت الهدنة بين الملك العادل والفرنج عام ٦٠٧/١٢١٠ فطلب تجديدها، فلم يوافق فرسان الداوية، فقامت مناوشات بين الطرفين، وفزع الفرنج عندما رأوا العادل يبني قلعة الداروم، وقلعة الطور التي تشرف على عكا، فوافق الملك جان دي برين على تجديد الهدنة لست سنوات عمل خلالها على تصفية مشاكل الصليبيين الداخلية، في الوقت الذي كان يعد لغزو مصر، إذ أرسل إلى روما يطلب إعداد حملة تصل إلى الشرق عند انتهاء الهدنة.

ويبدو أن هذه الهدنة لم ترق لعامة المسلمين في بلاد الشام، فقد انتقد كثير من الناس سياسة العادل السلمية، وتجمع عشرات الألوف من المسلمين في مدن بلاد الشام، ولا سيما في دمشق ونابلس(٢) تطالب بالجهاد في سبيل الله، وتدعو الملك العادل إلى الاستمرار في الجهاد حتى أن امرأة مسلمة قصت شعر رأسها وأرسلته للملك العادل، وقالت له "اجعله قيداً لفرسك في سبيل الله، كما قص الناس شعرهم وعملوا منه ٣٠٠ شكال، ثم قصدوا نابلس، فقتلوا وأسروا(٣).

---

(١) م.ن.

(٢) أبو شامة، ذيل الروضتين، ٦٩.

(٣) م.ن، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ١٨/٥.

هـ- الحملة الهنجارية:

أثارت نهاية حملة الأطفال شعور البابا أنوسنت الثالث فدعا إلى حملة صليبية، قال أنه سيشارك فيها[1]، وقد استجاب لها الهنجاريون والألمان، وقاد الحملة ملك هنجاريا أندريه (Andrew of Hungary) ودوق النمسا ليوبولد (Leopold) وشارك فيها هيو (Hugh of Cuyprus) وبوهمند (Bohemond of Tripolis).

ووصلوا عام ١٢١٧/٦١٤ إلى بلاد الشام وعزموا على أخذ بيت المقدس، وسائر بلاد الشام بعدما نقضوا الصلح، فخرج العادل بعساكره من مصر وسار بهم إلى اللد، فتقدم الفرنج من عكا في حشود كبيرة إلى إقليم الجليل، فاتجه الملك العادل إلى منطقة بيسان لمواجهتهم[2]، وكان جيشه قليل العدد نسبياً، فقال له ابنه المعظم إلى اين؟ فسبه العادل بالأعجمية، وقال "بمن أقاتل"[3] ولكنّ الصليبيين، سبقوه إلى بيسان[4]، فنهبوها وسائر أعمالها وبذلوا في أهلها السيف وغنموا ما يجل وصفه.

تضايق أهالي بيسان من الملك العادل لأنه خشي مواجهة الصليبيين، وقصد مرج الصفر قرب دمشق[5]، وخيب أملهم في الدفاع عن المنطقة، ففر الناس تاركين البلاد، والغلال والمواشي لتسقط في يد الصليبيين دون قتال[6].

وعندما نزل الملك العادل بمرج الصفر رأى في طريقه رجلاً مسنا يحمل بعض الأمتعة يمشي تارة ويستريح تارة أخرى، فقال له "يا شيخ لا تعجل، أرفق بنفسك" فقال له الشيخ" يا سلطان المسلمين إذا رأيناك سرت من بلادك، وتركتنا مع الأعداء،

---

(١) Grousset, Histoire de Goisades, p. ٣/٣٨٩.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٣١٤/٩، أبو شامة، ذيل الروضتين ١٠٢.

(٣) المقريزي، السلوك ١/٢٢١.

(٤) أبو شامة، م.س، ١٠٢.

(٥) ابن واصل، م.س، ٢٥٥/٣.

(٦) أبو شامة، م.س، ١١٦،

كيف لا نعجل؟"[1] استقر العادل بمرج الصفر، وكتب بتحصين دمشق، ونقل الغلات من داريا إلى القلعة.

تابع الصليبيون تقدمهم حتى وصلوا نوى[2]، وحاصروا بانياس ثلاثة أيام، ثم انسحبوا عائدين إلى عكا يحملون ما لا يحصى من الغنائم والسبي سوى ما قتلوا وأحرقوا وأهلكوا[3]، وعندما استقر العادل بمرج الصفر طلب الإمدادات، فوصله أسد الدين شيركوه صاحب حمص، كما تقاطرت الإمدادات الإسلامية[4]، فارتفعت معنويات المسلمين، وجهز الملك العادل ابنه الملك المعظم بطائفة من العسكر إلى نابلس كي يمنع الفرنج من بيت المقدس.

عاد الصليبيون للاعتداء على المسلمين، فنازلوا قلعة الطور، وجدوا في قتالها، وأشرفوا على أخذها، إلا أنهم انصرفوا عنها بعد ما أقاموا على حصارها ١٧ يوماً، وعادوا إلى عكا[5]، ثم قاموا بغارات على مرج عيون، وشقيف أرنون، وصيدا، ولكنهم فشلوا، وعانوا كثيراً من صعوبة مسالك جبال لبنان، فعادوا إلى عكا، ومن ثم عاد ملك هنجاريا إلى بلاده عام ١٢١٨/٦١٥.

وعندما عاد الملك الهنجاري إلى بلاده أمر الملك العادل بهدم قلعة جبل الطور[6] واستدعى ابنه الملك المعظم، وقال له[7] "قد بنيت هذه القلعة، وقد تكون سبباً لخراب الشام، وقد سلم الله من كان فيها من أبطال المسلمين.. وأرى من المصلحة خرابة ليتوفر من فيه من المسلمين، والعمل على حفظ على دمياط، وأنا

---

(١) ابن الأثير الكامل ٣١٥/٩.

(٢) أبو الفدا، المختصر.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٥٥/٣.

(٤) أبو شامة، ذيل الروضتين، ٢ [illegible]؛ المقريزي، السلوك، ٢٢١/١

(٥) ابن واصل، م.س، ٢٥٧/٣.

(٦) ابن الأثير، م.س، ٣١٥/٩.

(٧) أبو شامة، م.س، ١٠٩.

أعوضك". فتوقف الملك المعظم، وبقي أياماً لا يدخل إلى أبيه العادل، فبعث إليه العادل ثانياً، وأرضاه بالمال[1]، ووعده ببلاد في مصر، فأجاب المعظم.

ومما سبق نلاحظ أن الملك العادل استطاع توحيد الدولة الأيوبية ثانية، واتخذ موقفاً دفاعياً للتصدي لهجمات القوات الصليبية، والحد من زحفها كلما أمكن ذلك، و لم يحاول أخذ زمام المبادرة ومهاجمة الصليبيين ومحاولة تصفيتهم كما كان يفعل صلاح الدين، إذ كان[2] "كثير السياسة صاحب معرفة بدقائق الأمور، قد حنكته التجارب،... فنجحت تدبيراته، وكان لا يرى محاربة أعدائه، ويستعمل في مقاصده المكايد والخدع، فهادنته الفرنج... لشدة يقظته وغزارة عقله...".

لقد تميز حكم الملك العادل بثلاث مهادنات مع الصليبيين غطت معظم المدة التي انفرد فيها بالحكم، (ولكنها لم تخل من الاشتباكات) وهي:

٥٩٥/١١٩٨ - ٦٠١/١٢٠٤

٦٠١/١٢٠٤ - ٦٠٧/١٢١٠

٦٠٨/١٢١٠ - ٦١٤/١٢١٧

ومع ذلك فقد ظلت الروح الصليبية أقوى من هذه السياسة السلمية، و لم ينس البابا أنوسنت الثالث مطلقاً بيت المقدس، كما أن ما حدث عام ٦٠٩/١٢١٢ لحملة الأطفال[3] الصليبية المحزنة زادت في إثارته، ومضاعفة دعوته لحملة على بلاد الشام، فقد كان البابا يصدر دائماً الأوامر المشددة لمنع التجارة مع مصر، ويحرم أن تباع

---

(١) ابن تغري، النجوم، ٦/٢٢٢.

(٢) المقريزي، السلوك، ١/١٩٤.

(٣) ظهر في فرنسا صبي (ستيفن) حرض ألوف الأطفال للقيام بحملة إلى بيت المقدس لتخليصها من المسلمين، كما ظهر طفل آخر (نقولا) في ألمانيا يدعو لتحرير القدس، وقصد الجميع إلى الشرق، ولكن تجار الرقيق خطفوا معظمهم وباعوهم في أسواق الرقيق، Runciman, History of the Crusades ١١١ pp ١٣٨-١٤٤.

بعض السلع التي تتعلق بإعداد السلاح والمعدات العسكرية، كما أن الدعوة إلى الحرب الصليبية ظل لها تأثيرها وفعاليتها، وهذا يفسر استمرار ملك بيت المقدس جـــان دي برين الإعداد لحملة على مصر، إذ أدرك الصليبيون أن احتلالها يعني التحكم في بـــلاد الشام، والقضاء على شوكة المسلمين، حتى أن الصليبيين شـــبهوا مصـــر بأنهـــا رأس الأفعى، وأنها المخزن الذي يمد القوات الإسلامية في بلاد الشام بالعدد والعدة، لوفـــرة سكان الديار المصرية، واتساع أراضيها وغناها[1]، وكان الأوربيـــون يعتقـــدون أن استعادة المقدسات يبدأ من مصر.

لقد انشغل الملك العادل بمحاولة رأب الصدع في البيت الأيوبي بعد وفاة صـــلاح الدين، واطمأن إلى أن الصليبيين لن يقوموا بحملات كبيرة على بلاد الشام ومصـــر، وقد اعتمد في رأيه على المعاهدات التي عقدها مع الملك عموري الثاني، وكان يعتقـــد أن في المهادنة مصلحة للطرفين، ولم يفطن إلى أن الفرنج إنما كانوا يقبلون الهدنة حـــتى يتمكنوا في ظلها من إذكاء حمية أوربا للقيام بجهد جديد لاستعادة الأراضي المقدســـة وهذا يذكر بالهدنة الأولى عام ٤٨ التي عقدها يهود مع الدول العربية.

وكان من الأفضل للملك العادل أن يوجه جهوده إلى استغلال حمـــاس النـــاس للجهاد، ومواصلة حرب التحرير لإنقاذ ما بقي من أراض بأيدي الفرنج، وكسب ثقة الشعب بدلاً من هدم صروح المحبة والمودة، والاطمئنان والاستقرار التي نعم بها النـــاس ايام صلاح الدين، وهكذا لم يكن الملك العادل محبوباً لدى شعبه[2].

ويقول ابن تغري بردي في حكمه على الملك العادل[3] "وقد أوقع الله بغضتـــه في قلوب رعاياه، والمخامرة عليه في قلوب جنده، وعملوا في قتله أصنافـــاً مـــن الحيـــل الدقيقة مرات كثيرة، وعندما يقال إن الحيلة تمت تنفسخ، وتتكشف وتحسم موادهـــا،

---

(١)العريني، الأيوبيين، ١٣٠، خاشع المعاضيدي، تاريخ الوطن العربي، ١١٧.

(٢)العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ٦٥/٥.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٦٧/٦.

ولولا أن أولاده كانوا يتولون بلاده لما استمر ملكه، بخلاف أخيه صلاح الدين، فإنـــه إنما حفظ ملكه بالمحبة له وحسن الطاعة، و لم يكن رحمه الله بالمنـــزلة المكروهـــة... ثم إن وزيره ابن شكر بالغ في الظلم...".

وقد امتازت هذه المرحلة بظاهرتين رئيسيتين، الظاهرة الأولى النـــزاع الطويـــل والمتواصل بين أفراد البيت الأيوبي، أما الظاهرة الثانية فهي جنـــــوح الأيوبيـــين إلى مسالمة الصليبين حماية لملكهم، وليس أدل على ذلك من عدم مواجهة الصليبيين لـــدى احتلالهم جبيل عام ٥٩٠/١١٩٤/ وبيروت عام ٥٩٥/١١٩٩، ومحاولة الملك العـــادل تجديد معاهدة الصلح مع ملك بيت المقدس كلما انتهت مدهًا.



الفصل الثاني

حياة الملك الكامل

أولاً : نشأة الملك الكامل.

ثانياً : ثقافة الملك الكامل.

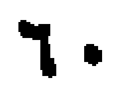
ثالثاً : نشاطات الملك الكامل في عهد الملك العادل.

رابعاً : أسرة الملك الكامل.

خامساً : تولى الملك الكامل السلطنة .

سادساً : محاولات خلع الملك الكامل.

سابعاً : وفاة الملك الكامل.



الفصل الثاني

حياة الملك الكامل

تحدثت في الفصل السابق عن البيئة التي عاش فيها الملك الكامل، والتي كان لها أثر على حياته فعاش على أرضها، واستنشق هواءها، واكتسب ثقافتها، وخصصت هذا الفصل لحياة الملك الكامل، نسبه وثقافته، وأشرت إلى بعض العناصر الثقافية التي اكتسبها، ولا سيما الناحية العلمية والأدبية، ووضحت نشاطات الملك الكامل، وفكره عن اسرته، وزوجاته وأولاده وبناته.وأشرت إلى تولية الكامل عرش مصر، والمؤامرات التي تعرض لها، وأنهيت الفصل بعجالة عن وفاته.

إن دراسة حياة الملك الكامل ستساعد كثيراً في تحديد السياسة التي اتبعها، سواء من الناحية الداخلية أو الخارجية، ذلك أنه تأثر بفكر والده الملك العادل، واتضح ذلك لدى اتخاذه القرارات الحاسمة أثناء معالجته الهجوم الصليبي على دمياط، وحواره الطويل مع الامبراطور فردريك الثاني كما سترى فيما بعد.

أولاً: نشأة الملك الكامل:

الملك الكامل هو ناصر الدين أبو المعالي محمد بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن نجم الدين أيوب بن شادي، خامس ملوك بني أيوب[1]، ولد في ١٥ ربيع الأول عام ٥٧٦هـ[2].

---

(١) انظر الملحق٦.

(٢) المقريزي، الخطط، ٣/٣٣٥.

تضاربت آراء المؤرخين حول تاريخ ولادة الملك الكامل، فقد ذكر ابن خلكان أنه ولد في الخامس والعشرين من ربيع الأول عام ٥٧٦هـ بالقاهرة[١]، إلا أن ابن تغري بردي طرح ثلاثة آراء حول تاريخ ميلاده، فأشار إلى أنه ولد عام ١١٧٧/٥٧٣[٢] على حد قول سبط بن الجوزي، ثم قال أنه ولد عام ١١٨٠/٥٧٦، وأخيراً قال أنه ولد في ذي القعدة عام ١١٧٩/٥٧٥، ولكن معظم المؤرخين يشيرون إلى أنه ولد عام ١١٨٠/٥٧٦[٣].

عاش الملك الكامل سني حياته الأولى في القاهرة، إذ كان والده الملك العادل نائبا لأخيه صلاح الدين على مصر، وقد أرضعته ابنة القاضي شهاب الدين بن عصرون ت ١١٨٩/٥٨٥ زوجة شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه[٤]، فاكتسب من أولاد شيخ الشيوخ كثيراً من الطباع والعادات، إذ كانوا إخوته في الرضاعة، وتأثر بفكرهم ولا سيما فخر الدين يوسف بن الشيخ صدر الدين، فكان متمسكا بالسنة، ويخرج سهمي الفقراء والمساكين من أموال الزكاة التي تجبى، ورتب الهبات والإكراميات للفقراء والصالحين والعلماء[٥].

ثانياً: ثقافة الملك الكامل:

اهتم الملك العادل بتثقيف أولاده[٦]، بوصف الثقافة من الأمور الضرورية لتوسيع المدارك والآفاق، لمواكبة روح العصر الذي كانوا يعيشون فيه، فقد درس الملك المعظم

(١). ابن تغري بردي، النجوم، ٢٢٧/٦.

(٢)م.ن، ٢٢٨/٦

(٣) م.ن، ٢٢٨/٦.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٥٩/١٣.

(٥) ابن الوردي، تتمة المختصر، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ٨٧/٥.

(٦) ابن تغري بردي، م.س، ٢٢٨/٦.

عيسى صاحب دمشق الفقه الحنفي في دقة وعناية[1]، فيما اهتم الملك الكامل بنواحي الحياة الثقافية المختلفة، وكان اهتمامه منصباً بشكل واضح على النواحي الدينية والأدبية، بالإضافة إلى العلوم العقلية.

أ- الحياة الدينية:

درس الملك الكامل القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والفقه، وكان متمسكا بالسنة النبوية، حسن الاعتقاد يميل إلى الصوفية، محباً للحديث وأهله، معظماً للسنة النبوية وأهلها راغباً في نشرها والتمسك بها، حريصاً على حفظها ونقلها[2]، وكان ملازماً لعلماء الحديث، فقد أكثر من سماع الحديث ولا سيما عن فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، واخوته الذين كانوا من اكابر دولته، والذين حازوا على فضيلة السيف والقلم، يباشر أحدهم التدريس، ويتقدم على الجيش[3]، وكان من نتائج اهتمامه بالحديث، وسماعه له، أن توافرت لديه إمكانية روايته، فقد أجاز له مفتي الاسكندرية ومقرؤها، أبو القاسم الصفراوي ت٦٣٦/١٢٣٨ رواية الحديث، وخرج له أربعين حديثاً[4]، وسمعها جماعة، وأجاز له العلامة النحوي عبد الله بن بري ت٥٨٤/١١٨٨[5] وأبو عبدالله بن صدقة الحراني ت ٥٨٤/١١٨٨[6]، كما استطاع الملك الكامل أن يعلق على صحيح مسلم بكلام مليح[7].

---

(١) كان عالماً في النحو إذ تتلمذ على تاج الدين زيد بن الحسن الكندي ت٦١٣/١٢١٦ أبو الفدا، المختصر، ١٣٨/٣.

(٢)ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٣٠/٦.

(٣) ابن الوردي ، تتمة المختصر، ٢٣٨/٣.

(٤) المقريزي، السلوك، ١١٤/١.

(٥) ابن تغري بردي، م.س، ٢٢٧/٦.

(٦) المقريزي، م.س.

(٧) ابن تغري بردي، م.س، ٢٣٢.

وقد نال الملك الكامل مكانة كبيرة عند الفقهاء، فقد امتدحه الفقيه ابراهيم بن خضر برهان الدين المعروف بابن الفقيه بقصيدة مطلعها.

إلَيْكَ وَإلاّ دُلِّني كَيْفَ نَصنعُ   وَفيك وإلاّ فالثناءُ مُضيّعُ

وَمِنْك استَفَدْنا كُلّ مَجْدٍ وَسُؤْددٍ   وَعَنْك أحاديثُ الحُكّامِ نَسْمعُ[1]

و لم يقتصر اهتمام الملك الكامل على رواية الحديث وإنما جاوزهـا إلى مناقشة العلماء في البدع التي تظهر في البلاد، فينطل بعضها[2]. وينتشـر، وكـان اهتمامه بالعقيدة شديداً، حتى أنه سافر إلى دمشق لحل الخلاف الذي حدث بـين أصحـاب المذهب الشافعي، والحنابلة[3]، وتقدم عنده المحدث أبو الخطاب بن دحيه، وبنى لـه دار الحديث الكاملية بالقاهرة[4] وكان يكره المشتغلين بالمنطق وعلوم الأوائل.

ب- الحياة الأدبية:

أولى الملك الكامل الأدب اهتماماً كبيراً وشغف به، وكان يعقد مجالس للمناقشة يجمع به النحاه وغيرهم، ويمتحنهم "فمن أجاب منهم بجواب صحيح حظـي عنـده وقرّبه"[5]، وكان اهتمام الملك الكامل بالنحو كبيراً، لأنه مادة أساسـية مـن مـواد الثقافة، فضلا "عن أن اشتراك المثقفين في المناظرة ضروري إذ يعدونه وسيلة لدراسة العلوم الشرعية"[6].

---

(١)السبكي، طبقات الشافعية، ١٧٤/٨.

(٢) م.ن، ٢٥٥/٨.

(٣) م.ن، ٢٣٨/٨.

(٤) المقريزي، السلوك، ٣٠١/١.

(٥)ابن واصل، مفرج الكروب، ١٥٨/٥.

(٦) أحمد أحمد بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر الشام، ص ١٩٨.

ومن المسائل الطريفة التي حصلت للملك الكامل في النحو ما حدث في دمشق حين استحضر جماعة من العلماء، وكان فيهم الشيخ زين الدين بن معطي النحوي، وسألهم عن قولهم "زيد ذهب به" هل يجوز في زيد النصب، فقالوا: "لا يجوز إلا الرفع"؛ فقال زين الدين يجوز النصب، فاستحسن الملك الكامل جوابه، وطلب منه مرافقته إلى مصر، وقرر له معلوماً "جيداً"[1].

وقد صنف أبو الحزم مكي عبد الملك ابن حمدان الثعلبي العروض وغيرها[2] للملك الكامل عندما رأى اهتمامه باللغة العربية.

جـ- شعر الملك الكامل:

كان الملك الكامل يتذوق الشعر، ويشجع الشعراء وقام بنظمه، فهو كثير الاستشهاد والتمثل به، وتورد المصادر نتفا متفرقة من شعره منها:

صِلوا مُغْرماً في حبِكم وَصْلَ الصَّنا وَمنْ بُعدِكُم طيبُ الرِقَابِ فَقدْ فقد[3]

ومنها أيضاً:

لا أوْحشَتَ مِنْ مَغاني القوْمِ أَوْطانُ ولا خَلا مِنْهُم أثْلٌ وَلا بالُ[4]

وأيْن ما نَزَلوا في الحَالتين مَعاً فإنَّهم مِنْ سُوَيدِ القَلْبِ سُكانُ

وكتب إلى أخيه الأشرف موسى صاحب خلاط يستحثه على سرعة نجدته لإنقاذ دمياط من الصليبيين، وصدر كتابه بأبيات شعرية منها[5].

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٥٨/٥.

(٢) الغساني، العسجد المسبوك، ٢/٤٥١.

(٣) الحنبلي، شفاء القلوب، ٣٠١.

(٤) ابن واصل، م.س، ١٦٨/٥.

(٥) المقريزي، السلوك، ٢٣٣/١.

يَا مُسْعِدي! إنْ كنتَ حقاً مُسْعِفي   فَانْهَضْ بِغَيْرِ تَلبُثٍ وَتَوقُّفِ
واحثُثْ قُلوصَكَ مُرفِلاً أو موجِعاً   بِتجشُّمٍ في سَيْرِها وتَعسُّفِ

وكان الملك الكامل يعقد مجالس في المناظرة، وفي أحد المجالس التي كان يعقدها مع أهل الأدب، جاء الكلام في القوافي وطرح السؤال في أصعبها. فقال لهم الملك الكامل: في أصعبها الياء الساكنة، وطلب أن يذكر كل واحد منهم ما يحفظه من هذه القافية، فلم يتجاوز أحدهم عشرة أبيات؛ وأشار القاضي شرف الدين كاتب السر إلى أنه يحفظ مائة وخمسين بيتاً من قصيدة واحدة، فأنشد قصيدة ابن الفارض[1] اليائية التي مطلعها.

سائقَ الأظعانِ يَطْوِي البِيدَ طَيّ   مُنْعِماً عَرِّجْ على كُثْبَانِ طيّ

ولما علم الملك بهذا الشاعر، تعجب، وقال "يكون في زماني ولا أزوره، لا بد لي من زيارته ورؤيته"[2].

وقد حفظ أبياتا كثيرة من الشعر، وكان ينشد الذي يعجبه كثيراً " من ذلك تكراره إنشاد هذين البيتين":

ما كُنْتَ مِن قَبلُ مُلكِ قَلبِي   تصُدُّ عن مُدنَفٍ حَزِينِ
وإنّما قَد طمعت لمّا   حَلَلْتَ في مَوْضِعٍ حصينِ[3]

وقد امتدحه عدد من الشعراء، ومنهم ابن سناء الملك[4] الذي قال فيه :

---

(١) ابن الفارض، ديوانه جمعه، رشيد بن غالب.

(٢) ابن الفارض، الديوان، ١/١٠.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٣٣/٦. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٧٥/٤.

(٤) ابن سناء الملك، القاضي أبو القاسم هبة الله بن القاضي المرشد ت٦٠٨/١٢١١، اهتم بالأدب والنحو، والنظم تولى وظيفة ديوان الإنشاء بمصر، وله ديوان، الحنبلي، شذرات الذهب، ٣٥/٥.

هُوَ المَلِكُ قيلَ الَذي خَضَعَتْ لَهْ عَلى الرَّغْمِ أملاكٌ عِظامٌ وأقيالُ
وأسماؤُهم بَيْن البَرايا سِمَاتُهم وأسماؤُه بينَ البَرِيّة أفْعالُ[1]

ويقول فيه البهاء زهير بن محمد[2] قصيدة من خمسين بيتا عنـــد فتـــح دميـــاط اقتطفت منها[3].

هُوَ الكاملُ المَوْلى الذي إنْ ذكرتَه فيا طربَ الدُنيا ويا فَرحَ العَصْرِ
بهِ ارتجعَتْ دمياطُ قَهْراً من العِدى وطَهَّرهَا بِالسَيْفِ والمِلّةِ الطُهر
لَكَ اللهُ مِنْ مَلِك إذا جَادَ أَوْسَطا فَنَاهيكَ مِن عُرفِ وناهيك من نُكر

د- الحياة العلمية:

أثرت العادات التي اكتسبها الملك الكامل من اخوته في الرضاعة، في نفســـيته، والقيم التي آمن بها، فكان عالماً يحب أهل العلم، ويؤثر مجالســـتهم، وكـــان ينـــاظر العلماء، ويجعل في كل ليلة جمعة مجلساً لأهل العلم يجلس معهم للمناقشة، ويســـألهم عن المواضيع والمسائل في كل فن، وهو معهم كواحد منهم، ويلقي عليهم الإشكالات وكان عنده مسائل غريبة من فقه ونحو يمتحن فيها العلماء والفضلاء[4] فمـــن أجابـــه عنها قدمه، وحظي عنده.

وكان يثبت عنده بالقلعة أسرة ينام عليها العلماء إلى جانب سريره ليســـامروه،[5] ولا سيما الفقيه عبد الظاهر، والأمير صلاح الدين الأربيلي. وكان ارباب الفضـــائل يقصدونه، فيطلق لمن يأتيه منهم الأرزاق الوافرة، وقد قصده فضل الديـــن الخونجـــي

---

(١) ابن سناء الملك، الديوان، ٦٣٦/٢.

(٢) البهاء زهير بن محمد ت ١٢٥٨/٦٥٦ له ديوان مشهور كتب الإنشاء للملك الصالح نجم الدين أيوب ببـــلاد المشرق، ابن العماد الحنبلي، م.س، ٢٧٦/٥.

(٣) المقريزي، السلوك، ٣٠٢/١.

(٤) أبو الفداء، المختصر، ١٦١/٣.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٣٢/٦.

والقاضي الشريف شمس الدين الأرموي قاضي العسكر، وكانا أئمة وقتهما في المنقول والمعقول.

وقد بعث الملك الكامل لابن قوام بن علي بن منصور ت ٦٥٨/١٢٦٠ الزاهد العالم تقديراً لعلمه مبلغ خمسة عشر ألف درهم[١].

ولا شك أن اهتمام الملك الكامل بالثقافة والأدب يدل على وجود حركة علمية نشيطة تقوم على أساس سهولة انتقال العلماء والأدباء بين مصر والشام، وقد كان لانتشار دور العلم في هذه المناطق أثر كبير في انتعاش الحركة الثقافية وازدياد نشاطها.

هـ-صفات الملك الكامل:

تنامت شخصية الملك الكامل بما اكتسب من صفات من والده الملك العادل اثناء مرافقته له، واعتماده عليه في مواقف عديدة، عسكرية وسياسية، وبالرعاية التي أولاها له أخوته في الرضاعة، وباختلاطه بالعلماء، وحبه لهم مما زاد ثقافته وأهلته للحصوله على إجازات علمية عن جدارة واستحقاق[٢].

وقد عدد المؤرخون صفات الكامل، فقال ابن كثير عنه[٣] "كان جيد الفهم يحب العلماء، ذكيا مهيبا ذا بأس شديد، عادلاً، منصفاً له حرمة وافرة، وسطوة قوية".

ووصفه المقريزي بأنه[٤] "كان مهاباً حازماً سديد الرأي، حسن التدبير، عفيفاً عن الدماء، يباشر أمور مملكته بنفسه"، وأحدث في البلاد حوادث سماها الحقوق، لم تعرف قبله[٥]، فكان يحب المال مجتهدا في تحصيله.

---

(١)ابن الكتبي، فوات الوفيات: ١/٢٢٨.

(٢)ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣/١٦٠.

(٣) م.ن، ٣/١٦٠.

(٤) المقريزي، الخطط، ٣/٣٣٩.

(٥) ابن تغري بردي، م.س، ٦/٢٢٨.

وذكر أبو الفدا أن الكامل[1] كان شجاعاً ذكياً فطناً مدبراً باشر الأمور بنفسه، كما كان حازماً لا يضع الشيء إلا في مواضعه من غير إسراف أو إقتار[2].

وكان الملك الكامل يحب أولاد شيخ الشيوخ ولا سيما فخر الدين، فكان لا يطوي عنه سراً، ويثق فيه، ويعتمد عليه في سائر أموره[3].

وكان الملك الكامل عاطفياً، فعندما جاءه القاضي بهاء الدين بوصية الملك العزيز بن الظاهر إثر وفاة الأخير عن أربع وعشرين سنة بكى، وحلف لابنه الناصر لأجل أخته صفية خاتون[4].

كما تغير على الملك الناصر داود فأجبره على طلاق ابنته غازيه خاتون، فذهب الناصر داود إلى الخليفة المستنصر بالله يلتمس منه التدخل لدى الملك الكامل لإعادة زوجته[5].

نَقم الوزير صفي الدين عبدالله بن شكر على قاضي دارا وزير الملك الكامل، فخاف عليه، وأخرجه إلى حلب إنقاذاً لحياته بمرافقة فخر الدين شيخ الشيوخ عام ٦٠١/١٢٠٣، فأكرمهم صاحب حلب، ولكنه ورد إلى قاضي دارا كتاب من الملك الكامل يستدعيه إلى مصر وعندما خرج من حلب أحاط به خمسون فارساً بالليل وقتلوه[6].

---

(١) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢/٢٤٣.

(٢) يلاحظ أن المؤرخين عددوا نفس السمات والصفات.

(٣) ابن الكتبي، فوات الوفيات، ٤/١٦٦.

(٤) م.ن، ٤/٣٦١.

(٥) م.ن. ١/٤١٩.

(٦) المقريزي، السلوك، ١/١٩٨.

ثالثاً: نشاطات الملك الكامل في عهد الملك العادل.

كان الملك الكامل الولد الثاني لأبيه الملك العادل بعد مودود[1]، ولكن شجاعته، واستقامة رأيه أهلته لكسب ثقة والده، فعينه نائبا له في حـــران، فاكتســـب حســـن التدبير، والقيام بنشاطات عسكرية وسياسية مختلفة من أبرزها:

أ- محاصرة ماردين:

اتفق الملك العادل مع أرسلان بن ايغازي الارتقى صاحب مـــاردين علـــى أن يسلمه بلده، ويعوضه عنها، ولكن الأخير ما لبث أن تراجع نادماً عن وعده للملـــك العادل[2].

استاء الملك العادل، وحاصر ماردين للاستيلاء عليها، غير أنـــه اضطـــر إلى أن يقصد دمشق[3] على عجل لمواجهة خطر الملك الأفضل، وترك الملك الكـــامل علـــى حصار ماردين عام ١١٩٨/٥٩٤[4].

استمر الحصار المفروض على ماردين حوالي أحد عشر شهراً[5]، والملك الكـــامل يزداد قوة وضراوة في حصار المدينة، فانتشر المرض والجوع في القلعة، فعـــرض والي ماردين على الملك الكامل تسليمه القلعة شريطة إدخال المؤن إليها لإنقاذ الأهالي مـــن الجوع، فوافق الأخير على إدخال ما يسد رمق سكان المدينة اليومي، ورفعت أعـــلام الأيوبيين على القلعة.

---

(١) انظر الملحق، رقم٧.

(٢) ابن شامه، الروضتين، ٢٣٤/٢.

(٣) ابن الأثير الكامل، ٢٤٦/٩.

(٤) ابن الأثير، الباهر، ١٩٤.

(٥) ابن الأثير، الكامل ٢٤٦/٩.

كلف الملك الكامل أحد أمرائه مسؤولية حراسة أبواب قلعة ماردين، غير أن هذا الأمير قبل الرشوة من أهالي المدينة، وسمح بإدخال الطعام بكميات تزيد عن حاجتهم اليومية، وأثناء ذلك وصل أمير الموصل نور الدين وحلفاؤه[1] لنجدة المدينة المحاصرة، فقويت نفوس السكان، وقرروا المقاومة والدفاع عن بلدهم.

تقدم نور الدين عام ٥٩٥/١١٩٩، وحشد قواته بأدنى الجبل استعداداً للهجوم على قوات الملك الكامل المتمركزة على الربض[2]، فتحمس الملك الكامل، واندفع لمواجهة قوات نور الدين، فاحتل الأهالي الربض، وأصبح الكامل محصوراً بين قوات أمير الموصل، وحامية القلعة المدعومة من السكان، فقتل عدد كبير من جند الملك الكامل، وأسر الباقي.

وأمام هذه الهزيمة ترك الملك الكامل ماردين ليلاً واتجه إلى ميافارقين[3]، ومنها إلى حران[4] وكانت هزيمة الملك الكامل بسبب الخطأ الذي ارتكبه إثر نزوله من الربض لمواجهة نور الدين وحلفائه، ولو بقي لما تمكن أمير الموصل منه[5]، كما أن قطب الدين صاحب سنجار لم يتمكن من تنفيذ اتفاقه مع الملك الكامل بالانسحاب من المعركة حالما تبدأ إذ اضطرته الظروف إلى الوقوف على سفح الجبل بعيدا[6].

ب- دعم الملك العادل في دمشق:

ذكرت سابقا إن الملك العادل توجه عام ٥٩٥/١١٩٩ إلى دمشق لإحباط هجوم الملك الأفضل عليها، غير أن الأمور ضاقت به، وأوشك على تسليم

---

(١) حلفاء أمير الموصل هم ابن عمه قطب الدين محمود زنكي أمير سنجار، وابن عمه الآخر معز الدين سنجر شاه بن غازي أمير جزيرة ابن عمر، وكانوا في حلف مع الملك الأفضل علي بن صلاح الدين ضد الملك العادل، ابن الأثير، الكامل، ٢٤٦/٩.

(٢) جزيرة ابن عمر على نهر دجلة.

(٣) ميافارقين مدينة دياربكر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢٣٦/٥.

(٤) حران مدينة مشهورة على الطريق بين الموصل والشام ياقوت، م.ن، ٢٣٥/٢.

(٥) ابن الأثير، الباهر، ١٩٥.

(٦) ابن الأثير، الكامل، ٢٤٧/٩.

دمشق[1] عندما نادى الأهالي بشعار الملك الأفضل، عندئذ أرسل إلى ابنه الملك الكامل في المشرق يطلب منه الحضور بالعساكر والمال[2] وسرعان ما لبى الكامل نداء والده، فَجَمع عساكر حران والرها، وجَمْعاً كبيراً من التركمان، وأخذ حوالي ٤٠٠ ألف دينار من المبلغ الذي كان الملك العادل قد وضعه في قلعة جعبر[3]، واندفع إلى دمشق لنجدة والده.

وعندما علم الملك الأفضل بذلك خاف من قدوم الملك الكامل، وأخذ يفكر في وسائل وقف جيش الكامل بأية وسيلة قبل وصوله دمشق، فاتفق والملك الظاهر على الاتصال بالملك المجاهد صاحب حمص، والملك المنصور صاحب حماه للتصدي للملك الكامل، ومنعه من الوصول إلى دمشق، غير أن الملك الكامل تجنب الاصطدام مع هذه القوات، وابتعد عن مكان وجودهم، واستطاع أن يصل إلى دمشق، وأن ينزل في جوسق أبيه، وكان لذلك أثر كبير في تغير مجرى الحرب، مما أدى إلى فشل حصار دمشق، وهزيمة الملك الأفضل[4].

وكان الملك الظاهر قد أبدى استعداده لمواجهة الملك الكامل، إلا أن الملك الأفضل رفض هذه الفكرة خشية أن يبقى وحده في موقف يتطلب الثبات لمواجهة هذا الخطر[5].

جـ- فتح أرمينية:

ساءت العلاقات بين الملك العادل وصاحب أرمينية عام ١٢٠١/٥٩٧ فجهز قوة بقيادة الملك الكامل تمكنت من فتح هذا الإقليم وعاصمته خلاط[6] فسرُّ الملك العادل لإنجاز ولده.

---

(١) الحموي، التاريخ المنصوري، ٢٢٠.

(٢) ابن واصل، م.س، ١٠٥/٣.

(٣) المقريزي، السلوك، ١٨١/١.

(٤) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٤٦٩/٨.

(٥) ابن اصل، مفرج الكروب، ١٠٥/٣.

(٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٦٥/٦.

د- إكمال بناء قلعة الجبل:

بعد ما أنهى صلاح الدين حكم الفاطميين، أمر الطواشي بهاء الدين قراقوش الإشراف على بناء قلعة الجبل، على جبل المقطم، وعندما توفي صلاح الدين أهمل إكمال البناء.

وفي عام ١٢٠٧/٦٠٤ تابع الملك الكامل ترميم القلعة، وإكمال منشآتها، وتحول إليها من دار الوزارة في القاهرة، فكان أول من سكنها من ملوك مصر، ونقل إليها أولاد الخليفة العاضد الفاطمي ليكونوا تحت مراقبته[1].

هـ- إرسال الملك المسعود إلى اليمن:

حاول الملك الكامل الاعتماد على نفسه في إدارة البلاد، واتخاذ القرارات، فبعث ابنه الملك المسعود في جيش كثيف إلى بلاد اليمن، فلما علم الملك العادل بذلك

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢٠٢/١.

شملت القلعة المنشآت الهامة التالية:

- الديوان: وهو قاعة كبيرة، يستقبل فيها السلطان المهنئين يوم المواكب، ويمتاز الديوان بارتفاع أبنيته، (المقريزي، الخطط، ٢٠٤/٢). وشبابيكه الحديدية المحكمة الصنع. (القلقشندي، صبح الأعشى، ٣٧١/٣).
- باب السر، وهو باب ثانوي يدخل منه كبار الأمراء وخواص الدولة، كالوزير، وكاتب السر (القلقشندي، صبح الأعشى ٣٧٠/٣).
- باب القلعة وهو يربط المدينة السلطانية بالمدينة العسكرية داخل القلعة، ويستخدم الباب الأمراء، والسكان.

* الاسطبلات السكانية، وهي المكان المخصص لإيواء خيول السلطان، والجند.
* الأبراج وتشمل الأبراج التي أنشأها الملك الكامل للحمام الزاجل، والتي كانت تستخدم في نقل الرسائل إلى مختلف المناطق، وقد ساهم الحمام الذي في القلعة بتزويد الملك الكامل بالرسائل التي كانت تصله، ولا سيما من دمياط عندما هاجمها الصليبيون. (محمود عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ٢١٣).
* الجامع: شيده الملك الكامل، إلا أن الناصر قلاوون هدمه، وشيد مكانه جامعه المشهور، (المقريزي، الخطط، ٢٠٤/٢). وكان إلى جواره، باب يؤدي إلى دور الحريم السلطانية. (القلقشندي، م.س، ٣٧١/٣).
* حزانة الكتب أوجدها الملك الكامل، وزودها بالمجلدات الثمينة، (زكي: قلعة صلاح الدين،٤٤). ونقل إليها ما صادره من كتب القاضي احمد بن القاضي الفاضل، والتي كانت حوالي ٦٨ ألف مجلده.
* دار الوزارة: أنشأها الملك الكامل لتكون مقراً للوزير صفي الدين وبها قاعة الانشاء.

وكانت مداخل القلعة مصممة لأغراض عسكرية، دفاعية تجعل المقتحم لها عرضة لسهام الجند، والمدافعين عنها.
وكانت القلعة تضم بعض الدواوين، كديوان الجند، وبيت المال، والدور السلطانية، والمساجد، والحوانيت. (المقريزي، الخطط، ٢٠٥/٢). وقد أجرى الملك الكامل إلى القلعة المياه من نهر النيل، وعمر ثلاث برك ملأها بالمياه.

أنكر خروجه لأنه لم يستشره في ذلك، وأمر بسجن القاضي الأعز وزيـــــر الملـــك الكامل بقلعة الجزيرة، ثم نقل إلى سجن بصرى[١].

رابعاً: أسرة الملك الكامل:

كان الملك الكامل الولد الثاني للملك العادل كما ذكرت، إذ رزق الأخير تسـعة عشر ولداً[٢] سوى البنات، توفيت والدة الملك الكامل في مصر عـــام ١٢١١/٦٠٨، ودفنت عند قبر الإمام الشافعي[٣]، ورتب عند قبرها القراء والصدقات.

أ- زوجات الملك الكامل:

تزوج الملك الكامل ثلاث مرات، أما زوجاته فهن:

١- مؤنسة خاتون ابنة صلاح الدين الوحيدة[٤]، وقد أنجبت له الملك المســعود بعد ثلاث سنوات من زواجها، ثم ابنته غازية.

٢- ورد المنى وأنجبت له الملك الصالح نجم الدين أيوب[٥].

٣- الست السوداء، وتعرف ببنت الفقيه نصر، وأصلها من بني هلال من حمـاة، وكانت جارية للفقيه، فأخذها إلى الملك الكامل، فتزوجها الأخير ورزقـت ابنه الملك العادل الثاني، وشقيقتاه فاطمة وعاشوراء[٦].

ب- أولاد الملك الكامل:

رزق الملك الكامل ثلاثة ذكور، وثلاث بنات، وفيما يلي لمحة عن كل منهم:

---

(١) المقريزي، السلوك ٢١٦/١.

(٢) المقريزي، م.ن، ٢٢٦/١.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٠٥/٣.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ٦/١٣.

(٥) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢٦٤/٢.

(٦) م.ن.

١- الذكور:

١-١-الملك المسعود صلاح الدين يوسف

عرف باسم أطز[١] ولد عام ١٢٠٢/٥٩٩، وقد سيره والده الملك الكامل عندما بلغ الثالثة عشرة إلى اليمن في جيش كثيف، فاستولى على معاقلها[٢]، وظفر بصاحبها، فسيره تحت الحوطة إلى مصر، وكان الملك المسعود جباراً[٣]، فقد قتل حوالي ٨٠٠[٤] شريف عندما استولى على اليمن ١٢١٥/٦١٢، حج مرة فكان يرمي بالبندق[٥]، كما أنه "دخل إلى حاشية الطواف راكباً، وكان يسكر" وينام بدار على المسعى، فيخرج أعوانه، ويمنعون الناس من المسعى، ويقولون "الأمير سكران نائم لا ترفعوا أصواتكم بالذكر والتلبية"[٦]، وكان الملك المسعود لا يحب المقام باليمن لما أصابه من المرض بها[٧].

وفي عام ١٢٢٩/٦٢٦ استدعى الملك الكامل ابنه المسعود من اليمن ليوليه دمشق، بعد وفاة الملك المعظم عيسى صاحب دمشق، فاتجه المسعود من اليمن قاصداً الشام، ولما وصل مكة مرض، وعندما حضرته الوفاة أوصى أنه إذا مات لا يجهز بشيء من ماله[٨] بل يسلم إلى الشيخ صديق[٩] ليجهزه من عنده بما يراه.

---

(١) أطز كلمة تركيه تطلق على الإنسان الدي لا يعيش له أولاد ويبدو أن الملك الكامل لم يكن يعيش له أولاد أول العمر، ولما ررق الولد الأول أسماه أطز، ويسمونه اطسيس أحياناً، ومعنى الكلمة بالتركيه "ما له اسم" وكان الاسم ثقيلا على العامة فسموه أقسيس (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢١١/٦).

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٧٥/٤.

(٣) ابن واصل، م.س، ١٢٥/٤.

(٤) أبو الفدا، المختصر، ١١٦/٣.

(٥) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ١٢٠/٥.

(٦) م.ن، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢١١/٦.

(٧) المقريزي، السلوك، ٢٥٦/١.

(٨) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣٤/١٣.

(٩) كان الشيخ صديق بن بدر بن جناح من أكراد بلدة أربل، ومن المجاورين، وكبار الصالحين.

وعندما توفي الملك المسعود، كفنه الشيخ صديق، ودفنه في مقبرة مكة المكرمة، ولما بلغ الملك الكامل ما فعله الشيخ صديق كتب له، وشكره.

وكان الملك الكامل يكره ابنه المسعود، ويخافه على بقية أولاده[1]، ولما سمع بموته اشتد حزنه، ولبس البياض[2]، وكان الملك المسعود آخر ملوك اليمن من الأيوبيين، (إذ استخلف المسعود على اليمن نور الدين عمر بن علي رسول التركماني). ترك الملك المسعود طفلا يقال له يوسف، مات في عهد عمه الصالح أيوب[3].

١-٢- الملك العادل سيف الدين أبو بكر:

ولد عام ١٢٢٢/٦١٩ بالقاهرة، من الست السوداء المعروفة ببنت الفقيه نصر[4]، وكان الملك الكامل يحبه ويحب أمه، وفي التاسع من شوال عام ١٢٢٦/٦٢٤ ختن الملك العادل، وأقام له والده سماطاً مكلفاً[5]، وفي عام ١٢٣٠/٦٢٧ خلع الملك الكامل ابنه الصالح أيوب وعهد إلى الملك العادل[6].

وفي عام ١٢٣٣/٦٣٠ تسلطن الملك العادل، وأركبه والده بشعار السلطنة[7]، وشق به القاهرة، وكان في الحادية عشرة، وكان الكامل قد استخلف ابنه العادل على مصر، وأسكنه قلعة الجبل مع أمه لدى خروجه إلى الكرك ودمشق عام ١٢٣٢/٦٢٩ عندما اتجه إلى دمشق، ولكن الملك الكامل توفي، فاتفق الأمراء على تحليف العسكر

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٧٢/٦.

(٢) المقريزي، السلوك، ٢٧٦/١.

(٣) المقريزي، م.ن.

(٤) م.ن.

(٥) المقريزي، م.ن ٢٠٦/١.

(٦)ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٧٨/٤.

(٧)المقريزي، م.س، ٢٨٦/١.

للملك العادل[1]، وكان نائب والده الملك الكامل في مصر، فحلف لـــــه العســكر، وأقاموا في دمشق الملك الجواد بن يونس بن مودود بن العادل نائباً عن الملك العـــادل أبي بكر الثاني بن الكامل[2].

استمر الملك العادل في الحكم إلى أن قبض عليه أمراء دولته بظاهر بلبيس في ذي الحجة عام ٦٣٧/١٢٤٠، واستدعوا أخاه الملك الصالح نجم الديـــن أيـــوب، فتـــولى الملك[3]، وقبض على أخيه العادل، وأودعه السجن، ثم قتله خنقاً في قلعـــة دمشـــق، ودفن بتربة شمس الدولة[4].

١-٣- نجم الدين أيوب:

ولد في القاهرة سنة ٦٠٣/١٢٠٦، وبها نشأ[5]، وأمه جارية سوداء تســـمى ورد المنى غشيها الملك الكامل فحملت بالصالح أيوب[6]، تولى الأخير الشرق وديار بكـــر في عهد والده الملك الكامل لعدة سنوات[7]، وفي عام ٦٢٥/١٢٢٨ عـــــهد الملـــك الكامل إلى ابنه الملك الصالح أيوب بالسلطنة له من بعده بديار مصر، وأركبه بشـــعار السلطنة[8] وشق به شوارع القاهرة، وحملت الغاشية بين يديه، ونزل بدار الـــوزارة، وأقام معه الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ليحصل الأموال، ويدبر أمـــور الدولة.

---

(١)أبو الفدا، المختصر،٣/١٦١.

(٢)ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢/٢٤٢.

(٣)ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٤/١٧٧.

(٤)ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ٥/٢٣٦.

(٥)المقريزي،السلوك. ١/٢٦٣.

(٦)ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٤/١٧٨، أبو الفدا، م.س، ٣/١٧٩.

(٧) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٦/٢١٩.

(٨) ابن واصل، مفرج الكروب، ٤/٢٧٧.

وخرج الملك الكامل في نفس العام في عساكره، ومعه المظفر تقي الدين محمود بن المنصور، والملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن الملك العادل في زيارة تفقدية إلى البلاد الشرقية وديار بكر[1]، وعندما عاد الملك الكامل إلى مصر عام ٦٢٧/١٢٣٠ عزل ابنه الملك الصالح أيوب من ولاية العهد دون أن يتحقق من صحة رواية زوجته في محاولته التمرد على أبيه.

وفي عام ٦٣٠/ ١٢٣٣ أنعم الملك الكامل على ابنه نجم الدين ايوب بحصن كيفا وسيره إليه، ويعتقد أن الكامل أراد ان يبعد ابنه عن مصر ليخلو بذلك الجو له ولولده الملك العادل[2].

وفي عام ٦٣٤/١٢٣٧ سمح الملك الكامل لابنه نجم الدين باستخدام الخوارزمية في جيشه[3]، فتقوى بهم مما مكنه من الاستيلاء على سنجار ونصيبين والخابور بعد ذلك.

تولى الملك الصالح أيوب عام ٦٣٧/١٢٤٠، وبقي ملكا حوالي تسع سنوات وثمانية شهور، وتوفي عن أربعة وأربعين عاماً، فتولى الحكم بعده ابنه تورانشاه، ثم مملوكته وزوجته شجرة الدر.

٢- البنات:

رزق الملك الكامل ثلاث بنات وهن.

٢-١ غازية: وهي شقيقة الملك المسعود، صاحب اليمن ووالدتها مؤنسة بنت صلاح الدين، عقد الملك الكامل للملك المظفر محمود بن المنصور محمد بن المظفر تقي

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢٠٦/١.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٧٨/٤، أبو الفدا، المختصر، ١٧٩/٣.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٣١٩/٦.

الدين عمر بن ايوب صاحب حماه على ابنته غازيه خـــاتون عـــام ١٢٢٩/٦٢٦[1]، بينما كان في الشرق، وكان الزكي القومصي صديق الملك المظفر قد أنشده متمنياً لـــه ملك حماه، وبنت خاله الملك الكامل[2].

مَتى أراكَ كَما أَهْوى أَنْت ومَنْ   تَهْوى كَأنّكُمَا روحَانِ في بَدِنِ
هُناكَ أنشدَهُ والأقْدارُ مُصغيةٌ   هُنيتَ بالْمُلْكِ وَالأحْبَابِ والوَطنِ

فقال الملك المظفر لصاحبه إن صار ذلك يا زكي أعطيتك ألف دينار مصريـــة، ولما ملك المظفر حماه أعطاه ما وعده به، وقد سار ابن شداد بالستر العالي الصاحبـــة غازية من القاهرة، وتزوجت الملك المظفر عام ١٢٣١/٦٢٩[3] ورزقت ولدين وثلاث بنات.

وكانت الصاحبة غازية من أحسن النساء سيرة وزهداً وعبادة، وحفظت الملـــك لولدها المنصور حتى كبر، وسلمته إليه، وقد توفيت عام ٦٥٦/ ١٢٥٨[4].

٢-٢ فاطمة:

وهي شقيقة الملك العادل أبي بكر الثاني، ووالدها الست السوداء، وهي زوجـــة صاحب حلب الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الديـــن، ففـــي عـــام ١٢٢٩/٦٢٦ قدم القاضي بهاء الدين بن شداد ومعه أكابر حلب وعدولها إلى دمشق، بينما كان الملك الكامل يحاصر دمشق ليطلب زواج الملك العزيز من الخاتون فاطمـــة، فخرج الملك الكامل من معسكر الجند بمسجد القدم بدمشق إلى لقائه، فقـــدم ابـــن شداد تقدمه كان قد أرسلها الملك العزيز، وأجرى عقد زواج الملك العزيـــز علـــى

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٢٧/٤.
(٢) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢٤٥/٣.
(٣) المقريزي، السلوك، ٢٨٣/١.
(٤) أبو الفدا، المختصر، ١٩٦/٣.

الخاتون فاطمة ابنة الملك الكامل الأمير عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ على صداق يبلغ خمسين الف دينار[1].

وقد خلع الملك الكامل على القاضي بهاء الدين ابن شداد وعلى أصحابه بعد فتح دمشق[2]، وفي عام ١٢٣١/٦٢٨ بلغ الملك العزيز الثامنة عشرة فسير القاضي ابن شداد إلى الملك الكامل في مصر لإحضار زوجته، فأقام حوالي السنة، ثم سار بالستر العالي فاطمة إلى حلب[3]، وخرج معهما الأمير فخر الدين البانياسي، وقاضي العسكر الشريف شمس الدين.

٢-٣ عاشوراء:

وهي أخت الملك العادل، وابنة الست السوداء، تزوجت من الملك الناصر داود صاحب الكرك، ففي عام ١٢٣١/٦٢٩ خرج الملك الكامل جريدة إلى الشوبك، فتلقاه الناصر داود بن أخيه الملك المعظم[4]، فعقد له على ابنته عاشوراء في منزلة اللجون[5]، ثم اختلف الزوجان وتفارقا.

وفي عام ١٢٣٧/٦٣٤ رحل الملك الناصر داود إلى القاهرة مع القاضي الأشرف، فسر الملك الكامل بزيارته، وأنزله بدار الوزارة، وقلده الكامل دمشق، وجدد عقده على زوجته عاشوراء خاتون[6].

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢٧٣/١.

(٢) م.ن، ٢٨٣/١، أبو الفدا، م.س. ١٥٢/٣.

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢١٤/٤، ابن الوردي، تتمه المختصر، ١١١/١.

(٤) المقريزي، م.س، ٢٠٣/١.

(٥) اللجون بلده في الأردن، ياقوت، معجم البلدان، ٣٥١/٤.

(٦) أبو الفدا، المختصر، ١٥٩/٣.

خامساً: تولى الملك الكامل السلطنة.

كان الملك الكامل نائباً لوالده الملك العادل في حران، وكلفه عـام ١١٩٩/٥٩٥ باحتلال ماردين كما مر سابقاً.

وفي عام ١٢٠٠/٥٩٦ استدعى الملك العادل ابنه الملك الكامل إلى مصر ليستنيبه عليها، وكان بحران نائبا لوالده هناك، فسلم تلك الولاية إلى أخيه الفائز، وانطلـق إلى القاهرة، ومعه شمس الدين المعروف بقاضي دارا، وهو وزيـره ومسـتحثه علـى المكارم، ومثيره فأنشده[1].

أَنْتُم تُحِبّون بالإعرَاضِ تَعْذيبِي	وتَقْصِدونَ بخُلْقِ الصَّدِ تَهْذيبِي
سَاروا فيَاصحتي مِنْ مُهجَتي ارتَحِلي	غَابُوا فيَاسِنتي عن مُقْلتي غِيبِي
قَدْ كانَ يَهْضُمُني دَهْري فَأَدَركني	مُحمدُ بن أبِي بَكرِ بن أيوبِ
الكاملُ المالك الإملاكَ حَيْثُ لَهُ	رَقْمُ الأعاجِمِ مِنْهمُ والأعَاريبُ
مَعْطَّرٌ عُرْفه عُرْفا ومَكْرهــةُ	مَخمرٌ طِينُه بالطُّهرِ والطِّيبِ
لا يدَّعِي جُودَه البَحْرُ الخِضَمّ ولا	يَلقَى تابيةَ في الشُّم الشَناخيب
دَعَتْكَ مِصْرُ إلى سُلطانها فأجِبْ	دُعاءَها فَهوُ حقٌ غيرُ مكذوبِ

وصل الملك الكامل القاهرة ٢٢ رمضان ١٢٠٠/٥٩٦، ونصبه والده نائبا لـه بديار مصر[2] "ركب الملك الكامل مثل والده، معقوداً سنجقه بمعـاقده، والمنـاصل مجذوبه، والصواهل مجنوبة، والأعين ناظرة، والألسن ذاكرة، ومشى في ركابـه مـن

(١) أبو شامه، الروضتين، ٢٣٩/٢.

(٢) أبو شامة، م.ن، ٢٣٩/٢.

إليه تحبب"[1]، وبعد أيام غادر الملك العادل القاهرة متجهاً إلى نابلس لمواجهة الصليبيين.

وركب الكامل يوم الخميس ٢٧ شوال إلى برج المقسم[2]، حيث يتبرك به الأبرار، وبعد أيام قدم إلى مصر أخو الملك العادل لأمه فلك الدين من دمشق، وخطب للعادل وابنه الكامل في مساجد مصر[3] ولما توفي الأمير بهاء الدين قراقوش[4] عام ١٢٠١/٥٩٨ تسلم الملك العادل داره بما حوته من الذخائر، ثم صارت داره واقطاعاته للملك [5].

وفي عام ١٢٠٦/٦٠٤ أعطى الملك الكامل مملكة مصر، ورتب عنده القاضي الأعز فخر الدين مقدام بن شكر[6]، وفي عام ١٢١٢/٦٠٩ فوض الملك العادل تدبير مصر، والنظر في أموالها ومصالحها إلى ابنه الملك الكامل، وقد رافق الملك الكامل[7] والده في كثير من المواقف في حران ومصر، وأكسبته تلك المصاحبة خبرة سياسية وتجربة عسكرية[8].

توفي الملك العادل في قرية عالقين عام ١٢١٨/٦١٥[9]، ولم يعلم بموته إلا مرافقه الكريم الخلاطي، فأرسل إلى ابنه الملك المعظم في نابلس، فحضر يوم السبت

---

(١) أبو شامة، م.ن.

(٢) برج المقسم موقع على شاطئ النيل، وفيه مسجد يتبرك به الأبرار، والمقسم هو المكان الذي قسم فيه القادة المسلمون الغنيمة بين الجند أثر فتح مصر بعد معركة عين شمس، (أبو شامة، الروضتين، ٢٣٩/٢).

(٣) م.ن.

(٤) كان بهاء الدين قراقوش أحد كبار أمراء الدولة الصلاحية(الكامل، ٢٥٦/٩).

(٥) أبو شامة، م.س، ٢٤٤/٢، ابن الأثير، م.س، ٢٥٦/٩.

(٦) المقريزي، السلوك، ٢٠٢/١.

(٧)م.ن، ٢١١/١.

(٨) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٧٤/٣.

(٩) عالقين قرية بظاهر دمشق، المقريزي، م.س، ٢٢٤/١، أبو الفدا، المختصر، ١١٩/٣.

السابع جمادى الآخرة، واحتاط على الخزائن[1] وصبّر العادل، ووضعه في محفة، وأظهر أنه مريض ونقله إلى دمشق حيث دفن بالقلعة، فاختبط الناس حتى ركب المعظم وسكّنهم، ونادى في البلد "ترحّموا على السلطان الملك العادل، وادعوا لسلطانكم الملك المعظم أبقاه الله"، فبكى الناس، واشتد حزنهم لفقده[2].

علم الملك الكامل بوفاة والده، وهو بالعادليه على محاربة الفرنج، فجلس للعزاء ثلاثة أيام، ثم تفرد بالخطبة في ديار مصر وأعمالها، واستقل بأمورها، وتدبير أحوالها، وذلك يوم الجمعة السابع من جمادى الآخرة ٦١٥هـ-١٢١٨م[3]، واتخذ الملك الكامل الراية الصفراء، وفيه يقول البهاء زهير[4].

بِكَ اهتزَّ عِطْفُ الدِّين في حُلَلِ النَّصْرِ   وَرُدَّتْ على أَعْقابِها مِلَّةُ الكُفْرِ

واتسعت دولة الملك الكامل قبل وفاته، فقال ابن خلكان ولقد حكى لي من حضر الخطبة يوم الجمعة. بمكة أنه لما وصل الخطيب إلى الدعاء للملك الكامل قال[5]: "سلطان مكة وعبيدها، واليمن وزبيدها، ومصر وصعيدها، والشام وصناديدها، والجزيرة ووليدها، سلطان القبلتين، ورب العلامتين، وخادم الحرمين الشريفين الملك الكامل، أبو المعالي ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين".

وكانت مدة حكم الملك الكامل حوالي عشرين سنة، وشبهت الفترة الزمنية لحكم الملك الكامل بحكم معاوية بن أبي سفيان، فإنه تولى الشام عشرين سنة، وحكم

---

(١) ابن تغري بردي النجوم الزاهرة، ٢٣٦/٦.

(٢) المقريزي، السلوك، ٢٢٦/١.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٢٢٧/٩.

(٤) ابن تغري بردي، م.س، ٢٣٦/٦.

وأقسِم إنْ ذاقَت بنو الأَصْفَرِ الكَرَى   لَمَا حَلَمَتْ إلا بأعلامَكَ الصُفرِ

ثلاثة أعْوام أقمتَ وأشهراً   تُجاهدُ فيهِم لا بزيدُ ولا عَمْروِ

وليلة غَزْوٍ للعَدُوِ كَأنّهــا   بكثرةِ مَنْ أَرْدَيْته ليلةُ النَحْر

(٥) ابن تغري، م.ن، ٢٣٤/٦؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٧٥/٤.

البلاد مدة عشرين سنة أخرى، وكذلك الملك الكامل حكم مصر عشرين عاماً، ومثلها كان نائبا لوالده في مصر[1].

سادساً: محاولات خلع الملك الكامل.

كثرت محاولات خلع الملك الكامل والتمرد عليه بالرغم من شجاعته، وحسن تدبيره، فكثر عنده الشك في مدى إخلاص العاملين من القادة والوزراء، فكان كلما شك في إخلاص بعضهم عزلهم، وصادر أموالهم، كما سنرى.

أ- مؤامرة ابن مشطوب:

لاحظنا في وقت سابق أن أمراء الجيش الأيوبي أخذوا يشكلون دوراً واضحاً في الصراع بين الملوك الأيوبيين بعد وفاة صلاح الدين، "فتارة يميلون إلى الملك العزيز، وتارة إلى الملك الأفضل، ومرة أخرى يميلون إلى الملك العادل، ولم يكن هذا الدور يخدم الدولة بقدر ما يحقق مصالح الأمراء"[2].

وكان الأمير عماد الدين أحمد بن الأمير سيف الدين أبي الحسين علي بن احمد الهكاري، المعروف بابن المشطوب[3] أحد الأمراء الذين يستغلون الفرص، فعندما توفي الملك العادل عام ١٢١٨/٦١٥، وأثناء مرابطة الملك الكامل في منزله العادليه قرب دمياط، اتفق وكبار أمراء الجيش مع الملك الفائز سابق الدين إبراهيم بن الملك العادل على خلع الملك الكامل[4] وتفويض الأمر إليه[5]، وكان ابن المشطوب راغباً في

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٥٥/٥.

(٢) للمزيد ينظر ابن المشطوب، الكامل، (٩/٢٢٠-٢٥٠).

(٣) كان ابن المشطوب أحد قادة الجند المرابطين في العادلية أثناء الحملة الصليبية على دمياط عام ١٢١٧/٦١٤، وكان له لفيف من الأكراد الهكارية ينقادون إليه ويطيعونه، وكان وافر الحرمة عند الملوك الأيوبيين، معدودا بينهم، معروفا بعلو الهمة، كثير الجود، واسع الكرم والشجاعة، وقد وافقه في حركته الأمير عز الدين الحميدي، والأمير أسد الدين الهكاري وعدد آخر من الأمراء: (ابن الأثير، الكامل، ٣١٦/٩).

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٧١/٤.

(٥) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٦٠٢/٨.

التخلص من الملك الكامل واستبداله بشقيقه الملك الفائز لصغر سنه، وعدم خبرته بالأمور، مما يتيح لابن مشطوب السيطرة على الحكم والتحكم بالبلاد[١]، ومما يؤكد ذلك ما قاله عن الملك الفائز[٢] "هذا صبي ضعيف، ولا يأتينا منه خير".

ويعلل بعض المؤرخين[٣] سبب المؤامرة "إن الملك الكامل استدعى اثنين من الأمراء الأكراد منهما عماد الدين بن المشطوب، وطلب منهما الدخول إلى دمياط بعساكرهما...... لحمايتها، وذلك لثقته بهما أكثر من غيرهما، فأجابه الأميران بأنهما قد قدما لخدمته، وأنهما لا يمانعان في دخول المدينة، ورجواه أن يدخل معهما أحد أولاده حتى يهتم بالدفاع عن المدينة، ويحميها، ولا يهملها كما فعل صلاح الدين الأيوبي عندما ترك والد عماد الدين، ومعهم حاكم عكا أثناء حصارها من قبل الصليبيين في الحملة الثالثة، وتركها تسقط أمام عينه، فغضب الملك الكامل، واعتقد ابن المشطوب أن الكامل سيلقي القبض عليهما، فسلحا رجالهما، وقالا "إنه خير لهما أن يموتا وهما يدافعان عن أنفسهما من أن يقبض عليهما".

انتشرت مؤامرة ابن المشطوب بين الناس، فلما بلغ الملك الكامل ذلك دخل على المتآمرين، فإذا هم مجتمعون، وبين أيديهم المصحف الكريم يحلفون لأخيه الفائز[٤]، فعندما رأوه تفرقوا، فخشي الملك الكامل على نفسه وفارق العادليه[٥]، لأنه لا يستطيع مواجهتهم بسبب مكانة المتآمرين[٦]، وانشغاله بالتصدي للافرنج على حدود دمياط.

---

(١)ابن الأثير، الكامل، ٣١٦/٩.

(٢) ابن أيبك، كنـز الدرر، ١٩٩/٧.

(٣) Eracles, Recueil des Historiens des croisades, H.Occ, Vol.٢. P.٣٣٥.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ٩٩/١٣.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٧/٤.

(٦) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٧١/٤.

فكر الملك الكامل الاتجاه إلى اليمن[1]، بعد ما تيقن من المؤامـــرة، واختـــلاف العسكر عليه، ولكنه صبر وطول روحه مع المتآمرين[2]، وأخذ يداريهم حتى يتمكـــن منهم، واستدعى الصاحب صفي الدين بن شكر من آمد، فلما وصل تلقاه وأكرمـــه، وأبلغه بأخبار المؤامرة، فشجع الصاحب الملك الكامل على الصبر على المتـــآمرين[3]، وبلغ الملك المعظم ذلك فاتجه إلى مصر، ووصل إلى أخيه الملك الكامل بعد يومـــين[4]، قوى قلب الملك الكامل، واشتد أزره بأخيه، وأطلعه الكامل على أســـرار المؤامـــرة وتفاصيلها[5]، فوعد الملك المعظم بإزالة جميع المفاسد[6].

وذات يوم ركب الملك المعظم إلى خيمة الأمير ابن المشطوب، وعلى حين غفلـــه منه، واستدعاه للركوب معه للمسايرة، وقال له "أريد أن أتحدث معك سراً في خلـوة" وأعجله حتى يلبس ثيابه، فاستجاب له ابن المشطوب، اعتقاداً منه بأن الملك المعظـــم استدعاه للاتفاق معه على خلع الملك الكامل، لا سيما بعد ما قال لـــه[7] "أريـــد أن نخرج ونبتعد، ونتحالف على أمر يكون فيه صلاح المسلمين".

اطمأن ابن المشطوب للملك المعظم، وركب معه، و لم يزل الأخير يساير ابـــن المشطوب، ويشغله بالحديث حتى أبعده عن معسكر الجيش، فالتفت إليـــه المعظـــم، وقال له[8] "يا عماد الدين هذه البلاد لك، ونشتهي أن تهبها لنا" وأعطاه نفقته، وسلم

---

(١) أبو الفداء، المختصر، ١٢/٣.

(٢) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢٠٢/٢.

(٣)ابن خلكان ، وفيات الأعيان، ٧٢/١.

(٤) ابن الأثير ، الكامل، ٣١١/٦.

(٥) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، ٢٣٠/٦.

(٦) ابن واصل، م.س، ١٧/٤.

(٧) ابن تغري بردي، م.س، ٢٣٠/٦.

(٨) ابن أيبك، كنـــز الدرر، ١٩٩/٧.

ابن المشطوب إلى جماعة يعتمد عليهم ويثق بهم، وأمرهم أن يلازموه إلى بلاد الشام، فساروا به إلى حماه، فنزل عند صاحبها الملك المنصور، ومعه أربعة من خدمة.

اغتاظ ابن المشطوب وعاهد نفسه أن ينتقم من الملوك الأيوبيين[1]، فاتصل بالملك الأفضل وسلطان السلاجقة لمساعدته على انتزاع بلاد الملك الأشرف، إلا أن المؤامرة لم تنجح، واعتقل ابن المشطوب وبقي في السجن بحران إلى أن مات عام ٦١٩/١٢٢٢[2].

عاد الملك المعظم إلى أخيه الملك الكامل بعد أن اطمأن إلى سفر ابن المشطوب، وأعلمه بما جرى، ثم طلب من أخيه الملك الفائز أن يمضي إلى الملوك الأيوبيين بالشام والشرق رسولا عن الملك الكامل، لإحضار النجدة لاستنقاذ دمياط وأرض مصر من الصليبيين.

سار الملك الفائز إلى دمشق ثم إلى الشرق[3]، ولما خرج ابن المشطوب والملك الفائز[4] من معسكر الجند تحللت العزائم بين من بقي من المتآمرين، ودخلوا في طاعة الملك الكامل كرها لا طوعاً، فانتظم أمر الكامل، وقوي ساعده، وترتبت قواعد ملكه[5].

ولما استراح خاطر الملك الكامل من جهة الصليبيين، وانتصر في دمياط تفرغ للأمراء المتآمرين، وركب من قلعة الجبل إلى منظرة الوزير الصاحب صفي الدين بن

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٧١/٤.

(٢) المقريزي، السلوك، ٢٣٣/١.

(٣) ابن خلكان، م.س، ١٧١/٤.

(٤) الملك الفائز هو غياث الدين إبراهيم بن العادل، كان قد انتظم له الأمر في ملك مصر على يدي الأمير عماد الدين بن المشطوب وصحبه إلا أن الملك الكامل تدارك الأمر، وأرسله إلى أخيهما الأشرف موسى يستحث نجدته ضد الصليبيين، فمات في سنجار مسموماً، (ابن الكثير، البداية والنهاية، ١٠٠/١٣).

(٥) ابن تغري بردي، النجوم، ٢٣١/٦.

شكر التي على الخليج بمصر، وتحدث في نفي الأمراء الذين حاولوا خلعه، وكـــانوا في جيزة دمياط لعمارتها، فكتب لهم الملك الكامل بالتوجه من أرض مصـــر إلى حيـــث شاءوا، فمضوا بأجمعهم من الجيزة إلى الشام، و لم يتعـــرض الكـــامل لشـــيء مـــن موجودهم[١]، وفرق أخبازهم على مماليكه، وبذلك تبدد شمل المتآمرين، وتشـــردوا، ودخل الملك الكامل القاهرة، وهو مطمئن[٢].

ب- مؤامرة الملك الصالح نجم الدين أيوب:

استعرضت في الصفحات السابقة حياة الملك الصالح نجم الدين أيوب، وبينت أن الملك الكامل عهد إليه عام ١٢٢٨/٦٢٥ بالسلطنة عندما اتجه إلى بـــلاد الجزيـــرة في زيارة تفقدية، وبينما كان في حران ورد خبر وفاة ابنه الملك المسعود فكتمه[٣].

وفي عام ١٢٣٠/٦٢٧ عاد الملك الكامل إلى الرقة يريد مصر، فوصلته رسالة من زوجته أم الملك العادل تشكو فيها ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب[٤]، وتتهمه فيـــها أنه عزم التوثب على أخذ الملك[٥]، وأنه أخذ مالا جزيلا من التجار، واستنفد قســـماً مما في الخزينة من مال، واشترى جماعة كبيرة من المماليك الأتراك، وألف منهم حرســه

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢٤٨/١.

(٢) ابن حلكان، وفيات الأعيان، ١٧٢/٤.

(٣) المقريزي، م.س، ٢٥٧/١.

• وكان الكامل قدتغير على بعض أخوته وهو الفائز إبراهيم فاصلح قضيته صلاح الدين أحمد بن عبد السيد بن شعبان الأربلي وكتب إلى الكامل:

وشرط صاحب مصر أن يكون كما ... قد كان يوسف في الحسنى لاخوته

اسوا فقابلهم بالعفو وافتقروا ... فبرهم وتولاهم برحمتـــه

(ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ٦٦/٤).

(٤) ابن خلكان، م.س، ٢٧٨/٤.

(٥)ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٧٨/٤.

الخاص به، وقالت في رسالتها[1] "ومتى لم تتدارك البلاد، وإلا غلب عليها، وأخرجني أنا وابنك الملك العادل منها".

انزعج الملك الكامل، وغضب غضباً شديداً، وما لبث أن وصلته رسالة ثانية من زوجته، تستعجل فيها عودته، وتقول فيها "بأن ابنه الصالح اشترى ألف مملوك". رتب الملك الكامل أمور البلاد الشرقية، فعين الطواشي شمس الدين صواب العادلي نائبا له في أعمال المشرق، وأعطاه اقطاع أمير فارس زيادة على ما بيده من الديار المصرية.

توجه الملك الكامل إلى مصر، فوصلها في رجب عام ٦٢٧/١٢٣٠، وتغير على ابنه الملك الصالح تغيراً كثيراً، وقبض على جماعة من أصحابه وسجنهم، وألزمهم في إحضار الأموال التي فرط فيها الملك الصالح، ثم خلع ابنه من ولاية العهد[2]، وعهد إلى ابنه الملك العادل، وكان في الحادية عشرة من عمره، وكان شديد الميل إليه وإلى والدته[3].

جـ- تخوف الملك الكامل من الأمراء:

كان الملك الكامل كثير الوهم من الأمراء والعاملين معه، ففي عام ٦٢٢/١٢٢٥ تخوف من أمرائه لميلهم إلى أخيه الملك المعظم صاحب دمشق، وقبض على جماعة منهم، وأرسل إلى الطرقات من يحفظها[4]، وفي عام ٦٢٣/١٢٢٦ كثر وهم الملك الكامل من عسكره، إذ أرسل الملك المعظم إليه في جملة الكلام[5] "وإن قصدتني لا آخذك إلا بعسكرك"، فوقع الخوف في نفس الملك الكامل ممن معه، ولم يجسر الخروج من مصر، وفي عام ٦٢٤/١٢٢٧ أراد الملك الكامل أن يقصد دمشق لدى سماعه أن

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢٧٧/١.

(٢) المقريزي، الخطط، ٣٣٨/٣.

(٣) ابن واصل، م.س، ١٣٦/٣.

(٤) المقريزي، السلوك، ٢٥٢/١.

(٥) م.ن.

الملك المعظم قطع الخطبة له، فبعث إليه المعظم رسالة يقول فيها[1] "إني نذرت الله تعالى أن كل مرحلة ترحلها لقصدي أتصدق بألف دينار، فإن جميع عسكرك معي، وكتبهم عندي، وأنا آخذك بعسكرك" عاد الملك الكامل إلى قلعة الجبل، وقبض على عدة أمراء، ومماليك أبيه لمكاتبتهم الملك المعظم، منهم[2] فخر الدين الطنبا الخبيشي، وفخر الدين الطن الصوفي، وكان جانداره، وقبض أيضاً على عشرة أمراء من البحرية العادلية، واعتقلهم، وأخذ سائر موجودهم، وأنفق في العسكر ليسير إلى دمشق.

وفي عام ١٢٣٣/٦٣٠ قبض على جماعة من الأمراء المصرية شك في إخلاصهم له[3]، وقبض الملك الكامل على كثير من الأمراء والموظفين الذين شك في إخلاصهم، كأولاد الصاحب صفي الدين بن شكر، تاج الدين يوسف وعز الدين محمد[4].

سابعاً: وفاة الملك الكامل.

مرض الملك الكامل بعد أخذ دمشق، وكان مرضه السعال والإسهال والنقرس في رجليه،[5] وكان ينشد أثناء مرضه[6].

يَا خَليليَّ خَبّراني بِصِدْقٍ   كَيْفَ طَعمُ الكَرى فَإنّي نَسيتُهُ

أصاب الملك الكامل زكام عندما دخل قلعة دمشق، فدخل إلى الحمام وصب على رأسه ماء شديد الحرارة[7]، فانحل زكامه لوقته، وهو لا ينبغي أن يعمل على إطلاقه[8].

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢٩٠/١.
(٢) م.ن، عقد الجمان، ج١٨، ق٢٨/١.
(٣) م.ن.
(٤) م.ن عقد الجمان، ج١٨، ق٤٨/١.
(٥) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٧٠٨/٨، ومفرج الكروب، ١٥٤/٥.
(٦) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٧٥/٤.
(٧) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢٤٣/٢.
(٨) ابن تغري بردي، النجوم، ٢٣٧/٦.

ولما حضر الطبيب موفق الدين إبراهيم نهى الكامل عن القيء، كما نهاه الأطباء الذين حضروا لعلاجه، فاتفق أن تقيأ، فانصبت بقية المادة إلى قصبة الرئة أي فم المعدة، فتورمت وعرضت له حمى شديدة[1] أدت إلى وفاته يوم الأربعاء الموافق الحادي والعشرين من شهر رجب عام ٦٣٥/١٢٣٨ وعمره ٦٠ عاما[2].

وقد ذكر ابن الوردي[3] أن الأطباء نهوه عن التقيء ثانية، وقالوا إن تقيأ هلك، فخالفهم وتقيأ فهلك لوقته، ودفن بالقلعة ثم نقل إلى تربته بجامع دمشق، وفتح له شبابيك على الجامع.

أخفيت وفاة الملك الكامل إلى وقت صلاة يوم الجمعة، فلما دنت الصلاة وقف بعض الدعاة على العريش الذي بين يدي المنبر، وترحموا على الملك الكامل، ودعوا لولده الملك العادل صاحب مصر، فضج الناس ضجة واحدة، وكانوا قد أحسوا ذلك، ولكنهم لم يتحققوه إلا ذلك اليوم[4].

وقد رثاه ابن واصل حيث قال فيه[5].

وَلَوْ خُلدَ المَلِكُ العظيمُ جَلا جِلا	حَوى المُلكَ وانْقَادَتِ إلى أَمرِهِ الأُمم
لَخلّدَ فِينَا الكاملُ الملكُ الذي	له خَضَعتْ غُلبُ المَمالِك والقِممُ

و لم يخلف الملك الكامل رجلا قادراً على إدارة الدولة الأيوبية يرتفع إلى مستوى المسؤولية لإدارة البلاد، فقد تجدد الخلاف بين الأمراء الأيوبيين في جميع أقاليم الدولة فضلاً عن النـزاع بين أولاده للحصول على السلطة[6].

---

(١)ابن واصل، مفرج الكروب، ١٢٧/٤.

(٢) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٧٠٦/٨؛ أبو الفدا، المختصر، ٦١/٣.

(٣) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢٤٣/٢.

(٤) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ، ١٧٣/٥.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم، ٢٣٧/٦.

(٦) ابن واصل، م.س، ١٢٨/٤.

وبذلك يمكن أن تعد وفاة الملك الكامل نذيراً باستفحال خطر التفكك في الدولة ومظهراً من مظاهر تعرض الجزء الشمالي الشرقي من الجزيرة لخطرين هما:

- سلاجقة الروم.
- الخوارزميون الذين شكلوا جماعات مخربة في الجزيرة، فقد أخذت تدمر وتغزو وتنهب.

وهكذا وضحت حياة الملك الكامل وثقافته، وسماته الرئيسة التي اكتسبها، ونشاطاته العسكرية والسياسية في المشرق في عهد والده الملك العادل، وبينت فكرة عن أفراد أسرته، وتوليه الحكم، ووفاته، وسأعالج في الفصول اللاحقة كيف أثرت هذه الحياة في تفكير الملك الكامل ومعالجته للقضايا المختلفة سواء في الأمور الداخلية أو الخارجية.

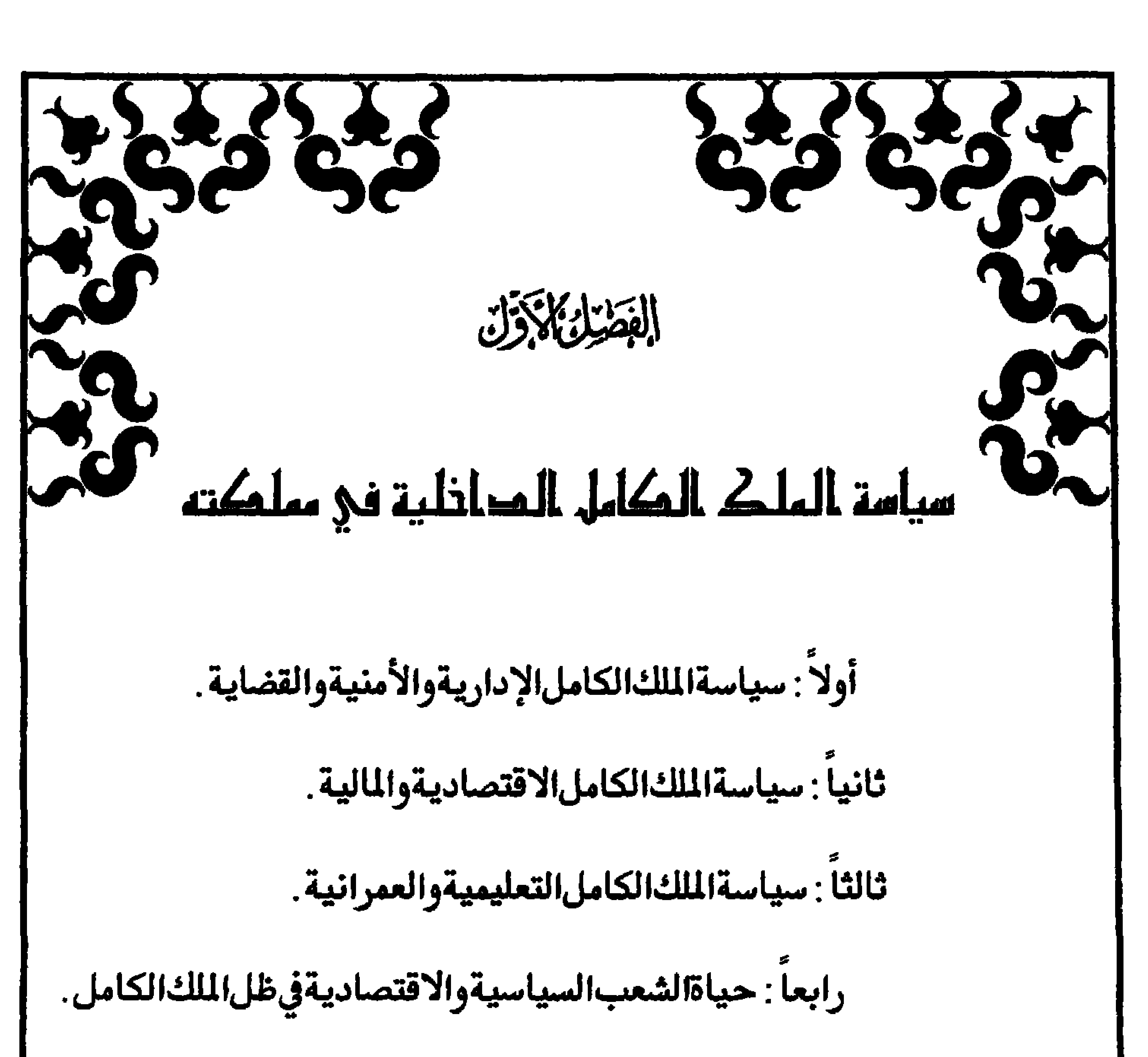
الباب الثاني

سياسة الملك الكامل الداخلية

عالجت في هذا الباب سياسة الملك الكامل في الشؤون الداخلية، وقد قسمت الباب إلى ثلاثة فصول، فخصصت الفصل الأول لسياسة الملك الكامل في البلاد التي يملكها في مصر وبلاد الشام والجزيرة الفراتية.

وتحدثت في الفصل الثاني عن سياسة الملك الكامل في الممالك الأيوبية ومدى تعاونه وأصحابها، والعلاقات التي كانت تربطه بين الحين والآخر وفقاً لتغير الأحداث، والمواجهات والتحديات التي كانت تتعرض لها هذه الممالك، سواء للأحداث الداخلية منها أو الخارجية.

ووضحت في الفصل الثالث سياسة الملك الكامل وتعامله مع الأقطار الإسلامية، ورأيت أن هذه السياسة هي جزء من السياسة الداخلية للملك الكامل، على أساس أن الممالك الإسلامية تربطها رابطة الولاء للخليفة العباسي، وهي دولة واحدة، ولكنها انقسمت إلى عدد من الممالك التي تسير في فلك الخليفة العباسي، وتدين له بالولاء، وتسك النقود باسمه، ويُدْعى له من على المنابر، كما أنه هو الذي يصدر مراسيم تعيين حكام هذه الممالك ويخلع عليهم.



الفصل الأول

سياسة الملك الكامل الداخلية في مملكته

أولاً : سياسة الملك الكامل الإدارية والأمنية والقضاية .

ثانياً : سياسة الملك الكامل الاقتصادية والمالية .

ثالثاً : سياسة الملك الكامل التعليمية والعمرانية .

رابعاً : حياة الشعب السياسية والاقتصادية في ظل الملك الكامل .

خامساً : بعض رجالات الملك الكامل .

الفصل الأول

سياسة الملك الكامل الداخلية في مملكته

سار الملك الكامل على درب من سبقه من الحكام، في تسيير شؤون البلاد، وكان قد اكتسب عن والده الملك العادل بعض الخبرات السياسية والإدارية عندما كان مرافقاً له في المشرق، وأثناء توليه حكم الجزيرة ومصر نيابة عن الملك العادل.

استقل الملك الكامل في السلطة بعد عام ٦١٥/١٢١٨، واحتكر النشاطات والسلطات المختلفة وفق سياسة رسمها وبعض معاونيه من العناصر التركية والكردية والتركمان، فيما حرص على استرضاء رجال الدين، ومنحهم بعض الامتيازات كالإعفاء من الضرائب، ذلك أن الإسلام كان المظهر الأساسي للدولة، وكسب ثقة الأئمة المسلمين يعزز مكانة الملك بين الناس.

وقد اهتم الملك الكامل بالخدمات الأساسية التي تحتاج إليها البلاد، ولا سيما الزراعة، والري، والتعليم، والأمن...الخ.

وقسمت سياسة الملك الكامل الداخلية إلى عدد من المحاور، تشمل شؤون البلاد الداخلية، وركزت على أبرز المنجزات التي حققتها سياسة الملك الكامل، فشمل المحور الأول السياسة الإدارية والأمنية والقضائية، والاهتمام بالعدل ومعاقبة المجرمين والمتلاعبين بمصالح البلاد العامة، ووضحت في المحورين الثاني والثالث الخدمات العامة الرئيسة ولا سيما في ميدان الاقتصاد والعمران والتعليم، وتحدثت في المحور الرابع عن حياة العامة في ظل الأوضاع السياسية والاقتصادية التي سادت البلاد خلال حكم الملك الكامل، وأنهيت الفصل باستعراض بعض تراجم الشخصيات التي أعانت الملك الكامل في تطبيق سياسته الإدارية والأمنية، والقضائية والتعليمية والعمرانية والزراعية والصناعية، والتجارية.

أولاً: سياسة الملك الكامل الإدارية والأمنية والقضائية.

كان الملك الكامل الولد الثاني للملك العادل بعد مودود[1]، ولكن شجاعته، واستقامة رأيه أهلتاه لكسب ثقة والده[2] فعينه نائباً له في حران، وعندما أصبح مستقلاً في مصر اهتم بشؤون البلاد، وسعى إلى تنشيط أجهزتها المختلفة.

وكان الملك الكامل يتمتع بجميع السلطات، إذ كان يشرف على جميع شؤون الدولة الداخلية، والخارجية، ويرسم سياستها، فهو الذي يعين ويعزل ولي العهد[3] ونائب الملك، والوزير وأمراء الجيش، والقضاة، ونظار الدواوين، وكبار الموظفين، ويعقد المعاهدات ويعلن الحرب، وكان يساعده عدد من القادة، والوزير، ونواب الولايات والولاة.

وكان يساعد الملك الكامل.نائب له في كل ولاية، وكان النائب يقوم مقام الملك في شؤون ولايته كافة، فهو النائب، وقائد الجيش، وينفذ القوانين، ويوقع المراسيم، ففي عام ٦٣٠/١٢٣٢ عين شمس الدين صواب العادلي نائباً له في المنطقة الشرقية[4]، وعندما توفي الأخير، أصبح الملك الصالح أيوب نائبه على هذه البلاد[5].

---

(١) انظر ملحق رقم ٧ (قائمة بأسماء أبناء الملك العادل).

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٢٨/٦.

(٣) كان ابنه الملك الصالح ايوب ولي عهده ونائباً له، وما لبث أن عزله عندما اتهمته زوجته (أم الملك العادل) بمحاولة التسلط على الدولة، وصادر أولاد صفي الدين بن شكر، والقاضي أحمد بن القاضي الفاضل.

(٤) المقريزي، السلوك، ٣٧٨/١.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ٢٦١/٩. ماير، تاريخ الحروب الصليبية.

* حرص الملك الكامل على إبراز مكانته بين الملوك فقام بصناعة الخلع السلطانية المطرزة بالذهب، أو بحرير ملون لإهدائها للملوك الايوبيين، وقد أبرزت هذه الخلع قدرة الحاكه الذين يصنعونها، وغيرها من الملابس التي يستخدمها الملك الكامل (القلقشندي، صبح الأعشى، ٣٩/٤) كغطاء الرأس الأصفر اللون الذي كان يصنع من الجوخ الأصفر، والذي كان يستخدم بدلا من العمامة، فضلاً عن الاقبية البيض أو المشجرة بالأزرق والأحمر ذات الأكمام الضيقة (القلقشندي ٨/٤)، واتخذ الملك الكامل الأعلام الصفر تمييزاً لمملكته، وكانت تصنع من الحرير الأصفر، ويطرز بعضها بالخيوط الذهبية، وتظهر ألقاب السلطان، كما كان بعضها يتكون من قطعة قماش من الأطلس الأصفر المزركشة بالذهب، وكانت هذه القطع توضع على رقبة حصان الكامل أثناء الاحتفالات (القلقشندي ٨/٤).

استوزر الملك الكامل الصاحب صفي الدين بن شكر ست سنوات من ١٢١٩/٦١٦ إلى أن مات عام ١٢٢٥/٦٢٢[١]، وكان الوزير الصاحب جباراً، ففي سنة ١٢٠٥/٦٠٢ قبض على الأسعد أبي المكارم بن مهدي بن مماتي صاحب الديوان وعلقه برجليه[٢] كذلك قبض على الأمير عبد الكريم أخي القاضي الفاضل وأجبره على دفع عشرين ألف دينار، وأخذ من شرف الدين إبراهيم بن عبد الرحمن بن قريش خمسة آلاف دينار[٣]، وضرب الفقيه نصراً في وجهه بالدواة[٤].

أوقع الوزير صفي الدين بن شكر بعدد من كبار رجال الدولة، وصادر أكابر كتاب الدولة، واستصفى أموالهم[٥] ففر القاضي الأشرف أحمد بن القاضي الفاضل إلى بغداد خوفاً منه، وأحضر كتاب شفاعته من الخليفة الناصر لدين الله، وفر الأسعد بن مماتي صاحب ديوان المال وعلم الدين بن أبي الحجاج صاحب ديوان الجيش إلى حلب، فأكرمهما الملك الظاهر، وبقيا في حلب إلى أن ماتا.

أخذ الملك الكامل يباشر الملك بنفسه بعد وفاة صفي الدين بن شكر من غير اعتماد على أحد في تدبير الأشغال في بعض الأحيان، وأقام معين الدين بن شيخ الشيوخ، ذات مرة، وسماه خلالها نائب الوزارة[٦]، ومرة أخرى أقام تاج الدين يوسف بن صفي الدين بن شكر.

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٦٣/٦.

(٢) المقريزي، السلوك، ١٩٨/١.

(٣) كان ابن قريش كاتب ديوان الإنشاء وكان له فندق ابن قريش ت١٢٤٥/٦٤٣، المقريزي، المواعظ والاعتبار، ٦١/٢.

(٤) المقريزي، السلوك، ١٩٩/١.

(٥) القلشندي، صبح الأعشى، ٤٦٦/٥.

(٦) المقريزي، الخطط، ١٥٦/٢.

واعتمد الملك الكامل على الأتراك والأكراد وأصحاب الاقطاعات إلى حد كبير في تسيير دفة الحكم[1].

حافظ الملك الكامل على التقسيمات الإدارية التي كانت سائدة في عهد والده الملك العادل، فكان والي القاهرة هلال الدولة وشاب بن رزين ت٦٠٥/١٢٠٨، وكان الأمير فخر الدين بن علي إسماعيل بن كهذا والياً على الإسكندرية ت ٦١٠/١٢١٣.

أ- توفير الأمن الداخلي:

حرص الملك الكامل على توفير الأمن الداخلي في البلاد، وأقام في كل طريق خفراء (حراسا) للمحافظة على سلامة المسافرين[2]، وضرب على أيدي اللصوص بيد من حديد، فاطمأن الناس في سفرهم، ولا سيما أثناء أدائهم فريضة الحج، ونقل تجارتهم.

وقد عرف الملك الكامل بأنه كان "حازماً سديد الرأي حسن التدبير"[3]، وبلغ من مهابته أن الشخص كان يمر بالذهب الكثير، والأحمال من الثياب والقماش في الرمل[4] دون خوف من قاطع طريق أو سراق[5].

وحدث أنْ سُرق بساط من مسافر على الطريق بين القاهرة والاسكندرية، فأحضر الملك الكامل العربان الذين يحرسون الطريق وألزمهم إحضار السارق والبساط، فبذلوا له عوضه مالا كثيرا، ولكنه لم يقبل، وأصر على إحضار السارق، وهددهم إذا لم يفعلوا ذلك بأن يودعهم السجن، ويصادر أموالهم، فاضطروا إلى

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٦٣/٦.

(٢) المقريزي، السلوك، ٣٠١/١.

(٣) ابن تغري بردي، م.س، ٢٢٧/٦.

(٤) الرمل، تقع بين العريش والقاهرة.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٥٧/٥.

إحضار اللص، وعندما ثار بعض العربان بنواحي أراضي مصر، وكثر خلافهم واشتد ضررهم، وقف الكامل لهم وعاقبهم[1]، وكان يتدخل أحيانا في اختيار شيخ العربان حرصا على ضمان ولائهم للدولة، فعندما مات حسام الدين مانع بن حديثه أمير العربان من آل فضل[2] عام ١٢٣٣/٦٣٠ عين ابنه مكانه[3].

وتحفظ الملك الكامل عن بعض أفراد طائفة الإسماعيلية، ولا سيما عن أبناء الخليفة الفاطمي العاضد، وحصر نشاطهم، فعندما توفي الأمير داود بن العاضد استأذن بعض عناصر الطائفة لندب الأمير المتوفي والنوح عليه، أذن الكامل لهم، فخرجت النساء حاسرات الرأس في ثياب الصوف، وأخذن ندبه والنياحة عليه، واجتمع دعاة الإسماعيلية في السر، فلما تكامل عددهم وجمعهم، أرسل الملك الكامل إليهم مجموعة من الجند قبضوا على المشهورين منهم، وصادروا أموالهم[4]، ففر من بقي، ولم يجسر أحد بعدها على أن يتظاهر بمذهب الإسماعيلية.

وكان الملك الكامل يتفقد المدن والثغور بين الحين والآخر ليطمئن على أحوال الرعية، ففي عام ١٢٣١/٦٢٨ اتجه إلى الاسكندرية وتفقدها[5]، واصطحب معه صاحب الجزيرة الذي كان في زيارة لمصر بعدما أنعم عليه أنعاماً كثيرة.

كان الملك الكامل يتقبل شكاوي الناس، وينصف المظلوم أثناء جولاته المختلفة على التجمعات السكانية، فقد شكا له ركبدار إستاداره بأنه استخدمه ستة أشهر، ولم يدفع له أجوراً فأنزل الكامل استاداره عن فرسه، وألبسه ثياب الركبدار وألبس

---

(١) المقريزي، الخطط، ٣٥٣/٣.

(٢) قبائل تنتشر بين جعبر والبصرة على نهر الفرات.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣٢٤/١.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٥٧/٥.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم، ٢٣٧/٦.

الاستاداره ثيابه، وأمره بخدمة الركبدار، وحمل مداسه ستة أشهر إلى أنْ شُفِعَ فيـــه[1].
وكان المذنبون يعاقبون بقسوة تتناسب وما اقترفوه من ذنوب، فكان المذنب يطاف به في المدينة وهو راكب بالعكس على حمار، وأمامه من ينادي بما اقترف لتعريف النـــاس بذنبه وللتشهير به، علّهُ يتوب، ويرتدع في المستقبل، وكان يُحكـــم علـــى المجرمـــين المحترفين بالسجن مدداً متفاوتة طبقا لذنوبهم وأعمالهم.

لجأ الملك الصالح نجم الدين إلى ابتزاز أموال التجار لتغطية نفقاته الخاصة اثنـــاء وجود أبيه في البلاد الشرقية.

وفي عام ٦٢٧/١٢٣٠ عاد الملك الكامل إلى القاهرة، وأعـــاد إلى التجـــار مـــا اغتصبه ابنه الملك الصالح من أموال[2].

أقام الملك الكامل العدل بين أبناء الشعب، فقال ابن تغري بردي في عدلـــه[3].
"وأما عدله فاليه المنتهى" ولكن عدله كان مخلوطاً بالجبروت والظلم، فقد شنق جماعـــة من أجناده على أسوار آمد في أكيال من شعير اغتصبوها عام ٦٣١/١٢٣٣[4].

كذلك انتزع ولاية العهد من ابنه نجم الدين أيوب، عـــام ٦٢٧/١٢٣٠ وأمـــر بحبس الأمراء الذين تعاونوا معه عندما اتهم بمحاولة اغتصاب السلطة.

أقام الملك الكامل سجنا بجوار باب زويله، أطلق عليه خزانة شمائل نسبة إلى أسم والي القاهرة علم الدين شمائل[5] الذي اشتهر أثناء حصار الفرنج لمدينة دميـــاط عـــام ٦١٥/١٢٢٨، وكان يحبس فيها قطاع الطرق، وأصحاب الجرائم العظيمة ومن يحكـــم عليه بالإعدام.

---

(١) ابن واصل، م.س، ١٢٨/٤.

(٢) الباز العريني، الأيوبيون، ١٢٨.

(٣) م.ن، ٢٢٧/٦.

(٤) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ١٧٣/٥.

(٥) المقريزي، السلوك، ٢٣٤/١.

وكانت هذه الخزانة من أسوأ السجون في مصر لشمولها أصحاب الجرائم الكبيرة، إذ كانوا يعاقبون ويضيق عليهم، واستمرت هذه الخزانة قائمة إلى أن هدمها الملك المؤيد شيخ الجودي عام ٨١٨/١٤١٥[١] وبنى مدرسته مكانها.

واهتم الملك الكامل بالقضاء، وقد اعتمدت أصول المحاكمات والقضاء على التشريع الإسلامي في عهده، واشتهر معظم القضاة بالنزاهة والعدل، فلم يقبل قاضي قضاة مصر "محمد بن عين الدولة ت٦٢٩/١٢٣١" شهادة الملك الكامل في إحدى القضايا، وقال له[٢] "أنت تحكم ولا تشهد".

وقد كان ابن السكري، عماد الدين عبد الرحمن بن عبدالله بن العلي المصري الشافعي قاضي قضاة مصر قبل ابن عين، ت ٦٢٤/١٢٢٧/ تفقه على الشهاب الطوسي وبرع في المذهب. وأفتى، وله حواش مفيده على الوسيط، وعزل الملك الكامل الشيخ القاضي عبد الرحمن النويري لحكمه في المكاشفات، ورفض إعطاء بعض مال الأيتام لغير أصحابها بناء على أوامر الملك الكامل[٣].

ومن القضاة المشهورين شرف الدين الصفراوي، أبو المكارم محمد بن القاضي بن أبي حسن الاسكندراني ت ٦٢٠/١٢٢٣ الذي تولى قضاء مدينة الإسكندرية.

ب- وقف الفساد في الدواوين:

وكان الملك الكامل يتابع الدواوين لوقف الفساد فيها، ومنع الرشوة، والسرقة، حفاظاً على جودة عطاء الدواوين وسيرها فقد طلب من النابلسي أن يتولى النظارة على الدواوين، فرفض الأخير، بحجة عدم درايته بالعمل وقال "متى علم

---

(١) المقريزي، الخطط، ١٨٨/٢.

(٢) ابن العماد بن الحنبلي، شذرات الذهب، ١١٥/٥.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٣٦/٦.

المستخدمون في البلاد بأنه قد وُلي عليهم جاهل بالديوان اتفقوا على المستوفين بالباب ونهبوا الأموال ...."، فأعفاه الملك الكامل معجباً بإخلاصه، وأمانته[1].

وقد كتشف الملك الكامل ألاعيب موظفي ديوان الأهراء، من رشوة وسرقة وإهمال، فقبض على صاحب الديوان الغربي، إذ كان به ١١ ألف أردب من القمح والفول، فطلب ديوان الأهراء خمسين ألف أردبا، فتبين أنه لا يوجد شيء مما جلب لهذا الديوان، فأمر الملك الكامل أن يؤخذ من حاصل غلاته التي في القلعة لسد النقص، كذلك أمر بالقبض على صاحب الديوان[2] "الظهير الطمبذاوي" وعماله، وأصدر عقوبة بحقهم، تمثلت بوضعهم في أقفاص، والطواف بهم في القاهرة على أن يعادوا إلى السجن في آخر النهار.

وأعاد الملك الكامل ديوان التحقيق عام ١٢٢٧/٦٢٤، وكان موجوداً في عهد الدولة الفاطمية، وكانت مهمته التحقيق في قضايا الشؤون المالية، إلا أن هذا الديوان ألغي بعد عامين.

وواصل الملك الكامل مراقبة الدواوين والعناية بها، فعين عام ١٢٣٠/٦٢٨ معين الدين بن شيخ الشيوخ صدر الدين في خدمته، فكان يقرأ عليه الدواوين، فيقول "هذا الديوان يضاف إلى ديوان كذا، وبذلك تمكن من ترتيب الدواوين".

وعقد الملك الكامل اجتماعاً ١٢٣٢/٦٣٠ بحضرة النابلسي، وعدد كبير من كبار موظفي الدولة لترتيب الدواوين بعد ما تبين له أن بعض الكتب المتعلقة بالدواوين تصل إليه بخط غير مقروء، وأن هناك بعض السرقات والرشاوي، والإهمال في بعض هذه الدواوين.

---

(١)النابلسي، لمع القوانين، ٦٢/١.

(٢) النابلسي، م.ن.

جـ- معالجة الأزمة في الكنيسة القبطية:

توخى الملك الكامل رعاية مصالح أهل الذمة فقد تابع مشاكلهم، وعاملهم معاملة جيدة، وحاول حل الأزمة التي تعرضت لها الكنيسة القبطية عندما خلا مركز البطركيه، إثر وفاة بطريك اليعاقبة شورروس بن أبي غالب عام ٦١٢/١٢١٥[١] الذي اشتهر بأمانته، وصدقاته وحرصه على مصلحة طائفته، وكان قد وزع أمواله على الفقراء، وأبطل الدياريه[٢]، ومنع الشرطونية[٣] ولم يأكل في ولايته كلها لأحد من النصارى خبزاً، ولا قبل هدية.

وكان القس داود بن يوحنا ملازما للشيخ نشء الخلافة أبي الفتوح بن الميقاط كاتب الجيوش العادلية، فلما مات ابن شورروس سأل أبو الفتوح الملك العادل أن يولي القس داود البطركيه، فأجابه وكتب له توقيعا بذلك دون أن يعلم الملك الكامل[٤].

لم يعجب بعض النصارى ولاية داود، وقام الأسعد ابن صدقه كاتب دار التفاح[٥] بمصر، وجمع كثيراً من النصارى، واتجه الجميع إلى قلعة الجبل، واستغاثوا بالملك الكامل وقالوا "أن هذا الذي يريد أبو الفتوح يعمله بطريكا بغير أمرك ما يصلح، ونحن في شريعتنا لا يقدم البطرك إلا باتفاق الجمهور عليه".

ركب الملك الكامل في اليوم التالي إلى أبيه الملك العادل، وعرفه أن النصارى لم يتفقوا على بطركية داود، ولا يجوز عندهم تقدمه إلا باتفاق جمهورهم، فأحضر الملك الكامل الأساقفة، ولما تحقق من الأمر، أوقف تعيين داود بطريكا، وخلا الكرسي من بطريك تسع عشرة سنة ومائة وستين يوماً.

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢١٨/١.

(٢) الديارية، ضريبة تدفع لرئيس الدير: المقريزي، الخطط، ٢/١٠٥.

(٣) الشرطونيه ما يدفعه للكنيسة عند ترسيمه، قاموس محيط المحيط.

(٤) المقريزي، السلوك، ٢١٩/١.

(٥) فندق تجاه باب زويله، المقريزي، الخطط، ٩٣٢.

وفي عام ١٢٣٥/٦٣٣ بارك الملك الكامل تعيين داود بن يوحنا انبا (ولقب كيرلس الثالث) على الاسكندرية لليعاقبة*، فأقام في البطركية سبع سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام، وكان عالماً محباً للرياسة وجمع المال، وكان الراهب عماد في دير مرشار بوادي النطرون قد دعم داود للوصول إلى البطركيه، وشرط عليه إلا يقدم اسقفا إلا برأيه، فلم يف البطريك داود بوعده، ولا التفت إليه بعد توليه البطركية.

ثانياً: سياسة الملك الكامل الاقتصادية والمالية.

كان الوضع الاقتصادي في مصر والشام والجزيرة الفراتية في عهد الملك الكامل امتداداً طبيعياً للفترة السابقة إلى حد ما، مع بعض التغيرات التي أحدثها الملك الكامل بسبب الظروف التي تعرضت لها البلاد، ولا سيما انحباس الأمطار أحياناً وانخفاض مياه النيل في بعض السنوات، أو بسبب الحروب التي شنها الصليبيون، والخوارزميون والسلاجقة الروم، وسأتعرض في الصفحات التالية إلى الجوانب الاقتصادية بالقدر الذي يبرز سياسة الملك الكامل الاقتصادية[1]، ومحاولات زيادة الإنتاج الزراعي، وتحسين الصناعة، وإصلاح الوضع المالي.

١- الزراعة:

كان أهالي مصر والشام والجزيرة يعتمدون في حياتهم الاقتصادية على الزراعة وتربية الحيوانات، إذ كانت المهنة الرئيسية لمعظم السكان، وقد حرص الحكام الأيوبيون على تطوير الإنتاج الزراعي للمناطق التي حكموها، وكان السكان في بلاد الشام والجزيرة يزرعون النباتات التي تناسب بيئتهم، فقد كانت الحبوب ولا سيما القمح في مقدمة الإنتاج، فضلاً عن المنتجات الجبلية كاللوز والجوز والفستق، اعتماداً على مياه الأمطار، كذلك زرعوا الفواكه المختلفة، والخضار.

* اليعاقبة: فرقة مسيحية، عاشت في مصر والنوبة، يقولون بأن المسيح هو الله والإنسان تجسدا في طبيعة واحدة هي المسيح، الموسوعة العربية الميسرة، ٩٨٣/٢.

(١) سأشير بإيجاز شديد إلى الجوانب الاقتصادية السابقة لربط الموضوع.

أما في مصر فكان القمح والشعير هما المحصولين الرئيسين، بالإضافة إلى قصب السكر، والقطن، والحمص، والعدس والأرز والبصل والثوم، وكذلك الحمضيات، والعنب، والتفاح والموز والرمان[1].

وقد اعتمدت الزراعة في بلاد الشام والجزيرة على الأمطار ومياه الأنهار، أما في مصر فقد اعتمدت كلياً على نهر النيل، وكان العباد والبلاد تحت رحمته، وكان لزيادة مياهه أو نقصانها أثر كبير في الإنتاج الزراعي[2]، لذلك نصبت الدواليب على النيل لسقي الأراضي الزراعية عند نقصان مياهه[3].

وكان مستوى الفيضان[4] هو الذي يحدد مساحة الأراضي التي يمكن زراعتها[5].

وقد تركزت الزراعة في بلاد الشام في المناطق الوفيرة المياه، فيما تركزت في مصر في المناطق التي تصل إليها مياه النيل، ولا سيما على ضفاف النهر، والدلتا، وكانت الأراضي الزراعية توزع على الفلاح مقابل خراج يدفع إلى الدولة، وقد تحولت هذه الأراضي بمرور الزمن إلى إقطاعات للأمراء والأجناد والأعيان، وبذلك

---

(١) ابن مماتي، قوانين الدواوين، ٢٧١.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ١٠٣.

(٣) كان الفلاح يقسم الأراضي الزراعية إلى حياض كبيرة، تغمر بمياه الفيضان مدة كافية، فتروى الأرض، ويترسب الطمي، فتكتسب الخصوبة، ثم تصرف المياه لتزرع الأرض (القلقشندي، صبح الأعشى، ٤٤٦/٣)، وإذا قلت مياه النيل تروى الأحواض القريبة من ضفاف النيل بالدواليب.

(٤) كان صاحب دار المقياس في الروضة يحدد مستوى الفيضان، فكان يقف في زمن الفيضان على مقدار زيادة النيل عصر كل يوم، وينادي في صباح اليوم التالي في شوارع القاهرة بمقدار الزيادة، ويكتب بياناً لأعيان الدولة بهذا المقدار، وما زاد في مثل هذا اليوم عن مثله في العام الماضي، وإذا وفى النيل ١٦ذراعاً أعلن ذلك لعامة الناس ويعلق حينئذ وإلى الفسطاط علماً أصفر على شباك دار المقياس، حيث تعتبر تلك الليلة من ليالي الفرح العظيمة بمصر، فيوقد الناس الشموع والقناديل، ويقرأ المقرؤون تلاوة القرآن حول دار المقياس. (القلقشندي، صبح الأعشى، ٤٤٦/٣).

(٥) طرخان، النظم الاقتصادية في الشرق في العصور الوسطى، ١١٧.

أصبحت الأراضي الزراعية منقسمة إلى نوعين من الإقطاع، إقطاع إداري[١] وإقطاع عسكري[٢]، إذ أقطع الملك الكامل مثلاً عام ١٢٣٢/٦٢٨ ابن صلاح الدين الأربلي صنافير بالقليوبية وجعل معه مماليكه[٣].

وكان المقطع يتقيد بالمراسيم السلطانية، ويتابع ذلك ديوان الجيش، حيث كان مسؤولاً عن توزيع الاقطاعات ومتابعتها، وإثبات أسماء أصحاب الإقطاعات[٤].

١-١ الأزمات الزراعية:

كانت الزراعة تشكل نسبة كبيرة من دخل مصر والشام والجزيرة، وقد تعرضت هذه البلاد إلى عدة أزمات زراعية في عهد الملك العادل وابنه الملك الكامل، أي في عام ١١٩٨/٥٩٥ والسنوات التي أعقبتها بسبب غزو الجراد والحروب، وتذبذب سقوط الأمطار، وانخفاض مياه نهر النيل، مما أدى إلى قلة الإنتاج، وارتفاع الأسعار.

لقد غزا الجراد مصر والشام مرات عديدة منها عام ١٢٢٣/٦٢٠[٥] وعام ١٢٢٩/٦٢٦، فأكل الزرع وقل الإنتاج، وانتشر الغلاء، وازداد الفقر، والأمراض[٦].

وارتبطت الزراعة بالمياه، فكلما ازداد سقوط الأمطار في بلاد الشام ازداد الإنتاج، وكذلك كلما ازدادت مياه النيل[٧] انتعشت الزراعة، ولكنها كانت تنتكس إذا انحبست الأمطار أو قلت مياه نهر النيل وتغير طعم الماء فيه، وقلت الأقوات

---

(١) الإقطاع الإداري، كان يوزع على أفراد الأسرة الأيوبية وكبار الأمراء والموظفين (العريني، الأيوبيون، ١٩٢).

(٢)الإقطاع العسكري، كان يقوم على أساس توزيع الأراضي الزراعية على القادة العسكريين، وفقاً لخدماتهم التي يقدمونها، وكان القادة يحرمون من هذا الإقطاع إذا عجزوا عن القيام بواجبهم العسكري، وكان المندوب السلطاني يقدر الخراج المقرر على هذا الإقطاع بعد مسح الأراضي عند الحصاد أمام الشهود، في حين كان الفلاح يدفع درهمين عن كل فدان، وتعرف هذه الرسوم بالحقوق. (طرخان، النظم الاقصاعية، ٢٤٩).

(٣) المقريزي: السلوك: ١/٢٩٠.

(٤) ابن مماتي، قوانين الدواوين، ٣٥٥.

(٥) المقريزي،م.س، ٢٥١/١.

(٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٥٣/٦.

(٧) انظر وضع مياه نهر النيل في الملحق رقم ٢١.

بمصر، وتزايدت الأسعار، واستمر هذا الحال ثلاث سنوات متوالية، فلم تمد المياه نهـــر النيل إلا مداً يسيراً، فتزايدت الأسعار وانتشر الغلاء، وعظم البلاء وفتكت الأمـــراض بالناس[١]. وانتشر الجوع حتى أكل الناس بعضهم بعضا، بل أكلوا الأموات[٢].

وتكرر نقصان مياه النيل عـــام ١٢٢١/٦١٨[٣]، ١٢٢٥/٦٢٢، و ١٢٢٩/٦٢٦ ودام ذلك إلى سنة ١٢٣٠/٦٢٨[٤] فأدى إلى غلاء في مصر[٥].

١-٢ معالجة الأزمة الزراعية:

عالج الملك الكامل أزمة الزراعة، وقد استطاع مواجهة تلك الأزمة: والتغلـــب عليها، ومنع قطع الأشجار، وكلف المسؤولين في الديوان بعملية مسح جميع بســـاتين مصـــر والجزيرة، وسجلها في الديوان كي يعرف مقدار ما قطـــع مـــن الأشـــجار، وأماكن قطعها[٦]، وشجع زيادة الإنتاج الزراعي وزراعة النخيل، ووضع تسعيرة حدد فيها سعر بيع المحاصيل الزراعية[٧].

واستأذن والده عام ١٢١٥/٦١٢ في زراعة شجرة البلسان[٨] في قرية المطريـــة القريبة من القاهرة، فوافق، وأجرى إليها الماء، وأجرى الماء من بركة الحبـــش[٩]، إلى حوض السبيل، وبنى قناة إلى تربة الإمام الشافعي[١٠].

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٢١/٣.

(٢) مات عام ١٢٠٠/٥٩٧ حوالي ٢٠٠ ألف نسمة، وأكل الناس الكلاب، وأكل بعض الآباء أطفالهم، فكـــانوا يشوون الطفل بعد موته، كما أخذ الناس يحتالون على بعضهم البعض، فيذبح القوي الضعيف ويأكله، وفقـــد كثير من الأطباء حياتهم لدى استدعائهم لمعالجة المرضى في البيوت (المقريزي، السلوك، ١٨٨/١).

(٣) ابن النظيف الحموي، التاريخ المصوري، ١٨٢.

(٤) انظر إلى ملحق رقم ٢١ لملاحظة وضع مياه النيل.

(٥) أبو شامة، ذيل الروضتين، ١٥٩، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٢٨/١٣.

(٦) النابلسي، لمع القوانين المضيئة في دواوين الديار المصرية.

(٧) Rabie Hasanin. The Financial System of Egypt, p.١٨١.

(٨) البلسان شجره تشبه شجر الرمان، تنتج ماده دهنيه، تستخدم في العلاج، القزويني، زكريا بـــن محمـــد بـــن محمود، اثار البلاد واخبار العباد، بيروت، ١٩٦٠، ص ٢٧١.

(٩) بركة الحبش، أرض منخفضة زراعية تروى بماء النيل عند فيضانه، تمتلئ بالماء فشبهت بالبركة أثناء غمر المـــاء لها، ياقوت، معجم البلدان، ٤٠١/١.

(١٠) ابن إياس، بدائع الزهور، ٨١/١.

وحاول الملك الكامل حفر قنوات للري وزيادة الأراضي الزراعية، ففي عام ٦٢٨/١٢٣٠ شرع في حفر قناة للري بين المقياس وبر مصر حرصا على استمرار تدفق المياه بغزارة، وافتتح بنفسه هذا العمل، ثم قسم حفر هذه القناة على الدور بالقاهرة والروضة بالتساوي[١]، واستمر العمل ثلاثة أشهر من شعبان إلى شوال من العام نفسه، وشارك الملوك الأيوبيون والأمراء في الحفر، ولما فرغ الناس من الحفر، صار النيل يجري من المقياس والروضة إلى بر الجيزة، و لم تعد تنقطع المياه في زمن الاحتراق[٢].

وكان الملك الكامل يخرج بنفسه عندما تبدأ زيادة مياه النيل، فيكشف الجسور، ويرتب في كل جسر عدداً من الأمراء ممن يتولاه، ويجمع الرجال لعمله، ثم يتفقد العمل في الجسور بين الحين والآخر، فمتى اختل جسر عاقب متوليه أشد العقاب[٣]، وبهذا عمرت أرض مصر في أيامه عمارة زائدة[٤]، وقد حرص الكامل على الحد من ارتفاع الأسعار والغلاء.

ولا شك أن اهتمام الملك بغرس الأشجار ولا سيما النخيل،وشق القنوات للري، ومراقبة الجسور يظهر اهتمامه بتحسين الإنتاج الزراعي، وتوفير الأمن الغذائي.

٢- الصناعة:

ازدهرت الصناعة أثناء حكم الملك الكامل، فكانت منظمة، وفي بيوت خاصة، ولا سيما دور الطراز التي كانت تابعة للدولة، وكان لها ديوان خاص، يشرف عليه ناظر، وموظفون، وعمال يوفرون المواد الصناعية[٥]، وقد اعتمدت الصناعة على

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢٨١/١.

(٢) م.ن، ٣٩/١.

(٣) المقريزي، الخطط، ٣٤٥/١.

(٤) م.ن.

(٥) ابن مماتي، قوانين الدواوين، ٣٣٠.

المنتجات الزراعية، فتحسنت صناعة المنسوجات لتوافر القطن، والكتان وصوف الغنم، ووبر الجمال.

واشتهرت مدينة دمياط بصناعة الثياب البيض، فيما اشتهرت مدينة تنيس بصناعة الثياب الملونة[١]، والثياب المطرزة بالذهب، واشتهرت بها بحياكة الأقمشة الصوفية[٢]، أما أسيوط فاهتمت بحياكة البسط، والكتان لصناعة الحبال.

وازدهرت صناعة السكر في مصر وكذلك صناعة الزجاج[٣]، والفخار، وتميزت الصناعات الزجاجية بالدقة والشفافية، وبهاء المظهر[٤]، ولا سيما المطلية بالميناء، وانتشرت صناعة الزيوت والصابون، والدباغة، والورق، والزيت الحار المستخرج من اللفت[٥].

وتميزت مصر بالصناعات المعدنية البديعة كالنحاسيات، والسيوف، والخناجر، والسهام، والسفن.

وكان عصر الملك الكامل غنيا بالتحف المعدنية المكفتة، وما زال بعضها معروضاً في بعض متاحف العالم[٦]، منها تحفتان نحاسيتان تحملان اسم الملك الكامل، صنعتا عام ١٢٣٧/٦٣٥ موجودتان في المتحف الإسلامي بالقاهرة[٧]، وعثر على أسطرلاب مصنوع من النحاس، ومزين بزخارف منزلة بالفضة تمثل عناصر نباتية، وصور حيوانية وآدمية[٨]، وعثر على شمعدان نحاسي محلى بالفضة زين بزخارف بديعة من الاشكال صنع عام ١٢٢٥/٦٢٢[٩].

---

(١) خرب الملك الكامل، المدينة عام ١٢٢٦/٦٢٥.

(٢) المقريزي، السلوك، ٧٧/١.

(٣) Hitti, History of Arabs ٢/٢.

(٤) متز، الحضارة الإسلامية، ٣١١/٢.

(٥) كان معظم العاملين بصناعة الزجاج من اليهود في مصر، ومن السامريين في نابلس.

(٦) محمد عبد العزيز مرزوق، الفن الإسلامي في العصر الأيوبي، ٧١.

(٧) فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، ٦٧/٢.

(٨) محمد عبدالعزيز مرزوق، م.س.

(٩) م.ن.

وقد ظهر النشاط الزراعي والصناعي في التجارة الداخلية،فنشطت التجارة بين القرى والمدن، وأقيمت الأسواق في أيام محددة كسوق الجمعة لبيع المواشي في معظم مدن مصر، وتميزت بعض المدن بإحدى الصناعات، فأقبل الناس على شراء هذه المواد، فكانت مدينة تونة تقوم بصناعة كسوة الكعبة، وكان الصعيد المصري يصدر الكتان إلى معظم المدن المصرية لصناعة الحبال.[1]

٣- إصلاح النظام النقدي:

كانت العملة السائدة في مصر والشام والجزيرة في العهد العباسي الدينار الذهبي والدرهم الفضي، وعندما تولى الفاطميون الحكم ضرب جوهر الصقلي الدينار[2] المعزي (نسبة إلى الخليفة الفاطمي المعز الدين الله) من الذهب الخالص.

وفي أثناء الحروب الصليبية تداول السكان العملة العربية البيزنطية، وهي عملة ذهبية ذات نقوش عربية، عليها بعض الآيات من القرآن الكريم، بالإضافة إلى التاريخ الهجري، وكان الصليبيون يسكونها في مدينة عكا[3] تشجيعاً للمسلمين على تداولها.

وعندما جاء صلاح الدين أبطل النقود السائدة في مصر والشام[4]، وضرب الدينار الذهبي المصري، كذلك ضرب الدراهم الناصرية الفضية، وكتب عليها اسم

---

(١)أبو الفدا، المختصر، ١٣٢/٣.

(٢)المقريزي، شذور العقود، ٧٨.

(٣)فايد عاشور، العلاقة بين البندقية والشرق، ٢٣١.

(٤) بقيت النقود التي سكها صلاح الدين تتداول في الدولة الأيوبية، مع تغير اسم الملك الأيوبي، وفي عهد الملك الكامل جعل الدينار الذهبي يساوي ١٦ درهما، وحرص على المحافظة على إبقاء نسبة عالية من الذهب في الدينار إذ كانت تتراوح بين ٩٨-١٠٠%. وقد أكد ذلك العالم أهرنكروتر، إذ قام عام ١٩٥٤م بوزن ثمانية عشر دينار محفوظة في المتحف البريطاني، فوجد أن أربع قطع فيها ٩٥% من الذهب في حين وجد في القطع الأخرى ٩٨,٨٣% ذهبا.

الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، والسلطان العادل نور الدين محمود زنكي على الوجه الآخر[١].

بقيت النقود التي سكها صلاح الدين متداولة في الدولة الأيوبية من بعده مع تغيير اسم الملك الأيوبي، إلى أن تولى الملك الكامل حكم مصر إذ اعتبرت فترة حكمه بداية عصر جديد للنظام المالي في مصر، وذلك للعناية الفائقة التي أولاها للدينار والدرهم، إذ حافظ على نقاء الذهب[٢]، في الدينار الذي ضرب عام ١٢١٩/٦١٦.

وفي عام ١٢٢٥/٦٢٢ قام الملك الكامل بإصلاح النقد المتداول في البلاد، فقد أمر بسك عملة عرفت بالدراهم السود، واستمر التعامل بالدراهم الناصرية حتى عام ١٢٣٢/٦٣٠، حيث ألغى استخدامها[٣]، كما قام بسك الدينار الذهبي.

وكانت دراهم الكامل تتكون من ثلث فضة وثلثين نحاس وهي مستديرة الشكل، وأمر الملك الكامل الناس بالتوجه إلى دار السكة لاستبدال الدراهم الناصرية[٤]، وقام بإرسال الدراهم القديمة إلى دار السكة ليعاد ضربها بشكل الدراهم الجديدة، وجعل بدل النقش المربع الكوفي على العملة نقشاً دائرياً بخط النسخ، وبحروف سميكة، وصفوف أفقية[٥]، وقد حلل البروفسور بالوك عدداً من الدراهم الكاملية لتحديد نسبة الفضة فوجد أن نسبتها أقل من الدرهم الناصري، إذ وجد أن الفضة ثلث والنحاس ثلثان، وعلى هذا الأساس يكون الملك الكامل قد حقق ربحاً كبيراً على حساب خسارة الناس بسبب استبدال الدرهم الناصري الذي يحوي ٥٠% فضه تقريباً، وقد راجت هذه الدراهم في جميع الدولة الأيوبية، واستمر تداولها فيما

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢٩.

(٢) جوانيا، دراسات في التاريخ والنظم الإسلامية، ص ١٨٦.

(٣) فايد عاشور،العلاقة بين البندقية والشرق، ٢٤١.

(٤) منصور بن بعره الذهبي العاملي، كشف الأسرار الإسلامية، ٥٤.

(٥)عبداللطيف كانوا، دراسة المسكوكات الإسلامية، ٥٤.

بعد[١]. وكان في مصر داران لضرب النقود، إحداهما في القاهرة، والأخرى في مدينة الاسكندرية[٢] وكان السلطان يشرف عليها إشرافاً دقيقاً، وكان يتولى الإشراف على كل منهما قاض، لضمان شرعية الدينار والدراهم التي تصدرها دار السكة وفق الوزن والعيار المحدد[٣].

حاول الملك الكامل إضفاء نوع من الاستقرار على العملة، فعندما انتهت الحملة الصليبية الخامسة بالصلح بين المسلمين والصليبيين، استقرت الأوضاع الاقتصادية، وسرعان ما ازدهرت العلاقات التجارية مع أوروبا، بعد صلح يافا الذي عقد بين الملك الكامل والامبراطور فردريك الثاني، فتدفق الذهب إلى مصر، إذ جلبه التجار الأوروبيون لاستخدامه لأغراض التجارة، فازدادت شهرة الدينار الكاملي، وازدادت الثقة به، وانتشر استخدامه خارج مصر، ومما يؤكد ذلك أن العملات المسكوكة في مكة المكرمة كانت تضرب في مصر، ولها نقش عيار الدينار الكاملي[٤]، وتحت رقابة دار السكة الكاملية.

ويعزو بعض المؤرخين أسباب قيام الملك الكامل بضرب النقود الجديدة إلى تعدد أنواع العملة المستخدمة في مصر، كالدرهم الورقي آنذاك، مما أدى إلى حدوث التباس كبير لدى الناس في استخدامها، ولهذا تشجع الكامل على أن يسك أيضاً الفلوس النحاسية، فازداد تداولها، إلا أنها كانت تتعرض أحيانا إلى بعض التزوير بتقليل كميات النحاس فيها، وزيادة وزن الرصاص.

وفي عام ١٢٣٣/٦٣٠ ازداد عرض النقود مما أدى إلى انخفاض قيمتها، فأصبح الناس يتحفظون عن تداولها. ووصل النظام النقدي إلى درجة الانهيار، ولذلك أمر

---

(١) منصور بن بعره الذهبي، م.س، ٣٦؛ المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، ٦٢.

(٢)فايد عاشور، م.س، ٢٤٠.

(٣) منصور بن بعره ، م.س، ٢٨.

Rabie Hasanin, The Financial System of Egypt ١٧٨. (٤)

الملك الكامل الناس بتسليم ما بحوزتهم من الفلوس النحاسية إلى الصيارفه، فخسر الناس كميات كبيرة من ثرواتهم.

ولا شك أن التباين في النقود التي تداولها الناس في مصر يُظهر لنا اثر الظروف السياسية والاقتصادية التي رافقت حكم الملك الكامل في سياسة النقود، فقد حاول من خلال سكه لهذه النقود بما فيها الدينار والدرهم والفلوس توفير الأموال للدولة، إلا أن هذه النقود باختلاف قيمتها أثرت بشكل سلبي في المستوى المعاشي، والقوة الشرائية للناس الذين كانوا يرغبون ببقاء المستوى العام للأسعار ثابتاً، من أجل إبقاء المستوى المعاشي على ما هو عليه، أو بعبارة أخرى منع تدهوره، فالعلاقة عكسية بين النقود والقوة الشرائية، أي كلما ازدادت النقود السائلة في السوق انخفضت قوتها الشرائية، غير أن الملك الكامل أراد من هذا التلاعب بقيمة النقود، واطلاقها بين فينة وأخرى بأسعار مختلفة إبقاء خزينة الدولة مملوءة بالأموال، (لم يخزنها لصالحه وإنما لصرفها في أوجه مختلفة)، وذلك لمعرفته أن هذه الأموال لها أثر كبير في تحديد متطلبات الحروب المستمرة التي كان يخوضها.

لقد كانت ظروف الحرب تقتضي توفير هذه الأموال، وكان للكوارث الطبيعية التي تعرضت لها البلاد في السنوات التي سبقت حكمه أثر كبير في جعله يحاول التغلب عليها بتوفير المواد الغذائية وتحديد أسعارها، فضلاً عن صرفها لإقامة الإنجازات المعمارية، التي أعطت الدولة الأيوبية تراثاً كبيراً ما زالت آثاره قائمة إلى الوقت الحاضر.

وقد أسهم بهذه الأموال في مساعدة الخلافة العباسية بإعطاء ٢٠٠ ألف دينار للإنفاق على الجيش الذي أرسله لمساعدة الخليفة لمقاومة المغول، فيما كان الملك الكامل نفسه يعاني أحوالاً صعبة، بعد أن تجدد خلافه مع الملوك الأيوبيين، ولا سيما بعد وفاة الملك الأشرف سنة ١٢٣٧/٦٣٥.

وفي عام ١٣٣٦/٦٣٤ حدث تغيير في الأسعار، فاشترى ديوان المـــال النقـــود الرخيصة، وباع النقود الغالية فأدى ذلك إلى ازدياد دخل الدولة، وخسارة الناس.

ولما كان النظام المالي يرتبط بالاقتصاد، إذ تتأثر قيمة العملة بقـــوة الاقتصـــاد أو ضعفه، لذلك رُبط الوضع المالي بسياسة الملك الكامل الاقتصادية، فوضحت أنـــواع العملة المتداولة، ونسبة الذهب فيها وسبب تغيرها.

وقد اهتم الملك بديوان المال، وعين فيه موظفين امتازوا بحسن الإدارة والفضيلـة، يميزون بين الحلال والحرام، ويقومون بعمل سجلات منظمة ودقيقة، ولا سيما للإنتاج الزراعي والثروة الحيوانية.

ثالثاً: سياسة الملك الكامل التعليمية والعمرانية.

١- التعليم:

تطور التعليم في عهد الملك الكامل، إذ كان حريصاً على نشر العلم ، والأخذ بأسباب الحضارة، فشيد دار الحديث عام ١٢٢٤/٦٢١[١] ووقف عليها، وكانت أشبه بالجامعة، إذ كانت تدرس فيها علوم المذاهب الأربعة، كذلك أسست المدرسة المهذبية لتدريس الطب في القاهرة عام ١٢٢٣/٦٢٠، وقد بناها الطبيب مهذب الدين أبو سعيد بن أبي الوحش[٢]، وكان مدرساً في البيمارستان المنصوري، ورئيس الأطباء في عهد الملك الكامل، ولم يقتصر التعليم على المدارس، بل شمل الزوايا والربط والخوانق، وكتاب الأطفال، وكانت المدارس مفتوحة لجميع الطلاب دون تمييز، كما كانت الحلقات الدراسية عديدة في المساجد، وانتشرت في عهد الملك الكامل المكتبات العامة الملحقة بالمدارس والمساجد، والمكتبات الخاصة، فكان في مكتبة القاضي الفاضل ٦٨ ألف مجلدة[٣].

استمر الإقبال على التعليم، وكان لاهتمام الملك الكامل بنشر العلم أن حافظت الثقافة على انتعاشها، وبرز عدد من الأدباء والعلماء والأطباء[٤]، كالفقيه جمال الدين بن شاس المصري ت١٢١٩/٦١٦، وكان مدرساً في الصلاحية، وصنف كتاب الجواهر الثمينة في مذهب أهل المدينة[٥]، والفقيه ابن ظافر الأزدي الاسكندراني علي بن ظافر بن حسين ت ١٢٢٦/٦٢٣، وقد برع بالأدب والتاريخ، ودرس بمالكية مصر، وصنف، التشبيهات، أخبار الشجعان، أخبار الملوك السلجوقية، أساس

---

(١) فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، ٦٧/٢.

(٢)المقريزي، الخطط، ٣٦٦/٢.

(٣) أحمد الشلبي، التربية الإسلامية، ٩٨.

(٤) ذكرت هؤلاء العلماء والفقهاء والأدباء على سبيل المثال.

(٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٢١٥/١.

السياسة[1] وزين الدين يحيى بن المعطي بن عبد النور ت٦٢٨/١٢٣١، عالم في النحو، شاعر، له منظومة نحوية في ١٠٢١ بيتاً سماها الدرة الألفية[2]، وقد شهد الملك الكامل جنازته في مصر.

ولمع ابن أبي طيء، يحيى بن حميد ظافر بن النجار بن علي ت٦٣٠/١٢٣٢، في الحديث والفقه وعلوم القرآن، وصنف المجالس الأربعين في مناقب الأئمة الطاهرين[3]. وبرز ابن الصفراوي، جمال الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد المجيد بن إسماعيل بن عثمان الاسكندراني بعلم القراءات والفقه، وسمع الحديث عن السلفي، وانتهت إليه رئاسة الاقراء والفتوى بالاسكندرية، وتوفي عن ٩٢ سنة ٦٣٦/١٢٣٨[4].

وتميز القاضي الأشرف أبو العباس أحمد بن القاضي الفاضل بالحديث، فسمع الكثير، واستنسخ العديد من الكتب، وكان وزيراً للملك العادل[5]، فلما توفي الأخير عرض عليه الملك الكامل الوزارة فلم يقبل، وتوفي عام ٦٤٣/١٢٤٥. واشتهر ابن الفارض شرف الدين أبو حفص، عمر بن الحسن بشعره، فكان سيد شعراء عصره على الإطلاق[6]، جاء من حماة إلى مصر، ودرس الخطابة بالجامعة الأزهر، وعكف عليه الأئمة، حتى كان الملك الكامل يترل لزيارته، وتوفي عام ٦٣٢/١٢٣٤[7].

وتفوق العالم علم الدين بن قيصر ت ٦٤٩/١٢٥١ في الهندسة والرياضيات[8] وقد عرض عليه الملك الكامل بعض المسائل التي أرسلها الامبراطور فردريك الثاني، والعالم جمال الدين علي بن القفطي ت٦٤٦/١٢٤٨، الذي تفوق في التفسير

---

(١) الكتبي، فوات الوفيات، ١٦/٣، ابن تغري بردي، النجوم، ٣١٤/٦.

(٢) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ١٢٩/٥.

(٣) الكتبي، م.س، ٢٦٩/٤.

(٤) ابن تغري بردي، م.س، ٣١٤/٦.

(٥)ابن العماد الحنبلي، م.س، ١٨٠/٥.

(٦) ابن تغري بردي، م.س، ٢٨٨/٦.

(٧) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٢٧/٤.

(٨) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢٧٣/٢.

والحديث والفقه والنحو والمنطق، والتاريخ، وله عدد من المصنفات منها: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، أنباء الرواة على أنباء النحاة، الضاد والظاء، تاريخ المغرب، تاريخ اليمن[1].

واعتنى موفق الدين عبداللطيف البغدادي ت ١٢٣٢/٦٢٩ بصناعة الطب، وكان يتردد الطلاب عليه لدراسة الطب في الأزهر، وله عدة مصنفات أبرزها: شرح كتاب الفصول لابقراط، وشرح كتب جالينوس[2]، واشتغل شمس الدين أبو عبدالله بن عبدالواحد اللبودي ١٢٢٤/٦٢١ في الطب، وله المدرسة اللبودية في الطب، وخدم الملك الكامل[3]، وتميز الطبيب موفق الدين أبو شاكر بن أبي سليمان داود ت ١٢١٦/٦١٣[4]، في حسن علاجه، وقد خدم الملك الكامل[5]، كذلك خدمه الطبيب أبو الفضل بن أبي سليمان ت١٢٤٦/٦٤٤[6] وكذلك رشيد الدين أبو سعيد بن موفق الدين ت ١٢٤٨/٦٤٦، وله كتاب عيون الطب، وتعاليق على كتاب الحاوي للرازي[7]، وخدم الملك الكامل أطباء آخرون منهم أسعد الدين ابن أبي الأسعد وتوفي عام ١٢٣٨/٦٣٥، وصنف كتاب نوادر الآلاء في امتحان الأطباء[8]. وكان أبو الوحش ابن أبي الخير، الحكيم الرشيد أبو حليفة طبيباً نشيطاً، خدم الملك الكامل،

---

(١) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢٧٣/٢.

(٢) ياقوت، معجم الأدباء، ١٨٧/١٥.

(٣) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٦٨٤.

(٤) لم يتعرض ابن الأثير، في كتابه الكامل للتفاصيل عن العدوان الصليبي على دمياط، كما أنه أنهى الكتاب بأحداث عام ١٢٢٩/٦٢٦.

(٥) ابن أبي اصيبعة، م.س، ٥٨٩.

(٦) م.ن، ٥٧١.

(٧) م.ن، ٦٠٠.

(٨) م.ن، ٦٠١.

وأحكم معرفة نبضه (الملك الكامل)، حتى أنه أخرج يده يوماً إليه من خلف ستارة، فقال هذا نبض مولانا السلطان الكامل[1].

وكان الصيدلي ضياء الدين بن البيطار ت٦٤٦/١٢٤٨ أشهر العشابين في عهد الملك الكامل، وله كتاب المغني في الأدوية المفردة[2]، وشرح أدوية كتاب ديموقريدس[3].

٢- العمران:

اهتم الملك الكامل بتحسين المرافق العامة في مصر، وتحسين الخدمات المهمة لرعيته، ولا سيما في المجال الاقتصادي والعمراني، فقد أنهى بناء القلعة، وبنى دار الوزراء التي تعرف بقاعه الصاحب لتكون مقراً للوزير صفي الدين، وبها قاعة الإنشاء، وديوان الجيش، وبيت المال[4].

وأنشأ الملك الكامل خزانة الكتب في القلعة، فحوت عدداً من الكتب والمجلدات النفيسة[5]، وأقام خزانة شمائل (سجن شمائل)[6].

تابع الملك الكامل سياسة إعمار البلاد، ولا سيما في مصر، فأمر الملوك الأيوبيين بإعمار بلادهم، ففي عام ٦٢٤/١٢٢٧ كلف المظفر محمود صاحب حماة بناء برج في السلمية، وشجعه عام ٦٣١/١٢٣٣ على بناء قلعة في المعرة لحمايتها[7]، وطلب من صاحب حمص الملك المجاهد أسد الدين شيركوه حفر خندق حول القلعة، وتعميقه، وتوسيعه وإعمار قلعة شميس.

---

(١) الكتبي، فوات الوفيات، ٢٤٩/٤.
(٢) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ٢٣٤/٥.
(٣) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ٦٠٢.
(٤) المقريزي، الخطط، ٢٠٥/٢.
(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ١١٣/٣.
(٦) سمي سجن الشمائل (خزائن) نسبة إلى علم الدين شمائل الذي برز دوره فدائيا عظيما أثناء حصار الصليبيين لمدينة دمياط.
(٧) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢٣٥/٢.

واهتم الملك الكامل بتحصين البلاد، ولا سيما الثغور وذلك ببناء القلاع والحصون، كما اهتم بالقضاء والخدمات العامة وكان المحتسب يرتبط بالقضاء ويتولى المخالفات التي تتعلق بالآداب العامة، ونظام الأسواق، والمعاملات التجارية، والمكاييل والمقاييس والخانات، والحمامات والفنادق، ومنح رخص مزاولة الأطباء والصيادلة.

ومن أبرز الأعمال التي قام بها الملك الكامل، والتي كان لها مساس لحياة الشعب على نحو وثيق .

أ- بناء الجسور:

نهج الملك الكامل نهج الحكام الفاطميين والأيوبيين الذين سبقوه في بناء الجسور التي تحتاج إليها مصر وبلاد الشام، وكانت الجسور التي في مصر تتحكم بمجرى النيل، وتحفظ البلاد من الفيضان، وتستخدم لتصريف مياه النهر[1]،وكان المصريون يحتفلون بعيد "وفاء النيل"[2] لأهميته في حياة البلاد الاقتصادية، وكان الملك يخرج يوم العيد من القلعة إلى المقياس[3]، فيقام احتفال يحضره عدد من المسؤولين والناس.

وكانت الجسور في مصر على نوعين هما:

١- **الجسور السلطانية:** وهي الجسور العامة النفع في حفظ البلاد من خطر فيضان النيل، وتتولى الدولة إقامتها، ويكون سلطان البلاد مسؤولا عن تعميرها وإدارتها، وتقام من بيت المال[4]، وتصان باستمرار، ويشرف على الجسور كاتب خاص، مسؤول عن الانفاق على هذه الجسور[5] من الأموال المخصصة لها.

---

(١) المقريزي، الخطط، ١٨٨/٢.
(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٤٧/٤.
(٣) المقياس بركة وسطها عمود طويل فيه علامات الأذرع والأصابع، وأبواب محكمة، ووكيل يبلغ السلطان كل يوم مقدار ما زاد من النيل، المقريزي، م.س، ٢٤١/١.
(٤) ابن مماتي، قوانين الدواوين، ٢٣٢.
(٥) القلقشندي، صبح الأعشى ٤٤٥/٣.

٢- الجسور البلدية: وهي الجسور الخاصة النفع بناحية دون ناحيــــة، يتــولى إقامتها وإدارتها المقطعون والفلاحون بما ينتفعون بها من عندهم، وهي بمثابــــة البيــت الذي يمتلكه الشخص أي مثل سور منـــزله، فكل صاحب دار ينظر في مصلحتـــها، ويلتزم تدبير أمره فيها[١].

ب- تأسيس دار الحديث الكاملية:

تابع الملك الكامل سياسة دعم التعليم، وتشييد المدارس، والإنفاق عليها وتوفــير الخدمات اللازمة له، فأقام عام ١٢٢٥/٦٢٢ دار الحديث الكاملية في القاهرة، وتقــع الدار بين القصرين[٢]، ووقف هذه الدار على المشتغلين بـــالحديث النبــوي، ثم مــن بعدهم على الفقهاء الشافعية، ووقف عليها الربع الذي بجوارها على باب الخرنشــف، ويمتد إلى الدرب المقابل للجامع الأزهر[٣]، وكـــان موضع المدرسة ســـوقاً للرقيــق، وداراً تعرف بابن كستول[٤].

ودرس في الكاملية الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحيه، ثم أخـــوه أبـــو عمـــرو عثمان، الحافظ عبد العظيم المنذري، وما برحت بيد أعيان الفقهاء إلى أن تلاشـــت في العهد المملوكي.

وتشير أطلال الدار عام ١٩٠٣/١٣٢١، إلى أنها كانت تتكون[٥] مـــن قاعــة مستطيلة طولها عشرة أمتار ونصف المتر تقريباً، وعرضها تسعة أمتار ونصف، وهــي مسقوفة بقبة مدببة مبنية بالآجر... تتكون من مداميك أفقية تعلوها مداميك رأســية، وتبلغ فتحة القبة تسعة أمتار ونصف[٦]، ويبلغ ارتفاعها عند مستوى انحنائها ستـــــة

(١) م.ن.

(٢) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢٣٨/٢.

(٣) المقريزي، الخطط، ٣٣٥/٣.

(٤) م.ن.

(٥) أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، ٥٦/٢.

(٦) م.ن، ٥٧/٢.

أمتار ونصف، وأما ارتفاعها عند سطح الأرض فهو غير معروف لأن الأتربة مكدسة إلى ارتفاع كبير فوق أرضية البناء، وجدران القاعة مبينة من الحجارة، وهي سميكة يقرب سمكها من مترين، أما سمك القبة فهو متدرج، يبلغ عند المنبت (الإنحناء) فوق الجدران متراً، ويرق عند القبة إلى نصف متر.

جـ- إعمار القبة الشافعية:

اهتم الملك الكامل بكسب ثقة شعبه بإعمار بعض المراكز الإسلامية التي يحترمها المصريون، فقد عمر هذه القبة على ضريح الإمام الشافعي[١] عام ٦٠٨/١٢١١، واستخدم في بنائها الحجارة، وكانت القبة من الخشب ومكسوة بالرصاص[٢]، وكسيت جدرانها من الداخل بالرخام، وحليت بزخارف عديدة آية في الدقة والجمال[٣]، وبنى في جدارها الشرقي ثلاثة محاريب، وتعلو القبة قاعدة مربعة ترتفع حوالي ١٠,٦٢م، وارتفاع القبة من الداخل ١٦,٧٨م من سطح الأرض وبشرفه ترتفع ١,٨م.

وقد وجد اسم الملك الكامل مكتوباً مع تاريخ إنشائها على إحدى نافذتي حائط القبلة[٤]، وكتب على مصراعي باب القبة أبيات من الشعر منها[٥]،

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٨١/٥.

(٢) المقريزي، الخطط، ٤٦٢/٢.

(٣) حسن عبد الوهاب، من روائع العمارة الإسلامية، ٧.

(٤) أحمد فكري، مساجد القاهرة، ١٥٢/٢.

(٥) نفس المرجع والصفحة.

يشمل بناء قبة ضريح الإمام الشافعي أربعة قبور.

- قبر الإمام، وكان له تابوت من الخشب، وعليه نقوش، وكتابات بالخط الكوفي، والنسخ، وخط الثلث، وزخارف نباتية دقيقة.
- تابوت أم الكامل، وقد أنشأه ابنها الملك الكامل عام ٦٠٨/١٢١٢ من الخشب المزخرف.
- تابوت الملك الكامل الفاخر، المصنوع من الخشب، غطاؤه هرمي الشكل.
- تابوت للسيد محمد بن عبد الحكيم.

الشَّافعي إمَامُ النَّاسِ كُلّهِمُ فِي العِلْم والحِلْمِ والعَلْيَاءِ والْبَأسِ
لَهُ الإمَامَةُ في الدُّنْيا مُسلَّمَةٌ كَمَا الخِلافَةُ فِي أوْلادِ عبّاسِ
أصْحابُه خَيْرُ أصْحابٍ، ومذْهَبُهُ خَيْرُ المَذاهِبِ عِنْدَ اللهِ والنّاسِ

وبعد ما انتظم هذا المكان، أخذ الناس بنقل مقابرهم من القرافة الكبرى إلى جانب الضريح، وسميت هذه المنطقة القرافة الصغرى.

د- تشييد مدينة المنصورة:

لم يقتصر اهتمام الملك الكامل على النواحي الاقتصادية بل شمل الميدان العمراني، وتشييد المدن، فقد أقام مدينة المنصورة عام ٦١٦/١٢١٩ عندما ملك الفرنج مدينة دمياط[١]، (وهي تقع بين القاهرة ودمياط، في المنطقة المحصورة بين فرعي نهر النيل المتجهين إلى دمياط، واشمون طناح[٢] الذي يصب في بحيرة تنيس)، وجعلها قاعدة لعسكره وسماها المنصورة تيمنا بانتصاره على الصليبيين[٣] واستعادة دمياط، و لم يزل بها إلى أن خرج الفرنج من الأراضي المصرية، فأقام بها احتفالا ضخماً.

وقد بنى الملك الكامل فيها قصراً، وأمر من معه من الأمراء والعساكر ببناء مساكن لهم، ونصبت الأسواق، وأصبحت المدينة فيما بعد كثيرة القصور والفنادق والحمامات[٤]، وأحيطت بسور من الجهة البرية، وزودت مواقعها بآلات حربية للدفاع عنها[٥].

---

(١) المقريزي، الخطط، ٣٦٦/٢.

(٢) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢٣٨/٢.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٥/٤.

(٤) المقريزي، الخطط، ٣٦٦/٢.

(٥) أبو الفدا، المختصر، ٩٣/٣.

هـ- الحمامات:

كثرت الحمامات في الدولة الأيوبية، وزاد عددها في عهد الملك الكامل في القاهرة، واتصفت بحسن المنظر والاتقان "أحواضها يسع الواحد منها ما بين راويتين إلى أربع روايا، وأكثر من ذلك، يصب فيه ميزابان، أحدهما للماء الساخن والآخر للبارد، وقبل ذلك يصب الميزابان في حوض صغير جداً مرتفع، فإذا اختلطا فيه، جرى منه الماء إلى الحوض الكبير. وهذا الحوض يقع نحو ربعه فوق الأرض، وسائره في عمقها، ينزل إليه المستحم، فيغتسل فيه، وداخل الحمام مقاصير بأبواب[1]، وبالحمام مقاصير للأرباب حتى لا يختلطوا بالعوام[2] ولا تظهر عوراتهم. وفي وسط الحمام بركة مُرخّمة، وعليها أعمدة وقبة، وجميع ذلك مزوق السقوف، مبيض الجدران. وجرى ترخيم الأرض باصناف الرخام المجزع(٣) وهو مع ذلك كثير الضياء، رائع الأصباغ، بحيث إذ دخله الإنسان، لم يؤثر الخروج منه"، وكان يراقب الحمامات قيم نيابة عن المحتسب، ويلزم أصحابها بغسلها وكنسها، وتنظيفها، وغسل الخزانات التي تتجمع فيها المياه، وكان القيم ملزماً أن يُشعل البخور في الحمام مرتين كل يوم(٤)، ويمنع المجذوم والأبرص من الدخول إليه، ويتعهد الناطور حفظ ملابس الناس، فإن ضاع منها شيء التزم دفع التعويض من ذلك[5]. وقد خصصت بعض الحمامات للمغاربة، يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك.

رابعاً: حياة الشعب في ظل الملك الكامل.

ذكرت سابقاً أن الملك الكامل حاول رعاية الشعب، وتقديم الخدمات إليه، غير أن ظروف الحرب التي شهدتها البلاد مدة من الزمن أثرت في حياة الأهالي

---

(١) عبداللطيف البغدادي، كتاب الإفادة والاعتبار.

(٢) الباز العريني، الأيوبيون، ٢١٣.

(٣) سعيد عاشور، مصر والشام، ١٣٤.

(٤) الباز العريني، م.س، ٢١٤.

(٥) الشيرزي، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ٨٧.

السياسية والاقتصادية فازداد الفقر: وكان للحرب بين الصليبيين والمسلمين من جانب، والحروب التي أقامها الملك الكامل وأخوته، لانتزاع دمشق من الملك المعظم وابنه، ومن الملك الصالح اسماعيل، أثر كبير في استنزاف أموال الناس، وكثرة الضرائب، واستشهاد الألوف وانتشار الأمراض، وازدياد الفزع بين صفوف الأطفال والنساء، وتشريد الأهالي، ولا سيما لدى تخريب مدينة تنس واخلائها من السكان، وتخريب مدينة بيت المقدس، وقلعة الطور، فضلاً عن الدمار الذي كان يصيب المدن والقرى بين الحين والآخر، نتيجة العدوان الصليبي والخوارزمي والسلجوقي[1].

اتسمت الحياة الاجتماعية في عهد الملك الكامل بطابع الجد، ومناهضة الصليبيين، ذلك أن البلاد تعرضت إلى هجمات صليبية، ومخاطرها المتكررة، بالإضافة إلى الحروب الداخلية التي خاضها الملك الكامل في المناطق الشرقية، ولذلك غلبت فكرة الحرب، وتحصين الثغور، مما لم يترك مجالاً كبيراً للتوسع في حياة الترف، إلا أن الحياة الاجتماعية لم تكن خشنة كل الخشونة، فحافظ الملك الكامل على إحياء الأعياد الدينية الإسلامية، دون إسراف أو هتك[2].

وقد اعتمد الملك الكامل على الأقليات من الأتراك والأكراد والتركمان في تسيير شؤون البلاد[3]. فعانى العامة والحرفيون وصغار التجار من تسلط رجال الملك في كثير من الأحيان، واعتداءات الأعراب أحياناً على بعض المدن، وقطع الطرق، واغتصاب الجند الأموال، فشنع العامة على الملك ، واتهموه بالخيانة لدى تسليمه بيت المقدس عام ٦٢٥/١٢٢٨ بل أنهم أعلنوا بصراحة وشجاعة رفضهم استمرار حكمه، وأظهروا مشاعر الحقد عليه من خلال الأغاني والأهازيج التي كانوا يرددونها في المحافل العامة[4].

---

(١) الباز العريني، الأيوبيون، ٢١٣.

(٢) جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبي على مصر، ٢٤١.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٢٧/٤.

(٤) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٧٠٨/٨.

واشتهر الملك الكامل بعطفه على رعاياه فوزع الصدقات على الفقراء والمرضى واليتامى والأرامل والمقعدين منهم، وحرص على الحد من المظاهر الفاخرة التي ارتبطت بأعياد الشيعة، وقد اقتصد في الحفلات، وعدل بعض الأعياد بما يتفق وتحول أهالي مصر الشيعة إلى مذهب أهل السنة، مثل يوم عاشوراء، وكان يوم حزن عند الفاطميين، تغلق فيه الأسواق والحوانيت، فجعله يوم فرح توزع فيه الحلوى، وتطبخ الحبوب[1]، وحصر الأعياد عند المسلمين بعيدي الفطر والأضحي وأيام ١٥ شعبان، وعاشوراء والإسراء.

وكان التعاون بين أصحاب الديانات السماوية كبيراً، وبرز هذا التعاون عندما صادف حدوث عيد الفطر عند المسلمين وعيد الميلاد عند النصارى، ويوم الغفران عند اليهود عام ٦٢٤/١٢٢٧، فاغتنم الملك الكامل هذه الأعياد وختن ابنه الملك العادل، وأقام سماطاً أنفق فيه الأموال الكثيرة[2].

وعامل الملك الكامل أهل الذمة معاملة جيدة، "إذ عرف بتسامحه الديني"[3]، فقد ذكر ابن عبري "إن موسى بن ميمون اليهودي الأندلسي أكره على الإسلام عام ٦٢٥/١٢٢٨، وأظهر إسلامه، وأسرَّ اليهودية، فخرج من الأندلس إلى مصر، وابتلي برجل من الأندلس يعرف بأبي العرب، وصل إلى مصر، فرام إيذاءه، فمنعه القاضي الفاضل، وقال له "رجل لا يصح إسلامه شرعاً إذا أكره"[4] واحتل العنصر القبطي مكانة مرموقة في الدولة، فقد أسلمت أسر قبطية، وبرع أفرادها في ميادين شتى، ونبغ الكثير منهم، وعملوا في الدواوين لكفاءتهم. وكان معظم الأطباء لدى السلاطين من اليهود والنصارى، وشغل بعضهم المناصب المالية في الدولة، وكانت الكنيسة القبطية تعد الملك الكامل من أكثر الملوك إحساناً إلى أبنائها[5].

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٦/١١٠.
(٢) المقريزي، السلوك، ١/٢٥٨.
(٣) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ٢٣٩.
(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٦/١١٠.
(٥) فيليب حتي وآخرون، تاريخ العرب، ٧٤٤.

وقد أثرت هذه الأوضاع في العامة، وبرزت الظواهر التالية:

أ- ظاهرة الغلاء والأوبئة والمجاعات:

تعد الحياة الاقتصادية في أي مجتمع إنساني أكثر تأثراً بالوضع السياسي السائد في المجتمع، إذ يرتبط الاستقرار الاقتصادي طرديا بالازدهار السياسي في المجتمع، وتعد الأزمات السياسية والحروب سببا في حدوث الاضطراب الاقتصادي وارتفاع الأسعار، والتهافت على شراء الأقوات، وكان الغلاء من أكثر الظواهر الاقتصادية إضراراً بالعامة، فعانى الناس من الجوع والمرض، فقد انخفضت مياه النيل في عامي ١٢٠٠ و ١٢٠١، وانتشرت المجاعة والأمراض وهجر كثير من الناس مصر إلى أقطار أخرى بحثاً عن الطعام[1].

ويمكن أن نعزو أسباب الغلاء وارتفاع الأسعار إلى عاملين رئيسين:

١- يعتبر منسوب مياه النيل العامل الأول: إذ أن هبوط النيل أو زيادته على المنسوب العادي للفيضان في فصل الصيف يمثل خطراً حقيقياً على الحياة المصرية آنذاك، إذ لم يعتمد الأهالي خزن المياه الزائدة في سدود لاستخدامها في وقت التحاريق، لذلك كان السكان يخشون الفيضان ويعدونه كارثة عليهم، إذ أن النيل هو مصدر المياه الوحيد في مصر تقريباً، فإذا قصر عن الوفاء فات وقت الزراعة، وإذا زاد على حده العادي أغرق الحقول، وجعلها غير صالحة للزراعة، وعندما تقل مياه النهر عن الحد اللازم للزراعة تنتاب الناس مخاوف من حدوث المجاعة، ويكثر قلقهم، خوفا من الجوع لعدم زراعة ا لمحاصيل، لذلك كان السكان يسارعون لتخزين الغلال طمعاً في الحصول على مزيد من الأرباح من طريق رفع الأسعار، ونتيجة لذلك يشتد الإقبال على شراء الغلال، بينما يقل المطروح منها في الأسواق، ويشتد التزاحم على حوانيت الغلال ، والأفران، مما يؤدي إلى ارتفاع الأسعار في البضائع المختلفة سواء المأكولات أو المشروبات أو الملبوسات.

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٦/١٧٠.

٢- ويتمثل هذا العامل بسياسة الدولة الاقتصادية المرتبطة بطبيعة النظام الإقطاعي ذي الطابع العسكري، فأصحاب الإقطاعات من قادة وأمراء جند لم يعيروا اهتماماً كبيراً لاستصلاح أراضيهم، وجعلها أكثر مردوداً بسبب عدم استقرار هذه الإقطاعات في أيديهم.

ذكر المقريزي "أنه كان لأسرة بني خيار بقره فذبحوها، وباعوها أثناء حصار دمياط عام ١٢١٨/٦١٥ بثمانمائة دينار[1]، وأن سعر رطل السكر ارتفع إلى ٤٥٠ ديناراً، والدجاجة إلى ٣٠ ديناراً، وأن الجوع انتشر بشكل كبير إلى درجة أن إحدى السيدات المحسنات شقت جوف جمل، وملأته بالدجاج والفواكه، وخاطته، ورمته في البحر، وكتبت بذلك إلى أهل دمياط ليوزعوا ما فيه إلى المحتاجين".

وكان الغلاء في مصر عام ١٢٣٦/٦٣٣ شديداً لنقص مياه النيل، فخرجَ العامة، وأئمة المساجد لتأدية صلاة الاستسقاء، فأكل الناس الكلاب والقطط، وانتشر المرض، واستمر حوالي ثلاثة أشهر، فمات خلق كثير تجاوز الحد، وقدره المقريزي بحوالي ١٢ ألف نفس في القاهرة، عدا من مات في الريف[2]، وقدره ابن تغري بردي بحوالي ثلاثين ألفا[3].

ب- السخرة:

استخدم الملك الكامل الناس للعمل دون أجر لبناء الجسور العامة والسدود والعمل في الإقطاعات، والمرافق العامة التي تظهر فائدتها في السكان، وقد أشرت إلى ذلك في الصفحات السابقة.

---

(١) المقريزي، الخطط، ٣٩٩/١.

(٢) المقريزي، السلوك، ٢٩١/١.

(٣) ابن تغري، النجوم الزاهرة، ٢٨٧/٦.

جـ- الرشوة:

انتشرت الرشوة بين بعض كبار المسؤولين، وليس أدل على ذلك من قول المقريزي "تقدم الأنبا كيرلس داود بن لقلق بطرك الاسكندرية بالرشوة، وأنه أخذ الشرطونية عام ٦٣٣/١٢٣٥"[١].

د- المصادرة والظلم الاجتماعي:

انتشرت المصادرة والظلم الاجتماعي في عهد الملك الكامل، فقد كثرت مصادرة الوزير الصاحب صفي الدين بن شكر أرباب الأموال بمصر والقاهرة من التجار والكتاب، وكان يفرض على الناس التبرع بأملاكهم، وأحدث ابن شكر حوادث كثيرة، وحصل مالاً جما، وقد وصف[٢] "بأنه كان جباراً، أفقر خلقاً كثيرا عاتيا بتقدمه الأراذل وتأخر الأماثل"، وكان الملك الكامل فيه جبروت ويحب تحصيل المال، وجمعه، والسيطرة.

وفي عام ٦٢٣/١٢٢٦ قبض الملك الكامل على أولاد الصاحب صفي الدين بن شكر[٣]، وأحاط بجميع موجودهم، واعتقل ابنيه تاج الدين يوسف وعز الدين محمد بدرب الأسواني[٤].

وابتز الملك نجم الدين أيوب أموال التجار عام ٦٢٥/١٢٢٨لشراء المماليك، وفي عام ٦٢٦/١٢٢٩ وقعت الحوطة على دار القاضي الأشرف أحمد بن القاضي الفاضل[٥]، وحملت خزائن الكتب جميعها إلى قلعة الجبل، فكانت ثمانية وستين ألف مجلدة ونقلت على ٤٩ جملا، وعلى دفعات.

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢٩٢/١.

(٢) المقريزي، ، م.س٢٤٢/١.

(٣) م.ن، ٢٥٧/١.

(٤) ينسب إلى القاضي ابن ظهر الحسن بن هبه الأسواني، والمعروف بأن عتاب (المقريزي، الخطط، ٣٧/٢).

(٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥٩/١.

وقبض الملك الكامل على الناصر فلج أرسلان عام ٦٣٠/١٢٣٢، واعتقلــه في قلعة الجبل حتى مات، وكان الناصر حاكم حماه، فانتزعها الملـك الكـامل منـه[١]، وسلمها إلى الملك المظفر محمود بن المنصور زوج ابنته غازية خاتون وعوضـه بقلعـة بارين، وما لبث أن انتزع الملك المظفر هذه القلعة منه، فذهب إلى مصر يشكو أمـره للملك الكامل فقبض عليه.

هـ- سرقة الأموال العامة:

تفشت السرقة والإهمال في بعض دواوين الدولة، ولا سيما المواد الغذائية الـتي يعتمد عليها أبناء الشعب، فقد نهب ناظر ديوان الأهراء حوالي أحد عشر ألـف أردب من القمح[٢].

ولا يعني ما سبق أن الملك الكامل كان متسلطاً، ومنعزلاً عن شعبه تماما، وإنمـا كان يحاول مساعدة الشعب، ومشاركته في كثير من الأمور ومن ذلك:

١- مشاركة الملك الكامل في صلوات الاستسقاء التي كانت تؤدى بين الحـين والآخر كلما قلت مياه النيل، وصلاة العيد و....

٢- توزيع الصدقات والزكوات على الفقراء ولا سيما في رمضان .

٣- إبطال بعض الضرائب عند انتشار المجاعات.

٤- مصادرة أموال بعض المسؤولين الذين أساؤوا استخدام الوظيفـة، وقبلـوا الرشوة، أو سرقوا من الدواوين.

خامساً: بعض رجالات الملك الكامل:

اعتمد الملك الكامل على عدد من الرجال في تسـيير دفـة الحكـم، وإدارة الدواوين، وقيادة الجيش، وقد برز عدد من الرجال في الميادين المختلفة، منهم شمـس

---

(١) المقريزي، م.س، ٢٨٤/١.

(٢) ذكر ذلك في مراقبة الملك الكامل للدواوين.

الدين صواب الطواشي، الذي كان مقدم عسكر الكامل، وتولى بلاد المشرق إلى أن مات في حران عام ١٢٣٤/٦٣٢[١]، وأبو الوحش بن أبي الخير أبو حليقة ت ١٢٥٦/٦٥٤ طبيب الملك الكامل، الذي أحكم معرفة نبضه، حتى أن الكامل أخرج يده ذات يوم من خلف ستارة إلى الطبيب ليحس نبضه، فقال[٢] "هذا نبض مولانا السلطان"، وابن البيطار الذي كان رئيس العشابين عند الكامل[٣] وتوفي ١٢٤٨/٦٤٦.

واستخدم الملك الكامل في كتابة الإنشاء عدداً من الأشخاص أبرزهم الوزير ابن شكر ت ١٢٢٥/٦٢٢[٤]، وبهاء الدين زهير، والفخر سليمان بن محمود بن أبي غالب الدمشقي، وعندما توفي الأخير عام ١٢٣٢/٦٣٠ استحضر الملك الكامل ناسخاً يقال له الأمين الحلبي، كان في خدمة الأمير عز الدين أيبك استدارا الملك المعظم، فلما حضر الأمين ليكتب بين يديه، خلع عليه، وأعاده إلى الأشرف صاحب دمشق[٥].

وبعث الملك الكامل إلى ميافارقين فأحضر جلال بن نباته ليستكتبه، فلما حضر خلع عليه، وأعاده و لم يستكتبه، فعمل لدى الملك الأشرف، وعندما فتح الملك الكامل آمد عام ١٢٣٤/٦٣٢ استخدم فخر الدين بن لقمان كاتب عرصة القمح ونائب ناظر آمد، وكان بهاء الدين زهير كاتب الإنشاء عند الملك الكامل قد استدعى من ناظر آمد بعض الحاجات، فكانت الرسائل ترد إليه بخط ابن لقمان، فأعجب

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٨٧/٦.

(٢) الكتبي، فوات الوفيات، ٢٤٩/٤.

(٣) م.ن، ١٦٠/٢.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩١/١، ٢٩٠/٣.

(٥) المقريزي، السلوك، ٢٨/١.

وكثر رجالات الملك الكامل، وقد مر ذكر بعضهم في مواضع مختلفة من الكتاب، ولكني آثرت إبراز أولاد الشيخ، وابن دية وابن المنذر بتفصيل اكثر لما لهم من أثر كبير في سياسة الملك الكامل واعتماده عليهم.

أ- أولاد شيخ الشيوخ:

كان الشيخ صدر الدين من بيت كبير من خراسان[1]، وكان فقيهاً فاضلاً، درس بتربة الشافعي بالقاهرة، وكان له حرمة وافرة عند الملك الكامل، يعتمد عليه في كثير من الأمور، وقد أرسله عام ٦١٧/١٢٢٠ إلى الخليفة العباسي يستنصره على الفرنج في دمياط، فأصيب بالإسهال، وتوفي بالموصل عن أربعة وسبعين عاما[2].

خلف الشيخ صدر الدين أربعة أبناء، عرفوا بأولاد شيخ الشيوخ، وتقدموا عند الملك الكامل، واثروا في سلوكه، إذ كانوا إخوته في الرضاعة[3]، وكانوا يتولون مشيخة الخانقاه سعيد السعداء، والتدريس في المدرسة الناصرية التي شيدها الناصر صلاح الدين يوسف عام ٥٦٦/١١٧٠، وكانت بجوار قبر الشافعي بالقرافة، وكذلك التدريس في المشهد الحسيني بالقاهرة، وقد حاز أبناء الشيخ فضيلة السيف والقلم، يباشر أحدهم التدريس، ويتقدم على الجيش، ويباشر الحرب[4]، وهم[5] الأمير فخر الدين يوسف، وعماد الدين عمر، وكمال الدين أحمد، ومعين الدين حسن.

---

(١) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢/٢٠٨.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٢/١٠٠.

(٣) المقريزي، السلوك، ١/٣٠٢.

(٤) ابن كثير، م.س، ١٢/١٠٠.

(٥) ينتمي أولاد الشيخ، بنو حمويه إلى أسرة فارسية متصوفة، وكانوا فقهاء شافعية، هاجر فرع من هذه الأسرة إلى الشام، وتمتعوا بنفوذ كبير زمن بني أيوب الأواخر وبخاصة السلطان الكامل وأولاده، (ابن واصل، مفرج الكروب، ٤/٩١).

كان الأمير فخر الدين يوسف أميراً عالي الهمة، فاضلاً ومتأدباً وسمحاً وجواداً، محبوباً إلى الخاص والعام[1]، خليقاً بالملك لما فيه من الأوصاف[2] الجيدة، وكانت أمه ابنة المظهر بن أبي عصرون.

وكان الملك الكامل لا يطوي سراً عن فخر الدين، ويثق به ويعتمد عليه، وكان أول أمره معمما، فألزمه الملك الكامل أن يلبس الشربوش وزي الجند[3]، فأجابه إلى ذلك، فأقطعه الملك الكامل منية السودان بالديار المصرية، ثم طلب منه أن ينادمه، فأجابه إلى ذلك، وكان رئيسا محتشماً ذا عقل ورأي، ودهاء وشجاعة وكرم[4].

بعث الملك الكامل الأمير فخر الدين يوسف في عدة بعثات، فقد أرسله إلى الامبراطور فردريك الثاني عام ١٢٢٧/٦٢٤ ، يستقدمه إلى عكا ليشغل سر أخيه الملك المعظم[5]، وفي عام ١٢٢٨/٦٢٥ أرسله لتسلم حران والرها وسروج، وقال ابن بطريق فيه

عَلى مَنيةِ السُّودان صَارَ مُشَربشاً ... وأَعطوهُ شِبْراً عِنْدما شَرِبَ الخَمْرَا

واستشهد في دمياط عام ٦٤٧ /١٢٤٩[6].

أما عماد الدين الحسن فكان من أكابر أعيان الدولة، والمقربين عند الملك الكامل، فقد كلف بعقد قران الملك العزيز صاحب حلب عام ١٢٢٩/٦٢٦ على الخاتون فاطمة ابنة الملك الكامل[7] وبعثه الملك الكامل إلى الخليفة، فلما قدم بغداد قال نيابة عن الملك الكامل بين يدي الوزير مؤيد الدين بن الحسن العلقمي[8]

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٦٣/٦

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٨٩/١٣.

(٣) الكتبي، فوات الوفيات، ٣٦٦/٤.

(٤) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ٣٩٦/٤.

(٥)المقريزي، السلوك، ٢٥٨/١.

(٦)ابن تغري بردي، م.س، ٣٦٣/٦؛ ابن العماد الحنبلي، م.س، ٢٣٩/٤.

(٧)المقريزي، م.ن، ٢٧٣/١.

(٨) المقريزي، السلوك، ٢٥٨/١.

قال نيابة عن الملك الكامل بين يدي الوزير مؤيد الدين بن الحسن العلقمي[1] "عبدالدولة المقدسة المستنصرية يقبل العتبات التي يستشفى بتقبيل ثراها.. ويوالي الشكر لله تعالى، على إماطة ليل العزاء الذي عم مصابه، يصبح الهناء الذي تم نصابه، حتى تزحزح شمس الهدى شفق الإشفاق، فحصل كلمتها العليا، وكلمة معاديها السفلى، وزادها شرفاً في الآخرة والأولى"، وكان ذلك عام ١٢٢٥/٦٢٢ عندما توفي الخليفة الظاهر بأمر الله وتولى الخلافة من بعده ابنه المستنصر بالله[2]، وفي عام ١٢٣١/٦٢٩ أرسله الملك الكامل إلى الخليفة في رسالة خاصة.

وساهم كمال الدين بن شيخ الشيوخ في خدمة الملك الكامل، فقد عين عام ١٢٢٩/٦٢٧ نائباً بالجزيرة[3]، ثم عينه الملك الكامل وزيراً له، وخدم الملك الصالح أيوب إلى أن توفي عام ١٢٤٢/٦٤٠ في غزة عن ٥٦ عاما، فبنى عليه أخوه معين الدين قبة، وقيل إنه مات مسموماً[4].

وخدم معين الدين بن شيخ الشيوخ دولة الملك الكامل، فبعث عام ١٢٢٧/٦٢٤ إلى الملك المعظم، ثم بعث إلى الخليفة لتوضيح أمر الخلاف بين الكامل والمعظم[5]، وتولى معين الدين نيابة الوزارة لدى الملك الكامل[6]، ثم تولى الوزارة لدى الملك الصالح أيوب وتوفي عام ١٢٤٥/٦٤٣[7].

ب- ابن دحيه:

أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن محمد بن فرج بن دحيه ولد عام ١١٤٩/٥٤٤[8]، كان شيخ الحديث في عهد الملك الكامل، فولاه مشيخة دار

---

(١) المقريزي، السلوك، ١/٢٥٨.
(٢) المقريزي، م.س، ١/٢٨٣.
(٣) م.ن، ١/٢٧٩.
(٤) ابن تغري بردي، النجوم، ٦/٣٥٤.
(٥) المقريزي، م.س، ١/٢٦١.
(٦) م.ن، ١/٣٠١.
(٧) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣/١٨٣، أبو الفداء، المختصر، ٣/١٧٥.
(٨) ابن خلكان،وفيات الأعيان.

الحديث الكاملية[1]، وكان الملك الكامل مقبلا عليه، ثم أخذ منه دار الحديث وأهانه، إذ كان يثلب علماء المسلمين ويقع فيهم، ويزايد في كلامه، فترك الناس الرواية عنه، وابتعدوا عنه وكذبوه، ت عام ٦٣٣/١٢٣٥[2]، قال ابن العماد الحنبلي[3] "كان من العلماء، ومشاهير الفضلاء متفننا في الحديث، والنحو، واللغة، وأيام العرب وأشعارها".

تناظر والشيخ تاج الدين الكندي، فقال له الكندي أخطأت، فسفه عليه، فقال الكندي أنت تكذب في نسبك إلى دحية، ودحية بإجماع المحدثين ما أعقب، وقال فيك ابن عنين[4].

دَحِيّة لَمْ يُعقِبْ فكَم تَنْتَمي　　إليه بالبُهتانِ والإفْكِ

مَا صحَ عِنْد الناسِ فيهِ سِوى　　أنّكَ مِنْ كَلْبٍ بلا شكِ

سمع بمصر من البوصيري، وبالعراق مسند الإمام أحمد، وبأصبهان معجم الطبراني من الصيدلاني، وفي نيسابور صحيح مسلم، وله تصانيف، ودعاوي مدحضة، وعبارة متغيرة ومبغضة[5].

جـ- الحافظ زكي الدين المنذري:

عبدالعظيم بن عبد القوي بن عبدالله بن سلامة، الإمام العلامة محمد أبو زكي الدين المنذري، كان شافعياً، شامي الأصل[6] ولد بمصر عام ٥٨١/١١٨٥، كان شيخ

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ٤٥١/١٣.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم، ٢٩٥/٦.

(٣) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ١٦٠/٥.

(٤) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ١٦٠/٥.

(٥) م.ن.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٢٥/١٣.

الحديث بمصر مدة طويلة[1] ولي دار الحديث الكاملية[2] وكانت له اليد الطولى في الفقه، واللغة والتاريخ، زاهداً، توفي عام ١٢٥٨/٦٥٦[3].

اختصر صحيح مسلم، وسنن ابي داود، وله كتاب الترغيب والترهيب في مجلدين، وكتاب التكملة لوفيات النقلة[4].

ومما سبق نلاحظ اهتمام الملك الكامل بالشؤون الداخلية لمملكته، فسعى إلى توفير الأمن في البلاد، وحد من نشاطات اللصوص وقطاع الطرق، وشمل برعايته الناس وحاول حل مشاكلهم، وحاول مراقبة العلاقات بينهم فتدخل لحل خلافات الأقباط، ومنع الإسماعيلية من الدعوة لعقيدتهم، وعين بعض أمراء القبائل لضمان السير في ركابه، وعدم مخالفة أمره واطلع على أحوال الدواوين، وحاول تنظيم سجلاتها، ومحاكمة كل من يخون الوظيفة التي يعمل بها. كذلك حاول منع الرشوة والسرقة في الدواوين، وأعاد العمل والنشاط لديوان التحقيق عام ١٢٢٧/٦٢٤ الذي كان معمولا به أيام الفاطميين، إلا أنه ألغى هذا الديوان بعد عامين عندما استقامت الأمور[5].

وعنى الملك الكامل بالمرافق العامة التي توفر حياة أفضل للسكان، فمد قنوات الري، وشيد دار الحديث، وأصلح قبة الشافعي، وأدخل زراعة البيلسان، وشجع زراعة النخيل، وركز على إصلاح النظام النقدي في البلاد لتوفير الأموال اللازمة، فحاول تنمية أموال الدولة، وحد من تزييف النقود.

---

(١) أبو الفدا، المختصر، ١٩٧/٣.

(٢) المقريزي، الخطط، ٢٣٥/٣.

(٣) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢٨٨/٢.

(٤) ابن العماد الحنبلي، م.س، ٢٧٧/٥.

(٥) ذكر المقريزي، أن الملك الكامل أحدث "الحوادث سماها الحقوق" وهي وظيفة مسؤولة عن الإدارة المالية، المقريزي، الخطط، ٣٨٧/٣.

ومع أن الملك الكامل اهتم كثيراً بإعمار البلاد، وإقامة المباني العديدة من مدارس وقلاع، إلا أنه في الوقت نفسه اضطر إلى تخريب بعض القلاع، والمدن أثناء الحملات الصليبية على مصر وبلاد الشام، فقد أمر عام ١٢٢٧/٦٢٤ بتخريب مدينة تنيس[1] وأركانها الحصينة، وعمائرها، واستمرت خرابا طوال حكم الملك الكامل، وقد اشتهرت المدينة بجمال عمائرها، ووفرة دخلها من الأسماك، ومن صناعة المنسوجات، وكانت مدينة تنيس قد أخليت عام ١١٩٢/٥٨٨، ونقل أهلها إلى دمياط إلا المقاتلة[2]، وحفر خندق دمياط، وعمل جسر عند سلسلة البرج بها.

وعندما تعرضت دمياط لعدوان الصليبيين عام ١٢١٩/٦١٦، أرسل الملك المعظم عيسى بن الملك العادل الحجارين والنقابيين لتخريب أسوار القدس، وقد انشد مجد الدين قاضي الطور، فقال:[3]

مررْتُ عَلى القُدْسِ الشَّريفِ مُسلّماً ... عَلى ما تَبقّى مِنْ رُبوعٍ وأَنْجُمِ
فَفَاضَتْ دُموعِ العَيْنِ مِنّي صَبَابَةً ... عَلى ما مَضى مِنْ عَصْرِهِ المُتقدِّمِ
فَلو كانَ يُفْدى بالنُفوسِ فَديتُهُ ... بِنفسي وَهَذا الظَنُّ في كلِّ مُسلمِ

وبالرغم من محاولات الملك الكامل السابقة إلا أن الظروف الطبيعية من نقص لمياه النيل في بعض السنوات، وكثرة الحروب في عهده، ألقت بظلالها على حياة الشعب، فظهرت المجاعات في بعض السنوات، وانتشرت الأوبئة، وتفشت بعض أنواع الفساد، كالسخرة والرشوة والسرقة، كما حدث في ديوان الأهراء.

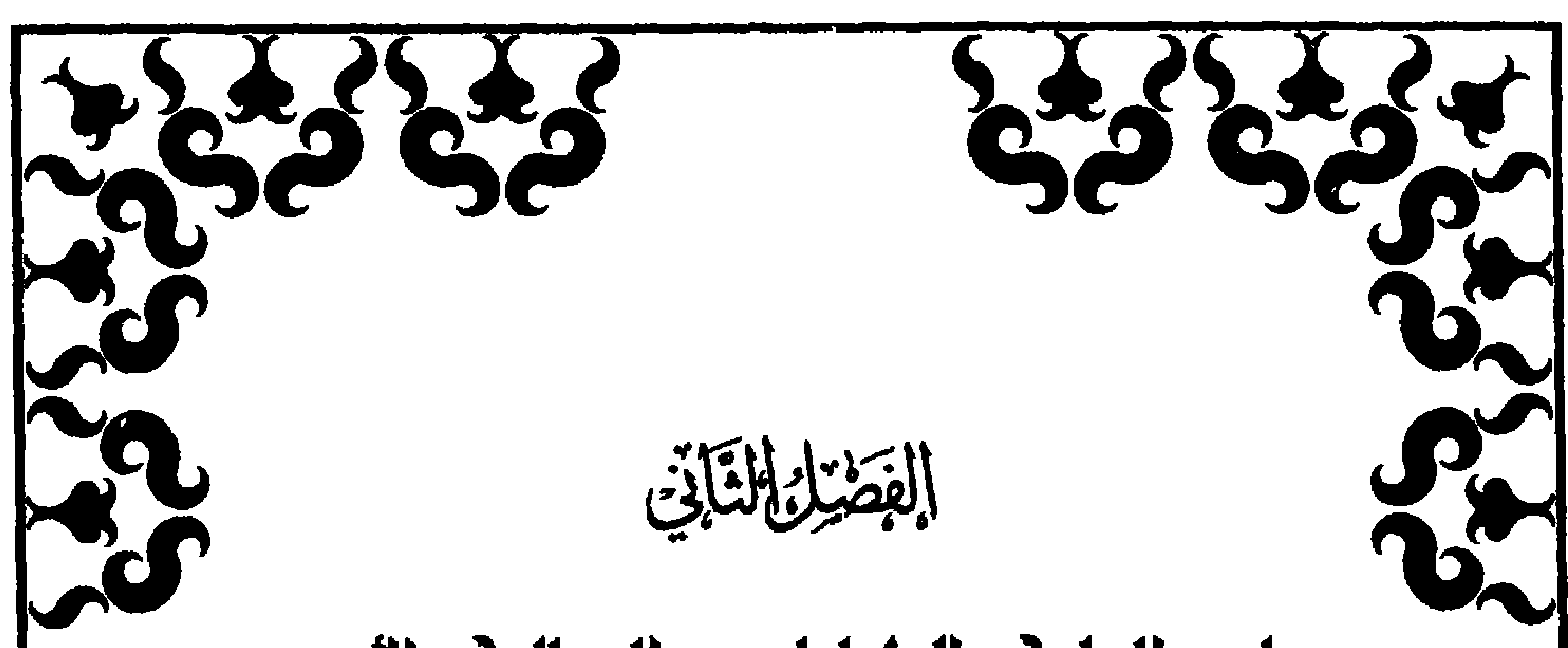
وغني عن البيان أن الملك الكامل اعتمد على مجموعة من الرجال الذين أسدوا له النصيحة، وقدموا له المشورة في المواقف المختلفة، فكانت لهم اليد الطولى في إدارة البلاد، وتنظيم الدواوين، وتشييد العمران، وإصلاح النظام المالي، ومختلف الشؤون.

---

(١) المقريزي، لاسلوك، ٢٦٢/١.

(٢) م.ن.

(٣) أبو الفدا، المختصر، ١٢٢/٣.



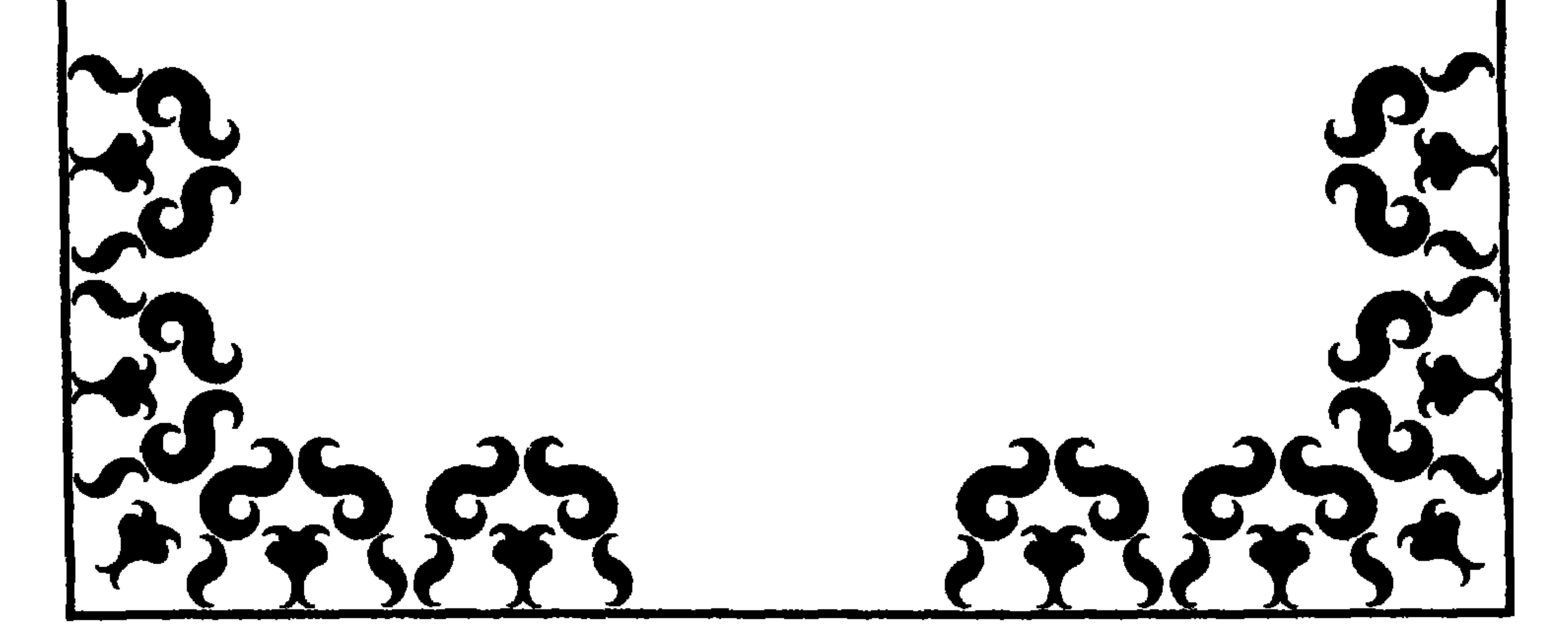
الفصل الثاني

سياسة الملك الكامل في الممالك الأيوبية

أولاً : علاقة الملك الكامل والملوك الأيوبية حتى ٦١٨/١٢٢١ .

ثانياً : العلاقة بين الملك الكامل والملوك الأيوبية من ٦١٨/١٢٢١ إلى ٦٣١/١٢٣٣ .

ثالثاً : اختلاف الملوك الأيوبيين وسيطرة الكامل على دمشق .



الفصل الثاني

سياسة الملك الكامل في الممالك الأيوبية

أسس صلاح الدين دولة شملت مصر وبلاد الشام والجزيرة، وكانت وحدة متماسكة، ولكنه قسمها بين أبنائه قبيل وفاته، فتنازع خلفاؤه على السلطة إلى أن تمكن أخوه الملك العادل من إعادة هذه الوحدة إلى التماسك ثانية. غير أنه اقتفى نهج أخيه صلاح الدين فقسم الدولة بين أولاده، وأصبح يتنقل بين ممتلكات أبنائه يقدم لهم المشورة، ويتابع إدارتها من كثب، وعندما توفي الملك العادل استقر الملك الكامل في حكم مصر، والمعظم في دمشق، والأشرف في إقليم الجزيرة، وكان الكامل يعد كبير الأيوبيين، ورئيسهم، يدعى له من على المنابر، وتسك النقود باسمه، وكان يصدر مراسيم تعيين الملوك الأيوبيين في ممالكهم.

وكانت علاقة الملك الكامل مع الملوك الأيوبيين طيبة غداة وفاة والده، واستمرت كذلك بضع سنوات اثناء العدوان الصليبي على دمياط، ولكن هذه العلاقات شابها كثير من الوحشة، ثم تطورت إلى عداء وقتال، و لم يحسم هذا العداء بالمحاورة، فاحتكم إلى السلاح.

لقد ركزت في هذا الفصل على علاقة الملك الكامل مع الممالك الأيوبية، وأشرت إلى سياسته الداخلية في هذه الممالك بصفتها مملكة واحدة، وبصفته صاحب الكلمة العليا بين الملوك الأيوبيين.

وقسمت هذا الفصل إلى ثلاث فقرات رئيسية، تناولت الأولى علاقة الملك الكامل والممالك الأيوبية حتى عام ٦١٨/١٢٢١، وتحدثت في الفقرة الثانية عن

العلاقات بينه وبين الملوك الأيوبيين بين عـــامي ١٢٢١/٦١٨ و ١٢٣٣/٦٣١، ولا سيما بين الكامل والملوك المعظم، والناصر داود، والأشرف، وأصحاب حماه وحلب.

وأنهيت الفصل بالفقرة التي خصصت للتحدث عن اختلاف الملـــك الكـــامل وملوك الأيوبيين بعد ١٢٣٤/٦٣٢، ومن ثم سيطرة الملك الكامل على دمشق.

أولاً: علاقة الملك الكامل والممالك الايوبية إلى عام ١٢٢١/٦١٨.

توفي الملك العادل عام ١٢١٨/٦١٥[١] أثناء العدوان الصليبي علـــى دميـــاط، فاستقل أبناؤه كل في مملكته التي منحها لهم، ولكنهم تطلعوا إلى المحافظة على صـــدق الأخوة، والتعاون، فتعاطفوا مع الملك الكامل لأنه أخوهم الكبير وبمثابـــة والدهـــم، وكان مقدماً عند والدهم، وكانت بلاده تتعرض لعدوان صليبي، مما دفعـــهم إلى رص الصفوف، والوقوف وقفة واحدة أمام هذا الغزو لمصر.

وقد كـــان الملك المعظم أكثر الأمراء حماساً للتعاون مع أخيه الكامل، فكـــان من أوائل من وصل لدعم أخيه في مصر، وكان له فضل في إنهاض الأيوبيين ومساعدة الملك الكامل، واعترف الأخير بهذا الفضل.

وتدفقت القوات الأيوبية لدعم الملك الكامل، وأثناء ذلك حاول الأمير عمـــاد الدين بن المشطوب خلع الملك الكامل، غير أن الملك المعظم نجح في إحباط المؤامـــرة وإبعاد صاحبها عن مصر[٢]، فاستقامت أمور البلاد وتوطد الأمن.

ونجح الملك المعظم في استقطاب أخيه الملك الأشرف لنجدة الملـــك الكـــامل، كذلك حاول المعظم فتح جبهة جديدة في بلاد الشام، لتشـــتيت قـــوات الصليبيـــين وإضعاف ضغطهم على مصر، وأمر بهدم بعض المواقع الهامة كالقدس وقلعة الطـــور

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٧٠/٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٣١٦/٩.

خشية وقوعها في أيدي الصليبيين، ورفع الملك الكامل من شأن أخيه المعظم فعينه الناطق الرسمي للأيوبيين في محاوراته مع الصليبيين[1]، أثناء العدوان على دمياط.

أثار الملك الكامل حماس الملوك الأيوبيين، وطلب مساعدتهم لوقف الزحف الصليبي، فلبى معظمهم النداء، فوصل الملك المظفر بن المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر صاحب حماه[2] لنجدة خاله الملك الكامل، ووصل الملك الأشرف موسى صاحب البلاد الشرقية مصطحباً معه عساكر حلب، ورافقه صاحب بعلبك الملك الأمجد بهرام بعساكره،وصاحب حمص الملك المجاهد شيركوه و....

أكرم الملك الكامل القادة الأيوبيين، وكان يتدارس معهم في الخطط العسكرية ويباحثهم في شروط الصلح من الصليبيين.

وعندما توقف القتال وتقرر انسحاب الصليبيين، وقبل أن يعود الملوك إلى بلادهم أقام الملك الكامل لهم مأدبة كبيرة، ومجلس طرب تقديراً لجهدهم، وقد غنت في المجلس جارية الملك الأشرف موسى "ست الفخر" على عودها[3].

ولما طَغَى فرعونُ عَكا بِبَغْيِهِ ... وَجَاءَ إلى مِصْرٍ لِيُفْسِدَ في الأَرْضِ

أتى نَحْوَهُم موسى وفي يَدِهِ العَصَا ... فَأَغرقَهم في اليَمِّ بَعضاً عَلى بَعْضِ

فطرب الملك الأشرف، وطلب منها أن تعيد الغناء، فتضايق الملك الكامل، وأمرها أن تسكت، وقال لجاريته "عن أنت" فغنت على العود.

أيا أَهْلَ الكُفْرِ قُوموا لِتَنْظُروا ... لِما جرَى فِي وَقْتِنا وَتَجدّدا

أَعُبّادُ عيسى إنّ عيسى وَقَوْمَهُ ... وَمُوسى جَميعاً يَنصرونَ مُحمدا[4]

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ٤/٩٨.

(2) أبو الفدا، المختصر، ٣/١٤٣.

(3) المقريزي، السلوك، ١/٢٤٦.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ٤/٣٠٥، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ٤/٧٩.

أعجب الملك الكامل بها، وأمر بخمسمائة دينار لجاريته ومثلها لجارية أخيه الملك الأشرف، فتحمس قاضي غزة، القاضي هبة الله محاسن، وأنشد

حَبانا إله الخَلْقِ فَتحاً لنا بَدا مُبيناً وأنعاماً وَعِزّا مُجددا

تَهلّلَ وَجْهُ الدّهْرِ بَعْد قُطوبِه وأصْبَحَ وَجْهُ الشّرْكِ والظُلْمِ أسْوَدَا

وهكذا كانت العلاقات بين الملك الكامل والأيوبيين علاقة طيبة، فأثرت في مدى تعاونهم، وتماسكهم في معركة دمياط، وأثناء محاورات الصلح مع الصليبيين، ومع أنهم اختلفوا حول بعض شروط الصلح، إلا أنهم التزموا ما قرره الملك الكامل بصفته كبير الأسرة الأيوبية.

لقد كان للوقفة الشجاعة التي وقفها ملوك البيت الأيوبي في دمياط أثرها في تحرير المدينة، ولكن التصدع سرعان ما هدد البيت الأيوبي من جديد بعد عودة الملوك إلى قواعدهم.

ثانياً: العلاقات بين الملك الكامل والملوك الأيوبيين من عام ٦١٨/١٢٢١-٦٣١/١٢٣٣.

لم تستمر العلاقات الطيبة بين الملك الكامل والملوك الأيوبيين كما ذكرت سابقاً، بل شاب هذه العلاقات وحشة أدت إلى القطيعة أحيانا، والاستعانة بملوك الدول المجاورة، فازدادت الفجوة بين الملوك الايوبيين، وانقسموا إلى أحلاف يحالف بعضها الملك الكامل، وأخرى تعاديه، ولم يلجأ عقلاء الأيوبيين إلى الحوار لحل مشاكلهم، وسد الثغرات بين طموحاتهم المختلفة، أو توضيح شكوكهم، واكتساب ثقتهم ببعض ، فساءت هذه العلاقات كما يلي:

أ- الوحشة بين الملك الكامل وأخيه الملك المعظم:

ساءت العلاقة بين الملك الكامل وأخيه الملك المعظم بعد تحرير دمياط عام ٦١٨/١٢٢١، ذلك أن الملك الأشرف موسى صاحب سنجار وخلاط والبلاد

الشرقية توجه لزيارة الملك الكامل في مصر عام ١٢٢٢/٦١٩ ومر من دمشق، والتقى أخاه المعظم، ولكنه لم يعرض عليه السفر إلى مصر، ولم يصطحبه معه[١]، فتضايق المعظم في داخلته ، وأطال الملك الأشرف المقام متنزهاً في مصر إلى أن انتهت السنة[٢]، فساور المعظم الشك من أخويه الكامل والأشرف، وخاف أن يكونا قد اتفقا عليه[٣]. ولم ينجح الأخوة في توضيح الأمر بينهم.

١- وقف الملك الكامل أعمال المعظم الحربية ضد حماه:

ساعد الملك المعظم الملك الناصر بن الملك المنصور على الاستيلاء على حماه بعد وفاة والده عام ١٢٢٠/٦١٧، مقابل مبلغ من المال[٤]، ولكن الأخير لم يلتزم ما وعد، فاغتاظ الملك المعظم، وقصد حماه لانتزاعها، واتفق في هذه السنة ١٢٢٢/٦١٩ أن هرب أحد أمراء الملك الكامل "مجاهد الدين إقفال" من مصر إلى حماة، فكتب الكامل إلى أخيه المعظم يطلب منه القبض على الأمير الهارب، وحمله إليه، فاتخذ الملك المعظم ذلك ذريعة لقصد حماة، فتوجه إليها بعساكره للقبض على الأمير مجاهد الدين، فأسرع الملك الناصر صاحب حماة إلى إقفال أبواب المدينة، وتحصن بها، فبعث الملك المعظم من يقول له[٥] "إنني لم أقصد قتالا، وإنما أتيت لطلب مجاهد الدين إقبال، فحيث تسلك طريق المحاربة والقتال، فنحن نسلكه أيضاً معك".

اشتبك جند الطرفين بعض الوقت، ثم رحل الملك المعظم عن حماة لعجزه عن فتحها لحصانتها، فدارى فشله بالإغارة على سلمية[٦] ونزل بها، واستولى على ما فيها

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ٣٩٦/٩.

(٢) أبو الفداء المختصر، ١٣١/٣.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ٨٦/٤.

(٤) ابن الأثير، م.س، ٣٧١/٩.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ١١٨/١.

(٦) سلمية، بلدة من أعمال حماه، (ياقوت، معجم البلدان، ٢٢٥/٣).

من الحاصلات[1]، ثم غادر إلى معرة النعمان، فهرب وإليها شهاب الدين بن القطب إلى حماة، فاستولى الملك المعظم على المعرة[2]، وما فيها من حبوب، وولى عليها والياً يأتمر بأمره، وأثناء ذلك وصل إلى المعظم شهاب الدين بن القطب رسولاً من الملك الناصر صاحب حماه يستميله، فلم يلتفت إليه، وعاد خائباً، ثم وصل إلى خدمة الملك الأمير شهاب الدين يوسف بن عز الدين مسعود صاحب شيزر.

تطلع المعظم إلى منازلة حماة والسيطرة عليها[3]، فشق ذلك على الملك الأشرف وتحدث مع الملك الكامل في إنكار ذلك، وقال له[4] "إن تركنا المعظم يأخذ حماة تعدى ذلك إلى غيرها، وأطمعته نفسه بالاستيلاء على البلاد كلها، والمصلحة الإنكار عليه وتهديده وتخويفه من مغبة فِعْله، والتقدم إليه بالرجوع إلى بلاده، وان يسلم بلاد حماة إلى صاحبها".

أرسل الملك الكامل الأمير ناصح الدين أبا المعالي الفارسي، (أحد الأمراء الحلبيين الذين كانوا يقومون في خدمة الملك الأشرف بمصر)، إلى الملك المعظم في هذا المعنى، فقال له "مولانا السلطان الملك الكامل يأمر المولى بالرحيل، وترك الخلاف" فقال "السمع والطاعة"[5]، وتمت الاتصالات بين الملك الكامل والمعظم، وابن أخته الملك الناصر صاحب حماه، فتقررت قواعد الصلح بينهما، وانسحب المعظم عن سلمية حنقاً على أخويه الأشرف والكامل[6]، وكان الأخير راغباً في تسليم حماه وأعمالها إلى الملك المظفر أخي الملك الناصر، لأن المظفر كان ولي عهد أبيه وهو

---

(١) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢١٣/٢

(٢) أبو الفداء، المختصر، ١٣١/٣.

(٣) المقريزي، السلوك، ٢٥٠/١.

(٤) أبو الفداء، م.س، ١٣٢/٣.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٢٧/٤.

(٦) المقريزي، السلوك، ٢٥/١.

الأكبر، ولكن الملك الأشرف أقنع أخاه الكامل بإبقاء حماة بيد الملك الناصر، ومنح المظفر سلمية وحدها[1].

استلم الملك المظفر سلمية، وقام بأعمار قلعتها، وكلف نائبة الأمير حسام الدين بن علي بن محمد أبي علي الهذياني بعمارة المدينة وتحصينها[2]، وبهذا استقر بيد الملك الناصر حماة والمعرة وبعرين.

غضب الملك المعظم من أخويه كما ذكرت، وازداد شكه فيهما، وخشي أن ينتزعا دمشق منه، وازداد وهمه عندما عاد الملك الأشرف من مصر إلى بلاده ماراً بدمشق، والتقى المعظم، ورفض النزول عنده ضيفاً، وآثر أن يترل في جوسق والده العادل[3]، والرحيل دون علم الملك المعظم، فبدت الوحشة أكثر وضوحاً، وأخذ الملك المعظم يبحث عن حلفاء يساعدونه ضد أخويه الكامل والأشرف، فأرسل إلى مظفر الدين كوكبري بن زين الدين كوجك صاحب إربل يدعوه إلى التحالف معه[4].

٢- عصيان الملك شهاب الدين غازي عام ١٢٢٤/٦٢١:

استناب الملك الأشرف أخاه شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين على خلاط[5]، وجعله ولي عهده، ومكنه من بلاده عندما سافر إلى مصر، فسولت نفس الأخير العصيان، وحسن له ذلك الملك المعظم[6]، وكاتبه صاحب أربل ووعده بمساعدته، فاستجاب الملك شهاب الدين غازي لدعوة أخيه المعظم، وتمرد على الأشرف عام ١٢٢٤/٦٢١.

---

(١) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢١٤/٢.

(٢) ابن واصل، م.س، ١٢٩/٤.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٥٤/٦.

(٤) ابن واصل، م.س، ١٣٨/٤.

(٥) خلاط إقليم أرمينية، ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢١٥/٢.

(٦) ابن الأثير، الكامل، ٣٥٤/٩.

وعندما علم الملك الأشرف بذلك طلب من أخيه غـــازي وقــف عصيانــه، والتعاون معه، وكتب إليه "يا أخـــي لا تفعـــل، أنـــت ولي عـــهدي ، والبـــلاد في حكمك"[1] فأبى، فتدخل الملك الكامل لمساعدة الأشرف في احتواء هـــذا التمـــرد، فأرسل تحذيرا إلى الملك المعظم بعدم مساعدة العصيان في خلاط، وقال[2] "إن تحركت من بلدك سرت إليه وأخذته منك". كذلك بعث الكامل عدة رسل إلى الملوك الذيـــن في خدمة الأشرف يأمرهم ألا يخالفوه[3]، وعاد الملك الأشرف فاتصل بأخيه شـــهاب الدين غازي وعاتبه على محاولته العصيان، وزين له التعاون معه، ولكن الأخير أصـــر على التمرد والعصيان والقتال[4] إذا حاول الأشرف التقدم إلى خلاط.

استدعى الملك الأشرف عسكر حلب، فحضر إليه الأمراء سيف الدين قلـــج، وعلم الدين قيصر، وحسام الدين بلدق بعساكرهم، وقصد الجميع خلاط، ولـــا رأى شهاب الدين غازي هذا الجمع، خاف وتحصن بالقلعة أملاً بوصول بعض النجـــدات إليه من الملك المعظم وصاحب إربل، ولكن المساعدات لم تصل خوفـــا مـــن الملـــك الكامل، فاستسلم واعتذر لأخيه الأشرف[5]، فقبل الأخير عذره، ولم يعاقبه على مـــا ارتكبه وأبقى عليه ميافارقين، واسترجع منه بقية البلاد[6]، وبهذا عاد الوئام بين ملـــوك الشرق.

ومما سبق ذكره، يتضح لنا أن الأطماع الشخصية للأخوة الثلاثة كانت الحـــافز الذي حرك خلافاتهم، وأذكى نار الحروب بينهم، والمنازعات الأهلية، فالملك المعظـــم تواق لاحتلال حماة، والملك الكامل حريص على انتزاع حماة، وتسليمها للملك المظفر لأنه اكبر أولاد المنصور، صاحب الحق الشرعي في الولاية، فيما كان الملك الأشـــرف

---

(١) ابن تغري،النجوم، ٢٥٥/٦.

(٢) أبو الفداء، المختصر، ١٣٤/٣.

(٣) المقريزي، السلوك، ٢٥٢/١.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٣٨/٤.

(٥) أبو الفداء، المختصر، ١٣٨/٤.

(٦) ابن تغري، م.س، ٢٥٧/٦.

يتطلع إلى حرمان الملك المظفر من حماة، وإبقائها مع الملك المنصور، وكبح أطماع الملك المعظم، وتطلعاته في التوسع.

٣- تحالف الملك المعظم ومظفر الدين كوكبري وخوارزم شاه:

ازداد موقف الملك المعظم ضعفاً بعد فشله في نجدة عصيان شهاب الدين غازي، ونجاح الملك الأشرف في احتواء هذا العصيان، فتطلع إلى تعزيز علاقاته الخارجية لمواجهة أخويه الملكين الكامل والأشرف، فبعث ابنه الملك الناصر داود إلى إربل، ليكون رهينة لدى مظفر الدين كوكبري زوج ربيعه خاتون بن ايوب[١] توثيقاً لعلاقة الملك المعظم وصاحب إربل، وليكونا يداً واحدة على من يعاديهما[٢]، ثم بعث المعظم محتسب دمشق "الصدر البكري" رسولا إلى جلال الدين خوارزم شاه للتعاون والتحالف فيما بينهما[٣]، وهكذا استطاع المعظم تشكيل حلف ثلاثي يشمله، وصاحب إربل، وجلال الدين خوارزم شاه.

اتفق المتحالفون الثلاثة عام ١٢٢٥/٦٢٢ على أن يشتغل كل منهم بنفسه، وأن يتعاونوا معاً كلما دعت الضرورة إلى ذلك، فقصد جلال الدين خلاط، وزحف مظفر الدين على الموصل، واتجه الملك المعظم إلى حمص وحماة[٤]، لأن صاحبي المدينتين السابقتين كانا يداً واحدة مع الملك الأشرف والملك الكامل.

تفاقم العداء بين الملوك الأيوبيين، وانقسموا إلى فريقين، فريق يؤيد الملك المعظم، يضم صاحب بصرى، الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، والملك العزيز بن الملك العادل صاحب بانياس، والملك الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك[٥]؛ وفريق يؤيد الملك الأشرف والملك الكامل يشمل أصحاب حلب وحماه وحمص.

---

(١) م.ن.

(٢) الحموي، التاريخ المنصوري، ١١٠.

(٣) سبط بن الجوري، مرآة الزمان، ٤١٠/٨.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٧٩/٤.

(٥) ابن تغري، بردي، النجوم الزاهرة، ٢٦٠/٦.

تطلع الملك المعظم لاحتلال حمص، فاتجه إليها، ولكنه لم يتمكن من احتلالها إذ وجد مقاومة عنيفة، وفقد عدداً كبيراً من جنده وخيله[1]، وعندما طالت محاصرة المدينة هدد الملك الكامل بالتدخل فعاد المعظم إلى دمشق، و لم يتمكن الكامل من التدخل لعدم ثقته بجنده، وتوهم أنهم سيخرجون عليه[2].

حاول جلال الدين الخوارزمي استغلال ازدياد حدة الخلاف بين الملوك الأيوبيين ، فأرسل مبعوثاً إلى دمشق يطلب من الملك المعظم مساعدته ضد الخليفة الناصر الدين الله[3]. فكتب إليه "تحضر أنت ومن عاهدني حتى نقصد الخليفة، فإنه كان السبب في هلاك المسلمين، وفي هلاك والدي، وفي مجيء الكفار إلى البلاد، ووجدنا كتبه إلى الخطأ[4] وتواقيعه بالبلاد، والخلع والخيل"[5] ولكن المعظم لم يستجب لطلب خوارزم شاه.

تتابعت رسل جلال الدين الخوارزمي للملك المعظم، فقد قدم له أحد المبعوثين خلعة سنية، كما طلب توثيق العلاقة بين الملكين بزواج جلال الدين من ابنة الملك المعظم.

٤- تفاقم الخلاف بين الملكين الأشرف والمعظم:

أحس الملك الأشرف بالخطر الذي يتهدد البيت الأيوبي، فحاول ترميمه وتسوية الأمور وحل المشاكل بين أفراده، ومنع الملك المعظم من التوسع[6]، فاتجه إلى دمشق، فالتقاه الملك المعظم، وأظهر السرور بمقدمه، وزينت له المدينة، وضربت

---

(١) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢١٨/٢.

(٢) أبو الفدا، المختصر، ١٣٦/٣.

(٣) ابن واصل، م.س، ١٧٩/٤.

(٤) الخطا، اسم القبائل التي تعيش على حدود دولة خوارزم.

(٥) ابن تغري، النجوم الزاهرة، ٢٦١/٦.

(٦) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٦٣٩/٨.

البشائر بدمشق، ولكن الملك المعظم لم يطمئن لأخيه و لم يعد يثق به، فأظهر خلاف ما يبطن[1].

طالت إقامة الملك الأشرف موسى في دمشق، حرصاً على إعادة الثقة مع أخيه الملك المعظم، أملاً في البدء بعهد جديد تسوده المحبة والأخوة، ومصلحة الأيوبيين عامة، إلا أن الملك المعظم استغل هذه الإقامة بالضغط على أخيه الملك الأشرف موسى لتحقيق أهدافه الخاصة.

كانت إقامة الملك الأشرف في دمشق إجبارية، وأصبح كالأسير عند أخيه الملك المعظم[2]، فلم يعد قادراً على الاتصال بالخارج، لكثرة عيون الملك المعظم، وذات يوم خرج الأخوان للصيد فوصلهما من حلب القاضي زين الدين بن بهاء الدين بن شداد، ومظفر الدين جرديك يطلبان تجديد اليمين للملك العزيز[3]، فلاحظا أن الملك الأشرف محدود الحرية، لا يستطيع التعبير عن رأيه، ولا يمكنه مخالفة أخيه الملك المعظم[4].

بقي الملك الأشرف مقيماً في دمشق، حوالي عشرة أشهر، وحين تحقق أنه يصعب عليه العودة إلى بلاده إلا إذا وافق الملك المعظم على ما يريد، حلف له مكرهاً أن يساعده ضد الملك الكامل، وأن يدعمه على صاحبي حمص وحماه[5]، وأن لا يعقد هدنة مع أحد إلا بموافقة المعظم[6]، فلما حلف الأشرف، واطمأن الملك المعظم، سمح لأخيه الأشرف بالعودة إلى بلاده عام ٦٢٤/١٢٢٧[7].

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٧٩/٤.

(٢) ابن واصل، م.س، ٢٠٥/٤، أبو الفدا، المختصر، ١٣٦/٣.

(٣) أبو الفدا، المختصر، ١٣٦/٣.

(٤) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢١٩/٢.

(٥) المقريزي، السلوك، ٢٣١/١، أبو الفدا، المختصر، ١٣٧/٣.

(٦) ابن واصل، م.س، ٢٠٥/٤.

(٧) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ٢٦٦/٦.

عاد الملك الأشرف إلى خلاط، وتراجع عن جميع ما تقرر بينه وبين المعظم، وتأول في أيمانه التي حلفها مدعياً أنه أجبر على الاتفاق مع الأخير، وندم المعظم على السماح للملك الأشرف بالرحيل من دمشق.

استاء الملك المعظم من أخيه الأشرف، وشعر انه خدع، فسير العربان الموالين له، لمهاجمة حمص وحماه، فعاثوا في المنطقة فساداً ونهبوها[١]، ثم خرج الملك المعظم ووصل حمص، ولكنها امتنعت عليه، وشجع الملك المعظم حليفة جلال الدين الخوارزمي على مهاجمة خلاط[٢]، انتقاماً من أخيه الأشرف.

٥- محاولة الملك الكامل التحالف مع الفرنج:

عندما علم الملك الكامل استمرار انتماء أخيه المعظم وتحالفه مع جلال الدين خوارزم شاه، وزيارة الملك الأشرف لدمشق، ظن أن أخويه الملك الأشرف، والملك المعظم اتفقا عليه[٣] وازداد خوفه على زوال الدولة الأيوبية، وأحس بخطر الدولة الخوارزمية، وأدرك أنه لا قبل له بمواجهة هذه القوة المتحالفة، فأرسل الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ إلى الامبراطور فردريك الثاني ملك الفرنج (امبراطور الدولة الرومانية المقدسة) عام ١٢٢٧/٦٢٤ يعرض عليه التحالف ضد أخيه الملك المعظم، ووعده مقابل ذلك أن يسلمه بيت المقدس، وبعض الفتوح الناصرية بالساحل[٤] مع أن هذه المنطقة كانت من أملاك المعظم، فاستجاب الامبراطور لطلب الملك الكامل[٥].

---

(١) ابن واصل، م.س، ١٧٧/٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٣٧٠/٩.

(٣) ابن الأثير، م.ب، ٣٧١/٩.

(٤) Eracles, Recueil des Historien. P. ٣٥٨ ، ابن الوردي، تتمة المختصر، ١٤٨/٢.

(٥) عندما بلغ الملك المعظم بعثة فخر الدين إلى الامبراطور فردريك كاتب أخاه الأشرف، واستعطفه (أبو الفدا، المختصر، ١٣٨/٣).

٦- قطع الملك المعظم الخطبة لأخيه الكامل:

كاتب الملك المعظم أخاه الأشرف ولاطفه، وحاول إقناعه بالتحالف معه، إلا أن الأخير رد عليه بعنف وقرعه، واتهمه بالتقصير وعدم الإخلاص في حق أهله، وانتمائه لخوارزم شاه.

اشتد خوف الملك المعظم من تحالف الكامل والامبراطور فردريك الثاني، فطلب نجدة من السلطان جلال الدين خوارزم شاه، ووعده أن يخطب له، وضرب السكة باسمه، وقطع الخطبة للملك الكامل عام ١٢٢٧/٦٢٤، وسرعان ما بعث الخوارزمي خلعة للملك المعظم، فلبسها الأخير، وشق بها شوارع دمشق[١].

استاء الملك الكامل من استمرار المعظم في الانتماء لجلال الدين خوارزم شاه، وقطعه الخطبة له، فقصد بعساكره دمشق، فأرسل المعظم كتابين لأخيه الكامل يعلن في الأول انه ما زال تابعاً له، ويقول "إني مملوكك، وما خرجت عن محبتك وطاعتك، وحاشاك أن تخرج وتقابلني، وأنا أول من أنجدك وأحضر إلى خدمتك، من جميع ملوك الشام والشرق"، فأظهر الملك الكامل هذه الرسالة للأمراء ورجع من العباسية إلى قلعة الجبل، وقبض على عدة أمراء، ومماليك أبيه، لمكاتبتهم المعظم منهم فخر الدين الطن الفيومي، وكان أمير جانداره وفخر الدين الطنبا الحبيسي.

وجاء في الرسالة السرية الثانية[٢]، "إني نذرت لله تعالى أن كل مرحلة ترحلها لقصدي، أتصدق بألف دينار فإن جميع عسكرك معي، وكتبهم عندي، وأن آخذك بعسكرك"[٣].

٧- وفاة الملك المعظم:

أرسل الملك الكامل ولدي شيخ الشيوخ كمال الدين والمعين، وقاضي العسكر المصري رسلاً إلى الملك المعظم قبيل وفاته في رسالة عاجله لتهدئة الأمور بينهما، وتقرر أن يعود قاضي العسكر إلى مصر بجواب المعظم، في حين يتجه بعد ذلك كمال

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢٥٩/١.

(٢) انظر ملحق رقم ١٢.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٠٥/٤.

الدين والمعين برسالة إلى صاحب حمص الملك المجاهد، ومن ثم يتجه المعين إلى بغداد في رسالة إلى الخليفة العباسي، لتوضيح ما جرى بينه (الكامل) وبين الامبراطور فردريك الثاني[1].

ولم تؤت الرسالة السابقة ثمارها، إذ توفي الملك المعظم في عام ٦٢٤/١٢٢٧[2]، فسر الملك الكامل بموته، ولكنه جلس للعزاء[3]. وكانت الوفاة فرصة مناسبة لتكون حافزاً ليتراجع الملك الكامل عن تحالفه مع الإمبراطور فردريك، ذلك أن الملك المعظم اشتهر بمداراته لأخيه الكامل، فكان يخطب له على منابر دمشق، وتضرب السكة باسمه[4].

ب- علاقة الملك الكامل وابن اخيه الناصر داود:

عندما مات الملك المعظم عيسى صاحب دمشق عام ٦٢٤/١٢٢٧ تولى ابنه الملك الناصر داود، وأرسل كتب التعزية إلى عميه الملك الكامل والملك الأشرف بأبيه، فقعد كل منهما لتقبل العزاء، وأرسل الملك الأمير علاء الدين بن شجاع الدين جلدك المظفري إلى الملك الناصر بالخلعة وسنجق السلطنة، وكتب إليه بما طيب قلبه، وأقره على ممالك أبيه، فلبس الملك الناصر داود خلعة عمه الكامل، وركب السنجق الواصل إليه[5]، ثم أرسل الملك الكامل يريد من الناصر داود أن يترك له قلعة الشوبك، ليجعلها خزانة له. فامتنع عن ذلك، وبهذا وقعت الوحشة بينه وبين عمه الكامل[6].

عاد الملك الكامل فأرسل عام ٦٢٥/١٢٢٨ فخر الدين شيخ الشيوخ ابن حموية بالخلع إلى ابن أخيه الناصر داود بن المعظم[7] فحمل عماه، الملك العزيز عثمان

---

(١) ابن واصل، م.ن، ٤/٢٠٩.

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، ٦/٢٦٧.

(٣) المقريزي، السلوك، ١/٢٦٢.

(٤) ابن النظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ١٤٧.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ٤/٢٢٤.

(٦) أبو الفداء، المختصر، ٣/١٤٠.

(٧) المقريزي، السلوك، ٦/٢٦٢.

صاحب بانياس، والملك الصالح عماد الدين اسماعيل صاحب بصري، كما جهز الكامل الخلع أيضاً لصاحب حمص المجاهد.

١- الوحشة بين الملك الكامل والناصر داود:

كان الملك الكامل، غير راض عن الملك الناصر داود لرفضه إعطاءه الشوبك[١] ذلك أن الملك الناصر داود كان في الحادية والعشرين من العمر، وتنقصه الخبرة والتجربة[٢]، فأصبح طرفاً رئيساً في الأحداث التي جرت على مسرح السياسة الأيوبية، فاستوحش من الملك الناصر داود، وعزم على قصده عام ١٢٢٨/٦٢٥، وأخذ دمشق منه[٣]، فعهد إلى ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب من بعده بديار مصر[٤]، وعلل المؤرخون سبب خروج الملك الكامل إلى الشام بما يلي:

- قيام الإفرنج بتحركات عسكرية معادية، إذ اتجهوا إلى صيدا واستولوا عليها، ونقضوا العهد الذي كان بينهم، وبين الايوبيين بجعل صيدا مناصفة[٥]، مما دفع الملك الكامل إلى الاتجاه إلى ساحل الشام، وانتزاع بيت المقدس ونابلس من الملك الناصر داود[٦].
- طمع الملك الكامل، ورغبته في توسيع أملاكه بانتزاع حصن الشوبك[٧].
- إبعاد الملك الناصر داود للملك العزيز عثمان بن العادل صاحب بانياس عن بعلبك التي جاء إليها استجابة للأهالي، فسار إلى أخيه الملك الكامل في مصر، فوعده الأخير بانتزاع دمشق من الملك الناصر داود[٨].

---

(١) م.س.
(٢) ابن الأثير، الكامل، ٣٨٢/٩.
(٣) الصفدي، أمراء دمشق، ١٥١.
(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٨١/٥.
(٥) ابن اصل، مفرج الكروب، ٢٢٥/٤.
(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٢٣/١٣.
(٧) أبو الفداء، المختصر، ١٤١/٣
(٨) ابن الأثير، م.س، ٣٧٧/٩.

- إعلان الملك الكامل أن ابن أخيه الناصر داود ظلم أهل دمشق، وأخذ أموالهم واشتغل باللهو، وأعرض عن مصالح الدولة، ففسدت إدارتها[1].
- دعم الملك الناصر داود صاحب بعلبك الأمجد بهرام شاه بن عز الدين فرخشاه الذي ظلم أهل المدينة، وصادر أموالهم[2]، فثار عليه الجند، إلاّ أن الناصر داود قمع ثورتهم.

تواطأ بعض الجند في قلعة بعلبك لتسليم دمشق إلى الملك العزيز عثمان بن العادل صاحب بانياس، وعندما كشف الملك الناصر داود المؤامرة، بعث رسولا إلى عمه العزيز يأمره بمغادرة بلاده، وسرعان ما اتجه الأخير إلى الملك الكامل كما ذكر، فاستقبله بالترحيب، ووعده بمنحه بعلبك[3].

٢- قصد الكامل إلى دمشق:

خرج الملك الكامل من القاهرة عام ١٢٢٨/٦٢٥ بعساكره، ومعه ابن أخته المظفر تقي الدين محمود بن المنصور[4]، وقد وعده بتسليمه حماة التي كانت بيد أخيه الأصغر الناصر قلج أرسلان، ورافقه الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل[5] لانتزاع دمشق من الملك الناصر داود.

نزل الملك الكامل بتل عجول (قرب غزة)[6]، وبعث ولاته إلى بيت المقدس، ونابلس، والخليل، فانزعج الملك الناصر داود، وخاف خوفاً شديداً، واستعد للحرب، وقدم إليه عمه إسماعيل صاحب بصرى، والأمير عز الدين أيبك[7].

---

(١) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٦٧٨/٨.

(٢) المقريزي، السلوك، ٢٦٣/١.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٨١/٥.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٢٧/٤.

(٥) ربى الملك الكامل الجواد بعد وفاة والده مودود، (المقريزي، م.س، ١/ ٢٦٣).

(٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٧١/٦.

(٧) ابن الأثير، الكامل، ٢٧٧/٩.

٣- تآمر الملك الأشرف على الناصر داود:

بعث الملك الناصر داود الأمير عماد الدين بن موسك، وفخر القضاة نصر الله بن براقه إلى الملك الأشرف في طلب النجدة، فاجتمعا بالملك الأشرف في سنجار، وطلبا منه الحضور إلى دمشق لمساعدة ابن أخيه (الملك الناصر داود)، ودفع خطر الكامل عنه[١].

قدم الأشرف إلى دمشق[٢] فتلقاه الملك الناصر بالترحيب، وزين بقدومه المدينة، وضربت البشائر، واتجه إلى القلعة مشدود الوسط بمنديل[٣]، وعليه شاش علم كبير[٤]، والملك الناصر إلى جانبه، فقدم إلى خدمته المجاهد أسد الدين بن محمد صاحب حمص[٥]، أعجب الملك الأشرف بدمشق وبساتينها، وكثرة فواكهها، واعتدال مناخها، فعمل في الباطن على انتزاعها من ابن أخيه الملك الناصر لنفسه[٦] مع أن الأخير أمنه وحكمه في بلاده وأمواله.

أرسل الملك الأشرف الأمير سيف الدين علي بن قلج أكبر أمراء حلب إلى الكامل يشفع في الملك الناصر داود، وطلب منه إبقاء دمشق عليه، وقال له "إنا كلنا في طاعتك، و لم نخرج عن موافقتك"[٧]، أكرم الملك الكامل الرسول[٨]، ولكنه لم يجبه، فسار الملك الأشرف ومعه الناصر داود من دمشق يريدان ملاقاة الملك الكامل والترامي عليه، ليصلح الأشرف بينهما فلما بلغ الكامل سيرهما شق عليه، وهم بالعودة إلى القاهرة، فنزل الأشرف والناصر داود في نابلس، واقام بها الناصر، ومضى

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٢٨/٤.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٧١/٦.

(٣) ابن واصل، م.س.

(٤) أبو الفداء، المختصر، ١٤٠/٣.

(٥) م.ن.

(٦) م.ن.

(٧) ابن واصل، م.س ٢٣٠/٤.

(٨) المقريزي، السلوك، ٢٦٤/١.

الأشرف والمجاهد صاحب حمص إلى غزة للاجتماع بالملك الكامل، فخرج لاستقبالهما، وعاد بهما إلى معسكره بتل العجول[1].

٤- اتفاق الملك الكامل والملك الأشرف على إعادة توزيع البلاد:

تبادل الأخوان الرأي في أمر الملك الناصر داود، واتفقا على إعادة توزيع خريطة أراضي الممالك الأيوبية[2] كما يلي:

- تُنتزع دمشق من الملك الناصر داود، وتُعطى للملك الأشرف[3]، على أن يُمنح الناصر داود ما كان للملك الأشرف في حران والرها والرقه وسروج[4].
- تُعطى بعلبك للملك العزيز عثمان، بعد انتزاعها من الأمجد بهرام[5].
- تضاف سلمية إلى أملاك المجاهد صاحب حمص[6]، وكانت للملك المظفر.
- تنزع حماة ومعرة النعمان والبعرين من الملك الناصر قلج أرسلان بن الملك المنصور، وتُعطى لأخيه المظفر تقي الدين محمود.
- يأخذ الملك الكامل المنطقة الواقعة بين عقبة فيق وغزة[7].

٥- انتزاع دمشق من الناصر داود:

علم الملك الناصر بالاتفاق بين عميه على انتزاع دمشق منه، فغادر نابلس إلى دمشق[8]، فلحق به الأشرف في الغور قرب عقبة فيق (الشونة) وأبلغه بالاتفاق أمام الملك الصالح إسماعيل، والملك المغيث، والأمير عز الدين أيبك المعظمي[9]، وشرح له

(١) الحموي، المنصوري، ١٦٣.
(٢) ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٨١٥/٨.
(٣) ابن كثير، البداية، ١٣٣/١٣.
(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٣١/٤.
(٥) المقريزي، السلوك، ٢٦٤/١.
(٦) أبو الفدا، المختصر، ١٤١/١.
(٧) ساحل فلسطين.
(٨) أبو الفدا، م.س، ١٤١/١.
(٩) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢٦٦/٢.

ما دار من حديث مع الملك الكامل، وأنه اجتمع به للإصلاح بينهما، وأنـــه حـــرص على أن يرجع عنك (الملك الناصر داود)، فامتنع، وأبى إلا أن يأخذ دمشق، وأنـــت تعلم أنه سلطان البيت وكبيرهم[1]، وصاحب الديار المصرية، ولا يمكن الخروج عمـــا يأمر به، وقد وقع الاتفاق على أن تسلم إليه دمشق، وتعوض عنـــها مـــن الشـــرق كذا...، وذكر ما اتفق عليه.

فلما فرغ الأشرف من كلامه قام الأمير عز الدين أيبك، وهو أكبر أمـــير مـــع الملك الناصر داود، وقال "لا كيد ولا كرامة، ولا نسلم من البلاد حجـــراً واحـــداً، ونحن قادرون على دفع الجميع ومقاومتهم، ومعنا العساكر المتوافرة"[2].

وأمر الملك الناصر داود بالركوب، وقوضت الخيام، وسار إلى دمشق، وتخلـــف عن الناصر عمه الصالح عماد الدين إسماعيل، وابن عمه المغيث شهاب الدين بن الملـــك المغيث بن الملك العادل[3]، والأمير كريم الدين خلاطي، وكان من أخص أصحـــاب المعظم، وانضم إلى الملك الأشرف.

حاصر الملك الأشرف دمشق وقطع عنها أنهارها[4]، قاوم الدماشقة الحصـــار، ووقفوا إلى جانب الناصر داود محبة له ولوالده، وتمكنوا من إعادة المياه إلى دمشق بعـــد قتال شديد، فبعث الملك الأشرف إلى الكامل يستحثه لنجدته، فرحل الأخـــير نحـــو دمشق، فتلقاه في قرية يبنا[5] أخوه العزيز عثمان[6] صاحب بانياس، فوصلـــه الملـــك الكامل بـــ ٥٠ ألف دينار، وأعطى ابنه غازي عشرة آلاف دينار، وكمية من القماش النفيس.

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢٦٧/١.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٣٨/٤.

(٣) المقريزي، م.س، ٢٧٦/١.

(٤) ابن كثير، البداية، ١٣٣/٣.

(٥)يبنا قرية قرب الرملة، ياقوت، ٧٠/٤.

(٦) أبو الفدا، المختصر، ١٤٥/٣.

أمر الكامل فضربت له خيمة عظيمة، وحولها خيام أصحابه، فوصل إليه الأمير عز الدين أيدمر المعظمي، فدفع إليه بعشرة آلاف دينار، وكتب له بعشرين ألف أردب غلة على الأعمال القوصية. ويلاحظ أن هذا الأسلوب أخذ ينتشر في أيامنا حيث يقوم رئيس الدولة بوصل من يتعاونون معه بالمال والعطاء.

أرسل الملك الكامل إلى أخيه الأشرف بعد فراغه من صلح الفرنج يقول له" إن البلاد التي عينت لي حصون مثل الكرك والشوبك والصلت ربما تعذر أخذها على حصانتها، وتحصل أنت على دمشق[1]"، فتقررت القاعدة بينهما على أن تكون البلاد الشرقية التي عينت للملك الناصر داود للسلطان الملك الكامل، ويكون للملك الأشرف دمشقِ وبلادها إلى عقبة فيق التي تشرف على طبرية[2]، وأثناء ذلك سير الملك الناصر داود الشيخ شمس الدين الخسروشاهي رسولا إلى السلطان جلال الدين خوارزم شاه يعلمه أن أعمامه قصدوه لانتمائه هو وأبيه إليه، ويحثه على النزول على خلاط.

سار الملك الكامل إلى دمشق عام ١٢٢٨/٦٢٦ فنزل بظاهرها، وجد الأشرف في حصارها، وقطع أنهارها، واشتد عطش الناس[3] وغلت الأسعار، ونفدت أموال الملك الناصر فضرب أوانيه من الذهب والفضة دنانير ودراهم فرقها على الجند، واستمر الأهالي في مساندهم وولائهم له، مما يدل على أن الملك الناصر داود لم يكن ظالماً لرعيته، وأن الملك الكامل اتهمه بالظلم لتسويغ انتزاع دمشق[4].

اشتد ضغط الملك الكامل على دمشق، وتخلى معظم الملوك الايوبيين عن الناصر داود[5] فضعف قلب الأخير بعد ما نفد أكثر ما عنده من الذخائر، فخرج ليلاً ومعه

---

(١) ابن واصل، م.س، ٢٥٢/٤

(٢) م.ن.

(٣) المقريزي، السلوك، ٢٧٣/١.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٧١/٦.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٥٦/٤.

نفر قليل، وألقى نفسه على باب مخيم الملك الكامل، فخرج الأخير إليه وأكرمه[١]، وباسطه وطيب خاطره بعد معاتبته، وطلب منه العودة إلى القلعة، وبعد يومين بعث الملك الكامل الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ إلى القلعة فتسلمها، وصلى بالناس، واصطحب معه الملك الناصر داود إلى الكامل، حيث عوضه عن دمشق بالكرك والشوبك والبلقاء والأغوار[٢]، ثم نزل الملك الناصر داود عن الشوبك لعمه الكامل، فقدم له الأخير ١٦ ألف دينار[٣].

دخل الملك الكامل دمشق عام ١٢٢٩/٦٢٦ بعد حصار دام أربعة أشهر[٤]. وقد شهد ابن واصل ذلك اليوم بقوله[٥]: (ولقد كنت عند باب القلعة ذلك اليوم، ودخل العسكر المصري من جميع الأبواب ، وامتلأت المدينة منهم، وكان جانبي إنسان من أهل دمشق فلما رأى ذلك بكى بكاء عالياً، وأعلن بالعويل، وما رأيت يومئذ أحدا من الدمشقيين إلا ورأيته في صورة من فجع بموت ولد أو أب)، وهكذا تسلم الملك الكامل دمشق، وسلمها لأخيه الملك الأشرف، وتأسف أهالي دمشق وكثر بكاؤهم على مفارقة الناصر داود، وسفره بأهله إلى الكرك.

بعث الملك الكامل الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ والخادم شمس الدين صواب، فتسلما حران، والرها وسروج والرقة وغيرها[٦]، وبقي للملك الأشرف خلاط وسنجار والخابور من البلاد الشرقية، وبعد ما انتزع الكامل حماة من الملك الناصر سافر إلى بلاده الشرقية عام ١٢٢٩/٦٢٦، فقطع الفرات، ودخل قلعة جعبر،

---

(١) أبو الفدا، المختصر، ١٥٧/٣.

(٢) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٢٣٤/٨.

(٣) أبو الفدا، م.س، ١٤٩/٣.

(٤) سبط بن الجوزي، م.س، ٤٣٨/٨.

(٥) ابن واصل، م.س، ٢٥٧/٤.

(٦) المقريزي، السلوك، ٢٧٤/١.

وتوجه إلى الرقة حيث قضى عيد الفطر، وخافه ملوك الشرق، فبعثوا برسلهم، وحضر إليه بعضهم(١).

٦- الصلح بين الملك الكامل والناصر داود:

رأى الكامل ضرورة تعزيز صلته بابن أخيه الناصر داود، فأرسل إليه يبلغه بقدومه إلى الكرك في طريقه إلى البلاد الشرقية(٢)، اتجه الملك الكامل إلى الشوبك عام ١٢٣١/٦٢٩، وتفقد أحوال المدينة، وحصنها، وكان الملك الناصر داود قد اعد لاستقبال عمه، فرتب له الإقامات في اللجون(٣) (شرقي الكرك)، وضُربت خيمة ودهليز كبيران على درجة من الفخامة، ومد له الناصر سماطاً عظيماً بعد ما ذبح أعداداً كبيرة من البقر والغنم والجمال، ودعا الناصر لهذه الحفلة الفقهاء والعلماء والوجوه والأمراء.

انتهز الكامل فرصة هذا الاحتفال ليوثق علاقته بالناصر داود، فقرر أن يزوجه ابنته عاشوراء خاتون(٤)، وحضر الاحتفال القاضي شمس الدين الشريف قاضي العسكر المنصوري الكاملي، وكمال الدين بن الشيخ الشيوخ، ثم اتجه الملكان الكامل والناصر لزيارة دمشق.

بقيت علاقة الملكين طيبة وودية إلا أنها ساءت بعد عامين، عندما وصل الملك الكامل ١٢٣٤/٦٣١ إلى السويداء من بلاد آمد وغضب على الملك الناصر داود، وأجبر ابن أخيه الناصر داود على طلاق زوجته عاشوراء خاتون، فطلقها الأخير(٥).

خاف الملك الناصر لتفرق كلمة الأسرة الأيوبية، ووجد مصلحته في السفر إلى بغداد يستنصر الخليفة عام ١٢٣٥/٦٣٣، يرافقه فخر القضاه شرف الدين بن جمال

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢٧٤/١.

(٢) يوسف غوانمه، إمارة الكرك الأيوبية، ٢٣٤.

(٣) أبو الفدا، المختصر، ١٥٢.

(٤) المقريزي، م.س، ٢٤٢/١.

(٥) ابو الفدا، المختصر، ١٥٣/٣.

الدين بن بصاقة، والشيخ شمس الدين الخسر وشاهي، وأبو الفتح نصر الله هبة بن عبد الباقي الغفاري[1] وبعض خواص مماليكه، وقدم الناصر للخليفة هدية ضمت الجواهر النفسية، وبعض التحف الجليلة فقبلها الخليفة، ثم اجتمع بالخليفة بعد طول انتظار، فخلع عليه خلعة سنية، فطمأنه، وأرسل معه رسولا مشربشاً "سعد الدين حسن بن علي" إلى السلطان الملك الكامل كي يصلح ما بينهما.

وصل الملك الناصر داود دمشق، فاستقبله الكامل، وقبل شفاعة الخليفة، وزال ما كان بين الناصر وعمه الكامل، ثم غادر الملك الناصر داود إلى الكرك، يرافقه رسول الخليفة[2].

وبعث الملك الكامل قاضي "الأشرف ابن القاضي الفاضل" إلى الملك الناصر داود يدعوه إلى موافاته عام ٦٣٤/١٢٣٦ ، فلبى الملك الناصر الدعوة، واتجه إلى القاهرة مع القاضي الأشرف، فسر الكامل بقدومه[3] وركب إلى لقائه، وأنزله بدار الوزارة، وقدم له هدايا كثيرة وخلع عليه، وقلده الكامل دمشق[4]، وأمر من عنده من الأمراء والملوك الأيوبية، فحملوا الغاشية بين يديه بالنوبة؛ فكان أول من حملها ابنه الملك العادل أبو بكر، ثم البقية واحداً واحداً إلى أن صعد قلعة الجبل[5].

وجدد الناصر عقد زواجه على مطلقته عاشوراء خاتون بنت الملك الكامل[6]، فلما بلغ الأشرف ذلك أوقع الحوطة على نابلس، وأخذ ما كان فيها للملك الناصر داود[7].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤٨/١٣.

(٢) المقريزي، السلوك، ٢٩١/١.

(٣) أبو الفدا، م.س، ١٢١/٣.

(٤) المقريزي، م.س، ٢٩٥/١.

(٥) المقريزي، السلوك، ٢٩٥/١.

(٦) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢٤٢/٢.

(٧) المقريزي، م.س، ٢٩٥.

جـ- علاقة الملك الكامل وأخيه الملك الأشرف:

تميزت العلاقة بين الملك الكامل وأخيه الملك الأشرف موسى بالود في غالب الأوقات[1]، فقد بعث الملك الكامل إلى الأشرف عام ١٢١٩/٦١٦ رسالة يطلب فيها مساعدته لمواجهة الخطر الصليبي، ضمنها عدداً من أبيات الشعر، فلبى الأشرف الدعوة.

ويبدو أن الانسجام بين الأخوين تعزز أثناء العدوان على دمياط، ولذلك قدم الأشرف ثانية إلى مصر عام ١٢٢٢/٦١٩، وأقام بها مدة عند الملك الكامل، وعندما غادر إلى بلاده خلع عليه الملك الكامل[2] وأكرمه.

وقد برزت شخصية الملك الأشرف، واحتلت مكانة مرموقة لدى الكامل، فكان المستشار في كثير من القضايا، واليد اليمنى في تنفيذ كثير من الآراء التي يتبناها الملك الكامل، فقد أشار على الأخير بمنع الملك المعظم من الاستيلاء على حماة للحد من طموحاته، وكان مهندس فكرة انتزاع دمشق من الملك الناصر داود "فعمل على إقناع الملوك الأيوبيين الاستجابة لطلب الملك الكامل في انتزاع دمشق من الناصر داود لكونه سلطان البيت الأيوبي"[3]، والمسؤول عن إدارة البلاد، وتوزيع الممالك لمن هو أهل لها، ولذلك عين الأشرف ملكا على دمشق.

وعندما أعيد توزيع خريطة الأراضي الأيوبية اقتنع الملك الأشرف بدمشق، وتخلى عن البلاد الشرقية عام ١٢٢٩/٦٢٦، وقلت مشاغله لصغر حجم دولته، فانشغل باللهو وسار إلى مصر متنزهاً عام ١٢٣١/٦٢٨[4]، فأقام عند الكامل مدة من الوقت، وما لبث الأخوان أن سارا إلى البلاد الشرقية في عام ١٢٣١/٦٢٩، واصطحبا معهما الناصر داود صاحب الكرك والمظفر صاحب حماة وغيرهما، وبعد تفقد المنطقة وترتيب أمورها عاد الملوك الأربعة كل إلى بلده.

---

(١) م.ن.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٠٧/١٣.
(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٣٧/٤، ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢١٦/٢.
(٤) أبو الفدا، المختصر، ١٤٧/٣.

واستمرت العلاقة الطيبة بين الملك الكامل، وأخيه الأشرف، فقد اندفعت قوات الأشرف عام ١٢٢٨/٦٢٦ لانتزاع بعلبك من الملك الأمجد بهرام شاه[١] وتسليمها إلى الملك العزيز عماد الدين ابن العادل، إلا أن الأشرف احتفظ بالمدينة لنفسه[٢] ورفض إعطاءها للملك العزيز، فوافق الملك الكامل على هذا الإجراء الأخير، واستمرت العلاقة الطيبة بين الأخوين إلى أن بدت الوحشة بينهما عام ١٢٣٣/٦٣١.

وكان الملك الكامل قد أخذ يعمل على توثيق صلاته بأمراء بني أيوب في الشام من طريق المصاهرة، فزوج ابنته فاطمة خاتون إلى الملك العزيز صاحب حلب[٣]، وغازيه خاتون إلى الملك المظفر صاحب حماه، وعاشوراء إلى الناصر داود صاحب الكرك، كما ذكر سابقاً.

د- علاقة الملك الكامل وصاحب حماة:

كان الملك الكامل على علاقة طيبة مع صاحب حماة الملك المنصور وابنه ناصر الدين محمد المظفر تقي الدين عمر بن أيوب، فهو قريبه، وزوج أخته، وقد أرسل العساكر بقيادة ابنه الأكبر المظفر لدعم الملك الكامل في مواجهة الصليبيين في دمياط[٤]، فسر به الملك الكامل، واستقبله بحفاوة عام ١٢١٩/٦١٦، وأنزله في الميمنة منزلة أبيه، وجده في الأيام الناصرية[٥]، حيث توفى الملك المنصور في العام [٦] نفسه، وكان الوزير زين الدين بن فريج في حماة فحفظ البلاد.

---

(١) أبو شامه، ذيل الروضتين، ١٥٦.

(٢) ابن واصل، م.س، ٤/٢٨٠.

(٣) أبو الفدا، المختصر، ٣/١٦١.

(٤)أبو الفدا، المختصر، ٣/١٢٤.

(٥) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢/٢٠٥.

(٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٦/٢٥٠.

١- تولي الملك الناصر حماة:

عهد الملك المنصور لابنه الكبير المظفر[١]، إلا أنه كان في مصر، فيما كان ابنه الثاني الملك الناصر صلاح الدين قلج أرسلان مع خاله الملك المعظم أثناء فتح قيسارية[٢].

اتفق الوزير بحماه زين الدين فريج وأعيان البلاد على تولية الملك الناصر، فاستدعوه لذلك ولكن الملك المعظم منعه، وبعد نقاش بينهما اتفقا على أن يدفع المنصور مبلغ ٤٠٠ألف درهم مقابل إطلاقه، وتمكينه من العودة إلى حماة[٣].

تسلم الملك الناصر حماة، وعندما بلغ المظفر ذلك استأذن خاله الكامل بالعودة إلى حماة اعتقاداً منه أن أخاه الناصر سيسلمها له. سار الملك المظفر إلى حماة بعد ما أخذ كتاب التقليد والخلع التي قدمها له الكامل، فلما وصل الغور، التقى الملك المعظم فحذره من الذهاب إلى حماة[٤] فسافر إلى دمشق، ومن هناك كتب إلى وزير حماة وأعيانها يطلب تسليمه حماة، ولكنه لم يتلق الإجابة، فيئس واتجه إلى مصر، وأقام في خدمة الملك الكامل[٥].

لم يلتزم الملك الناصر قلج أرسلان بتعهده للملك المعظم، فحاول الأخير احتلال حماة عام ١٢٢٢/٦١٩ غير أن الملك الكامل تدخل، وحال دون ذلك، ومنح سلمية للملك المظفر[٦]، وتسلمها حسام الدين أبو علي بن محمد بن علي الهذياني نيابة عن المظفر، كما ذكر سابقاً.

---

(١) حلّف الملك المنصور صاحب حماة الناس لولده الملك المظفر، وجعله ولي عهده، وجرد معه العسكر والطواشي مرشد المنصوري نجدة الملك الكامل بديار مصر.

(٢) أبو الفدا، م.س، ١٢٥/٣.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب،٨٦/٤.

(٤) ابن واصل، م.ن، ٨٨/٤.

(٥) أبو الفدا، المختصر، ١٢٥/٣.

(٦) ابن النظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ٩٧، ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢١٤/٢.

٢- انتزاع حماة من الملك الناصر:

ساءت أحوال حماة في عهد الملك الناصر، فقد ظلم الناس، وباعهم الغنم والغلة بأسعار مرتفعة[1] عام ١٢٢٨/٦٢٥، فضجر الناس، وأوعز الملك الكامل له بتهدئة الأمور، وتطييب خاطر الأهالي.

وبعد تسليم دمشق للملك الأشرف، تفرغ الملك الكامل لتسوية مشكلة حماة، فأمر العساكر بالتقدم إليها، وطلب من الملك المظفر تقي الدين محاصرتها، وبعث صاحب حمص الملك المجاهد لدعم الملك المظفر، وقصفت حجارة المجانيق حماة، واشتد عليها الحصار، ولما رأى الملك الناصر قلج أرسلان كثرة العساكر المحيطة بالمدينة، والمجانيق المنصوبة عليها، هاله ذلك، وخاف، ونزل من القلعة ومضى إلى معسكر الكامل مستسلماً[2]، فاعتقله الكامل وأهانه[3]، وأرسله إلى مصر.

وتقدم إلى نوابه بتسليم حماة إلى الملك الكامل، وامتنعت حامية قلعة حماه عن تسليم المدينة إلا إلى أحد أبناء تقي الدين المنصور، فبعث الملك الكامل إلى الملك المظفر يقول "اتفق مع غلمان أبيك، وتسلم حماه[4]". ولما ملك المظفر حماة فوض أمرها إلى الأمير سيف الدين علي الهذياني.

أعاد الملك الكامل توزيع مملكة حماة، فأبقى للملك المظفر المعرة وبارين، ومنحه حماة، ونزع منه سلمية، وسلمها إلى الملك المجاهد أسد الدين (وفقاً لاتفاق غزة بين الكامل والأشرف)، وأمر بإعمار قلعة شميس[5]، ثم أطلق الناصر، وأمر أخاه أن يعطيه بارين، وأمواله التي كانت في قلعة حماة.

---

(١) ابن النظيف الحموي، م.س، ١٥٨.

(٢) المقريزي، السلوك، ٢٧٤/١.

(٣) ابن واصل م.س، ٢٦٨/٤.

(٤) أبو الفدا، المختصر، ١٤٥/٣.

(٥) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢٢٥/٢.

رحل الملك الكامل إلى البلاد الشرقية، فنظـــر في مصالحـــها، وولى عليـــها، واصطحب معه الملك المظفر صاحب حماة لخدمته[1].وعقد له على ابنته غازية خاتون، وبعد شهور استأذن الملك المظفر خاله الكامل في انتزاع بارين من أخيه الناصر خوفـاً من ان يسلمها للفرنج.

اتجه الملك الناصر بعد انتزاع بارين منه إلى مصر، فاستقبله الملـــك الكـامل، "وأقطعة إقطاعاً جليلاً"[2] ولكنه أساء التصرف، فاعتقله إلى أن مات في السجن.

واستمر المظفر في خدمة الملك الكامل، إلى أن توفي الأخير فحـــزن حزنـاً عظيماً، وأقام العزاء له.

هـ- علاقة الملك الكامل وصاحب حلب:

تولى الملك الظاهر غازي ابن صلاح الدين حكم حلب، وتزوج من ابنة عمـــه الملك العادل، وحاول التمرد على عمه بالتعاون مـع أخيه الملـــك الأفضـل، إلا أن الأمور سويت، وأقر العادل ابن أخيه على حلب، كما ذكر في الباب الأول.

توفي الملك الظاهر عام ١٢١٦/٦١٣، وأوصـى بـالملك لولـــده الصغـير العزيز[3]، وجعل الحكم في الأموال والقلاع إلى شهاب الدين طغر الخادم، وكـانت العلاقة طيبة بين الملك الكامل وأخته والدة العزيز، حتى أنه بكى لوفـاة الظـاهر[4] وأرسل مع الملك الأشرف عام ١٢٢٣/٦٢٠ الخلع السلطانية، وتقليد السلطنة بممالك حلب والسناجق للملك العزيز غياث الدين بن الملك الظاهر[5]، ولما وصـل الملـك الأشرف حلب استقبله العزيز، وأكابر البلد وأمراؤها بجفاوه.

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢٧٤/١.

(٢)أبو الفدا،م.س، ١٦١/٣.

(٣) ابن الوردي، تتمة المختصر، ١١٧/٢.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٣٠/٤.

(٥) تحدثت عن ذلك في الفصل الثاني من الباب الأول.

أحضر الملك الأشرف الخلع الكاملية[1]، وأفيضت على الملك العزيز في احتفال ضخم، حيث أحضر للعزيز المركوب فركبه[2]، وحمل الأشرف بين يديه[3]، ومد سماطاً للناس فأكلوا.

وعندما بلغ العزيز الثامنة عشرة عام ١٢٣١/٦٢٨ تزوج من ابنة الملك الكامل، وانفرد بالسلطة، وتسلم الخزائن من أتابكه شهاب الدين طغرل[4].

وفاة صاحب حلب عام ١٢٣٦/٦٣٤:

توفي الملك العزيز بن الملك الظاهر غازي صاحب حلب عام ١٢٣٦/٦٣٤، إذ خرج إلى حارم للصيد ورمي البندق، واغتسل بماء بارد فأصابته الحمى ومات[5] عن حوالي ثلاثة وعشرين عاماً[6]، وقام من بعده ابنه الناصر صلاح الدين، وكان عمره سبع سنين، وقام بتدبير أمره الأميران لؤلؤ الأميني، وعز الدين عمر بن محلي، وتقرر أن يكون الوزير جمال الدين الأكرم على أن يستشير صفية خاتون أخت الملك الكامل[7].

وحضر الأمير بدر الدين بن أبي الهيجاء، وزين الدين قاضي حلب إلى الملك الكامل بزردية العزيز وخوذته، فأظهر الملك الكامل الألم لموته، وقصر في إكرامهما. ثم أرسل للناصر خلعة بغير مركوب ومعها عدة خلع للأمراء المحليين، فاستوحشت أم الملك العزيز من أخيها الكامل، ولم تسمح للأمراء بارتداء الخلع، ولبس الناصر وحده خلعة الملك الكامل[8].

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢٥٠/١.

(٢) ابن الوردي، م.س، ٢١٥/٢.

(٣) الغاشية، السرج الذي يوضع على ظهر الفرس، وهو من الجلد المطرز بالخيوط الذهبية، وكانت تحمل بين يدي السلطان عند الركوب في المواكب، وهي من خواص الدولة الأيوبية، (القلقشندي، صبح الأعشى، ٧/٤).

(٤) أبو الفداء، المختصر، ١٦١/٣.

(٥) أبو الفداء، المختصر، ١٦٣.

(٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٩٧/٦.

(٧) المقريزي، السلوك، ٢٩٤/١.

(٨) أبو الفدا، م.س، ١٥٨/٣.

ومما سبق يتضح أن الوئام عاد ثانية إلى الأيوبيين، وعلى الرغم من اجتماع كلمة بني أيوب، وارتباطهم الوثيق بالكامل إلا أن الأخير كان يعمل للانفراد بالسيطرة على بلاد الشام، وتراوده الآمال في إعادة تكوين الجبهة الإسلامية، محتذيا في ذلك حذو أبيه الملك العادل، وعمه صلاح الدين، ومما يؤكد ذلك أن الملك المسعود صاحب اليمن حضر من هناك عام ١٢٢٣/٦٢٠ خصيصا لهذا الأمر[1] إذ ان والده الملك الكامل قد وعده بملك الشام، فقدم ليتسلم مملكته الجديدة، "وما جاء من اليمن إلا طمعاً في أخذ دمشق والشام"[2]، ولكن الظروف لم تكن مواتية.

وعاد الملك المسعود إلى اليمن يحمل هذا الأمل، ولذلك نراه بعد موت الملك المعظم يحاول القدوم إلى الشام لوضع يده على دمشق[3]، ولكن موت المسعود حال دون ذلك.

ثالثاً: اختلاف الملوك الأيوبيين وسيطرة الكامل على دمشق.

أ- اتفاق كلمة الأيوبيين لمحاربة السلاجقة الرومية:

سادت المودة بين ملوك البيت الأيوبي وأمرائهم، واتفقت كلمتهم حتى أنهم في عام ١٢٣٣/٦٣١ ساروا جميعا بصحبة الملك الكامل والأشرف قاصدين بلاد الروم، لمواجهة محاولة صاحبها السيطرة على خلاط، وكان الملك الناصر داود عند عمه بمصر عندما عزم على الرحيل بقواته، فسار الناصر إلى الكرك لتهيئة أموره، وإعداد عساكره، ولحق بقوات عمه بدمشق.

خرج الملك الكامل من دمشق فنزل سلمية ورتب عساكره، وسار إلى منبج، فقدم عليه عسكر حلب وغيره، ثم زحفت القوات الأيوبية لانتزاع بلاد الروم،

---

(١) يوسف غوانمه، إمارة الكرك الأيوبية، ٢١٠.

(٢) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٤١٧/٨.

(٣) م.ن، ٤٣٥/٨.

وحطت العساكر على نهر الأزرق على حدود بلاد الروم[1]، وضرب في معسكر الكامل ستة عشر دهليزا[2] لستة عشر ملكاً كانوا في خدمته[3]، من بينهم أخوته الملك الأشرف موسى صاحب دمشق، والملك المظفر غازي صاحب ميافارقين، والملك الحافظ أرسلان شاه صاحب قلعة جعبر، والصالح إسماعيل، والملك الناصر داود صاحب الكرك ، والملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص، والملك المظفر صاحب حماه، وغيرهم من الملوك والأمراء، وكان هذا الاجتماع أكبر تجمع منذ سنين عديدة.

ب- الوحشة بين الملك الكامل والملوك الأيوبيين:

ويبدو أن الملك الكامل أحس أن الفرصة مواتية له لتحقيق أهدافه السابقة، وفي الطريق قال لبعض خواصه[4] "هذه العساكر لم تجتمع لأحد من ملوك الإسلام، إن صار لنا ملك الروم فإنا نعوض ملوك الشام والشرق مملكة الروم، بدل ما بأيديهم ونجعل الشام والشرق مضافاً إلى ملك مصر".

أعلم المجاهد صاحب حمص قول الملك الكامل إلى الملك الأشرف، فأحضر الأخير بني عمه وأقاربه من الملوك، وأعلمهم بذلك، فتقاعسوا عن حرب الروم، واتفقوا على الملك الكامل، وكتبوا إلى السلطان علاء الدين يطلبون الاتفاق معه وسيروا الكتب بذلك، فوقعت في يد الملك الكامل، فكتمها[5] ورحل راجعاً، واشتد حنقه على أمرائه وعساكره.

وعندما عاد الملك الكامل إلى مصر، أرسل إليه أخوه الملك الأشرف كتابا يقول فيه "أخذت الشرق وأعطيته لولدك، وقد افتقرت ، وما دمشق إلا بستان، وما

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٨٢/٦.

(٢) الدهليز، خيمة ترافق السلطان في الحرب، وهي تختلف عن الخيام الأخرى في كبرها واستقلالها.

(٣) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢٣٤/٢.

(٤)المقريزي، السلوك، ٢٨٩/١.

(٥) أبو الفدا، المختصر، ١٦٣/١.

لي فيه رزق"[1]، فبعث إليه الملك الكامل بعشرة آلاف دينار، فردها قائلاً "أنا أعطي هذه لأمير"[2].

بلغ الملك الكامل قول الملك الأشرف، فقال "والله لأعرفنه قدره"[3]. وكان نائب الملك الأشرف في خلاط قد نصحه بعدم ترك الشرق مقابل دمشق، لكثرة ما يتمتع الشرق من امتيازات، ومنها أن سنجار أفضل من دمشق لموقعها المتوسط في أملاك الأشرف، كما أن الدولة الخوارزمية ستستمر في مهاجمة خلاط لتحالفها مع الملك المعظم، ومن ثم ابنه الناصر داود، هذا بالإضافة إلى أن الملك الأشرف نفسه سيكون في بلاده بالشرق ملكاً على الشام أيضاً، وأهل الموصل، وسلاجقة الروم سيقدمون له الدعم كل ما دعت الضرورة إلى ذلك[4].

انضم الملوك الأيوبيون إلى أحد الأخوين وفقا لمصلحة كل منهم، و لم يقوموا بالإصلاح بين الأخوين، فانضم الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص للملك الأشرف[5]. وانضمت إليهما صفية خاتون لأن الملك الكامل قدم الصالح بن الظاهر صاحب عين تاب[6] على عسكر حلب، ولأن أخاها الملك الكامل أرسل خلعة لابنها دون مركوب[7]. وانضم الملك المظفر صاحب حماة إلى الملك الكامل، إلا أن الأشرف هدده إذا رفض الانضمام إليه، فوعده بالانتماء إليه خوفاً منه.

١- أسباب اختلاف الملوك الأيوبيين:

وبلغ التنافر أشده بين الأخوين الملك الكامل، والملك الأشرف عام ١٢٣٦/٦٣٤ لأسباب منها:

---

(١)سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٦٩٩/٨.
(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٨٢/٦.
(٣) سبط بن الجوزي، م.س، ٧٠٠/٨.
(٤) م.ن، ٦٦٤/٨.
(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٢٣/٥.
(٦) قلعة حصينة تقع بين حلب، وأنطاكيه، ياقوت، ١٧٦/٤.
(٧) الركوب: الخيول المسومة النفيسة الأثمان التي يركبها الأمراء (القلقشندي، صبح الأعشى، ٤١/٤).

أرسل الملك الأشرف إلى أخيه الكامل يطلب منه الرقة، وقال في رسالة له "الشرق صار لك وأنا اركب كل يوم في خدمتك، فتكون الرقة برسم عليق دوابي"[1]، فرفض الملك الكامل فوقعت الوحشة بينهما، وقال الكامل "أما يكفيه ملك بني أميه"[2].

أرسل الملك الأشرف إلى الملك الناصر داود يطلب منه الانضمام إليه على أن يكون ولي عهده، ويزوجه ابنته الوحيدة إلا أن الملك الكامل بعث إلى الملك الناصر داود رسالة يذكره بغدر الأشرف، وانتزاع دمشق منه لنفسه، ووعده منحه دمشق، وإعادة زوجته له[3]، استشار الملك الناصر داود أمه فنصحت أم الملك الناصر داود ابنها الانضمام إلى الكامل ففعل[4].

غضب الملك الأشرف على صاحب الكرك الناصر داود لانضمامه إلى الملك الكامل، فوضع يده على أمواله في نابلس، وبعث رسالة إلى الملك الكامل يقول فيها "أنا قد اتفقت كلمتنا ونطلب منك الا تخرج من مصر، ولا تنزل إلى الشام، وتحلف لنا على ذلك"[5]. فلما قرأ الملك الكامل رسالة أخيه الأشرف أجابه" أنتم اتفقتم، فلم تطلبون مني اليمين، احلفوا لي أنتم ألا تقصدوا بلادي، ولا تتعرضوا لشيء مما في يدي، وأنا أوافقكم على ما تطلبون"[6]، وأضاف، "أبكاني اختلاف ملوك الإسلام، وأضحكني كوننا الجميع مشايخ، وما بقي لنا فسحة في الأجل نحتمل القال والقيل"[7].

(١)ابن كثير، البداية، ١٠٤/١٣.

(٢) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٦٩٩/٨، أبو الفدا، المختصر، ١٥٩/٣.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٢٥/٥؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢٢٦/٢.

(٤) المقريزي، السلوك، ٢٨١/١.

(٥) ابن واصل، م.س، ١٢٧/٥.

(٦) المقريزي، م.س، ٢٩٦/١.

(٧) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٩٧/٦.

وهكذا لعبت الأطماع الشخصية والابتعاد عن المصلحة العامة دوراً هاماً في سياسة الملك الكامل، وأخوته، وأدت إلى انقسام الأيوبيين، واعتدائهم على أملاك بعضهم البعض، بل والاستعانة بالدول الأخرى على بعضهم البعض.

٢- وفاة الملك الأشرف:

حاول صاحب شيزر شهاب الدين يوسف إقناع الملك الأشرف بانتزاع حلب من صاحبها عام ٦٣٥/١٢٣٧ إلا أنه رفض ذلك قائلا "لا يمكن أن يبدو مني غدر ولا قبيح، في حق ذرية الملك الظاهر"[١]،وفي هذه الظروف الحاسمة توفي الملك الأشرف[٢] وفي العام نفسه، وكان قد أوصى بولاية العهد لأخيه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل[٣]، فاستولى على ممتلكات الأشرف في بلاد الشام، وأرسل ابنه الملك المنصور نور الدين إلى الشرق ليتسلم سنجار، والخابور، ونصيبين[٤].

وكان قد بعث إلى صاحب حمص، وإلى المظفر صاحب حماه، وإلى الحلبيين ليحلفوا معه، ويتفقوا معه على مخالفة الملك الكامل على القاعدة التي تقررت بينهم، فأجابوا إلا صاحب حماة، فإنه مال إلى الملك الكامل.

خرج الملك المظفر من حلف الملك الأشرف وانضم إلى الملك الكامل، واحتل سلمية، وأبلغ الملك الكامل بانضمامه إليه، فَسُرَّ الأخير[٥] بذلك، فصادر الملك الصالح عماد الدين جماعة من الدماشقة قيل إنهم كانوا ينتمون للملك الكامل، وحبسهم في بصرى[٦].

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٨٥.
(٢) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٨/٧٠٤.
(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥/٨٢.
(٤) المقريزي، السلوك، ١/٢٩٥.
(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٦/٢٩٩.
(٦) المقريزي، م.س، ١/٢٩٧.

جـ- سيطرة الملك الكامل على دمشق:

لما علم الملك الكامل بوفاة أخيه الأشرف، خرج بعساكره عـام ٦٣٥/١٢٣٧، قاصداً دمشق، واستناب على مصر ابنه الملك العادل، وأخذ معه الناصر داود، وكـان الأخير لا يشك أن عمه سيسلمه دمشق[١]، وسمع الملك الصالح إسماعيل بقدومـهما، فاستعد للمقاومة، وقسم الأمراء على الأبراج، وأغلق أبـواب المدينـة[٢]، ونصـب المجانيق، ووصلت نجدة من حلب وحمص[٣].

نزل الملك الكام بمسجد القدم بدمشق، وكاتب نائب قلعة عجلون الانضمـام إليه، فوافق، واثناء ذلك حاصر الكامل دمشق، وقطع عنها المياه[٤] وأحرق الطواحين، وألح في قتال الملك الصالح إسماعيل، وجاء السلطان غياث الديـن كيخسـرو نجـدة للملك الصالح[٥]، إلا أن الأخير انهار، ولم يصمد للحصار، فطلب الصلح من أخيـه الكامل، فتم ذلك على يد محي الدين بن الشيخ جمال الدين بن الجـوزي، رسـول الخليفة المستنصر بالله على أن تسلم دمشق للملك الكامل، وأن يعطى الملك الصـالح بعلبك، وبصرى والبقاع[٦].

نصب الملك الكامل خيمة كبيرة بظاهر دمشق[٧] وسير الملك المظفر صـاحب حماة إلى حمص، وأخذ بتجهز لأخذ حلب وحمص، غير أنه سامح صـاحب حلـب وطلب من المجاهد صاحب حمص البقاء في إمارته على أن يدفع ألفي ألف دينار[٨].

---

(١) أبو الفدا، المختصر، ١٦٠/٣.
(٢) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢٣٨/٢.
(٣) م.ن.
(٤) المقريزي، السلوك، ٢٩٨/١.
(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٢٨/٥.
(٦) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٧١٧/٨.
(٧)ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٨٢/٥.
(٨) المقريزي، م.س، ٢٩٩/١.

ولم يمض إلا اثنان وسبعون يوماً على احتلال الملك الكامل لدمشق حتى أصيب بمرض أودى بحياته عام ٦٣٥/١٢٣٧، فانتهت صفحة صراع بينه وبين أقاربه لتبدأ صفحة جديدة من الصراع بين أبنائه.

وهكذا انقسمت كلمة الأيوبيين، وكثر نزاعهم، فضعفت دولتهم، وازداد طمع المجاورين في بلادهم، واستمر الأيوبيون في نزاع مستمر إلى أن زالت دولتهم بعد سنين.



الفصل الثالث

سياسة الملك الكامل في الممالك الإسلامية

أولاً : علاقة الملك الكامل والخلافة العباسية .

ثانياً : علاقة الملك الكامل واليمن .

ثالثاً : علاقة الملك الكامل والدولة الخوارزمية .

رابعاً : علاقة الملك الكامل وسلاجقة الروم .

خامساً : علاقة الملك الكامل والأراتقة .

الفصل الثالث

سياسة الملك الكامل في الممالك الإسلامية

حاولت استعراض السياسة التي اتبعها الملك الكامل مع الممالك الإسلامية بمراعاة البيئة التي كانت تحياها هذه الدول الإسلامية، لذلك قسمت هذا الفصل إلى خمس فقرات، فركزت في الفقرة الأولى على علاقات الملك الكامل مع الخلفاء العباسيين الذين تولوا الخلافة أثناء سلطنة الملك الكامل، وتحدثت في الفقرة الثانية عن تطور الأحداث في اليمن وأثرها في العلاقات مع الملك الكامل، وعالجت في الفقرة الثالثة السياسية التي اتبعها الكامل مع الدولة الخوارزمية، ووسائل الحد من الزحف الخوارزمي على المنطقة الشرقية، ووضحت في الفقرة الرابعة علاقة الملك الكامل مع سلاجقة الروم ومحاولاته تقليم أظافر الملك السلجوقي، وبينت في الفقرة الخامسة علاقات الملك الكامل مع الأراتقة، ومحاولته التصدي لمحاولات الانفصال الأرتقية، واختتمت الفصل بدراسة تحليلية مختصرة لفصول هذا الباب ومفرداته.

أولاً: علاقة الملك الكامل والخلافة العباسية.

سادت العلاقة الطيبة بين الملك الكامل والخلافة العباسية، فشملت روح التعاون والاعتراف بسيادة الخليفة العباسي،وتبادل السفارات والمكاتبات، إذ سار الملك الكامل على نهج والده الملك العادل والسلطان صلاح الدين، فارتبط برابطة الولاء الرسمية للخلفة، فكان اسم الخليفة يذكر في الخطبة في المساجد ويضرب على السكة، وكانت كلمته نافذة، وشفاعته مقبولة[1]، وكان الخليفة العباسي الحكم في

(١) المقريزي، السلوك، ١٨٦/١.

كثير من الخلافات التي وقعت بين الملوك الأيوبيين، وقد تدخل في حل هذه المشاكل والخلافات كالتي حدثت بين الملك الكامل وكل من ابن أخيه الناصر داود عام ١٢٣٥/٦٣٣، والصالح إسماعيل عام ١٢٣٧/٦٣٥.

وقد عاصر الملك الكامل ثلاثة خلفاء، وهم الخليفة الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء، والخليفة الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر لدين الله، والخليفة المستنصر بالله أبو جعفر المنصور.

أ- العلاقة بين الملك العادل والخليفة الناصر لدين الله:

تولى الخليفة الناصر لدين الله الخلافة عام ١١٧٩/٥٧٥[١] وتوفي عام ١٢٢٥/٦٢٢[٢]، وشغف في رمي الطير بالبندق ولبس سراويل الفتوة[٣]، وكانت رسل صلاح الدين وأخيه الملك العادل لا تنقطع إلى ديوانه، وكان الملوك الأيوبيون يلتجئون إليه للحصول على تفويض بالحكم ليكسبوا الصفة الشرعية.

وأرسل الخليفة الناصر لدين الله عام ١٢٠٢/٥٩٩ سراويل الفتوة للملك العادل وأولاده، فهم أول من انضموا إلى هذا النظام[٤]، وبعد أن استقل الملك العادل بالسلطة، وبعد انعقاد الصلح بين الملك العادل والفرنج عام ١٢٠٧/٦٠٤ بعث الملك العادل استداره الأمير الذكر العادلي، وقاضي العسكر نجم الدين خليل

---

(١) ابن الوردي، تتمة المختصر، ١٣٧/٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٣٦٠/٩.

(٣) الفتوة: نظام تبناه الخليفة الناصر لدين الله كي يجدد نشاط الدولة العباسية على مختلف الصعد، وبوحدها في الداخل والخارج، ويجعل بغداد مركز العالم الإسلامي في الشرق والغرب. (أحمد الشلبي ٩٨).

(٤) سروال الفتوة: هو اللباس الذي يرتديه من ينتمي لنظام الفتوة، جعل الخليفة الناصر رمي البندق (كرات تصنع من الطين، أو الحجارة أو الرصاص)، والطيور المناسيب ولبس سراويل الفتوه (المختصر، ١٣٦) ومنع الرمي بالبندق إلا لمن ينتمي إليه، فأجابه الناس بالعراق وخارجه (ابن الأثير، الكامل ٣٦٨/٩) إلا إنساناً واحداً يقال له السفت هرب إلى دمشق من بغداد (أبو الفدا، المختصر، ١٣٦/٣) وجعل رمي البندق فناً لا يتعاطاه إلا الذين يشربون كأس الفتوه، ويلبسون سراويلها على أن يكون بينهم روابط متينة، وجعل الخليفة نفسه رئيس هذه الطائفة، يدخل فيها من يشاء، وكتب إلى الملوك أن يشربوا كأس الفتوة ويلبسوا سراويلها، وأن ينتسبوا إليه برمي البندق، ويجعلوه قدوتهم، (المقريزي، السلوك، ٢٠٦/١) وبهذا تفنن الأعيان والأمراء في رمي البندق (ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ٩٨/٥).

المصمودي إلى الخليفة في طلب التقليد والتشريف، بولاية مصر والشام، والشرق، وخلاط، فلما وصلا إلى بغداد أكرمهما الخليفة الناصر لدين الله، وأحسن إليهما، وسير الشيخ شهاب الدين أبا عمر بن محمد بن عبدالله بن محمد السهروردي[1] ومعه التشريف والتقليد من الخليفة تقليداً بالبلاد التي تحت حكمه، وخوطب الملك العادل فيه شاهنشاه ملك الملوك[2]، وخلع للملك العادل وأولاده[3].

اتجه السهروردي إلى حلب، وجلس للوعظ، ثم سار من حلب ومعه القاضي بهاء الدين بن شداد فاستقبله الملك العادل في دمشق، وأفيضت عليه الخلع[4]، واتجه الشهاب السهروردي إلى مصر فأفاض على الملك الكامل الخلعة الخليفية (عمامة سوداء وثوب أسود واسع الكم) وسط احتفال كبير استمر عدة أيام[5] ثم عاد إلى بغداد حاملا الهدايا إلى الخليفة.

وتطلع الملك العادل ٦٠٥/١٢٠٨ إلى توسيع مملكته في منطقة الجزيرة، فاستغل النزاع الذي وقع بين صاحب الموصل نور الدين أرسلان وعمه صاحب سنجار قطب الدين، فاتفق مع نور الدين على اقتسام بلاد قطب الدين شريطة أن تكون سنجار للعادل[6]، غير أن الخليفة الناصر لدين الله تدخل وطلب من العادل الرحيل عن سنجار[7] عام ٦٠٦/١٢٠٩، فاستجاب الأخير لذلك.

استمرت العلاقة الطيبة بين الخلافة والملك العادل حتى وفاته، فما كادت أخبار وفاته تصل بغداد حتى نودي من أراد الصلاة على الملك العادل فليحضر إلى جامع

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢٠٠/١.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٨١/٣، أبو الفدا، المختصر، ١٠٩/٣.

(٣) ابن تغري، النجوم الزاهرة، ١٦٦/٦.

(٤) ثوب أطلس واسع الكم مطرز بالذهب، وعمامة سوداء مذهبه، وطوق ذهب، وسيف جميع قرابه من الذهب (المقريزي، م.س، ٢٠٠/١)

(٥) أبو الفدا، المختصر، ١٠٩/٣.

(٦) ابن الأثير، الكامل، ٢٩٥/٩.

(٧) م.ن، ٣٠٢/٩.

بغداد وقت العصر، وصلى الناس عليه صلاة الغائب، وفعل ذلك خطباء الجوامع بعد صلاة العصر[1].

ب- علاقة الملك الكامل والخليفة الناصر لدين الله:

استمرت علاقة الملك الكامل بالخلافة العباسية على غرار ما كانت من احترام الخليفة العباسي وتقديم الولاء، إلا أن الخلافة كانت في مركز ضعيف بعد ما فقدت سيطرتها على دويلات الأطراف، وكان تحرك الخلافة في بعض الأحيان وفق الظروف، إلا أن الخليفة استمر في تقديم الدعم المعنوي للملك الكامل، ويتضح موقف الخليفة العباسي الناصر لدين الله من خلال السياسة المساندة للملك الكامل، فعندما استولى الإفرنج على دمياط عام ١٢١٨/٦١٥ أرسل الملك الكامل صدر الدين بن شيخ الشيوخ إلى الخليفة يستنجد بجيشه على الصليبيين[2]، إلا أن الرسول توفي وهو في طريقه إلى بغداد أثناء وجوده في مدينة الموصل[3]، وحدث أن علم الخليفة بما فعله الإفرنج في دمياط، فأرسل عام ١٢١٩/٦١٦ الرسل إلى ملوك الأطراف يدعوهم إلى الإسراع لنجدة الملك الكامل[4].

وقد اكتفى الخليفة الناصر لدين الله بإرسال بعض عناصر الفتوة لإجراء مراسيم الفتوة، ورمي البندق[5]. أما أهل بغداد فقد ساندوا أخوانهم في مصر، وعندما تحررت دمياط بادر الشعراء إلى تهنئة الملك الكامل بهذا النصر[6]، فأنشد الشاعر العراقي راجح

---

(١) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٥٩٦/٨.

(٢) ابن الكثير، البداية والنهاية، ٩٣/١٣.

(٣) م.ن.

(٤) الحموي، التاريخ المنصوري ٩٨، ابن تغري بردي، النجوم، ٢٢٢/٦.

(٥) البندق، آلة تتألف من قوس يلف عليها الحرير، ويوجد في وسطها قطع مستديرة، توضع فيها البندق عند الرمي (الديوه جي، سعيد، الفتوه في الإسلام (الموصل، ١٩٤٠ د.ت).

(٦) ابن أيبك، كنز الدرر، ٢١٥/٧.

الحلي قصيدة هنأ فيها الكامل في الاحتفال الذي أقامه في المنصورة[١]، وقد عبرت هذه القصيدة عن أجمل صورة تجلت في الوحدة الإسلامية أثناء الحروب التي خاضها المسلمون مع الإفرنج، فقد بين فيها الشاعر أن هذا النصر الجليل كان لجميع المسلمين مهما اختلفت ديارهم.

و لم تنحصر علاقة الخليفة الناصر لدين الله بالملك الكامل بل امتدت لتشمل باقي ملوك الأيوبيين، فلم يقبل الملك المعظم مساعدة جلال الدين الخوارزمي في محاربة الخليفة[٢] عندما طلب منه الخوارزمي ذلك.

وفي عام ١٢٢٠/٦١٧ نزل الملك الأشرف على الموصل نجدة لبدر الدين علي بن زين الدين، وعزم على قصد إربل، فبعث الخليفة الناصر لدين الله وَرَدَّهُ عن إربل وأصلح بينهما[٣].

ويعتقد أن الخليفة الناصر لدين الله اتصل سراً بالملك المعظم لتشجيع مظفر الدين كوكبري أميراربل على مهاجمة الموصل[٤]، لعلاقته الودية مع الملك الأشرف بعد ما غضب الخليفة على الملك الكامل، لما فعله ابنه الملك المسعود عام ١٢٢٢/٦١٩ في مكة.

وعندما اشتد الخلاف بين الملك الكامل وابن اخيه المعظم اتخذ من تحرك الإفرنج حجة للتوجه إلى الشام، وكان هدفه الرئيسي انتزاع دمشق من الملك الناصر داود، ومما يؤكد ذلك أن الملك الكامل عندما قرر تسليم بيت المقدس إلى الإفرنج جمع الأمراء بهذا الخصوص، فأشار إليه سيف الدين بن أبي ذكرى بقوله "أبق

---

(١) راجع الحلي، أبو القاسم ابن إسماعيل المحلي. ت ١٢٤٣/٦٤١، الكبتي، فوات الوفيات، ٧/٢. وجاء بالقصيدة

هَنِيئاً فإنّ السَّعدَ رَاحَ مُخلداً   وَقدْ أنجَزَ الرحمنُ بالنَّصرِ مَوْعِداً

(٢) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٦٣٨/٨.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم، ٢٤٧/٦.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٣٧/٤.

دمشق على ابن أخيك الملك الناصر، واطلبه، واطلب أخاك الأشرف وعسكر حلب، لكي تقاتل هذا العدو، فإما لنا، وإما علينا، ولا يقال عن السلطان انه أعطى الإفرنج القدس[1]، فامتعض الكامل وقبض عليه وسيره إلى مصر وسجنه بها"[2].

جـ- علاقة الملك الكامل والخليفة الظاهر بأمر الله:

تولى الظاهر بأمر الله الخلافة بعد وفاة والده الخليفة الناصر لدين الله عام ٦٢٣/١٢٢٦[3] فأظهر العدل، وأزال عدة مظاهر[4] واستمر في توطيد علاقاته الطيبة مع ملوك دول الأطراف، فبعث مع رسوله محي الدين ابن الجوزي الخلع بالتقليد بالسلطنة للملك الكامل وأخوته[5]، فبدأ بزيارة الملك الأشرف بالشرق، ثم الملك العزيز صاحب حلب، ثم البس الملك المعظم وسلمه رسالة الخليفة يطلب فيها الرجوع عن موالاته لجلال الدين الخوارزمي والصلح مع أخوته[6].

يتضح مما سبق أن الخليفة الظاهر كان على علم بمجريات الأحداث في الممالك الأيوبية، وكان حريصا على أن تكون العلاقة بين أبناء الأسرة الأيوبية جيدة، ذلك لأنهم يمثلون في مصر وبلاد الشام والجزيرة، ويدافعون عن الأراضي الإسلامية.

---

(١) ابن شداد، الإغلاق المختصر، تاريخ لبنان والأردن، ٢٢٣-٢٢٤.

(٢) م.ن.

(٣) أبو الفدا، المختصر، ١٣٧/٣.

(٤) المقريزي، السلوك، ٢٥٥/١.

(٥) أبو شامه، ذيل الروضتين، ٤٧، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٦٢/٦.

كتب الملك الأفضل إلى الخليفة لما انتزع منه دمشق أخوه العزيز عثمان وعمه العادل أبو بكر كتابا يشكو إليه اغتصابهما ميراثه من ابيه (ابن الوردي، تتمة المختصر، ١٦٨/٢) .

مولاي ! إن ابا بكر وصاحبه ... عثمان قد أخذا بالسيف إرث على
فانظر إلى حظ هذا الإسم كيف لقى ... من الأواخر مالاقي من الأول

فأجابه الخليفة بقوله:

وافى كتابك بابن يوسف معلنا ... بالود يخبر أن أصلك طاهر
غصبوا عليا حقه إذ لم يكن ... بعد النبي له بيثرب ناصر
فأبشر فإن غدا يكون حسابهم ... واصبر فناصرك الإمام الناصر

(٦) المقريزي، م.س، ٢٥٧/١.

اتجه مبعوث الخليفة الظاهر إلى مصر بالخلع، فخرج الكامل وولداه العادل أبو بكر، ونجم الدين أيوب إلى ظاهر القاهرة لاستقباله، "فألبس الملك الكامل الخلع الخليفية، والطوق الذهبي وعبر الكامل من باب النصر، وشق القاهرة إلى أن صعد قلعة الجبل"، كذلك ألبس الملك الكامل كاتب الإنشاء "قاضي فخر الدين سليمان بن محمود بن أبي غالب" خلعة الصاحب بن شكر[1]، ثم رجع الرسول إلى بغداد.

د- علاقة الملك الكامل والخليفة المستنصر بالله:

تولى الخلافة عام ١٢٢٦/٦٢٣، ولم تطل خلافة الظاهر إلا حوالي تسعة أشهر، إذ توفي في العام نفسه الذي تولى فيه، فخلفه المستنصر بالله، فالتزم الكامل ولاءه للخليفة الجديد، وكان متمسكا بعرى الخلافة العباسية، مؤيداً لها بل كان يضع نفسه في مقام العبودية للخليفة الذي كان يعد رمزاً وسلطة روحية في العالم الإسلامي، ذلك أن تأييد الخلافة للسلطان معناه اكتساب الصفة الشرعية، وبغير هذه الصفة لا تعد سلطة شرعية، بعث الملك الكامل عام ١٢٢٦/٦٢٤ معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ لتهنئة الخليفة المستنصر بالله، والتعزية بوفاة والده الخليفة الظاهر بأمر الله[2].

وبعد مرور سنتين على تسلم الخليفة المستنصر بالله مقاليد الدولة، أرسل عام ١٢٢٨/٦٢٦ كتاب التقليد بالسلطنة للملك الكامل[3] الذي أبدى ما كانت عليه الأعراف السياسية آنذاك من صيغ مخاطبة الخليفة العباسي لملوك العالم الإسلامي[4]. وقد وضح الخليفة فيه السياسة العامة التي على الملك الكامل اتباعها، وحضه على التمسك بتقاليد الإسلام.

---

(١) مات الصاحب بن شكر قبل مجيء ابن الجوزي فتولى ابن أبي غالب كتابه الإنشاء كما ذكرت في الفصل الثاني من الباب الأول.

(٢)المقريزي، السلوك، ٢٥٨/١.

(٣) انظر التقليد في الملحق رقم ١٠.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى ٩٩/٣.

وسير الملك الكامل مبعوثه جمال الدين الكاتب الأشرفي إلى الخليفة العباسي في العام نفسه لتسكين قلوب الناس، وتطمين خواطرهم من انزعاجهم بسبب أخذ الفرنج بيت المقدس[1]، وتتابعت رسل الخليفة إلى الملك الكامل، ففي عام ٦٢٨/١٢٣١ قدم رسول الخليفة المستنصر بالله بالخلع والتقليد للملك الكامل[2]، وفي عام ٦٢٩/١٢٣١ استنجد الخليفة بالملك الكامل، وطلب منه تجنيد العساكر للدفاع عن العراق، من عدوان التتر إثر سيطرتهم على إقليمي أرمينية وخلاط.

ويعتقد أن من أسباب اهتمام الخليفة المستنصر بالله بالملك الكامل ازدياد الخطر المغولي، فقد وصلت بعض فرقهم أراضي العراق الأعلى[3]، ووصل محي الدين يوسف بن الجوزي من بغداد بالتقليد من الخليفة المستنصر بالله للملك الكامل عام ٦٣٠/١٢٣٢.

وكان الخليفة العباسي السند القوي الذي يلتجئ إليه الملوك الأيوبيون عندما تداهمهم ا لمخاطر، وقد أثبتت الأحداث ذلك الموقف الإيجابي من الملك الكامل، ومما يؤكد ذلك إلتجاء الملك الناصر داود إلى الخليفة المستنصر بالله عام ٦٣٣/١٢٣٦، طالبا منه الوقوف إلى جانبه وانصافه لدى الملك الكامل[4]، وحاول الخليفة عدم مقابلة الناصر داود تقديراً لعمه الكامل، إلا أن إلحاح الناصر جعله يستجيب لإلتماسه، فأمر الخليفة بإكرامه، وحسن استقباله، ثم خلع عليه، ولدى عودته بعث معه رسولاً وعدداً من خواصه لتسوية الأمر مع الملك الكامل[5].

وفي عام ٦٣٤/١٢٣٦ أرسل الخليفة مائة ألف دينار إلى الملك الكامل ليستخدم بها عسكراً للخليفة، وابلغه توجه التتر إلى بغداد، فلما تسلم الملك الكامل

---

(١) المقريزي، م.س، ١/٢٧٢.

(٢) م.ن ١/٢٨١.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٩/٣٨٦.

(٤)المقريزي، السلوك، ١/٢٩٦.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ٥/١٠٧.

كتاب الخليفة وضعه على رأسه، وأمر أن يخرج من بيت المال مائتا ألف دينار ليستخدم بها العسكر، وتقرر أن يكون مقدم العساكر الملك الناصر داود، وألا يصرف من مال الخليفة شيئا، بل يعاد إليه بكامله، وتولى استخدام الجند الأميران عماد الدين بن مومسك وركن الدين الهيجاوي، وطلب منهما أن يكونا في خدمة الملك الناصر داود، فسار الأخير على رأس ثلاثة آلاف فارس بجدة إلى بغداد[1].

استمر الخليفة في إصلاح ذات البين بين الأيوبيين، فقد أسهم عام ١٢٣٧/٦٣٥ في إقرار الصلح بين الملك الكامل والملك الصالح[2]، غداة احتلال الملك الكامل دمشق.

والواقع أن ما كان يفعله الملك الكامل في مصر والشام على الرغم من صعوبة أحوال الأيوبيين في مصر والشام كان استجابة لضرورة فرضتها الظروف، فضلا عما يدل عليه هذا التصرف في حقيقته من استمرار العلاقة الطيبة بينه وبين الخلافة، مما يدل على وعي تام بالخطر المحدق بالبلاد، كما يدل على حنكة سياسية، وتقدير للظروف، وما قد ينتج منها.

ثانياً: علاقة الملك الكامل مع اليمن.

تطلع الأيوبيون إلى ضم اليمن إلى سلطانهم لتأمين تجارتهم في البحر الأحمر،وقطع الطريق البحري على الإفرنج، وتعزيز مكانتهم في العالم الإسلامي، فأرسل صلاح الدين الأيوبي أخاه توران شاه على رأس حملة عسكرية إلى اليمن عام ١١٧٣/٥٦٩، فتمكن من فتح البلاد، والقبض على صاحبها عبد النبي بن مهدي[3]، وعامل أهل اليمن معاملة طيبة، فكسب ودهم، مما أدى إلى استقرار الأوضاع مدة من الزمن[4]، وتوالي عدد من الأيوبيين

(١) المقريزي، السلوك، ٢٩٩/١.

(٢) أبو الفدا، المختصر، ١٦٠٣/٣.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٣٠١/٩.

(٤) م.ن.

على حكم اليمن، إلا أن أوضاع البلاد اضطربت في عهد الملك المعز إسماعيل بن طغتكين في أواخر القرن السادس الهجري، إذ كان الملك يميل إلى اللهو والعبث، وكان فيه هوج، فادعى أنه قرشي، وأنه من بني أميه ولبس الخضرة، وثياب الخلافة، ودعا بالخطبة إلى نفسه[1].

فقد الملك المعز إسماعيل ثقة الناس، وخرج عليه بعض المماليك، واغتالوه عام ١٢٠١/٥٩٨، فتولى عرش اليمن أخوه الملك الناصر بن طغتكين، وكان صغير السن، فتولى أتابك والده سيف الدين سنقر الوصاية عليه، وتدبير شؤون البلاد، ولكن الأخير توفي بعد أربع سنوات، فتولى سليمان بن سعد الدين شاهنشاه المُلْك بعد ما تزوج أم الملك الناصر بن طغتكين[2]، فملأ سليمان البلاد بالجور والظلم، وكثرت الفتن في اليمن.

أ- احتلال الملك المسعود اليمن:

وعندما سمع الملك الكامل بالفوضى التي تعم أرجاء اليمن، واضطراب الأوضاع فيها، أرسل ابنه الملك المسعود الملقب أفسيس في جيش كثيف إلى اليمن، وكتب إلى الأمير شمس الدين علي بن رسول والي سائر الأمراء المصريين في البلاد يأمرهم بحسن صحبة الملك المسعود، والقيام على خدمته[3].

وصل الملك المسعود مكة عام ١٢١٤/٦١١[4]، وحج فيها ثم اتجه إلى مدينة زبيد باليمن، فاحتلها عام ١٢١٤/٦١٢، ونزل بالدار السلطانية، وما لبث أن سيطر على تعز وصنعاء، وسائر إنحاء اليمن، وظفر بصاحبها الملك سليمان شاه بن سعد الدين شاهنشاه بن الملك تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب[5]، فأرسله تحت الحراسة إلى مصر، فعاش في القاهرة إلى أن استشهد أثناء جهاده الصليبيين في

(١) أبو الفدا، المختصر، ١٠٢/٣.

(٢) م.ن.

(٣) الخزرجي، العقود اللؤلوية، ٣٠/١.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٨٢/٥.

(٥) أبو الفدا، م.س، ١١٦/١.

معركة المنصورة التي حدثت أثناء الحملة الصليبية السابعة على دمياط[١]، والتي قادها الملك الفرنسي لويس التاسع عام ١٢٥٠/٦٤٧.

عين الملك المسعود بعد فتحه اليمن نواباً ليساعدوه، فولى بدر الدين بن رسول على صنعاء، ونور الدين بن رسول على تعز.

قصد الملك المسعود مكة عام ١٢٢٢/٦١٩ لأداء فريضة الحج، فلما كان يوم عرفة تقدمت أعلام الخليفة لترفع على الجبل، فمنعها الملك المسعود بعساكره، وأمر بتقديم أعلام ابيه الملك الكامل الواردة من مصر على أعلام الخليفة، و لم يستطع أصحاب الخليفة منعه، وبدا منه بمكة ما لا يحمد، من رمي حمام الحرم بالبندق من فوق بئر زمزم، فهم أهل العراق بقتاله فعجزوا عن ذلك[٢]، وكان راجح بن قتادة وجنده قد رافقوا الملك المسعود أثناء سيره إلى الحج[٣]، فحاول راجح الاستيلاء على مكة، ولكن المسعود تمكن من إبعاده دون قتال[٤]، ثم عاد الملك المسعود إلى اليمن بعد أداء مناسك الحج، وعندما علم الخليفة الناصر لدين الله ما فعل الملك المسعود احتج لدى الملك الكامل، فاعتذر الأخير له.

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢٤٩/١.

(٢) م.ن، ٢٤٩/١، أبو الفدا، م.س، ١٣٢.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٢٥/٤، سبط الجوزي، مرآة الزمان، ٦٢٤/٨.

(٤) كان قتادة بن أدريس العلوي أميراً لمكة والمدينة وينبع، وقد أساء السيرة، وجدد المكوس بمكة، وفي عام ١٢٢١/٦١٨ دخل عليه ابنه حسن وخنقه، وكتم موت أبيه، وتولى السلطة كما قتل أخاه وعمه، فسار أخوه راجح إلى مكة ليتزعها من اخيه حسن وقطع الطريق في موسم الحج، فتدخل أمير الحج العراقي اقباش للإصلاح بين الأخوين، إلا أن جند الأمير حسن قتلوا اقباش، ولما علم الخليفة بذلك عظم عليه الأمر، فبعث الأمير حسن رسله للاعتذار إلى الخليفة، ويطلب العفو، فأجيبوا إلى ذلك، أما راجح ففر إلى اليمن، (ابن الأثير، الكامل، ٣٤٩/٩.) فيما بقي حسن يحكم مكة فأساء السيرة، وانفض الناس من حوله، وتفرق عنه مماليك أبيه و لم يبق عنده إلا نفر قليل وأخواله (ابن واصل، م.س ١٢٥/٤).

أقام الملك المسعود باليمن مدة قصيرة، ثم اتجه عـــام ١٢٢٣/٦٢٠ إلى مكـــة لانتزاعها من حسن قتاده، فلقيه ابن قتاده في المسعى وقاتله، فانهزم الأخـــير، وتـــرك مكة، وملكها الملك المسعود، واستولى عليها، ورد على أهلها أموالهم ودورهم[١].

ب- زيارة الملك المسعود لأبيه:

لم تضعف الأحداث السابقة التي مرت بالملك المسعود علاقته مع والده الملـــك الكامل، ومما يؤكد على حسن العلاقة بينهما، تفكير الملك الكامل نفسه بـــالهرب إلى اليمن عندما حاول ابن المشطوب خلعه عن الحكم[٢]، وكذلك الزيارات المستمرة التي كان يقوم بها الملك المسعود لمصر، وكثرة الهدايا التي كان يحملها لوالده.

اتجه الملك المسعود في ١٢٢٣/٦٢٠ لمصر حاملا معه عدداً كبيراً من الهدايـــا، والتحف الثمينة[٣]، وقد عين نائبا له على اليمن، نور الدين عمر بن رسول في زبيـــد وأخاه بدر الدين في صنعاء[٤]، ومكث في مصر مدة طويلة، واستطاع بهيبته أن يقيـــم حرمة وافرة لأبيه، فخافه الأمراء والجند، وذكر أن المسعود ذهب إلى القلعة ذات يوم، فرأى بعض الأمراء يلبسون الشرابيش[٥]، فأنكر عليهم ذلك، وقال "إذا كنتـــم أنتـــم تلبسون الشرابيش، والسلطان يلبس الشربوش، فبأي شيء يتميز عنكـــم الســـلطان، ويعرف منكم، والله لا أعود أرى أحداً منكم في دار السلطان أو موكبه مـــن يلبـــس شربوشا إلا ضَرَبْت عنقه"[٦]، فلم يجرؤ أحد بعد ذلك على لبس شربوش في حضـــرة السلطان.

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢٤٩/١.

(٢) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٦٠٢/٨.

(٣) وكانت الهدية تشمل الفيلة، و ٢٠٠ خادماً، والعطور والمسك، ابن النظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ٩٧.

(٤) أبو الفدا، المختصر، ١٤٦/٣.

(٥) الشرابيش، جمع شربوش، وهو قلنسوه طويلة تلبس بدل العمامه إشارة إلى الأمراء.

(٦) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٦١/٤.

وفي عام ١٢٢٤/٦٢١ أخذ عسكر مصر مدينة ينبع، واستمرت السيطرة المصرية عليها تسع سنوات[١] وفي العام التالي توجه الملك المسعود إلى مكه، ثم مضى إلى القاهرة من طريق عيذاب، فقدم على أبيه الملك الكامل في قلعة الجبل ومعه الهدايا الكثيرة[٢]، وبينما كان الملك المسعود في القاهرة حاول الشريف قاسم الحسيني أمير المدينة الاستيلاء على مكة، فتصدى له نواب الملك الكامل، وقتلوه وأسروا عساكره[٣]، كذلك اضطربت أوضاع اليمن، إذ ادعى مرغم الصوفي[٤] في زبيد انه إمام الحق، وانضم إليه الغوغاء وكثرة من الناس، غير أن حركته فشلت[٥]، واستمرت الاضطرابات والقلاقل في اليمن بعض الوقت، وبخاصة بين المعارضين لحكم الأيوبيين، ونائب الملك المسعود نور الدين بن رسول.

وعندما علم الملك المسعود بهذه المشاكل خاف على اليمن من بني رسول لما هم عليه من الشجاعة والإقدام، فعاد إلى اليمن عام ١٢٢٦/٦٢٣[٦]، وقبض على أخوة نور الدين وأرسلهم إلى مصر، وأبقى على الأخير الملقب بالمنصور نائباً على اليمن لعلاقته الحميمة به.

وكان الملك المسعود بن الملك الكامل يثق بنور الدين بن رسول، ويفضله على أهله وأخوته، لذلك عينه نائبا له عام ١٢٢٧/٦٢٥، عندما أراد السفر إلى بلاد الشام بعد وفاة عمه المعظم، كتب له "لقد عزمت على السفر، فإن مت فأنت أولى باليمن من أخوتي، لأنك خدمتني، وعرفت منك النصيحة والاجتهاد، وإن عشت فأنت على حالك، وإياك أن تترك أحداً يدخل اليمن من أهلي..." فأجابه نور الدين

(١) المقريزي، السلوك، ٢٥١/١.

(٢) م.ن، ٢٥٦/١.

(٣) المقرزي، م.س، ، ٢١٤/١.

(٤) مرغم الصوفي، أحد رجال الصوفية.

(٥) الخرزجي، العقود اللؤلؤيه، ٣٤/١.

(٦) المقريزي، م.س، ٢٥٧/١.

"أخشى من أخوتي أن يعارضوني، فقال له المسعود أكفيك أمرهم، فقيدهم، وأرسلهم إلى مصر"[1].

جـ- وفاة الملك المسعود:

استدعى الملك الكامل ابنه الملك المسعود عام ١٢٢٩/٦٢٦[2] ليوليه دمشق، بعد وفاة الملك المعظم، فسار الملك المسعود من اليمن قاصداً مصر من طريق مكة، وفي الطريق مرض مرضاً مزمناً، فوصل مكة وقد أُفلج، ويبست يداه ورجلاه[3]، وما لبث أن مات، فدفن في المعلى قرب مكة المكرمة[4].

ترك الملك المسعود ابناً يقال له صلاح الدين يوسف، مات في عهد عمه الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر آنذاك، ثم ولى ابنه موسى بن يوسف بن المسعود مصر إلى أن تخلص منه عز الدين أيبك زوج شجرة الدر[5].

حزن الملك الكامل على ولده المسعود، وتسلم مماليك ابنه وخزائنه، وأمواله، ولبس البياض لشدة حزنه، وكان المسعود قد استحلف نور الدين على بن رسول فتغلب عليها، وبعث إلى الملك الكامل عدة هدايا وقال "أنا نائب السلطنه على البلاد"[6]، فاستمر في ملك اليمن فيما بعد، فكان الملك المسعود آخر ملوك بني أيوب على بلاد اليمن[7].

(١) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ٤١/١.

(٢) المقريزي، السلوك، ٢٤٦/١.

(٣) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ١٢٠/٤.

(٤) ابن تغري بري، النجوم الزاهره، ٢٧٢/٦.

(٥) المقريزي، م.س، ٢٧٦/١.

(٦) م.ن، ٢٨٦.

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣٠/٥.

أبقى نور الدين بن رسول الخطبة والسكة للملك الكامل، ولكنه اتبع سياسة تتجه نحو دعم سلطته، فعزل الولاة الذين لا يثق بهم، وولى غيرهم، ثم أعلن استقلاله عن الأيوبيين عام ٦٢٨/١٢٣٠[١].

د- النزاع بين الملك الكامل وابن رسول على مكة:

بقيت الحجاز تابعة للملك الكامل، إلا أن نور الدين بن رسول تطلع إلى السيطرة على مكة، فأرسل عام ٦٢٩/١٢٣١ قوة بقيادة ابن عبدان مع الشريف راجح بن قتادة إلى الحجاز، فحاصرت والي مكة من قبل الملك الكامل الأمير شجاع الدين بن طغتكين الأيوبي[٢]، فانفض الأهالي عنه وانضموا إلى ابن قتادة، مع أن شجاع الدين أجزل لهم العطاء، فهرب الأخير إلى ينبع[٣]، وأرسل من هناك إلى الملك الكامل يعلمه بقدوم جيش اليمن إلى مكة، فأعد الملك الكامل جيشاً قوياً، وأمر عليه الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، وطلب من صاحب المدينة المنورة السير إلى مكة، فحاصروا جيش اليمن الذي يقوده ابن عبدان والشريف راجح بن قتادة وأعادوا فتح مكة، فأظهر شجاع الدين حقده على أهالي مكة، ونهب المدينة ثلاثة أيام، فغضب الملك الكامل عليه وعزله.

أساء شجاع الدين طغتكين معاملة أهالي مكة، فاستغل الشريف راجح بن قتادة ذلك، واتجه إلى مكة فاحتلها عام ٦٣٠/١٢٣٢، وأخرج المصريين منها، وسرعان ما أعد الملك الكامل قوة من الغز العربان بقيادة علاء الدين آق سنقر الزاهدي استطاع أن يعيد مكة، والحج بالناس[٤]، وما لبث أن غادرها إلى مصر بعد ما ولى عليها ابن محلي، وترك له مجموعة من العسكر لحماية البلاد.

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢٨٢/١.

(٢) م.ن، ٢٨٤/١.

(٣) م.ن، ٢٨٤/١.

(٤) م.ن، ٢٨٤/١.

حاول ابن رسول احتلال مكة مره أخرى عام ١٢٣٣/٦٣١، فبعث راجح بن قتاده على رأس جيش قوى، تمكن من إخراج المصريين من مكة[١]، غير أن العساكر المصرية بقيادة الأمير أسد الدين جغريل، طردت القوات اليمنية، ففر الشريف بن قتادة إلى اليمن، وما لبث أن حاولت العساكر اليمنية بقيادة شهاب بن عبدالله احتلال مكة مرة أخرى، ولكن جند الملك الكامل تصدوا لليمنين، وطردوهم من البلاد واسروا قائدهم في عام ١٢٣٥/٦٣٣[٢].

عاد عسكر اليمن إلى مكة عام ١٢٣٦/٦٣٤، فحارهم الأمير أسد الدين جغريل وكسرهم، فسارع الملك المنصور صاحب اليمن لدعم عسكره، وتمكن من طرد الجند الكاملي[٣]، إلا أن أمير المدينة طرد القوات اليمنية وملك مكة، غير أن أوضاع مكة لم تستقر، فقرر الملك الكامل إيفاد ألف فارس عام ١٣٢٧/٦٣٥ إلى مكة، وخصص مكافأة قدرها ألف دينار وكسوة لكل جندي يلتحق مع عساكر الملك الكامل في مكة، فاستجاب له عدد كبير من الجند[٤]، فاتفق راجح ابن قتاده مع السلطان نور الدين على مواجهة الملك الكامل، فالتقيا على الطريق الساحلي بجده[٥]، فانسحب الجند المصري، عندما علموا بوفاة الملك الكامل.

استمرت الحرب بين السلطان نور الدين والعسكر المصري في عهد الملك الصالح الأيوبي إلى عام ١٢٤٠/٦٣٨، حين استقرت مكة لصاحب اليمن .

ومما سبق، يتضح أن العلاقة كانت طيبة بين الكامل ونوابه في اليمن ومكة، إلا أنها أخذت طابع العداء عندما استقل نور الدين بن رسول باليمن عام ١٢٣١/٦٢٨،

---

(١) الخزرجي، العقود اللؤلؤيه، ٥٠/١.

(٢) المقريزي، م.س، ٢٨٧/١.

(٣) م.ن، ٢٩٦/١.

(٤) الخزرجي، م.س، ٦١/١.

(٥) م.ن.

وضرب السكة باسمه، وخطب له من على المنابر، فأضاف ذلك عبئاً كبيراً على سياسة الملك الكامل، وأخذ يرسل القوات تباعاً لإعادة مكة إلى حظيرة دولته.

ثالثاً: علاقة الملك الكامل مع الخوارزمية.

قامت الدولة الخوارزمية في إقليم خوارزم، ويرجع نسب أمرائها إلى مملوك تركي اسمه أنوشتكين الذي كان والياً على خوارزم في عهد السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، وتولى ابنه قطب الدين محمد بعد وفاة والده أنوشتكين، ولقب خوارزم شاه أي ملك خوارزم، وقد نجح ابنه علاء الدين في كسب ثقة السلطان سنجر السلجوقي، إلا أنه استطاع الاستقلال بمملكته عن الأخير بعد حروب طاحنة انتصر فيها على السلاجقة، وبذلك استقل اتسز بن قطب الدين محمد بن أنوشتكين في ولاية خوارزم عن السلطان السلجوقي سنجر عام ١١٤٣/٥٣٨، وأصبح يسمى خوارزم شاه، واعترف به الخليفة العباسي، وأرسل إليه الخلع والتشريفات[١]، وتابع خلفاء اتسز توسيع دولتهم، فشملت بخارى والري وخراسان[٢].

تطلع الخوارزميون للسيطرة على الخليفة العباسي، فطلب علاء محمد بن تكش الدين خوارزم شاه من الخليفة أن يذكر اسمه في الخطبة بدلا من السلاجقة عام ١٢١٦/٦١٣[٣]، ولكن الخليفة العباسي أبي، فزحف علاء الدين على بغداد، ولكنه تراجع لمواجهة الغزو المغولي لبلاده، وقدم الملك خوارزم شاه إلى همذان بقصد بغداد في ٤٠٠ ألف مقاتل عام ١٢١٧/٦١٤، فاستعد الخليفة الناصر لدين الله، وفرق المال والسلاح وأرسل إليه الشيخ شهاب الدين السهروردي في رسالة، فأهانه[٤]، وأوقفه إلى جانب تخته و لم يأذن له بالجلوس.

---

(١) نافع العبود، الدولة الخوارزمية، ١٦.

(٢) زامباور، تاريخ الدول الإسلامية، ٢/٢٧٣.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٩/٢٧٣.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم، ٦/٢١٩.

وحاول خوارزم شاه إقامة علاقة ودية مع الأيوبيين، أملاً في تكوين حلف لمواجهة المخاطر التي تتعرض لها بلاده، فأرسل عام ٦١٥/١٢١٨ مبعوثاً إلى الملك العادل، وهو في مرج الصفر(١).

أوفد الملك العادل سفارة إلى خوارزم شاه من خطيب جامع دمشق جمال الدين محمد الدولعي، وقاضي العسكر نجم الدين خليل بن علي الحنفي، ولكنهما لم يلتقياه لسفر خوارزم شاه إلى همذان، فاجتمعا بولده هلال الدين(٢)، وشاءت الظروف أن يموت الملك العادل عام ٦١٥/١٢١٨ قبل أن تتبلور العلاقة بين الدولتين.

أ- علاقة السلطان جلال الدين الخوارزمي والملك المعظم:

فرضت الظروف على الملك المعظم البحث عن حليف يدعمه لمعاندة أخويه الملكين الكامل والأشرف، فوجد ضالته في جلال الدين خوارزمشاه الذي كان في حاجة إلى حلفاء يدعمونه في تحقيق أهدافه، لمواجهة المغول، والسيطرة على الخلافة العباسية، فأرسل المعظم مبعوثاً إلى خوارزم بحجة استقدام بعض الطيور التي تأكل الجراد (تسمى السمرمر)، لمكافحة الجراد الذي غزا دمشق(٣)، لكي لا يثير شكوك أخويه بتقربه إلى السلطان جلال الدين(٤)، وكان قصده ترتيب لقاء مع الأخير(٥).

وعندما استولى خوارزم شاه على أذربيجان عام ٦٢٢/١٢٢٥، بعث رسولاً إلى ملوك الأيوبيين الكامل، والأشرف والمعظم لإقامة علاقات ودية معهم، ومن المحتمل أن تكون مهمة الرسول إحلال التفاهم بين الأشقاء الثلاثة، ليكونوا حلفاء له ضد المغول.

---

(١) مرج الصفر، بالضم وتشديد الصاد اسم مكان بدمشق، ياقوت، معجم البلدان، ٤٨٨/٤.

(٢) أبو شامة، ذيل الروضتين، ١٠٩.

(٣) سبط بن الجوزي، م.س، ٦٦٩/٨.

(٤) أبو شامه، م.س، ١٣١.

(٥) سبط بن الجوزي، م.س، ٦٦٩/٨.

أحسن الأشرف عطاء رسول خوارزم شاه[1]، واستغل الملك المعظم مبادرة جلال الدين الودية السابقة، فأرسل إليه وفداً يعرض عليه التحالف وصاحب اربل ضد أخيه الأشرف، فاستجاب خوارزم شاه لذلك، وخطب ابنة المعظم الكبرى لتعزيز التحالف واستمرار العلاقة الطيبة[2].

و لم يستجب المعظم لطلب جلال الدين الخوارزمي مهاجمة أراضي الخليفة العباسي[3]، ولكنه استمر في تحالفه والخوارزمي مع أن الخليفة أرسل إليه كتاباً يثنيه عن التعاون مع الخوارزميين، فقال "المصلحة رجوعك عن هذا الخارجي (يقصد جلال الدين) وتصلح بينك وبين أخويك"[4].

توجه السلطان جلال الدين خوارزم شاه إلى خلاط عام ١٢٢٦/٦٢٣، يريد انتزاعها من الملك الأشرف بتحريض من الملك المعظم[5]، فقاتل الأهالي قتالاً عنيفاً إلا أن جند خوارزم شاه دخلوا الربض، وأسروا الرجال وسبوا النساء، فثارت حمية الجند، والأهالي، وتمكنوا من إبعاد الخوارزميين عن المدينة، واستمر القتال إلى أن سقط الثلج، فانسحب المعتدون[6].

أدرك الأشرف خطورة أطماع الخوارزميين التوسعية في الجزيرة والشام ومصر بعد ما وصلته رسالة من ضياء بن الأثير جاء فيها "... هذا يوم ليس ليومه غد ينتظر، ولا يغيره ذخيرة تدخر، وهو الذي يبقى ذكره على وجه الدهر، فإما أن يكون مستطراً بالمرح، أو بالذم يستطر، وما ينبغي أن يظن بهذا العدو، أنه لن ينازل خلاط

---

(١) ابن النظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ١٢١.

(٢) سبط بن الجوزي، ذيل الروضتين، ٦٦٩/٨.

(٣) أبو شامه، م.س، ١٤٤.

(٤) ابو شامة، م.س، ١٤٧.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ٣٧٠/٩.

(٦) م.ن.

وحدها، ووقف عندها، وإنما هو سبيل إن لم يكف، وإلا جاشت بالشام غواربه، وفاضت على جوانب مصر جوانبه..."[1].

رأى الملك الأشرف مصالحة أخيه المعظم، فاتجه إليه، وتصالحا، وتوسط الأخير لدى السلطان الخوارزمي فرفع الحصار عن خلاط، واتجه إلى أذربيجان لمواجهة تهديد القبائل التركمانية هناك، فانتهز نائب الملك الأشرف في خلاط الحاجب حسام الدين علي الموصلي ذلك، وهاجم أذربيجان، واستولى على بعض المدن، والأموال[2]، ثم عاد إلى خلاط مصطحباً معه زوجة جلال الدين الخوارزمي بنت السلطان طغريل بك السلجوقي[3]، لأنها لمست سوء معاملة زوجها لها، وأرادت التخلص من هذا الظلم، فقيل له "بئس ما فعلت، إذ سيكون سبباً لهلاك العباد والبلاد[4]".

قصد السلطان جلال الدين الخوارزمي خلاط عام ١٢٢٨/٦٢٥ انتقاماً من غزوة حسام الدين اذربيجان، ولكنه لم ينجح في احتلالها، فانتشرت عساكره في المنطقة ينهبون، فأرسل الملك الأشرف بطلب النجدة من أخيه الملك الكامل[5] فبعث الأخير يطلب عساكر حلب وحمص وحماة، فاضطر الخوارزميون إلى الانسحاب لشدة المقاومة وسقوط الثلوج.

استنجد الملك الناصر داود بالسلطان جلال الدين الخوارزمي ١٢٢٩/٦٢٦ فقصد الأخير خلاط ثانية للحد من ضغط الملك الكامل على دمشق، وكان بها عز

---

(١)ضياء الدين بن الأثير، رسائل بن الأثير، ٢٩.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٠٨/٤.

(٣) ابن الأثير، م.س، ٣٧١.

(٤) أرسل الملك الأشرف مملوكه عز الدين أيبك الأشرف وقبض على الحاجب على الموصلي، وحبسه، ثم قتله، باتفاق بين الملكين الكامل والأشرف لذنب منه لم يعرفه إلا الملكين . (أبو الفدا، المختصر، ١٤٣/٣).

(٥) ابن النظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ١٧٣.

الدين أيبك الأشرفي مملوك الملك الأشرف، والملك المعز مجير الدين يعقوب بن الملك العادل[1].

اشتد الحصار على خلاط، واستمر عام ٦٢٧/١٢٣٠[2] ففتح بعض أمرائها أبواب المدينة[3]، فلما دخلها الخوارزميون أكثروا القتل، وسبوا الحريم واسترقوا الأولاد[4] وأسروا عز الدين أيبك، وقتلوه[5]، كذلك أسروا الملك المعز مجير الدين يعقوب، ولكنهم أطلقوا سراحه فيما بعد.

ب- تحالف الملك الكامل والسلاجقة الروم:

أثار العدوان المستمر على خلاط الملك الكامل، فأعاد ترتيب أوراقه، وتحالف وأخوه الملك الأشرف وعلاء الدين كيقباد سلطان السلاجقة الروم، جمع الملك الأشرف عساكر الشام، والجزيرة، وعسكر حمص، والجند الكاملي واجتمعوا بعساكر السلاجقة الروم، واتجهوا جميعاً لمواجهة عساكر سلطان خوارزم، ولما رأى الأخير هذه القوة الكبيرة حاول التصدي لهذا التحالف، ولكنه لم يستطع الصمود، وولى منهزما لا يلوى على شيء بعد قتال شديد، وهلك معظم عسكره قتلاً، وترديا من رؤوس الجبال التي كانت في طريقهم.

استرجع الملك الكامل خلاط ٦٢٧/١٢٣٠، وقد أصبحت خرابا[6]، وخسر جلال الدين الخوارزمي معظم عسكره، وامتلأت الأودية والجبال بجثثهم[7] وضعف جلال الدين بعدها، وقويت عليه التتر[8].

---

(١) انظر ملحق أبناء المالك العادل رقم ٧.

(٢)المقريزي، السلوك، ٢٧٦/١.

(٣)ابن النظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ١٨٦.

(٤)ابن الأثير، الكامل، ٣٨١/٩.

(٥)ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٩٧/٤.

(٦) ابن الأثير، الكامل، ٣٨١/٩.

(٧) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٦٦١/٨، أبو شامه، ذيل الروضتين، ١٥٩.

(٨) أبو الفداء، المختصر، ١٤٦/٣.

جـ- الصلح بين الكامل والخوارزميين:

اتفق الملك الكامل وأخوه الأشرف على الصلح مع الخوارزميين، وعندما عاد جلال الدين الخوارزمي إلى أذربيجان، ترددت الرسل بينه وبين الملك الأشرف، وسلطان الروم، وجاء في رسالة الأشرف نيابة عن الملك الكامل، "إن سلطانك سلطان الإسلام والمسلمين وسندهم، والحجاب دونهم ودون التتر، وغير خاف علينا ما تم على حوزة الإسلام، ... ونحن نعلم أن ضعفنا ضعف للإسلام، فهلا ترغب جمع الكلمة لنا وأحسن سبيلا، وأقوم فيه، ... وها أنا ضامن السلطان من جهة علاء الدين كيقباد، وأخي الملك الكامل ما يرضيه من الانجاد والإسعاد، والنيات على حالتي بالقرب والبعاد والقيام بما يزيل عارض الوحشة، ويمحو سمعة الفرقة"[1].

وما إن تم الصلح بين الجانبين حتى تعرض الخوارزميون لخطر التتر، فطلب جلال الدين المساعدة من الحكام المسلمين، ولكنهم لم يستجيبوا لطلبة، بل تركوه وحيداً أمام عدو جبار حتى لقى مصرعه على يد أحد الأكراد عام ٦٢٨/١٢٣١[2].

د- علاقة الكامل مع القبائل الخوارزمية بعد سقوط دولتهم:

هامت جموع الخوارزميين بعد احتلال التتر لبلادهم في كثير من البلدان، ولم يعد في ميسورهم العودة، فأخذوا يعرضون خدماتهم على حكام المسلمين[3]، فاستخدم الخليفة المستنصر بالله قسما منهم، وخدم قسم آخر لدى سلطان السلاجقة الروم[4] إلا أنهم استاءوا منه وفارقوه، واستقروا في الجزيرة حول الرها وحران، فاستمالهم الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل[5] واستاذن والده في استخدامهم فأذن له بذلك، وتقوى بهم وسر الملك الكامل بذلك[6].

---

(١) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين، ٣٣٣.

(٢) سبط ابن الجوري، م.س، ٦٦٩/٨.

(٣) المقريزي، السلوك، ٢٤٨/١.

(٤) سبط بن الجوزي، م.س، ٦٧٠/٨، الحموي، التاريخ المنصوري، ٢٥١.

(٥) م.ن.

(٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٧٧/٦.

اختلف الخوارزميون على الملك الصالح أيوب عام ١٢٣٧/٦٣٥، وأرادوا القبض عليه فهرب إلى سنجار، وترك أثقاله، وخزائنه، فنهبوا كل ما يملك، فقدم إليه بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل للقبض عليه، لأنه كان على عداء مع الملك الكامل.

حاول الملك الصالح نجم الدين أيوب الصلح مع بدر الدين لؤلؤ ونسيان الماضي، ولكن الأخير قال (لا بد من حمل الصالح بن الكامل في قفص)، فاستنجد الصالح بالخوارزمية ثانية، وكانوا في حران، فساقوا جريدة منها، وكبسوا لؤلؤا ونهبوا أمواله، وخزائنه، وكل ما كان في عسكره[1].

وهكذا عاد الخوارزميون لخدمة الملك الصالح نجم الدين، فأحسن الاستفادة منهم، وتمكن من احتلال سنجار وخابور ونصيبين[2] وعندما علم الملك الكامل بذلك سر بما حقق ابنه.

هـ- علاقة الملك الكامل والتتر:

استطاع التتر القضاء على الدولة الخوارزمية عام ١٢٣١/٦٢٨، وأصبحوا مصدر خطر على أراضي الدولة الأيوبية الشرقية التي امتلكها الملك الكامل عام ١٢٢٩/٦٢٦، ولذلك أخذ الأخير يراقب التتر خوفا على ممتلكاته، ولكنه لم يحدث تماس مباشر بين الطرفين.

تحرك التتر عام ١٢٣١/٦٢٨ إلى بلاد الشام[3]، ووصلوا إلى أربل، وقتلوا عدداً كبيراً من المسلمين[4]، ثم اتجهوا إلى خلاط فاحتلوها بعد عام، فخرج الملك الكامل لمواجهتهم، ونزل سلمية واستقبل رسل ملوك الأطراف عز الدين بقرا، وفخر الدين

---

(١) م.ن ١٩٩/٦، أبو الفدا، المختصر، ١١٧/٣.

(٢) المقريزي، السلوك، ٢٩٩/١.

(٣) خرج التتار إلى بلاد الإسلام، فاستولوا عام ١٢٢٠/٦١٧ على أراض إسلامية، وبعض من خوارزم منها سمرقند وخراسان وطوس، وأخيراً تمكنوا من هزيمة جلال الدين خوارزم شاه عام ١٢٣١/٦٢٨، وتغلبوا على بلاده، وبدأوا يغيرون على العراق.

(٤) المقريزي، السلوك، ٢٨٠/١.

بن الدمغاني رسول الخليفة المستنصر بالله، وألبسه خلعة السلطنة، ورسول السلطان الخوارزمي[1]، ورسول الهند[2]،ورسل حمص وحماه وشيزر والفرنج وصاحب الأندلس (غرناطة)، وقدم عليه بهاء الدين اليزدي[3]، وجماعة يحثونه على الغزو ومواجهة التتر، "ولم يحدث أن اجتمع عند ملك مثل هذا العدد من الرسل في يوم" كما ذكر المقريزي[4].

استنجد الخليفة المستنصِر بالله بالملك الكامل، وأرسل إليه عدة رسل عندما وصل التتر إقليم أرمينيه، وخلاط، إذ خشي الخليفة أن تمتد غزوات التتر إلى بغداد بعد أن وصلت إلى العراق الأعلى، غير أن التتر انسحبوا عندما تقدم الملك الكامل مع المسلمين باتجاه خلاط، ولم يحدث تماس بين الطرفين.

وبينما كان الكامل في دنيسر في البلاد الشرقية، وصله كتاب من بدر الدين لؤلؤ ٦٣٣/١٢٣٥ يقول فيه "قطع التتر دجلة في مائة طلب كل طلب خمسمائة فارس، ووصلوا إلى سنجار"، فخرج إليهم معين الدين بن كمال الدين بن مهاجر، فقتلوه على سنجار، ثم رجع التتر، وتوجهوا إلى الشرق[5].

عاد التتر عام ٦٣٤/١٢٣٦ الغارة على الأراضي الإسلامية، فاستولوا على إربل، وقتلوا كل من فيها[6]، ونهبوها ثم رحلوا، وقدم رسل الخليفة العباسي في العام

---

(١) تولى السلطان براق بعد جلال الدين خوارزم شاه، واستقل بكرمان، واعترف به سلطان بولايته عليها.

(٢) كانت تابعة للدولة الغوريه، ويتولى سلطانها عز الدين محمد الغوري.

(٣) شيخ رباط الخلاطيه في بغداد.

(٤) المقريزي، م.س، ٢٥٢/١.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٩٣/٦.

(٦) ذكر ابن تغري بردي، م.س، ٢٩٦/٦.

"نزلت التتر على إربل وحاصرتها مدة حتى أخذوها عنوةً، وقتلوا كل من فيها وسبوا وفضحوا البنات، وصارت الآبار والدُّور قبوراً للناس. وكان أَيْدِكين مملوك الخليفة بالقلعة فقاتلهم، فنقبوا القلعة وجعلوا لها سِرْداباً وطُرقا، وقلت عندهم المياه حتى مات بعضهم عطشاً، فلم يبق سوى أخذها، فرحلوا عنها في ذي الحجة، وقد عجزوا عن حمل ما أخذوا من الأموال والغنائم".

التالي بمال إلى الملك الكامل ليستخدم به عسكراً للخليفة، إذ بلغ الأخـــير أن التـتر توجهوا إلى بغداد.

رابعاً: علاقة الملك الكامل مع سلاجقة الروم.

ظهرت دولة سلاجقة الروم في آسية الصغرى إثر انتصار السلطان ألب أرسلان السلجوقي على الامبراطور البيزنطي رومـــانوس[١] عـــام ١٠٧٢/٤٦٣ في معركـة ملاذكرد في آسية الصغرى، ويعد السلطان قتلميش[٢] أول ســـلطان لهـا، وتتـابع السلاطين في الحكم إلى أن تولى علاء الدين كيقباد بعد وفاة أخيه كيكـاوس بـــن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان عام ١٢١٨/٦١٥[٣].

حرص السلطان علاء الدين على إقامة علاقة ودية مع الملوك الأيوبيين، ووقف الأعمال العدوانية التي كانت في عهد أخيه على بلاد الشام بموافقة صـــاحب آمـد، وبالتعاون مع الملك الأفضل على بن صلاح الدين قبيل وفاته[٤].

قدم رسول السلطان علاء الدين بهدية لكل من الملك المعظم والملك الكـــامل، فلم يقبل الملك المعظم هذه التقدمة، وتابع الرسول سيره إلى مصر لمقابلة الملك الكـامل حيث استقبله بجفاوة[٥]، ويعتقد أن رفض الملك المعظم لهديـة عــلاء الدين كيقبـاد كان سببها العلاقة الطيبة بين جلال الدين الخوارزمي والمعظم، فيما كـــانت علاقـة الخوارزمي بعلاء الدين سيئة.

---

(١)تعهد رومانوس بعد هزيمته بدفع الجزية للسلاجقة. ابن الأثير، الكامل، ٢٩٧/٨.

(٢) يدعي السلاجقة أنهم من سلالة ملكية يرجع نسبها إلى سلجوق بن دقاق أحد الأمراء التركمان، تاسست دولة السلاجقة في آسيا الصغرى، وأصبحت مملكة كيقباد الأول الذي تولى السلطة بعـد وفـاة كيكـاوس سلطان سلاجقة الروم عام ١٢١٨/٦١٥ تشمل قونيه وملطيه وسيواس وأقصرا وغيرها (حسنين عبدالمنعـم، سلاجقة إيران والعراق، ص ٥٥).

(٣) المقريزي، السلوك، ٢٥٢.

(٤) ابن النظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ١٢١.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ٣٠/٤.

وكان قد احتل الملك عز الدين كيكاوس السلجوقي سلطان الروم تل باشر، ووصل إلى منبج نكاية بالملك الكامل، وباتفاق مع الملك الأفضل، على أمل أن تسلم هذه الأراضي إلى الملك الأخير، إلا أن كيكاوس نكث بالاتفاق وسلم ما فتحه لنوابه، فتقاعس عنه كثير من الناس، وأوقع العرب بطائفة من عسكره، وقتلوا قسماً منهم، فعاد إلى بلاده.

تحسنت علاقة الملك الكامل مع سلاجقة الروم بعد وفاة الملك الأفضل، إلا أنها ركدت بعد ذلك بقليل حين انشغل سلاجقة الروم في حرب أهلية بين أفراد الأسرة الحاكمة[1]، وانشغال الملك الكامل في مواجهة الملك المعظم ثم ابنه الناصر داود.

أ- دعم الملك الكامل للسلاجقة الروم:

علم الملك السلجوقي علاء الدين كيقباد بالإتفاق الذي تم بين جلال الدين الخوارزمي وصاحب ارزن[2] الرومي على حصار خلاط، فخاف ملك السلاجقة على بلاده، وأرسل يطلب العون من الملك الكامل والملك الأشرف حيث كانا بحران[3] يتدبران وسيلة لمواجهة خوارزم شاه الذي يحاصر مدينة خلاط عام ٦٢٧/١٢٣٠، قدم رسول السلطان السلجوقي وقال له "إنه جهز ٢٥ ألف لأذربيجان[4] وعشرة آلاف إلى ملطيه، وأنا حيث تأمر"[5] فطاب قلب السلطان الكامل.

أرسل الملك الكامل لأخيه الأشرف عام ٦٢٨/١٢٣٠ فحضر ومعه عساكر الشام والجزيرة، وسار بنفسه إلى سيواس[6]، واجتمع بالسلطان علاء الدين كيقباد، فاتجها إلى خلاط[1] وسرعان ما انهزم خوارزم شاه[2] ورحل إلى أذربيجان.

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢٢٥/١.

(٢) صاحب أرزن هو ابن عم السلطان علاء الدين كيقباد، وأرزن مدينه في ارمينيا، (ابن واصل ،مفرج الكروب، ٢٩٨/٤)

(٣) حران مدينة في الجزيرة.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ٣٨١/٩.

(٥)المقريزي، السلوك، ٢٧٧/١.

(٦)سيواس، حاضرة دولة سلاجقة الروم.

تابع السلطان السلجوقي علاء الدين الهجوم على أرزن فاحتلها، واسر صاحبها واستولى على خزائنها[3]، تنكر السلطان السلجوقي لاتفاقه مع الملك الكامل، وانخدع بالانتصار الذي حققه على الخوارزميين بمساعدة العساكر الأيوبيين، فحاول عام ١٢٣٣/٦٣١ التوجه إلى خلاط للإستيلاء عليها[4]، وعندما علم الكامل بما يخطط له علاء الدين قرر وقفه عند حده، وكان قد عاد إلى مصر عام ١٢٣٢/٦٣٠.

ب- الاتفاق بين الملك الكامل والملك الأشرف:

اتفق الملك الكامل مع الملك الأشرف على الحد من أطماع سلطان سلاجقة الروم، ومحاولة انتزاع بعض أراضي دولته عقاباً له[5].

خرج الملك الكامل من القاهرة بعسكره، واستناب بها ابنه الملك العادل أبا بكر، فوصل دمشق، وكتب إلى ملوك بني أيوب يأمرهم بالتجهز للسير بعساكرهم إلى بلاد الروم، ولما سمع الملوك الأيوبيون بالخطر الذي يتهددهم انضموا إلى الجيش المتجه إلى أراضي السلاجقة[6] "ولم يجتمع مثلهم لملك قبل الملك الكامل"[7].

اتجه الملك الكامل من دمشق إلى السلمية عام ١٢٣/٦٣١[8] ومنها إلى حلب، فمنبج[9]، رتب الملك الكامل عساكره، عندما وصل البيرة واستعرض أسلحتهم، واتجهت هذه القوات نحو الدربند[10]، فوجدوا الروم قد حفظوا الدربند، ووقفوا على

---

(١)ابن واصل ، مفرج الكروب، ٢٩٩/٤.

(٢)ابن الأثير، م.س.

(٣) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٦٦١/٨، أبو الفدا، المختصر، ١٤٦/٧.

(٤) ابن واصل، م.س، ٧٤/٥.

(٥) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٦٨٤.

(٦) المقريزي، السلوك، ٢٨٧/١.

(٧) ابن اصل، مفرج الكروب، ٧٤/٥.

(٨) م.ن.

(٩) منبج إلى المشرق من حلب، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢٠٦/٥، انظر خريطة في الملحق رقم ٢.

(١٠) الدربند: بلدة تقع على الشاطئ الغربي لبحر قزوين شمال باكو، القلقشندي، صبح الأعشى، ٣٦٤/٤.

علاء الدين السلجوقي في حفظ طرقاته بالمقاتلين، ونزل الملك الكامل على النهر الأزرق[1] في حدود بلد الروم[2]، بينما عسكر الجنود السلاجقة بين النهر والدربند، حيث بنوا سوراً يمنع العساكر من الصعود، ويقاتلون من أعلاه فقلت الأطعمة لدى عسكر الملك الكامل[3].

عانى الجنود الأيوبيون من صعوبة الطرق، ووعورة المنطقة وعدم قدرتهم على القتال في هذه البيئة الجديدة عليهم، وازداد من ضعف قوات الملك الكامل تفرق كلمة الملوك الأيوبيين، وشكهم في نيات الملك الكامل بامتلاك بلا الشام، فاتفقوا على عدم القتال.

شعر الملك الكامل بالخطر المحدق به، وانسحب إلى السويداء، وأثناء ذلك قدم إليه صاحب إمارة خرتبرت الأرتقي، وعرض عليه اختراق الحدود السلجوقية من جهة بلاده، فاستحسن الملك الكامل هذه الفكرة، وتقدم صوب آمد، وأمر الملك المظفر والأمير شمس الدين صواب العادلي بمهاجمة بلاد الروم من خرتبرت، فالتقى بعسكر السلطان علاء الدين كيقباد، ودارت معركة حامية، ولكن جيش الملك الكامل مُني بالهزيمة[4]، وتمكن جيش سلاجقة الروم من أسر الملك المظفر، ومعظم عسكر الملك الكامل، واحتلال خرتبرت[5] وست قلاع، فتألم الملك الكامل لهذه الهزيمة، وعاد إلى آمد، وأثناء وجوده في هذه المدينة أطلق الروم أمراء الجيش الكاملي الأسرى بعدما أحسنوا إليهم.

---

(١) النهر الأزرق أحد نهيرات الفرات الأعلى، ياقوت الحموي، م.س، ٨٣/٤.

(٢) أبو الفدا، المختصر، ١٥٤/٣.

(٣) المقريزي، م.س، ٢٨٨/١.

(٤) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٦٨٤/٨.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ٧٨/٥.

أدرك الملك الكامل عقم الاستمرار في حربه مع سلاجقة الروم، فعرض الصلح على سلطان الروم، فاستجاب الأخير لذلك، وأحسن معاملة المظفر وأطلق سراحه[1] واحتفظ بخرتبرت، ومنح صاحبها اقطاعاً في بلاد الروم بدلاً منها[2].

عاد الملك الكامل إلى مصر، عام ١٢٣٤/٦٣٢، وقد ازداد خلافه مع أخيه الملك الأشرف، استغل السلطان الرومي اختلاف الأيوبيين، وانفراط وحدتهم، فأخذ يتوسع في الأراضي الأيوبية، فاحتل حران والرها وسروج في عام ١٢٣٤/٦٣٢[3].

جـ- توسع الملك الكامل في الشرق:

علم الملك الكامل بعدم التزام السلطان علاء الدين للاتفاق الذي عقده معه، فلم يطق لذلك صبرا، وحشد قواته، وانطلق بعساكره من مصر عام ١٢٣٥/٦٣٣، مصطحبا الملك الأشرف والملك المجاهد، والملك المظفر، فعبروا نهر الفرات إلى الشرق، فنازل الرها حتى أخذها، وأسر منها الكثير من الأمراء، وهدم قلعتها، ثم هاجم حران، واستولى عليها، وأسر كل عساكر السلطان علاء الدين الموجودين هناك[4]، وكذلك امراءهم ومقدميهم، ثم استرجع سروج من يد السلطان السلجوقي، وانطلق الملك الكامل نحو دنيسر* فخربها، وسلم البلاد الشرقية لابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب[5].

تابع الملك الكامل توسعه، فامتلك قلعة السويداء** عنوة، واسر من بها، ونقل جميع الأسرى إلى مصر، وبعث نواب السلطان كيقباد مقيدين إلى القاهرة، فاستقبح

---

(١) م.ن.

(٢) م.ن.

(٣) م.ن، أبو الفدا، المختصر، ١٥٧/٣.

(٤)ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٩٣/٦.

* الدنيسر: بلدة من نواحي الجزيرة تبعد عن ماردين فرسخين ياقوت، معجم البلدان، ٦١٢/٢.

(٥) المقريزي، السلوك، ٢٩١/١.

** السويداء: بلدة قرب حران، ياقوت، م.س، ١٩٧/٣.

الأخير ذلك منه[1]، ثم سافر إلى دمشق فقضى بعض الوقت ضيفاً عند أخيه الأشرف، وأخيراً عاد إلى مصر، فاستقبل هناك رسول الخليفة محي الدين يوسف بن الجوزي، فأرسله الملك الكامل ومعه الحافظ زكي الدين عبدالمنعم إلى السلطان علاء الدين كيقباد صاحب الروم، ولكن الأخير توفي قبل اجتماعه برسول الملك الكامل[2].

تولى غياث الدين كيخسرو بن علاء الدين السلطنة عام ٦٣٤/١٢٣٦، فبعث إليه ملوك الشام رسلهم يعزونه في ابيه، ويحلفونه على ما اتفقوا عليه مع والده على مخالفة الملك الكامل[3]، فوافق، وأكد استمراره على سياسة والده، وأرسل الملك الكامل بعثة على رأسها أفضل الدين محمد الخونجي تعزي السلطان السلجوقي غياث الدين بوالده، ومعه هدية له[4]، غير أن الأخير استمر في تحالفه مع الملوك الأيوبيين، لذلك سمح الملك الكامل لابنه الملك الصالح نجم الدين باستخدام الخوارزميين الذين خرجوا على السلطان السلجوقي، لمواجهة عداء الأخير، بل إنه تمكن من احتلال سنجار ونصيبين والخابور لهم .

و لم يقف العداء السلجوقي للملك الكامل، واستمروا في الاعتداء على الحدود، وتمادوا في عدائهم عندما تدخلوا في شؤون الأيوبيين الداخلية، فدعموا الملك الصالح إسماعيل عام ٦٣٥/١٢٣٧ لدى مهاجمة الكامل دمشق لانتزاعها، وقد أدى ذلك إلى خلافات داخلية في البيت السلجوقي، فضعفت دولتهم، وتعرضت لهجمات المغول المستمرة إلى أن استولوا عليها[5].

---

(١) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢/٢٤٠.

(٢) أبو الفدا، المختصر، ٣/١٥٩، المقريزي، م.س، ١/١٩٥.

(٣) أبو الفدا، م.س، ١٦٠

(٤) المقريزي، السلوك، ١/٢٩٥.

(٥) أحمد كمال الدين، السلاجقة في التاريخ، ٩١.

خامساً: علاقة الملك الكامل مع الأراتقة[1].

كان صلاح الدين قد نجح في عقد صلح مع أمراء ماردين، وحصن كيفا، ومنطقة الجزيرة عام ١١٧٦/٥٧٢، واتفقوا على أن يكونوا يداً واحدة على من يعاديهم[2]، وما إن توفي صلاح الدين حتى حاول صاحب ماردين الإطاحة بالنفوذ الأيوبي، إلا أن نائب إمارة ماردين حسام الدين أرسلان اتصل سراً بالملك العادل، واستدعاه ليسلم إليه ماردين مقابل تعويضه عنها، ولما وصل الملك العادل ماردين لم يلتزم له حسام الدين ما وعد.

طلب الملك العادل نجدة عام ١١٩٧/٥٩٤، فوصلت عساكر مصر[3]، وحاصر ماردين مدة طويلة، إلا أنه اتجه إلى مصر لدى سماعه نبأ وفاة الملك العزيز صاحب مصر، وترك ابنه الملك الكامل على حصارها[4]، ولكن الأخير انسحب فيما بعد، واستمرت العلاقة العدائية بين الملك العادل وماردين إلى عام ١٢٠٢/٥٩٩ حين فكر الأخير بالسيطرة عليها، فأرسل ابنه الملك الأشرف لمهاجمتها، ولكن الفريقين اتفقا على وقف القتال على أن:

- يدفع صاحب ماردين مبلغ ١٥٠ألف دينار سنوياً للملك العادل.
- يخطب للملك العادل من على المنابر، وتضرب النقود باسمه[5].

---

(١) أسس أرتق بن سقمان الدولة الأرتقيه في القرن السادس الهجري، وتوسعت الدولة فشملت ماردين وحصن كيفا وآمد وخرتبرت (زاباور، تاريخ الدول الإسلامية، ترجمة أحمد السعيد سليمان، القاهرة، ١٩٧٢، ٣٥٠/٢).

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٢٥٠/٢.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ٨٠/٣.

(٤) أبو شامه، الروضتين، ٣٥/٢.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ٢٥٩/٩.

أ- العلاقات بين الكامل والأراتقه عام ١٢٢٩/٦٢٧:

استمرت العلاقات بين الملك الكامل والإمارات على ما كانت ، وذلك ببقاء العلاقة الودية مع صاحب آمد وحصن كيفا، فيما كانت العلاقات مع ماردين ضعيفة، إذ اكتسب صاحب آمد ناصر الدين أرسلان ثقة الملك الأشرف بسبب ما قدم له من خدمات[1] أما ماردين فقد كانت تناصب العداء الكامن للملك الكامل بسبب محاصرته لها فيما مضى، لذلك أصبحت ملجأ لمن يعادي الأيوبيين، فلجأ إليها الأمير مبارز الدين الصلاحي ١٢٢١/٦١٨[2]، ومع هذا لعبت المصالح الشخصية والمنافع الأقليمية دوراً كبيراً في تغيير هذه السياسة، فقد حاولت أمارتا حصن كيفا وماردين إضعاف الوجود الأيوبي في الشرق، فأعانتا شهاب الدين غازي بن الملك العادل لدى تمرده على أخيه الملك الأشرف، كذلك اتصل هذان الأميران بجلال الدين خوارزم شاه، وأعلنا طاعتهما له[3]، فهاجم الملك الأشرف ماردين وضربها بالمجانيق[4] وضيق الخناق على أهلها، ومنع دخول الطعام إليها، فطلب صاحبها الصلح.

ب- الكامل يزحف على المنطقة الشرقية عام ١٢٣١/٦٢٩:

بدأ الملك الكامل علاقات جديدة مع الأراتقة بعد عام ١٢٣٠/٦٢٧، إذ امتلك الشرق من أخيه، فأصبح اتصاله بأمراء الأراتقه مباشرا وفعالاً بعد ما كان هامشياً وثانوياً فاتجه الكامل إلى الشرق، وولى كمال الدين بن شيخ الشيوخ نائباً له بالجزيرة المتمثلة بحران والرقة وسروج ورأس العين[5]، وتمكن الملك الكامل من

---

(١) أبو شامه، ذيل الروضتين، ١٣٤، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٦٢٧/٨.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ٩٣/١٣.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٣٦٧/٩.

(٤) م.ن.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٣٣/٦.

فرض سيطرته على هذه المنطقة، فأعلن أصحابها ولاءهم له، فقامت إمـارة مـاردين بالخطبة له، وضربت السكة باسمه[1]، وبذلك اتسع نفوذ الملك الكامل.

جـ- سيطرة الملك الكامل على إمارة حصن كيفا وآمد:

استأذن الملك الكامل الخليفة العباسي المستنصر بـالله عـام ٦٢٩/١٢٣١ في مهاجمة آمد، وانتزاعها من الملك المسعود ركن الدين مودود الأرتقي، فأذن له الخليفـة بذلك[2]، وقد تجمعت عدة أسباب جعلت الملك الكامل يهاجم هذه الإمارة منها:

- كان الملك المسعود ظالما يسعى لإشباع شهواته، وسيء السمعة يتعـرض لحريم الناس، وكانت له عجوز قواده تؤلف بينه وبين نساء أكابر النـاس والملوك والأمراء[3]، وقيل إنه وجد في قصره ٥٠٠ فتاة من بنات النـاس للفراش[4].
- خرج الملك المسعود على طاعة الملك الكامل، وانتمى إلى جـلال الديـن خوارزم شاه، وخطب له في بلاده آمد[5].
- أساء الملك المسعود إلى زوجة أبيه إساءة كبيرة (وهي ابنة الملك العـادل[6] وأخت الملك الكامل)، فخرجت من عنده، وقصدت أخاها الملك المظفـر شهاب الدين غازي في ميافارقين وشكت إليه أمرها، فكتب الأخـير إلى أخويه الملك الكامل والملك الأشرف بذلك.
- رغبة الملك الكامل في توسيع نفوذه لمواجهة خطر التتر[7].

---

(١) ابن النظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ١٨١.
(٢) عماد الدين، الإمارات الأرتقيه في الجزيرةوالشام، ١٨٣.
(٣) أبو الفدا، المختصر، ١٥٢/٣.
(٤) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٦٦٧/٨.
(٥) كانت آمد في الأصل تابعة للايوبيين، فمنحها صلاح الدين للأراتقة عام ١١٨٤/٥٨٠ هدية منه لأمير حصن كيفا، عماد الدين خليل م.س، ١٨٣.
(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ٩٣/١٣.
(٧) عماد الدين خليل، م.س، ١٨٣.

اجتاز الملك الكامل والأشرف نهر الفرات ونزلا على آمد عام ١٢٣٢/٦٢٩، وضربا عليها الحصار ونصبا المجانيق[١]، فبعث الملك المسعود الأرتقي إلى الملك الكامل يستعطفه، ويبذل له ولأخيه الأشرف فرفض الاستجابة له[٢].

جد الملك الكامل في حصار آمد، ومنع عنها الطعام، فضعفت المقاومة، وعندئذ أحس الملك المسعود الأرتقي بأنه لا مفر له من تسليم آمد، لا سيما بعد ما وجد أن الأهالي يؤيدون الملك الكامل ويكرهون حكمه، فقرر التسليم[٣].

تسلم الملك الكامل آمد وجميع قلاعها وحصونها ما عدا حصن كيفا[٤]، إلا أن الملك الكامل أجبر الملك المسعود على الإيعاز لعساكره بتسليم الحصن في عام ١٢٣٢/٦٣٠[٥] ورتب نوابه في آمد، فولى شمس الملوك سيف الإسلام بن الملك الأعز شرف الدين بن صلاح الدين، إلا أن الأخير توفى بعد أسبوعين تقريباً[٦]، فعين شهاب الدين غازي، وأشرك معه شمس الدين صواب العادلي، وعندما علم الكامل أن شهاب الدين غازي اتفق مع سلطان الروم على تسليم آمد عزله، وأمر بحبسه[٧]، ثم ولى الملك الكامل ابنه الملك الصالح نجم الدين ووضع معه شمس الدين العادلي إلى سنة ١٢٣٥/٦٣٣، عام وفاة الأخير حيث استقل الملك الصالح بحكم البلاد الشرقية[٨].

رحل الملك المسعود الأرتقي إلى مصر، فأقام هناك، وأعطاه الملك الكامل إقطاعاً، إلا أنه تآمر على حياة الملك الكامل وكاتب الروم في هلاك الملك الكامل[٩]

---

(١) سبط بن الجوزي، م.س، ٦٧٥/٨.

(٢) المقريزي، السلوك، ٢٤٣/١.

(٣) سبط ابن الجوزي، ٦٧٥/٨، ابن واصل، مفرج الكروب، ١٧/٥.

(٤) ابن تغري ، النجوم الزاهرة، ٢٧٩،٦.

(٥) ابن شداد، الإعلاق الخطيرة، قسم الجزيرة، ج٣/ق ٢ /٥٢١.

(٦) م.ن.

(٧) م.ن.

(٨) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢٢٦/٢.

(٩) ابن تغري بردي، م.س، ٢٨١/٦.

فاعتقل وبقي في السجن إلى أن توفي الملك الكامل، فأطلق الملك العادل بن الكـــامل سراحه، ولكن المغول قتلوه وهو في طريقه إلى الشرق[١].

د- تحالف صاحب ماردين والسلاجقة:

وقف صاحب ماردين من الملك الكامل موقفا عدائياً بعـــد ســقوط آمــد وحصن كيفا، إذ استغل ضعف الملك الصالح نجم الدين أيوب نائب الملك الكـــامل في المنطقة الشرقية فقد كان صبياً تعوزه القوة والدراية والخبرة، فبادر صاحب ماردين إلى التحالف مع كيقباد سلطان سلاجقة الروم، وقاما بهجوم شديد على حران والرهـــا والرقه[٢] واستولوا عليها عام ١٢٣٦/٦٣٤، وقد ذكرت سابقا أن الملـــك الكـــامل اضطر لمهاجمة الأراضي السلجوقية لعدم التزام صاحبها الاتفاق المبرم بينـــهما، أمـــا صاحب خرتبرت الارتقية فقد وقف إلى جانب الكـــامل في حربـــه مـــع ســـلاجقة الروم[٣]، واستمر عداء ماردين للأيوبيين بعد وفاة الملك الكامل.

لقد وضحت في **الباب الثاني سياسة الملك الكامل الداخلية**، الأمنية وعلاقاتـــه مع الممالك الأيوبية والإسلامية على أساس أن هذه الممالك تشكل وحـــدة واحـــدة ترتبط بالخلافة العباسية.

أولى الملك الكامل كل اهتمامه لشؤون البلاد الداخلية فحرص علـــى حفـــظ الأمن الداخلي، ووقف بحزم أمام كل مَنْ حاول تعكيره، ووقف بعناد أمام العربـــان الذين حاولوا إفساد الطرق والتعرض للمسافرين، وضرب بقـــوة الذين اتخذوا مـــن وفاة ابن الخليفة الفاطمي العاضد وسيلة للخروج عليه، و لم يتوان في دعم الكنيســـة القبطية ومساعدة أبنائها لاختيار الأنبا الذي يرغبون في تولي شؤون الكنيسة.

---

(١) أبو الفدا، المختصر، ١٥٢/٣.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤٥/١٣.

(٣) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٦٧٧/٨.

وحرص الملك الكامل على مراقبة الدواوين، وضمان سيرها الصحيح، والمحافظة على أموال الدولة، معتمدا على عدد من العاملين الذين وثق بهم، ولا سيما أولاد شيخ الشيوخ، وحاول الملك الكامل نشر التعليم وبناء المدارس، وزيادة الرقعة الزراعية ببناء الفتوات والجسور، رائده في ذلك تحسين حياة السكان، غير أن هذه المحاولات كانت كثيراً ما تصطدم بالهجمات الصليبية على البلاد، وبعض المعوقات من اللصوص وقطاع الطرق والفساد في الدواوين، ولذلك لم يتوان الملك الكامل بمعاقبة الذين أساءوا الأمانة أثناء عملهم في الدواوين، إذ كان القضاء عادلاً وفيه شيء من القسوة.

اكتسب الملك الكامل ثقة والده الملك العادل واحترامه، فقدمه على أخوانه، واعتمد عليه في كثير من المواقف الحاسمة، فولاه في بادئ الأمر المنطقة الشرقية ثم نقله إلى مصر، وعندما توفي الملك العادل أصبح الملك الكامل عميد الأيوبيين، وصاحب النفوذ عليهم، يدعون له في الخطبة، ويضربون اسمه على السكة، ويستشيرونه في أمورهم، ويتعاونون معه في الملمات، فدعموه في مواجهة الخطر الصليبي على دمياط، وقدموا إلى مصر بعساكرهم، واستمرت هذه العلاقة الطيبة بين الملك الكامل والملوك الأيوبيين بضع سنوات، وما لبث أن دب الخلاف بين الملك الكامل وأخيه المعظم، ووقف معظم الأيوبيين إلى جانب الملك الكامل، فانتزع الأخير دمشق ومنحها لأخيه الأشرف.

حاول الملك الكامل تعزيز علاقاته الطيبة مع الممالك الأيوبية، فزوج بناته الثلاث إلى أصحاب حماه، وحلب والكرك، فوقف الجميع وقفة واحدة أمام أطماع السلطان السلجوقي عام ٦٣٠/١٢٣٣، غير أن الملوك الأيوبيين توحشوا من الملك الكامل وقويت هذه الخلافات، ولا سيما بين الملك الكامل وأخيه الأشرف، وكان ابتداؤها ما فعله شيركوه صاحب حمص لما قصد الكامل بلاد الروم، فاتفق الأشرف مع صاحبة حلب صفية خاتون أخت الملك الكامل، ومع باقي الملوك على خلاف الملك الكامل خلا الملك المظفر صاحب حماة، فلما امتنع هدده الأشرف بقصد بلاده

وانتزاعها منه، فقدم خوفا إلى دمشق، وحلف للملك الأشرف ووافقه على قتال الكامل.

ويذكر بعض الملوك أنهم كشفوا أطماع الملك الكامل في امتلاك بلاد الشام، واستمرت هذه الخلافات إلى أن ملك الأخير دمشق في عام ١٢٣٧/٦٣٥، فاستطاع الخليفة المستنصر بالله أن يحتوي هذا الخلاف بعض الوقت، وعلى الرغم من الخلافات التي كانت موجودة بين الملك الكامل والملوك الأيوبيين، فلم يكونوا يجرؤون ولا سيما الموالون له على ضم أية مملكة إلى مناطق نفوذهم إلا بإذنه، فقد استأذن الملك العزيز بن الظاهر صاحب حلب بانتزاع شيزر[١] من صاحبها عام ١٢٣٢/٦٣٠[٢]، فوافق الملك الكامل على ذلك، وأرسل الحجارين، ومعهم خمسة آلاف دينار ليستعين بها الملك العزيز[٣]، وساعده في حصارها الملك المظفر صاحب حماة[٤]، وكان الملك الأشرف قد اتجه عام ١٢٢٨/٦٢٦ نحو بعلبك[٥]، وانتزعها من صاحبها الملك الأمجد بهرام شاه واحتفظ بها لنفسه[٦].

لقد أشارت الصفحات السابقة إلى أن علاقة الملك الكامل كانت وثيقة مع الخلفاء العباسيين الذين عاصرهم، الناصر لدين الله، والظاهر والمستنصر بالله، فقد توخي العمل على استمرار الولاء للخلفاء العباسيين، ذلك أنه كان يرى فيهم الرمز الذي لا يجوز المساس به، فكان يلتمس رضاهم كي يحصل على التقليد والخلع منهم، إذ كان لا يعد الحاكم شرعياً إلا إذا حصل على تقليد من الخليفة.

---

(١) شيزر كانت بيد شهاب الدين يوسف بن سابق، ابن واصل، مفرج الكروب، ٦٣/٥.

(٢) أبو الفدا، المختصر، ١٥٣/٣.

(٣) ابن واصل، م.س، ٦٥/٥.

(٤) ابن العديم، زبدة الحلب، ٢١٥/٣.

(٥) أبو شامه، ذيل الروضتين، ١٥٦.

(٦) ابن واصل، م.س، ٣٨٠/٤.

واهتم الملك الكامل باليمن عندما سمع اضطراب أوضاعها، فبعث ابنه المسعود ليعيد إليها النظام، واستمرت ترتبط بالملك الكامل إلى أن توفي الملك المسعود، وتولى ابن رسول فعمل على استقلاله عن الملك الكامل، وتطلع إلى السيطرة على مكة، فاستمرت الحرب سجالا بين الملك الكامل وابن رسول ما بين عامي ١٢٣١/٦٢٨ و ١٢٣٧/٦٣٥، إلى أن استطاع صاحب اليمن استخلاصها لنفسه بعد وفاة الملك الكامل بثلاث سنوات.

وكانت علاقة الملك الكامل إيجابية مع الدولة الخوارزمية، ولم يكن بينهما أية حساسية إلى أن أثرت خلافات الملك الكامل مع أخيه المعظم في العلاقات من خوارزم شاه، فساد العداء بينهما إلى أن تمكن الملك الكامل من تشكيل حلف مع سلاجقة الروم، فهزموا الخوارزميين واستأصلوا خطرهم.

سادت العلاقات الطيبة بين الملك الكامل ودولة سلاجقة الروم في بداية حكمه، ولكن أطماع السلطان السلجوقي دفعته إلى محاولة توسيع مملكته على حساب الأيوبيين، فأثار ذلك الملك الكامل والأيوبيين، وحاولوا اقتطاع جزء من الأراضي السلجوقية تأدباً لصاحبها، ولكنهم فشلوا في استقطاب الأيوبيين، فعقدوا صلحاً مع السلاجقة إلى أن تمكن الملك الكامل بعد سنة من تحجيم أطماع السلطان السلجوقي، واستعادة مدن الرها وحران والسويداء، وأسر عدداً كبيراً من الأمراء والجنود السلاجقة.

واستمرت العلاقات على ما كانت عليه بين الملك الكامل والأراتقة إلى أن عاند صاحب ماردين الملك الكامل، فلم يجد بداً من تأديبه، وإعادة الأمور إلى ما كانت عليه، ولم يتقبل الملك الكامل سوء سمعة الملك المسعود الأرتقي، فانتزع منه آمد وحصن كيفا، ونقله إلى مصر ليلقى جزاءه على سلوكه المشين، فبقي في السجن إلى أن مات الكامل.

حرص الملك الكامل على بناء علاقات طيبة مع الممالك الإسلامية، رائـــده في ذلك توفير الأمن الداخلي لبلاده والبلاد المجاورة، غير أن الأحـــداث الداخليـــة مـــع الممالك الأيوبية أثرت في مواقف الدول الإسلامية تجاه الملك الكامل، كذلك تـــأثرت هذه الأحداث بالغارات الصليبية والمغولية على البلاد.

وهكذا كان الملك الكامل حريصاً على حسن الجوار والعلاقات الطيبـــة مـــع الممالك الإسلامية ما أمكنه ذلك،و لم يبادر إلى معاداة الممالك الإسلامية أبـــداً، بـــل اضطر إلى دفع الخطر عن بلاده بحزم.

الباب الثالث

القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل

خصصت هذا الباب لتوضيح سياسة الملك الكامل الخارجية، فقسمته إلى ثلاثة فصول، فبحثت في الفصل الأول مواقف الملك الكامل ومساوماته المختلفة على القدس أثناء الحملة الصليبية الخامسة، وركزت في الفصل الثاني على تفريط الملك الكامل بالقدس وتسليمها للإمبراطور فردريك الثاني، ووضحت في الفصل الثالث علاقة الملك الكامل التجارية مع الصليبيين نتيجة للعلاقات السلمية التي سادت بين الملك الكامل والامبراطور فردريك الثاني والتي تعد استمراراً للمعاهدات السلمية التي أبرمت في عهد الملك العادل.

وتوخيت أن أعالج جوانب سياسة الملك الكامل الخارجية الحربية والسلمية والتجارية بأسلوب علمي، فخصصت لها الباب الثالث، وقسمته إلى ثلاثة فصول أملاً في معالجة هذه الجوانب، ولتكون الدراسة شاملة، ومتكاملة ودقيقة، فركزت على الجانبين العسكري والسلمي، فكانا في فصلين طويلين، ولكن تطلع الصليبيين إلى احتلال بيت المقدس، واتباعهم سياسة عدوان شبه مستمرة أثر في العلاقات التجارية مع المسلمين، فكان الفصل الذي عالج التجارة الخارجية أقل حجماً من الفصلين السابقين، لاستمرار توتر العلاقات التجارية.



الفصل الأول

سياسة الملك الكامل حيال الحملة الصليبية الخامسة

أولاً : الإعداد للحملة .

ثانياً : سير الحملة .

ثالثاً : إعداد الملك الكامل مصر والشام للقتال .

رابعاً : فتح الصليبيين دمياط .

خامساً : فشل الحملة وانسحاب الصليبيين .

سادساً : دور الملك الكامل في استسلام الصليبيين وطلبهم الصلح .

الفصل الأول

سياسة الملك الكامل حيال الحملة الصليبية الخامسة

٦١٥/١٢١٨ - ٦١٨/١٢٢١

خصصت هذا الفصل لمحاولات الصليبيين احتلال مصر، واستعراض مواقف الملك الكامل الحربية والسلمية لإنقاذ مصر من هذا العدوان، وقسمت الفصل إلى ستة عناصر حاولت في كل منها إبراز سياسة الملك الكامل، ومواقفه وفقاً للأحداث التي كانت تتغير بتغير سير الحملة الخامسة، وقد كانت سياسة الملك الكامل السلمية وميله إلى الصلح تطغى على مواقفه بين الحين والآخر.

وسنلاحظ هذه المواقف لدى توضيح العناصر التالية:

١- الإعداد للحملة.

٢- سير الحملة.

٣- إعداد الملك الكامل مصر والشام للقتال.

٤- فتح الصليبيين دمياط.

٥- فشل الحملة وانسحاب الصليبيين.

٦- دور الملك الكامل في استسلام الصليبيين وطلبهم الصلح.

وحرصت على تمكين القارئ من متابعة العمليات العسكرية، وتحركات جند المعسكرين الإسلامي والصليبي، فزودت الفصل خرائط تفصيلية، عن المواقع التي كانت ترابط بها عساكر الجانبين وتحركاتها وفقاً لتخطيطاتها الحربية.

أولاً: الإعداد للحملة الصليبية الخامسة.

عانت الدولة الأيوبية التمزق الذي أصابها بعض الوقت بعد وفـــاة الســـلطان صلاح الدين بسبب الصراع بين أفراد البيت الايوبي على السلطة، إلى أن تمكن الملـــك العادل من جمع الشمل وتوحيد الصف، فانزعج الصليبيون لأنهم خافوا أن يكون ذلك معيقاً لمشاريعهم في استعادة بيت المقدس، ألا أن الملك العادل كان حريصاً على عـــدم استفزاز الصليبيين وإثارتهم، لذلك التزم سياسة دفاعية عن ممتلكاته، و لم يقم بـــالهجوم على الممتلكات الصليبية في بلاد الشام، وكان يبادر أو يوافق على عقد الهدنــــة مـــع الإفرنج كلما قاربت مدة الهدنة على الانتهاء، وقد أطمعت هذه السياســـة" المهادنـــة الصليبية" لمحاولة احتلال مصـــــر عـــام ١٢٠٤/٦٠١، إلا أن الحملـــة انحرفـــت إلى القسطنطينية مما دفع البابا أنوسنت الثالث (Innccent III) إلى أن يدعو لحملة جديـــــدة على المشرق بتشجيع من جان دي برين (Jean de Brienne).

أ- دعوة البابا للحملة الخامسة:

كان الملك حان دي برين (de Brienne) قد وقع هدنته الأخيرة مع الملك العـادل عام ١٢١٣/٦١٠، لتهيئة الجو المناسب لحملة أوربية جديدة تكون قادرة على حســـم الموقف مع المسلمين، وذلك باسترجاع مملكة بيت المقدس الصليبية،وكانت كنيســـة روما تطمح في أن تكون لها السيادة مما تدعيه من أنها الكنيسة العالمية، الكنيســـة الأم لكل الكنائس المسيحية ، فأخذ يتصل بأصحاب القرار في أوربا لتنفيذ هـــذه الحملـــة ونجح في إقناع البابا بأهميتها.

أثار البابا أنوسنت الثالث (Innocent III) حماس أوربـــا باتهامـــه أن المســـلمين ستعدون للقضاء على مـــا تبقى من مملكة بيت المقدس اللاتينيـــة، وأنـــه لا ســـبيل للحفاظ على هذه المملكة إلا بتوفير المال، وإعداد الرجال المقاتلين للقيام بحملة جديدة للقضاء على المسلمين، وطلب من الملك العادل تسليم بيت المقدس، حقناً للدماء.

وكان هدف الحملة القضاء على مركز المقاومة الأول في مصر تمهيداً لا تنتزع القدس(1)، إذ رأى الصليبيون أن يقصدوا مصر ويملكوها، وحينئذ لا يبقى أي مانع عن أخذ بيت المقدس، وغيرها(2).

بدأ البابا بالدعاية لحملة جديدة بإصداره المنشور (Quia Maior) سنة ١٢١٢/٦١٠(3)، واستمر البابا أنوسنت الثالث يدعو أوربا للقيام بحملة على الشرق دون كلل أو ملل(4)، ففي عام ١٢١٥/٦١٢ دعا إلى عقد مجمع اللاتران الكنسي Lateran Council لتوحيد الكنيسة الشرقية والغربية، والإعداد لحملة صليبية خاصة(5)، وقال في المجمع: "إن المسلمين ينتهكون كنيسة القيامة، ويتهكمون على صلب السيد المسيح، وإنه حان الوقت للقضاء على المسلمين"(6)، وطالب الحضور مساعدته في القيام بهذا العمل المقدس.

---

(1) Campell, The Crusades ,P٨٢.
ولم يفت الصليبيين أن يتصلوا بنجاشي الحبشة المسيحي ليتعاون معهم في حرب الإسلام والمسلمين من طريق غزو الحجاز وهدم الكعبة. Coulbeaux, Hist. D. Abyssinie. PP ٢٥٦.
(سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ٦٢٤/٢) وعرضوا على كيكاوس ملك سلاجقة الروم التعاون، لأنه كان يتطلع إلى السيطرة على حلب والجزيرة. تزامن مشروع كيكاوس بالتوجه نحو حلب مع قيام الفرنجة بحصار دمياط، وبذلك قويت أطماع الفرنجة والصليبيين في مخططاتهم الحربية ضد مصر، فقد كان الملك دي بريين يأمل أن تصبح القوة الأيوبية الرئيسية أسيرة هجوم الصليبيين أمام دمياط وكيكاوس ضد حلب، إلا أن الأشرف بمقاومته الحازمة حطم الحملة السلجوقية بسرعة زائدة. وبذلك فشلت الكماشة ضد الدولة الأيوبية في الوقت نفسه.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٦٠/٣، ابن خلدون ، العبر، ٣٤٤/٥.

(3) وهذا المنشور (Quia maior) يطالب باشتراك جميع النصارى دون النظر إلى الطبقة أو المقدرة، فالمنشور يرمي، إلى نوع من استنهاض الجماهير، وهكذا قرر البابا مواكب شهرية، من أجل الدعاء لتخليص الأراضي المقدسة، وأسند أيضاً للفقراء والضعفاء دورهم في الكفاح ضد الإسلام، وكان مفعماً بالثقة الأكيدة أن وعود سفر الرؤيا ستتحقق، وأن أيام الإسلام تسير نحو النهاية، ولا يمكن أن تستمر بعد عام ١٢٨٨.
هانس ابرهام ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة عماد الدين غانم، طرابلس، مجمع الناتج للجامعات ١٩٩٠.

(4) Stevenson, The Crusaders in the East p,٢٩٦..

(5) Runciman, A History of the Crusades p. ١١١/١٤٤.

(6) Runciman, Ibid

استطاع البابا أن يهيء الجو لحملة جديدة، وتبرع بمبلغ من المـــال، وطـالب الكرادلة بأن يقدموا عشر دخلهم، وأرسل مشاهير رجال الدين للدعوة للحملـــة في فرنسا وانجلترا، واسكتلندا، ولكن البابا أنوسنت توفي عـــام ٦١٣/١٢١٦، فتـولى هنوريوس الثالث مكانه، واستمر في حث الأوربيين على القيام بالحملة(١).

استمرت جموع الصليبيين تفد على بلاد الشام يومياً تلبية للدعوة التي وجهـها البابا أنوسنت الثالث ، (Innocent III) ثم تعهدها هنوريوس (Honorius) الثالث. وقـد أراد الملك جان دي برين أن يستغل هذه الجموع الصليبية التي جاءت إلى بلاد الشـام بعد سفر ملك هنجاريا، ففكر في القيام بحملة على الاسكندرية أو دميـاط، وأيـده الصليبيون في بلاد الشام في تفكيره هذا، ولا سيما فرسان الداويـة والاسـبتارية(٢)، وكذلك الصليبيون في قبرص.

ب- خطة الحملة:

تجمعت القوات الصليبية القادمة من أوربا عام ٦١٥/١٢١٨ في عكا، وانضـم إليها فرنج الشام، وعقد الملك جان دي برين (Jean de Brienne) مجلساً حضره ليوبولـد دوق استريا ورؤساء فرسان الداوية(٣) والاسبتارية (٤) (Hospitaller Knight) والتيوتون،

---

(١) Stevenson op, cit, ٣٠٢

(٢) وفي الوقت الذي وعدت فيه البابوية بالمساهمة في الحملة الصليبية بمبلغ ٣٠٠٠٠ جنيه، فرضت على رجـال الدين دفع ٢٠% من دخلهم على مدى ثلاث سنوات، واكتفت بنسبة ١٠% من دخل الكرادلة. وهدد مـن يبيع مواد استراتيجية للعرب بالحرمان من الكنيسة، وأما من يعمل مع العرب في الغزو البحري، فينتظر عقوبة مصادرة ممتلكاته أو الرق. ومنعت التجارة مع الشرق على الإطلاق أربع سنوات، حتى يحصل علـى عـدد مناسب من السفن. وحـرر جميع المشاركين في الحملة الصليبية من جميع الضرائب حتى موعد عودتهـم أو وصول خبر أكيد بمقتلهم، وأما ديونهم فقد جرى تأجيل دفعها، وساد العالم المسيحي سلام عام لمـدة أربـع سنوات.

(٣) الداوية هي منظمة عسكرية دينية تطلق على جماعة المعبد، أسست هذه الجمعية عام ١١١٩ لحماية طريـق الحجاج إلى بيت المقدس.

(٤) الاسبتارية: كان الاسم يطلق على طائفة من الفرسان الدينيين، وكان نظامهم أول أمره نظاماً بوليسـيا أي شرطة عسكرية لقطاع الطرق ، وقد أسست لمحاربة المسلمين.

لتحديد خط سير الحملة وكيفية تأمين المعدات العسكرية، والتموين، والسفن اللازمة لنقل الجنود ولوازمهم.

وتقرر أن تتجه الحملة إلى دمياط، وأن تزود المؤن التي تكفيها ستة أشهر، وأن تستخدم السفن الفريزية وسفن مدن البندقية، وجنوا، وبيزا، الراسية في موانئ بلاد الشام، التي كان قد بلغ عددها حوالي ٣٠٠ سفينة[١]، وذلك لنقل العساكر والمؤن، والدواب، والآلات الحربية وذخائرها.

اختار الصليبيون دمياط هدف حملتهم لقربها النسبي من عكا، ولأنها إحدى مدن مصر الرئيسة، فضلاً عن الاسكندرية والقاهرة، ولأن فرع نهر دمياط يمثل طريقاً طبياً ووسيلة سهلة للمواصلات للصليبيين[٢]، ومدينة دمياط كانت قد تعرضت لغزو الصليبيين سابقاً[٣].

كانت دمياط ذات موقع حصين، فهي شبه جزيرة[٤]، يحدها من الشمال البحر المتوسط، ومن الغرب نهر النيل، ومن الشرق بحيرة تنيس، وقد اهتم الأيوبيون بتحصينها، فكان يحيطها سور من جميع الجهات، ويحيط السور خندق عميق، وكان يدعم دفاعات دمياط برجان في وسط النيل[٥] أحدهما برج السلسلة[٦] والآخر مقابل له يربط بينهما سلسلة من الحديد لمنع حركة السفن في النيل، وعليها حراس

---

(١) عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ٢٠١.

(٢) سعيد عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين، ٧٤.

(٣) تطلع الصليبيون إلى احتلال دمياط، وحاولوا الاستيلاء عليها عدة مرات، وكان جود فري Godfrey أول من فكر بالسيطرة عليها عام ١٠٩٩/٤٩٣ إلا أنه توفي قبل أن ينفذ فكرته، وجاءت المحاولة الفعلية على يد بلدوين الأول Baldwin عام ١١١٦/٥١٠، و ١١١٨/٥١٢، واستمرت هذه المحاولات إلى ١١٦٩/٥٦٥ أثناء وزارة صلاح الدين الأيوبي في عهد الخليفة الفاطمي العاضد، إلا أنها فشلت للمزيد عن هذه المحاولات ينظر ابن الأثير الجزءين الثامن والتاسع.

(٤) ينظر ملحق موقع مدينة دمياط رقم ٤.

(٥) المقريزي، السلوك، ٢٢٣/١.

(٦) برج السلسلة: برج عال في وسط نهر النيل مثبت به سلسلة من الحديد تزن مائة وثلاثين قنطاراً (ابن مماتي، قوانين الدواوين، ٣٦١) وتمتد بين هذا البرج والبرج المقابل للسلسلة لمنع حركة السفن في النيل.

أقوياء مسؤولون عن رفع السلسلة إذا أرادوا منعها من ذلك[١]، ولا شك في أن كل هذه الخصائص زادت من اعتقاد الصليبيين، بأن أية حملة ناجحة على دمياط ستعطي لهم موطئ قدم بالغ الأهمية يمكنهم من السيطرة على الشرق[٢].

ثانيا: سير الحملة:

انطلق الصليبيون باتجاه مدينة دمياط من عكا[٣]، فوصلوها في ٦ صفر ٦١٥/٢٧ أيار ١٢١٨، وتمكنوا من النزول على جيزة دمياط[٤] دون مقاومة، إذ كان الملك العادل على عهد مع الإفرنج، و لم يتوقع نقضهم لمعاهدة الصلح دون مسوغ، ولذلك لم تتخذ إجراءات لمراقبة الشواطئ، ومواجهة المعتدين[٥]. وقد اختار قائد الحملة الموقت الكونت سيمون الثاني[٦] جيزة دمياط لتكون مقراً لعساكره، لأن هذا الموقع نموذجي من الناحية الدفاعية، لارتباطه بمراكز التجهيز البحرية بصورة سهلة، ويحميه النيل من جهتي الجنوب والشرق من أية هجمة مباغتة[٧].

لحق الملك جان دي برين (Jean De Brienne) إلى دمياط بعد وصول التعزيزات الأوروبية[٨]، التي قدرها المقريزي بحوالي "٤٠ألف من المشاه ومائة وسبعين الفاً من

---

(١) Setton, A History of the Crusades ٢/٣٩٧.

(٢) Setton, Ibid.

(٣) ترك الملك جان دي برين حامية قوية في عكا للدفاع عنها ضد أي هجوم إسلامي منتظر.

(٤) جيزة دمياط، الضفة الغربية لنهر النيل المواجهة لمدينة دمياط، وسميت بالجيزة لأنه يجاز منها إلى المدينة، ابن واصل، مفرج الكروب، ٣٥٨/٣، انظر الملحق...رقم٤.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٠/٦.

(٦) بقي الملك جان دي برين في عكا مع رؤساء الهيئات الدينية في انتظار باقي السفن الأفرنجية Setton, Op, Cit, ٢/٣٩٧.

(٧) Setton, A History of the Crusades, ٢/٣٩٧.

(٨) المقريزي، السلوك، ٢٢٥/١.

الفرسان"[١]، ويعتقد أن هذا الرقم مبالغ فيه لصعوبة نقل هذا العدد الضخم من العساكر وتجهيزاتهم.

وكان الملك العادل في بلاد الشام عند نزول الفرنج على ساحل مصر، فاتخذ التدبيرات الضرورية لدعم موقف نائبه في مصر الملك الكامل، فبعث العساكر إليه[٢] وعلى رأسهم الأمراء سيف الدين بن كهذال، والمبارز بن جطلخ[٣]، وأمر ابنه الملك المعظم بالقيام ببعض العمليات العسكرية لإشغال الفرنج في بلاد الشام عن تقديم المساعدة للصليبيين الموجودين قرب دمياط[٤]، وكلف ابنه الملك الأشرف بمهاجمة صافيتا وحصن الأكراد[٥]، ولكن الأخير اضطر إلى العودة إلى بلاده في الشرق بسبب خوفه من التحالف بين الملك الأفضل وسلطان الروم كيكاوس[٦].

لم يهتم الصليبيون كثيراً بما يحدث في الشام، بل إن الفرنجة أنفسهم أصحاب ما بقي لهم من معاقل بالشام كانوا من بين المقاتلين المهاجمين عند دمياط، منذ أن وصلت طلائع الحملة.

أ- مرابطة الملك الكامل في العادلية:

عندما علم الملك الكامل بنزول الصليبيين في جيزة دمياط، اتجه بجنده والعربان إلى دمياط، وعسكر في العادلية[٧]، واتخذ كل الترتيبات لعدم تمكين الصليبيين

---

(١) م.ن.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٦/٢٠.

(٣) م.ن ٦/٢٢٢.

(٤) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٨/٥٩٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣/٧٩.

(٥) أبو شامة، ذيل الروضتين، ١٠٩.

(٦) ابن أيبك، كنز الدرر، ٧/١٩٦.

(٧) العادلية: قرية قديمة تقع على ضفة النيل الشرقية بين دمياط وفار سكور، أسس فيها الملك العادل حصناً لحماية مدينة دمياط من العدوان الخارجي،(ابن واصل، مفرج الكروب ٤/٢٣٠)، محمد رمزي، القاموس الجغرافي، ٢٤٢.

من الاستيلاء على برج السلسلة (الذي يعد مفتاح مصر)، أو العبور إلى ضفة النيل الشرقية[1]، وأخذ يرسل الإمدادات لأهل دمياط، فضلاً عن قيامه ببعض العمليات العسكرية التي كان الغرض منها اشغال الفرنج وإشعارهم بوجود مقاومة من قبل المسلمين[2]، وصار يركب كل يوم مرات عديدة من العادلية إلى دمياط، لتدبير الأمور، وإعمال الحيلة في مواجهة الفرنج[3].

حاول الصليبيون اقتحام دمياط، فقاموا بهجوم مكثف عليها، إلا أنهم عجزوا عن الاقتراب من السور، فلما أدركوا أنه يصعب احتلال المدينة إلا بالسيطرة على برج السلسلة[4] لأنه كما قيل "قفل الديار المصرية"، شن الصليبيون هجوماً عنيفاً عام ١٢١٨/٦١٥ على جدران مدينة دمياط شارك فيه حوالي ثمانين سفينة، فسببت ذعراً كبيراً للسكان، ولكن المحاولة لم تكن فعالة إزاء تحصينات المدينة، و لم تنقطع محاولات الفرنج للاستيلاء على برج السلسلة، فقد مد دوق النمسا وفرسان الداوية سلمين على بارجة ضخمة، فيما هيأ الألمان سفينة للقيام بهجوم جديد على برج المدينة المحصنة[5]، لكن كرات النار والحجارة التي قذفها المسلمون عليهم،واستبسال جيش الملك الكامل في الضفة الشرقية لنهر النيل[6] أجبرت السفينة على الانسحاب، وأثناء ذلك انكسر السلمان تحت وطأة جنود الفرنج فسقطوا في البحر.

أنشأ الصليبيون قلعة قوية من السفن، وجسراً متحركا سحبوه بمحاذاة نهر النيل على حافة برج السلسلة، وقاموا بهجمات متلاحقة على البرج إلى أن تمكنوا من تحطيم

---

(١)م.ن، ابن كثير، البداية والنهاية، ٧٩/١٣.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٣١٥/٩.

(٣) المقريزي، السلوك، ٢٢٤/١.

(٤)عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ٢١٢.

(٥) محمود عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ٢٣٤.

(٦) ابن كثير: الكامل، ٣١٦/٩.

السلسلة، وتسيير السفن في مجرى النيل، والاستيلاء على البرج عام ١٢١٨/٦١٥ بما فيه من مؤن وذخيرة، وسلاح بعد قتال مستمر أربعة أشهر.

وظهر خلل واضح في العمليات الحربية بعد سقوط برج السلسلة، إذ اعتقد كثير من المحاربين الصليبيين أن مهمتهم قد انتهت، وأنهم أوفوا بقسمهم الصليبي، فانسحبوا عائدين إلى بلادهم، وهكذا أصبح من واجب الملك جان دي برين انتظار وصول امدادات جديدة، وهي الإمدادات التي وصلت فعلاً بعد شهور، وكان على رأسها الكاردينال بلاجيوس Plajius مندوباً عن الباب، وقائداً للحملة[1]، فأدى هذا الازدواج في القيادة إلى ضرر شديد بالحملة ومستقبلها كما سنرى*.

ب- محاولات الملك الكامل التصدي لغزو الفرنج:

أعاد الملك الكامل حساباته بعد ما لاحظ تزايد عدد الصليبيين يوماً بعد يوم، فأخذ بسياسة الهجوم لا بسياسة الدفاع، محاولاً استنزاف القوات الصليبية وحرمانها من الراحة والهدوء، فجهز قوة برية تدعمها عشرات السفن، هاجمت المعسكر الصليبي، إلا أنها اصطدمت بخنادق الفرنج، وبهجوم معاكس يقوده الملك جان دي برين، فانسحب المسلمون.

(١) ابن واصل، مفرج الكروب ٤/٢٥.

* وكان بلاجيوس في صفوف القادمين الجدد في خريف ١٢١٨/٦١٦، ومكلفاً أن يقوم بتأمين القيادة الكنسية العليا للحملة الصليبية على الرغم من تولي الملك جان دي برين القيادة العسكرية للجيش، إلا أنه لم يحظ بالإجماع التام.

ولم يكن بلاجيوس البرتغالي قادراً على القيام بهذه المهمة على الرغم من التفويضات الشاملة التي في حوزته فشكل لنفسه حزباً من الصليبيين الجدد ومن رجال الهيئات الدينية ومن التجار الإيطاليين القاطنين في فلسطين واستطاع بدعم منهم أن يخرج الأمر من يد الملك جان وبارونات الدويلات الصلبية. ولم يتطلب الوضع مدة طويلة حتى انقسم الجيش الصليبي إلى مجموعتين متعاديتين. وأخذ بلاجيوس يتدخل في الشئون العسكرية دون أي اكتراث بالقانون الكنسي . وعلى الرغم من هذا الوضع لم يكن سير الأمور في صالح المسلمين، فقد فشل هجوم الكامل على معسكر الصليبيين في ١٩ أكتوبر، ويعزى هذا الفشل إلى يقظة جان دي برين. ولم يشهد الشتاء سوى هجمات غير حاسمة قام بها الصليبيون. (هانس إبراهارد ماير، تاريخ الحروب الصليبية،٢).

فشلت خطة الملك الكامل الهجومية، إلا أنه استمر في المقاومة، وأرسل الرسل إلى مختلف مناطق العالم الإسلامي يطلب النجدة، والمساعدة، ونصب جسراً عظيماً يمنع الفرنج من عبور النيل، فقاتل الفرنج قتالاً شديداً إلى أن تمكنوا من تدميره[1]، فأغرق الملك الكامل عدداً من السفن بعرض النيل لمنع تقدم الصليبيين[2].

وخلال ذلك تدفقت النجدات الصليبية إلى جيزة دمياط، وكان على رأسها الكاردينال بلاجيوس Plajius ممثل البابا في الحملة[3]، فبدأ صراع بينه، وبين الملك جان دي برين على قيادة الحملة استمر مدة وجود الصليبيين في مصر، فقد عد بلاجيوس نفسه قائداً موقتاً للحملة إلى أن يأتي الامبراطور فردريك II الذي سيتولى القيادة، وأن جان دي برين ليس ملكاً حقيقياً، وما هو إلا وصي على الملكة إيزابيلا ابنة زوجته الراحلة، وبذلك تمكن بلاجيوس من بسط سلطته على الحملة[4]، وأرسل بعض السفن الصليبية للعبور إلى ضفة النيل الشرقية، ولكن مقاومة عنيفة جابهتها، فعادت من حيث جاءت، واستمرت محاولات الصليبيين العبور ثانية وثالثة، ولكنها فشلت، وأسر بعض المقاتلين، وتحطمت بعض السفن.

ولم يلبث الصليبيون أن أدركوا فداحة الخطأ الذي وقعوا فيه برسوهم على الضفة الغربية للنيل بدلاً من الضفة الشرقية القائمة عليها مدينة دمياط ذاتها، مما اثار أمامهم مشكلة كيفية عبور النيل، بالإضافة إلى إضاعتهم وقتاً كثيراً حيث نزلوا، مما أعطى الملك الكامل فرصة كافية للاستعداد "حتى صار عند الكامل من المقاتلة ما لا يكاد ينحصر عدده"[5].

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ٤/٢٥.

(٢) ابن الأثير، الكامل ٩/٣١٦؛ ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٨/٥٩٣.

(٣) Runciman, A History of Crusades .p. ١٤٥.

(٤) Setton, A History of Crusades, vol, ٢,p. ٤٠٩.

(٥) المقريزي، السلوك، ١/٢٠٣.

استغل الملك الكامل غارات الصليبيين الفاشلة، فأرسل فرقة عبرت البر الغربي لنهر النيل التحمت في قتال عنيف مع الصليبيين، إلا أن المسلمين منوا بهزيمة شديدة، فلجأ الكامل إلى إثارة العربان، فأخذوا يغيرون كل ليلة على معسكرات الصليبيين، يقتلون، ويأسرون، وينهبون، فعمد الصليبيون إلى إقامة الكمائن لتصيد العربان، وتمكنوا من قتل عدد كبير منهم(١).

لقد تركت هزائم المسلمين أثراً سيئاً في نفوسهم، وبخاصة لدى الملك الكامل، فعاد ثانية إلى سياسة الدفاع، وشيد الاستحكامات حول معسكره، وأقام عليها المنجنيقات لضرب السفن الصليبية.

ولما رأى الصليبيون حماس الملك الكامل ومقاومته لهم بحثوا عن طريق أخرى لاجتياز النيل، فحفروا خليج النيل القديم الذي كان يعرف باسم الخليج الأزرق(٢)، وأثناء ذلك هبت ريح عاصفة دفعت بمرمة(٣) صليبية إلى المعسكر الإسلامي، فاستولى عليها المسلمون، كذلك دفعت مياه البحر إلى معسكر الصليبيين، فغرقت الخيام، وتحطمت بعض السفن، ونفقت عدة خيول، وقتلت بعض الجنود، إلا أن هذه العاصفة أفادت الفرنج، إذ ملأت الخليج الأزرق بالمياه، وأصبح بمقدور الصليبيين تسيير سفنهم في هذه المنطقة عند قرية بورة(٤).

توقف الصليبيون بعض الوقت بالرغم من وصل الإمدادات الإنجليزية والفرنسية، وساعد على ذلك أمران أولهما أن الكاردنيال بلاجيوس أشاع أن

---

(١) م.ن، ٢٣١/١.

(٢) الخليج الأزرق: أحد روافد النيل القديمة، كان يصل بين البحر المتوسط وقرية بورة، ابن الأثير، الكامل، ٣٢٤/٩.

(٣) المرمة: سفينة عسكرية كبيرة، مصفحة بالحديد، لا تعمل فيها النار، ومساحتها ٥٠٠ ذراع، ابن الأثير ٣٢٤/٩.

(٤) بورة: بلدة على أحد فروع النيل غربي دمياط، ومنها السمك البوري.

الإمبراطور فردريك II سيحضر بنفسه بعد قليل ليشارك في قيادة الحملة مع المندوب البابوي، وثانيهما وفاة عدد كبير من المقاتلين لانتشار وباء خطير بين جموعهم، فيما انتشرت مياه الفيضان في الترع والقنوات[1].

استغل المندوب البابوي حالة الصليبيين النفسية السيئة بسبب العاصفة، وفشلهم في هَزم المسلمين، فأعلن الصيام ثلاثة أيام، وأمر رجال الدين بالوقوف حفاة أمام الصليبيين، وابتهلوا لله طالبين العون، فتحسنت نفسيات الصليبيين، وأعدوا قلعة من ست سفن أطلق عليها اسم الأم المقدسة (Holy Mother)، وعبروا بها الخليج الأزرق، واندفعوا نحو المسلمين إلا أنهم صدوا[2].

عاود الصليبيون محاولاتهم اختراق دفاعات المسلمين، ولكنهم لم ينجحوا، فتوقف القتال بعض الوقت لسوء الأحوال الجوية، وأعاد المسلمون تنظيم أنفسهم، واستمرت دمياط آمنة بضعة أشهر.

جـ- آثار وفاة الملك العادل:

أرسل الملك الكامل صدر الدين بن حموية إلى أبيه[3]، يخبره بسقوط برج السلسلة، وكان الملك العادل في مرج الصفر قرب دمشق، فوقع الخبر عليه وقوع الصاعقة، ودق صدره حزناً، فمرض مرض الموت لساعته، وما لبث أن فارق الحياة[4] يوم الخميس جمادى الآخرة عام ٦١٥/١٢١٨.

انقسم معسكر المسلمين إثر وفاة الملك العادل، إذ اتفق الأمير عماد الدين بن المشطوب، وبعض أمراء الجيش على خلع الملك الكامل[5] وتولية أخيه الملك الفائز،

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ٣١٧/٩.

(٢) المقريزي، السلوك، ٢٣١/١.

(٣) المقريزي، م.ن، ٢٠٠/١.

(٤) ابن الأثير، م.س، ٣١٥/٩.

(٥) أبو الفدا، المختصر، ١٢٠/٣.

ولما كشف الملك الكامل الأمر غادر معسكره إلى أشموم طناح[1]، فساد الفزع أرجاء المعسكر الإسلامي،ودبت الفوضى بين صفوف العسكر، وتركوا خيامهم، وأسلحتهم، وأموالهم ودوابهم[2]، وعندما وجد الجند أنفسهم دون قيادة انسحبوا من العادلية، تاركين وراءهم كل معداقم وذخيرقم وتموينالهم التي كانوا قد أعودها لقتال طويل، ومن الطبيعي أن يشك الصليبيون في هذه الحركة التي كانوا يرقبونها من الشاطئ الغربي للنيل، إذ ظنوا أن كميناً ينصب لهم، لكن شكهم لم يطل أمره، إذ لم يلبثوا أن أسرعوا إلى العادلية واحتلوها وغنموا كل ما كان في المعسكر[3] دون إطلاق سهم واحد، وأسروا الكثير من الرجال والنساء، وبذلك أحاطوا مدينة دمياط من البر والبحر، وأقاموا حولها المنجنيقات، وبنوا جسراً يربط بين العادلية وجيزة دمياط.

أصبح الملك الكامل في وضع حرج ، وأصبحت الجبهة الإسلامية مهددة بالانهيار، إلا أن وصول الملك المعظم عيسى من الشام نجدة لأخيه بعد يومين من تمرد ابن المشطوب أنقذ الموقف، فقد استطاع إخراج المتآمرين من المعسكر الإسلامي، وإبعاد ابن المشطوب إلى بلاد الشام، فقوي مركز الملك الكامل، واشتد أزره بأخيه، وقوي ساعده، وانتقل إلى فارسكور الواقعة جنوب العادلية، وبذلك حصر الصليبيون بين دمياط في الشمال وفارسكور[4].

حث الملك الكامل العالم الإسلامي لنجدته ثانية لإنقاذ مصر من الخطر الصليبي، وأرسل أخاه الملك الفائز لاستنهاض همم المسلمين، ودعا أخاه الملك

(١) أشموم طناح، تقع على الشاطئ الشرقي في البحر أشموم (ابن مماتي، قوانين الدواوين، ١٥٣).

(٢) ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٥٩٣/٨.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٧/٤.

(٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ٩٧٣/٢.

الأشرف موسى صاحب خلاط[1] لنجدته بسرعة، وكتب إليه قصيدة شعرية من أبياتها[2].

يا مُسعِدي ! إنْ كُنتَ حقًا مُسْعِفي فَانْهضْ بِغيْرِ تَلبّثٍ وَتَوقُفِ
واطْوِ المنازل ما استطعْتَ ولا تُنِخ إلاّ عَلى بابِ المَليكِ الأشْرَفِ

وكتب إلى اخوانه يستعجلهم، ويقول "الوحا الوحا العجل العجل، أدركوا المسلمين قبل تملك الفرنج جميع أرض مصر"[3]، وظلت كتب الملك الكامل متواصلة في طلب النجدة لمساعدته على مقاومة الصليبيين المحاصرين لدمياط[4]، وهذا يدل على حرج موقف الملك الكامل، وصعوبة أوضاع المسلمين.

توافدت النجدات على مصر، فوصل الملك الأشرف، ولكنه غادر مصر بعد ما ترك عساكره عند أخيه الملك الكامل[5]، وتتابع وصول المدد، فتحسن موقف الملك الكامل، وأخذ يستعد لشن هجوم على الصليبيين، ولكنه تراجع لهبوب عاصفة شديدة عام ٦١٦/١٢١٩[6].

د- مساومات الملك الكامل على القدس:

أغار الملك الكامل بعد هدوء العاصفة على المعسكر الصليبي، لسبر غوره، فأحس صلابة جبهة الصليبيين، وصعوبة هزيمتهم وطردهم من مصر بإمكاناته المتوافرة فأخذ يفكر بعرض الصلح على الصليبيين، وقد شجعه الملك المعظم على ذلك[7]،

(١) خلاط، بلدة في أرمينية، وبها بحيرة (وان) ياقوت، م.س، ٢/٤٥٨.

(٢) المقريزي، السلوك، ١/٢٣٣.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣/٨٧.

(٤) أبو الفداء، المختصر، ٣/١٢٦.

(٥) ابن كثير، م.س.

(٦) محمود عمران، الحملة الصليبية الخامسة ٢٣٤.

(٧) سعيد عاشور، الحملة الصليبية الخامسة، ٢/٩٧٤.

ومحور هذه الفكرة "أن الصلح خير من الحرب، وأن السلام الدائم سيد العلاقات بين أي طرفين متحاربين، إذا توافرت النية الحسنة لدى كل منهما"[1].

لقد دفعت الملك الكامل فكرة الصلح أسباب كثيرة، أبرزها تدهور الروح المعنوية للعسكر الإسلامي، وانقسام كلمتهم بعد مؤامرة ابن المشطوب، واجتماع العربان، ومهاجمتهم ونهبهم للقرى، ومبالغتهم في نهب المناطق المجاورة لدمياط، وقطع الطريق[2]، وانتشار أخبار عن غزو التتار للمشرق واقترافهم للمذابح الوحشية، وشك الملك الكامل في وصول النجدات الكافية لدعم موقف المعسكر الإسلامي، وازدياد الفرنج في أرض مصر[3] بعد نجاح الصليبيين في محاصرة دمياط.

عرض الملك الكامل الصلح على الصليبيين عدة مرات، كانت أولها في ذي الحجة عام ٦١٥/آذار ١٢١٩، فأرسل رجلاً اسمه لجارس (Legars)، ومعه ترجمان، وطلبا من الملك جان دي برين والمندوب البابوي بلاجيوس أن يرسلا مندوباً عنهما إلى الملك الكامل في فارسكور، فوافقا على ذلك، وارسلا بعثة توجهت لمقابلة الملك الكامل تكونت من أملين دي ريو رت (Amelin de Riorte) ووليم، والمترجم موستار (Mostar).

اقترح الملك الكامل على البعثة الصلح بشروط بالغة السخاء، تدل على حالة الياس التي كانت تنتاب الملك الكامل، والتي تؤكد فقدان الأمل بالانتصار على الصليبيين، وشملت الشروط التالية:

---

(١) محمود عمران، مرجع سابق، ٢٣٧.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٣١٦/٩.

(٣) ابن الأثير، م.ن، ٣٢٢/٩.

- تنازل الملك الكامل للصليبيين عن الأراضي التي كانت بأيديهم قبل معركة حطين عام ١١٨٧/٥٨٣ وما تلاها من فتوحات عدا الكرك والشوبك[١].
- انسحاب الصليبيين من دمياط.
- عقد هدنة بين المسلمين والصليبيين ثلاثين عاماً.

ولكن الكامل لم يعرض التنازل عن الكرك والشوبك ليبقى على الاتصال براً مع الشرق، حتى لا يسيطر الصليبيون على طريق الشام/ الحجاز[٢].

لم يستجب الصليبيون لعرض الملك الكامل، وأصروا على إضافة، الكرك والشوبك[٣] بالإضافة إلى ٣٠٠ ألف دينار لإعمار سور بيت المقدس[٤]، لقد انقسم الصليبيون أمام هذا العرض، فرأى الملك جان دي برين الموافقة على ذلك يؤيده البارونات[٥]، لأن العرض يجسد قيام مملكة بيت المقدس. ولكن المندوب البابوي رفض العرض، وايده رجال الدين، وفرسان الاسبتارية[٦] والداوية، إذ رأوا صعوبة الاحتفاظ ببيت المقدس دون قلعتي الكرك والشوبك ووادي عربة لأهميتها العسكرية،

(١) عندما قامت مملكة بيت المقدس الصليبية في القرن الثاني عشر الميلادي، احتل ملكها بلدوين الأول (Baldwin) منطقة الكرك، والشوبك، وأقام القلاع الحصينة على أطراف المملكة، فأعاد بناء قلعة الكرك، وجدد بناء قلعة الشوبك، وأطلق عليها اسم الجبل الملوكي(Mount Royal).
كذلك شيد قلعة الطفيلة على انقاض قلعة قديمة ، (انظر القلاع في ملحق رقم ١٧)، ويمكن تعليل أسباب بناء هذه القلاع بما يلي (لانكستر، آثار الأردن، ص٦٨).
- توفير القدرة الدفاعية لمملكة بيت المقدس، واتخاذ هذه القلاع محطات إنذار مبكر لحماية بلاده.
- منع غارات البدو من الصحراء على بيت المقدس ومصر ومنع القوافل التجارية من التنقل إلا بإذنه (انظر خريطة ملحق رقم١٨).
- التحكم بطريق الحجاج المسلمين إلى الحجاز، والسيطرة على الطريق الذي يسلكه المسلمون بين مصر والشام أثناء الحرب.

أحس صلاح الدين بخطورة هذه القلاع ، فاحتلها، وسيطر على بيت المقدس فيما بعد. (لانكستر هارنج، آثار الأردن، تعريب سليمان موسى، عمان ١٩٧٣).

(٢) محمد عمارة، معارك العرب ضد الغزاة، ٣٢٩/٩.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٣٢٩/٩.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣٢/٥.

(٥) Camplell, The Crusades, ٣٨٦.

(٦) Setton, A History of the Crusades, P٤٠٩.

الاحتفاظ ببيت المقدس دون قلعتي الكرك والشوبك ووادي عربة لأهميتـــها العســـكرية، وسهولة احتلال الحملة لمصر*.

ويروى جاك دي فتري[1] أن بلاجيوس كان يشك في نيات المســـلمين، وأن الملك الكامل تقدم بهذا العرض وسيلة من وسائل الخـــداع، وبـــث الشـــقاق بـــين الصليبيين، ليعود الجيش الصليبي من حيث أتى، ويصبح في إمكان المسلمين اســـتعادة الأراضي التي سيسلمونها للفرنج.

ويبدو أن القوات الصليبية وجدت نفسها متفوقة على الجيش الإسلامي بعـــد نجاحها في الاستيلاء على برج السلسلة، ومحاصرة دمياط، فاعتقدت أنهـــا ســـتملك مصر، وبالتالي ستحقق الحملة أهدافها.

لقد كان عرض الملك الكامل الصلح بشروط بالغة السخاء، والجيش الإسـلامي في أوج قوته لم يشتبك بعد في معركة حاسمة؟ بل أن دمياط لم تستسلم بعـــد برغـــم الحصار الكامل حولها، وإنما قاومت المحاولة التي قام بها الصليبيون لاقتحام أســـوارها

(*) رأى البيازنه والبنادقة، والجنويون في احتلال مصر مكسباً تجارياً يفوق المقدس.

وفي دفع الصليبيين إلى الإقدام، أمر بلاجيوس بترجمة نبوءات مكتوبة بالعربية إلى الفرنســـية، وأخـــذ بعـــض الصليبيين أن ينسخوها ويرسلوها إلى الغرب لتنتشر هناك، وأهم تلك النبوءات هي نبوءة حنا بن إســـحاق، وحسبما يقال إن مؤلفها طبيب فارسي، ومترجم نسطوري المعتقد أنه عاش في القرن التاسع الميـــلادي. وفي الواقع أنها ألفت في شتاء ١٢١٩/١٢٢٠ في المحافل النسطورية. وهذه الرسالة تتنبأ بصورة دقيقة عن تـــاريخ الحملة الصليبية حتى سقوط دمياط، وفي صورة قائد النصارى الطويل النحيف وحد بلاجيوس شخصه بيســـر. كذلك تتنبأ الرسالة بوصول ملكين، وحدد الأول منهما على أنه الإمبراطور فريدريك الثاني. وأخـــذ كـــل شخص في دمياط يعقد الأمل على حملة فردريك الثاني المرتقبة.

و لم يكن بلاجيوس وحده يعتقد بهذه النبوءات، فقد كانت تعني له أكثر من وسائل دعائية . إذ أن وقوفه ضد عروض الملك الكامل السلمية لا يمكن أن يفسر في الإطار العقلاني. إلا أن موقفه ينجلي إذا ما اعتقدنا أنـــه كان خاضعاً لوطأة هذه النبوءات. وتبعاً لهذه النبوءات فإن النصر واقع لا محالة، هانس ابرهارد ماير، تـــاريخ الحروب الصليبية.

(١) Vitry, History of Jerusalem, ٢٥٥.

مقاومة عنيفة، وردهم النار الإغريقية، وقد اهم البعض الملك الكامل بأنه تسرع في عرض الصلح، لأنه أراد أن يتفرغ لبناء عظمة السلطنة، والتغلب على كل الهام في داخل الدولة وجَعْل أخوته يقرون بسلطنته وحده، وهذا هو الدرس الذي تعلمه من أبيه الذي كان يصر على مهادنة الفرنج حتى يتفرع لبسط سلطانه الفعلي"[1].

ثالثاً-إعداد الملك الكامل مصر والشام لقتال الصليبيين:

عندما تحقق الملك الكامل من نيات الصليبيين في الاستمرار في الحرب، ورفضهم الجلاء عن مصر، وضع خطة عسكرية لمواجهة الخطر الصليبي، تولى فيها أعداد خطوط الدفاع الأمامية عند فارسكور، وكلف اخاه الملك المعظم استنهاض الأيوبيين لدعم الجيش الإسلامي في مصر، وكلف الوزير صفي الدين بن شكر تدبير الأموال لنفقات الحرب، وطلب من أخيه العزيز عثمان، والأمير عز الدين أيبك الحلبي المعظمي الذين كانا بالقدس آنذاك تخريب المدينة[2]، وهدم عدداً من القلاع الأخرى: بانياس،وصفد، وتبنين، حتى لا يستولي عليها الصليبيون بحصانتها.

وبدأ صفي الدين بن شكر بجمع الأموال من التجار، وتقرر التبرع على الأموال، وتمكن من تحصيل مبلغ كبير من المال، ساهم في جمعها المسلمون، والمسيحيون واليهود، ويقول رنسيمان إنه تقرر على الأقباط ضرائب باهظة[3]، ويبدو أنه حدث بسبب ذلك احتكاك بين المسلمين والمسيحيين، مع أن رنسيمان يذكر أن ذلك لا يعدو أن يكون مجرد عمل فردي، لأن الأقباط لم يصبهم أيام الحكم الكاملي

---

(١) محمد حلمي أحمد، مصر والشام والصليبيون، ١٩٠.

(٢) ابن الجوزي، مرآة الزمان، جـ١/ق٢/٦٠١.

(٣) Runciman, A History of the Crusades, ١١١/١٧٠.

ضرر بقدر ما لحقهم من الصليبيين أنفسهم[1]، إذ عاش الأقباط واليهود آمنين في مصر.

أ- تخريب بيت المقدس عام ١٢١٩/٦١٦:

اتجه الملك المعظم إلى دمشق لإمداد مصر بما تحتاج إليه من الرجال لدفع الخطر عن دمياط، وسرعان ما بدأت الإمدادات تتقاطر على مصر، ولكنه خشي وصول بعض الإمدادات الصليبية إلى بلاد الشام، وبلغه أن الفرنج عازمون على أخذ القدس، بعد ما خلت الشام من العساكر، وكان بالقدس أخوه العزيز عثمان، وعز الدين ايبك استدارا، فكتب إليهما المعظم بخرابه، فقالا "نحن نحفظه" لذلك كتب إلى أخيه العزيز عثمان ثانية بتخريب بيت المقدس، وقال "لو أخذوه (بيت المقدس) لقتلوا كل من فيه، وحكموا على بلاد الشام، وبلاد الإسلام، فألجأت الضرورة إلى خرابه"[2].

اقتنع العزيز عثمان برأي المعظم، وشرع في تخريب سور مدينة القدس عام ٦١٦ آذار ١٢١٩، فضج أهالي المدينة، وخرجوا إلى المسجد الأقصى، وقبة الصخرة، وقطعت النساء شعورهن، ثم هرب الجميع بأموالهم. معتقدين أن الصليبيين في أثرهم "فامتلأت بهم الطرق، ومنهم من اتجه إلى مصر، أو إلى حصن الكرك، وذهب بعضهم إلى دمشق، سائرين على الأقدام، والبنات المخدرات مزقن ثيابهن، وربطنها على ارجلهن من الحصا"[3].

ومات خلق كثير من الجوع والعطش ونهبت الأموال التي كانت بالمدينة المقدسة، وقد تم تخريب المدينة كلها، عدا المسجد الأقصى، وقبة الصخرة، وكنيسة

(١) Runciman, The Christian Arabs of Palestine ١٠.

(٢) أبو شامة، الذيل، ١١، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٢٤/٦.

(٣) ابن تغري بردي، م.س، ٢٤٥/٦، ابن الوردي، تتمة المختصر ٢١٣/٢.

القيامة، وبرج داود[1]، وأصبحت المدينة مفتوحة، لا يمكن الدفاع عنها، ونقل الملك المعظم آلات القتال منها، وأنشد الشعراء في هذه المناسبة، فقال قاضي الطور "مجد الدين محمد بن عبدالله"[2]:

مَرَرْتُ عَلى القُدْسِ مُسلِّمًا   عَلى مَا تبقّى مِنْ رُبوعٍ وأنْجمِ

فَفاضَتْ دُموعِ العيْنِ منّي صَبابة   عَلى ما مَضى مِنْ عَصْرِه المُتقدم

وَقَد رامَ عِلجٌ أنْ يُعفّى رسومه   وشمّر عَنْ كَفّى لئيمٍ مُذمَّمِ

ب- المناوشات بين المسلمين والصليبيين:

أرسل الملك المنصور صاحب حماة ابنه المظفر محمد على رأس العساكر نجدة إلى مصر[3]، ولما قدم إلى مصر أكرمه الملك الكامل، وأنزله على ميمنته، وهذا يدل على اهتمام الملك الكامل بالنجدات.

تشجع الملك الكامل بوصول النجدات إليه، فجمع عدداً من خيرة القوات الإسلامية، وأغار بهم على المعسكر الصليبي، وحرقت بعض أجزاء الأبراج الخشبية، ثم أغار ثانية على المعسكر، ويبدو أن الغارتين كانتا غير فعالتين، إذ أحاط الصليبيون معسكراتهم بخنادق تمتد على ضفتي النهر لفرع دمياط، وأقاموا بعض الأبراج، وزودوها، مقاتلين، وربطوا بين ضفتي النهر بجسر من القوارب.

حاول الملك الكامل تخريب الجسر الذي يصل بين المعسكرين لشطرهما إلى قسمين ليسهل عليه مهاجمة أحدهما، فخرب جزءاً من الجسر، ولكن الصليبيين كشفوا ذلك، فشددوا الحراسة عليه.

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ٣٢/٤.

(٢) ابن تغري بردي،م.س، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ٦٦/٥.

(٣) أبو الفدا، المختصر، ٣١٢٤.

جـ- عرض الملك الكامل التنازل عن القدس:

استمر الصليبيون بمحاصرة دمياط، ولكن بعضهم مل من طول الحصار، وعادوا إلى بلادهم، فقد غادر ليوبولد دوق استريا إلى بلاده في ٦١٦/١٢١٩، وحاول المندوب البابوي منع رحيله لخوفه على مصير الحملة، فلم يفلح، ولكن البابا استنهض همم الأوربيين بدعم الصليبيين في دمياط، فاتجهت النجدات الصليبية إلى مصر، فجددت نشاط القوات الصليبية.

أدرك الملك الكامل خطر وصول الإمدادات الصليبية، فأغار ثالثة على القوات الصليبية، ثم أغار مرة رابعة عليها ولكن هذه الغارات لم تكن كافية لهزم الصليبيين.

أعد بلاجيوس Plajius خطة لمهاجمة دمياط، فشيد مرمات عظيمة، وزودها أبراجا وقادها بنفسه، وهاجم بها دمياط، ولكن المدافعين عن المدينة حطموا الهجوم، فيما هاجم المسلمون المعسكر الصليبي، ففشل الهجوم، وأعاد الصليبيون الكرة على المدينة، ولكنهم ردوا، واستمرت محاولات الصليبيين بالإغارة على المدينة ليل نهار.

بادر الملك الكامل في ٦١٦/١٢١٩ بالهجوم على المعسكر الصليبي، وتمكن المسلمون من التوغل في المعسكر، ولكن الصليبيين صمدوا للهجوم، وأعدوا أنفسهم لمهاجمة المسلمين في معسكرهم، وعندما أحس المسلمون بالهجوم انسحبوا من المعسكر، ثم أعادوا الكرة عليهم فقتلوا عدداً كبيراً من المهاجمين الصليبيين(١) وأسروا المئات، وقد قدر عدد القتلى بأربعة آلاف صليبي(٢).

تحسن موقف المسلمين، وساء موقف الصليبيين بعض الوقت، فجدد الملك الكامل عرضه للصلح، وأرسل رسولين لعرض الصلح، يرافقهما اثنان من كبار أسرى

---

(١) Vitry, History of Jerusalem Op, Cit, ١٢٩.

(٢) Eracles, Recueil des historiens des croisades. H. occ, Vol. ٢.p. ٣٤١.

الصليبيين هما أندرو أوف ناتيل (Andrew of Nateil)[١] وجان درار سيس بالشروط التي سبق أن عرضها في شباط الماضي[٢]، ولكن الصليبيين طلبوا من الرسولين العودة من حيث أتيا.

وعاود الملك الكامل عرض الصلح على الصليبيين،ووافق أن يقدم مقابل احتفاظه بالشوبك والكرك ١٥ ألف دينار، وأبدى استعداده لدفع تكاليف إعادة تحصين مدينة بيت المقدس وباقي القلاع التي خربها أخوه الملك المعظم بالشام، وأن يترك احتساب تكاليف إعادة تحصين المدينة إلى لجنة مشتركة من المسلمين والصليبيين[٣]، وتقديم عشرين رهينة من أقاربه، يحتفظ بهم الصليبيون سنتين لتنفيذ هذا الاتفاق.

لم يوافق الصليبيون على هذه العروض لاحساسهم بما تعانيه مدينة دمياط من شدة الحصار، وتوقعهم وصول الإمبراطور فردريك الثاني بإمدادات صليبية من أوربا، بالإضافة إلى أنهم عدوا الانسحاب من دمياط عاراً، وأن الطريق لإعادة ممتلكاتهم في الشام هو القوة، وأن دمياط سوف تسقط إذا شددوا عليها الحصار، وعندها سوف تسقط مصر والأراضي المقدسة[٤].

لاحظ القديس فرانسيس الأسيسي[٥] (Francis Of Assisi) خلافات الصليبيين حول عروض الملك الكامل فلجأ إلى تسوية الأمر بنفسه، فاستأذن بلاجيوس بمقابلة الملك الكامل، وإقناعه بالدخول في الدين المسيحي، وبالفعل اجتمع بالملك الكامل

---

(١) Eracles, Ibid.

(٢) Grousset, Histoire de Croisades [illegible].

(٣) Virty, History of Jerusalem, Op, Cit ١٢٥. ، ابن الأثير، الكامل، ٢٩٧/٩.

(٤) Campell, The Crusades, P. ٣٨٦

(٥) هو مؤسس جماعة الإخوان الفرنسيسكان.

ووعظه،ووصف له الدين المسيحي، ودعاه إلى الدخول في المذهب الكـــاثوليكي[1]، وقد استمر القديس عدة أيام استمع خلالها الملك الكامل في دماثـــة المتمكـــن مـــن عقيدته، المحترم لعقيدة غيره[2]، وفي صبر وأناة، وبالغ في إكرامه، وغـــادر القديـــس معجباً بشخصية الملك الكامل.

رابعاً- سقوط مدينة دمياط:

تتابع وصول القوات الفرنسية والإنجليزية[3]، وكانت محملة على مـــا يقـــرب من عشر سفن جنوية[4]، فارتفعت معنويات القوات الصليبية، وصممت على مواصلة الحصار لمدينة دمياط، وسرعان ما أغار الملك الكامل على المعسكر الصليبي، وعـــرض الصلح على الصليبيين مرة رابعة، ولكنه لم يلق قبولاً.

أ- إحكام حصار دمياط:

بدأ الصليبيون بإحكام الحصار حول مدينة دمياط، من البر والبحر، وضيقـــوا على أهلها، ومنعوا وصول الأقوات إليهم، وبدأت حاميتـــها بالانهيـــار، وارتفعـــت الأسعار[5]، فبيعت البقرة بعد ذبحها بـــ ٨٠٠ دينار، ولم يبق بداخل دمياط ســـوى القليل من القمح والشعير[6]. ولكن سكان المدينة استمروا في قتال الصليبيين، وثبتـــوا مع قلة الأقوات، وكان الملك الكامل يرسل بعض العوامين ليتحسس أخبار الأهـــالي في دمياط، فكان شمايل[7] يسبح في النيل، بين مراكب الفرنج، فإذا دخل إليها اطمـــأن

---

(١) Runciman, History of the Crusades, ١١١/١٦٠.

(٢) محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع على مصر، ٥٩٠.

(٣) Eracles, Recueil des historiens des croisdes. H. occ, vol. ٢,p, ٣٤٣.

(٤) Runciman, op, cit

(٥) المقريزي، السلوك، ٢٣٥/١.

(٦) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٠/٤.

(٧) قدم شمايل من بعض قرى حماة، وكان يخاطر بنفسه ويذهب لطمأنة أهالي دمياط، فكسب ثقة الملك الكامل، حتى صار جانداراً ثم والي القاهرة، ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٠/٤.

سكان المدينة، ووعدهم بقرب وصول النجدات، والمؤن، وهدأ خاطرهم، وإليه تنسب خزانة شمايل[1].

وكان قائد دمياط الأمير جمال الدين الكناني من دمياط، فرمى قصيدة على رأس سهم إلى الملك الكامل تصف حالة دمياط، السيئة وانهيار معنويات الأهالي، وقرب انهيار المقاومة، وتطالب بالمدد بسرعة، لإنقاذ المدينة منها:

يا مالكي! دِمياطُ ثَغْرٍ هُدِّمتْ	شُرفاتُه كادَتْ تُجتُّ أصولُه
أشكو إليكَ عَدوٌّ سوءٍ أحدَقتْ	بِجميعِه فُرسانُه وَخيُولُه
فالبَرُّ قَد مُنعتْ إليْه طَريقُه	والبحْرُ عزّ لنصره أُسطولُه

ولما قرأها الملك الكامل، حاول مساعدة سكان المدينة، وحث حاميتها على الصمود، وأخذ يرسل بعض المتطوعين لرفع معنويات السكان.

لم يستسلم المسلمون لليأس، فلجأوا إلى كل الحيل لإيصال المؤن إلى مدينة دمياط، فكان الملك الكامل يدفع برجاله ليلا وهم يحملون المؤن المحفوظة داخل الجلود والمشمعات، فوضع الصليبيون حبالاً مزودة بالأجراس تدق عندما يصطدم السباحون بها، فيتجه الفرنج إلى المكان، ويقبضون على العوامين[2] أو يقتلونهم.

وكان المسلمون يعبئون الجمال بالأغذية بعد تفريغ بطونها، ويلقونها في النهر مع بعض الجيف فيجذبها أهالي دمياط ويأخذونها، ولكن الصليبيين نجحوا في وقف ذلك بوضع شباك في النهر[3].

---

(١) خزانة شمايل من أشهر سجون مصر، وكانت مأوى لمن حكم عليه بالقتل من قطاع الطرق وأصحاب الجرائم الكبيرة، (ابن واصل، مفرج الكروب ٤/٢٢).

(٢) Eracles, Recuell des Historiens des croisades. H. occ. Vol.٢, p. ٣٦٩.

(٣) المقريزي، السلوك، ١/٢٣٧.

نجح الصليبيون في عزل دمياط كلياً، واصبحت المدينة في وضع سيء، و لم يعد الملك الكامل يعرف ما يدور بداخلها(١).

ب- سقوط دمياط في أيدي الصليبيين:

حاول الملك الكامل الوصول إلى المدينة، فأرسل فرقة على رأسها ابن الجرمي لمهاجمة الصليبيين، ولكن الفرنج تمكنوا من القضاء على المحاولة(٢)، ثم أرسل مجموعة أخرى تمكن بعضهم من الوصول إلى المدينة حاملين بعض المؤن(٣)، وقتل الآخرون، لم تحقق هذه الغارات أهدافها، وكلفت المسلمين ما يزيد على سبعمائة قتيل وأسير، وجعلت الصليبيين أكثر يقظة وتصميما على احتلال المدينة.

شكل المندوب البابوي فرقة ممن يثق بهم، واتجه إلى خندق المدينة ليلاً، فوصل إلى باب السور الأول، وأحرقه، ثم وصل إلى باب السور الثاني فأحرقه، ووضع السلالم على السور الثالث، وأعلى السور، فأصيب المسلمون بالذهول، و لم يستطيعوا المقاومة.

ذكر ابن الجوزي: "إن الصليبيين استغلوا ما آلت إليه مدينة دمياط، وهاجموا المدينة، واستخدموا السلالم المتحركة، واعتلوا سور المدينة، فأصاب الأهالي الهلع، وطلبوا الأمان، واستسلمت المدينة على مرأى من الملك الكامل(٤)، ولكنه لم يستطع أن يعمل شيئاً، فبكى وأخوه الملك المعظم".

وقد وصف المقريزي سقوط دمياط فقال(٥) "تسور الفرنج السور، وملكوا دمياط، فكانت مدة الحصار ١٦ شهراً و ٢٢ يوماً، ووضع الفرنج السيف في

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٧/٤.

(٢) ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٦٣٢/٨.

(٣) Eracles, Op. Cit. ٣٤٥.

(٤) سبط بن الجوزي، م.س، ٦٥٣/٨.

(٥) ابن واصل،م.س، ٣٣/٤، المقريزي، السلوك، ٢٣٧/١.

الناس، فلم يعرف عدد القتلى، وجعل الفرنج الجامع كنيسة[1]، وحصنوا أسوار دمياط، وبثوا سراياهم في القرى يقتلون، ويأسرون، فحطموا البلاد، واشتد الخطب، وأرسلوا الأسرى إلى عكا".

لجأ الأمراء وكبار المسلمين إلى برج حصين، وظلوا حتى الظهر، رافضين الاستسلام على أمل أن يهاجم المسلمون المعسكر الصليبي، ويستعيدوا المدينة، ولكنهم استسلموا بعد أخذهم الأمان يوم الثلاثاء ٢٧ شعبان ٦١٦ الموافق ٥ تشرين الثاني ١٢١٩، وبعد أن تعذرت الأقوات.

وكان يسكن في دمياط حوالي ستين ألفاً غداة محاصرتها، لم يبق منهم بعد سقوطها سوى ثلاثة آلاف نسمة، كان منهم حوالي مائة شخص في صحة جيدة[2]، فقد قضى الجوع والطاعون على القسم الباقي، ولم تستطع القلة الباقية الوقوف في وجه الغزاة، وكانت الجثث في الشوارع، وعلى أرضيات المنازل وفوق الأسرة، وكان بعض الأطفال يصرخون وهم يطلبون الطعام من آبائهم أو أمهاتهم الموتى، وقد عثر على حوالي اربعمائة طفل أحياء في المدينة تم تعميدهم[3]، كذلك احتفظ الصليبيون بحوالي ٤٠٠ طفل آخر أسيراً رهائن، وبيع بعض الأسرى في سوق النخاسة، وسلموا الأطفال إلى الكنيسة لتحويلهم إلى المسيحية[4].

استولى الصليبيون على كميات كبيرة من الذهب والفضة والنفط، وكميات من الآلات الحربية والذخيرة، ووزعوا أحياء المدينة على الفرق الصليبية الموجودة مع الحملة[5].

---

(١) أبو الفدا، المختصر، ١٢٣/٣.

(٢) Vitry, History of Jerusalem ١٢٦.

(٣) Vitry, Ibid, ١٢٨.

(٤) محمد حلمي، مصر والشام والصليبيون، ١٩١.

(٥) Virty, Op, Cit, ١٢٨.

جـ- الخلافات بين الصليبيين:

تباينت آراء الصليبيين بعد سقوط دمياط على الأولويات الواجب اتخاذها، فقد اختلفوا على ملكية دمياط، إذ رأى الملك جان دي برين يسانده بارونات بيت المقدس أن دمياط أصبحت جزءاً من مملكة بيت المقدس، فيما رأى بلاجيوس المندوب البابوي ضرورة خضوع المدينة لسلطة الكنيسة، أي لسلطته بالذات لأنه ممثل البابا، ولكن الرأي العام للحملة عارض بلاجيوس في ادعائه ملكية المدينة[1]، وتأزمت الأمور بين الملك جان دي برين، ومندوب البابا، فأيد الفرسان الداوية، والاسبتارية، والفرنسيون وصليبيو بيت المقدس الملك دي برين، فيما أيد الإيطاليون بلاجيوس، وانتهى الأمر بعرض الأمر على الباب هونوريوس الثالث (The Pope Honorius III)، فأيد الملك في موقفه في ضم المدينة إلى مملكة بيت المقدس[2]، واختلف الصليبيون لدى تقسيم الغنائم، إذ شعر الإيطاليون بالغبن الذي أصابهم، وأعلنوا العصيان وطالبوا بمزيد من الغنائم، وأشهروا سلاحهم في وجه الجند الفرنسيين إذ لم يؤيدهم بلاجيوس في طلبهم، وإنقاذا للموقف أخرجت القوات الفرنسية من دمياط حتى لا تشتبك مع الإيطاليين، وأخيراً اتفق على:

- طرد القوات الإيطالية من دمياط، وتولى أمر ذلك فرسان الداوية، والقوات الفرنسية، وفرسان الإسبتارية.
- إعادة توزيع الغنائم، وزيادة نصيب الإيطاليين[3] منها.

وانقسمت آراء الصليبيين حول الزحف على القاهرة، فقد رأى قلة من الجند التوجه إلى بيت المقدس، والاستيلاء عليها، إذ كانت بلاد الشام مكشوفة تماماً، ولا قوات إسلامية فيها، ورأى الملك جان دي برين تحصين مدينة دمياط، ومنح الصليبيين

---

(١) Runciman, A History of Crusades . P.٣/١٦٢.

(٢) Runciman, Ibid. ١١١/١٦٢.

(٣) Setton, History of the crusaders, ٤٢٠.

قسطاً من الراحة، ريثما يصل الإمبراطور فردريك الثاني. ورأى بلاجيوس أن الطريق متيسر إلى القاهرة، وأن الزحف عليها، ومطاردة الأيوبيين في هذا الوقت مناسب، ويمكنهم من السيطرة على مصر، ومن ثم على بلاد الشام.

تفاقم الخلاف بين بلاجيوس والملك الصليبي الذي حاول توضيح صعوبة السيطرة على مصر والقاهرة، لقلة عدد الصليبيين بالنسبة إلى سكان مصر[١]، وبعد مدينة القاهرة عن دمياط، فآثر الملك مغادرة دمياط إلى عكا عام ٦١٧/١٢٢٠.

خامسا: فشل الحملة وانسحاب الصليبيين:

لم يتوقع المسلمون سقوط دمياط بأيدي الصليبيين لمناعتها، فخاب أملهم، وفر بعضهم إلى القاهرة، خوفاً من اقتفاء الفرنج أثرهم، بل أن الملكين الكامل والمعظم ذهلا لسقوط دمياط، وبكيا بكاء شديداً[٢]، وأخذ الناس يتدفقون على المساجد يشكون أمرهم لله، ويتضرعون إليه.

أ- استصراخ الملك الكامل العالم الإسلامي:

أرسل الملك الكامل رسله إلى العالم الإسلامي يستصرخهم لإنقاذ مصر من أيدي الفرنج[٣]، فبعث صدر الدين محمد بن شيخ الشيوخ محمد بن حموية إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله يستنجده، وسرعان ما كتب الخليفة إلى الممالك الإسلامية يدعوهم لنجدة مصر[٤]، ذلك أن الخليفة لم يتمكن من إرسال جنده، إذ كان المغول يتربصون بأراضيه، وكان المسلمون آنذاك في وضع حرج، وقد وصف ابن الأثير حال

---

(١) Campell, The crusades, ٣٨٨.

(٢) أبو شامة، الذيل، ١٧.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ٣٣/٤.

(٤) المقريزي، السلوك، ٢١٠/١.

المسلمين في تلك المرحلة بقوله "لقد بلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة، بمصاعب لم يبتل بها أحد من الأمم"[1].

ب- خطة الملك الكامل لمواجهة العدوان:

أعاد الملك الكامل خطته لدفع خطر الصليبيين عن مصر، فرأى استحضار أكـــبر عدد من المقاتلين المسلمين، وقال لأخيه الملك المعظم، "المصلحة أن تـــترل إلى الشـــام تشغل خواطر الفرنج، وتستجلب العساكر من الشرق"[2]، كما أعلن النفـــير العـــام وتمكن من جمع حوالي عشرين ألف مقاتل[3]، واختار مكاناً أكثر ملاءمـــة لقتـــال الصليبيين إذا ما فكروا في الزحف على القاهرة.

أحسن الملك الكامل اختيار مكان معسكره الجديد فقد كان مكاناً فســـيحاً، معتدل الهواء، مثلث الشكل[4]، يقع قبالة قرية جوجر[5]، تحيطه المياه من جهتين، ممـــا لا يتيسر للصليبيين الوصول إليه إلا بالسفن وسط مخاطر عديدة، وتميز المكان بقربـــه من الدفاعات الإسلامية التي ستكون محطات النجدات، ويمتـــاز المكـــان بحصانتـــه الطبيعية، إذ يحده بحر اشموم الذي يتصف جانباه بالانحدار الشديد، وسرعة التيار.

أقام الملك الكامل معسكره بعد سقوط دمياط بيومين، وعلى بعد مسيرة يـــوم منها، فبنى المعسكر، والمنازل والحمامات[6] على الضفة الشرقية للنيل[7].

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ٣١٧/٩.

(٢) م.ن.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ٧٩/١.

(٤) مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع على مصر، ٥٣.

(٥) بلدة قرب دمياط، ياقوت م.س، ١٤٢/٢.

(٦) ابن إياس، مرجع سابق، ٧٩/١.

(٧) ابن الأثير ، م.س، ٣١٧/٩.

شجع سقوط دمياط الصليبيين، وجعلهم يتطلعون لامتلاك مصر، فطالبوا البابا هونوريوس بمزيد من الأموال لتتمكن الحملة من تحقيق أهدافها، كذلك طالبوه باستعجال قدوم الإمبراطور فردريك الثاني، وإرسال المزيد من القوات إلى مصر، وفي أثناء ذلك شرعوا في تحصين دمياط، حتى أصبحت لا ترام.

تطلع الصليبيون إلى احتلال مدينة تنيس، فأغاروا على المدينة في رمضان ٦١٦/ تشرين الثاني ١٢١٩، وعندما وصلوا إلى قلعتها، وجدوها خالية من العساكر، كذلك كانت المدينة خالية من السكان، فاستولوا عليها، وعلى ما وجدوه فيها من المؤن والذخيرة، وكان المسلمون قد أخلوا المدينة قبل مدة من السكان، وانسحب جنود حامية تنيس[١] بعد سقوط دمياط.

انفرد بلاجيوس بالسلطة بعد ذهاب الملك دي برين إلى عكا، وأصدر تعليمات تقيد حركة السفن التي تنقل الجنود العائدين إلى أوطانهم، ليضمن عدم مغادرة القوات الصليبية إلا وفقاً لإرادته، إلا أن هذه التعليمات كانت محدودة الفاعلية، فقد عاد كثير من الإيطاليين، وغادر دمياط بعض القادة منهم رالف إيرل شيتر (Ralph Earl).

جـ- المناوشات بين الملك الكامل والصليبيين:

استغل الملك الكامل الحظر الذي فرضه بلاجيوس على حركة السفن الصليبية، وأرسل بعض السفن الحربية عبر فرع رشيد إلى قبرص، فهاجمت السفن الراسية في ليماسول Limasol فأغرقت بعضها، وأسرت البعض الآخر.

استجاب البابا لنداءات الصليبيين في دمياط بإمدادهم بالمال والرجال، ففي محرم ٦١٧ آذار ١٢٢٠ وصلت قوات صليبية إلى دمياط، يرافقها بعض رجال الدين وعلى

---

(١) تنيس مدينة تقع إلى الجهة الشمالية من بحيرة المنزلة التي كانت تعرف باسم بحيرة تنيس، جنوب بور سعيد، وقد أخليت من السكان عام ٥٨٨هـ في عهد صلاح الدين، وكانت تشتهر بصناعة كسوة الكعبة (المقريزي، الخطط، ١/٢٩٣).

رأسهم رئيس أساقفة ميلان هنري (Henry) ورسل الإمبراطور فردريك II، كذلك أرسل البابا الأموال من خزانة البابوية، وتتابع وصول الامدادات من ألمانيا، وفرنسا، بالإضافة إلى ثماني سفن أرسلها الإمبراطور فردريك الثاني على رأسها متى (Mathew) كونت بوليا.

حاول بلاجيوس استغلال الإمدادات المتزايدة عام ٦١٧/١٢٢٠ للزحف على القاهرة، إلا أن القوات الفرنسية والألمانية والإنجليزية لم توافقه، فأغارت القوات العسكرية المؤيدة للمندوب البابوي على البرلس، ونهبتها، فأعد لهم المسلمون كميناً، وتمكنوا من أسر الكثير منهم[١] وفر الباقون إلى دمياط[٢].

د- حشد الملك الكامل للقوات للمواجهة الحاسمة:

عاد الملك المعظم إلى بلاد الشام، رائده حشد العساكر وبعثها إلى مصر لتعزيز قدرتها الدفاعية، وكذلك الضغط على الصليبيين بالشام لتخفيف الضغط على مصر، وامتصاص بعض القوات الصليبية منها لمواجهة غارات الملك الكامل، ومرابطة عساكر الملك الأشرف بالقرب من أنطاكية وطرابلس.

قصد الملك المعظم قيسارية، ونصب عليها المنجنيقات، واستمر في قصفها بالمنجنيقات، فتسبب في إصابتها بإصابات بالغة[٣]، إلا أن المدينة قاومت الحصار مقاومة شديدة، فاضطر الصليبيون إلى إخلاء المدينة تحت جنح الظلام، فاخترق المسلمون الأسوار، واستولوا عليها بعد فرار حاميتها إلى عكا والقلاع الصليبية الأخرى، وقد قام المسلمون بتخريب القلعة تخريباً تاماً[٤].

---

(١) ذكر أن الملك الكامل قتل عشرة آلاف صليبي، وغنم خيولهم، وسلاحهم، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٦/٢٤٨.

(٢) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ٥/٧٢.

(٣) Eracles, Recueil des Historiens des croisades . H. occ. Vol.٢.p.٣٤٤.

(٤) ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٨/٦٠٤.

وقد وصف الشاعر شرف الدين بن عينين هذا الهجوم بقصيدة اقتطف منها[1]:

ولقد شهدتك يَوم قيسارِيّةٍ والشمسُ قَدْ نسَج القتال لَها ورْداً

فَجَعَلت عاليها مكانَ أَسَاسِها وألنْت للأخْشابِ فيها الجَلمَدا

ثم اتجه إلى قلعة الداوية في عتليت، فخرب الداوية البروج حتى لا يستعملها المسلمون، وتجمعوا في القلعة، و لم ينجح المسلمون في فتحها، فخربوا المنطقة المحيطة وعادوا إلى دمشق[2].

اتجه الملك المعظم بعد ذلك إلى قلعة الحجاج الحصينة، فقصفها بالمنجنيقات، ولكن المدينة صمدت، و لم يفلح المسلمون باحتلالها، لحصانتها، ولكثرة الإمدادات التي وصلتها، ولكن الهجمات الإسلامية على بعض قلاع الشام أجبرت الفرنج على سحب بعض قواهم من دمياط لدعم حامياهم في الشام، وربما تكون هذه الحوادث هي السبب في مجيئ الملك جان دي برين من دمياط إلى عكا[3]، بالإضافة إلى خلاف الأخير مع المندوب البابوي، بلاجيوس.

ظل الملك الكامل مرابطاً في المعسكر الذي أطلق عليه فيما بعد المنصورة، وقد اتخذ الكثير من الإجراءات لإشغال الصليبيين، ووقف زحفهم على القاهرة[4]، فوضع بعض السفن الإسلامية في بحيرة تنيس لمناوشة الصليبيين، وكلف الكثير من الفرسان والعربان بالإغارة على القوات الصليبية باستمرار، وشجع على أسر أو قتل الصليبيين، وخصص المكافآت لكل مسلم يأسر عدواً، وقد نجح المسلمون من أسر الآلاف من العساكر الصليبية أثناء هذه المناوشات والغارات.

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ٨٦/٤.

(٢) Stevenson, The Cursaders in the East. ٣٠٥.

(٣) Setton, A History of the Crusaders, ١١/٤٢٢.

(٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ٩٨١/٢.

بادر الصليبيون إلى بناء حصن تورون Toron في جيزة دمياط، وأحاطوه بسور من الطين لخلو المنطقة من الحجارة، وشيدوا برجاً خشبياً شديد الارتفاع لإرشاد السفن الذاهبة إلى دمياط، وأقام الصليبيون حصناً آخر اسمه بوتا فانت (Butavant) بين دمياط وقلعتها، فحد هذا الحصن من نشاط السفن الإسلامية في بحيرة تنيس، ووفر كميات من السمك للصليبيين كانوا يصيدونها من البحيرة، واطمأن الصليبيون على أنفسهم من الهجمات الخاطفة التي كان المسلمون يقومون بها، مع أنها كلفتهم أكثر من ثلاثة آلاف أسير[١].

أعاد بلاجيوس تنظيم الصليبيين، فمنع شرب الخمر، وارتياد الحانات، وأقام التحصينات، ويبدو أن حالة التراخي الصليبية شجعت الصليبيين على مغادرة دمياط، فقد غادرها رئيس هيئة الفرسان الاسبتارية جارتيبيه مونتاجو ومعظم الفرسان الفرنسيين، والقبارصة، غير أن الصليبيين سروا لدى سماعهم أن فردريك II حضر إلى روما، وتوجه البابا ، وتوج زوجته كونستانس (Constance) مقابل توجه الإمبراطور إلى المشرق في ربيع ١٢٢١/٦١٨.

تدفق الصليبيون عام ١٢٢٠/٦١٧ على دمياط حتى أصبحت دار هجرتهم[٢]، فقد قدم إليها الأسقف الألماني أولريخ (Ulrich)، واسقف باسو (Passau)، وعاد رئيس هيئة الفرسان التيوتون "هرمان فون سالزا" (Herman of Salza) على راس ٥٠٠ فارس، وأخذ عدد الصليبيين يزداد يوماً بعد يوم، متشجعين بامتلاك الإفرنج للمدينة، وتمكنهم من الديار المصرية[٣].

---

(١) Vitry , History of Jerusalem, ١٣٧.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٣٢٠/٩.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ٩٢/٤.

هـ- الزحف الصليبي على القاهرة:

قرر المندوب البابوي في ٦١٨/١٢٢١ الزحف على القاهرة، وأيده لويس دوق بافريا، وبطرس أف مونتاجو، كذلك ايده الاساقفة الآخرون[١] كرئيس أساقفة ميلان، وأرسلت سفارة رسمية إلى الملك جان دي برين تستعجله للحضور إلى دمياط للمشاركة في الزحف على القاهرة[٢]، استجاب الملك للدعوة، وأبحر من عكا إلى قبرص ومنها إلى دمياط.

تحركت القوات الصليبية في ٧ جمادى الأولى ٦١٨/٢٩ حزيران ١٢٢١ من دمياط إلى العادلية استعداداً للتقدم جنوب دمياط بحذاء النيل، وظل الجيش الصليبي خارج دمياط أربعة أيام انتظاراً لوصول الملك دي برين[٣]، وما أن وصل الملك حتى بادر مجلس الحرب الصليبي إلى التشاور في الأمر، فأمر بلاجيوس بالزحف على القاهرة للقضاء على قوات مصر العسكرية[٤]، فيما رأى الملك دي برين تأجيل الزحف انتظاراً لوصول الإمبراطور فردريك الثاني، وتجهزت القوات الصليبية للدخول مع المسلمين في معركة فاصلة، فأعدت البحرية الصليبية أكثر من ٦٠٠ سفينة من مختلف الأحجام[٥]، حملت الفرسان، ورماة السهام، وعدداً كبيراً من المشاة، بالإضافة إلى القوات البرية التي سارت بحذاء النهر إلى جانب السفن، وتقدمت هذه القوات جنوباً للتوغل في ديار مصر[٦]، فوصلت إلى فارسكور في ٢٥ جمادى الأولى ٦١٨/١٧ تموز ١٢٢١.

---

(١) Eracles, Recueil des Historiens des croisades, H. occ. Vol.٢. p ٣٤٩.

(٢) Grounsset, History de Croisades, P١١١/٢٣٦.

(٣) Eracles, Op, Cit, ٣٥٠.

(٤) Stevenson, The Crusaders in the East, ٣٠٥.

(٥) Setton, A History of the Crusaders, ١١/٢٤٢.

(٦) ابن واصل، مفرج الكروب، ٩٤/٤.

ولما علم الملك الكامل بزحف الصليبيين اتجه شمالاً، فعبر بحر أشموم، وتقدم نحو شار مساح، ولكنه تراجع ثانية إلى المنصورة، وجعل منها محور الارتكاز لجميع خططه، تابع الصليبيون زحفهم فوصلوا إلى شار مساح واستولوا عليها بعد مناوشات بسيطة، وتقدموا إلى أن وصلوا طرف جزيرة دمياط[1]، وأقاموا معسكرهم.

كلف الملك الكامل أمراءه جمع الناس من كل مكان لمواجهة خطر الصليبيين، فقام الأمير حسام الدين يونس والي الإسكندرية، والفقيه تقي الدين طاهر الحلي بجمع الناس من المنطقة الواقعة بين القاهرة وأسوان*، وقام الأمير علاء الدين جلدك والأمير جمال الدين بن صيرم بجمع المقاتلين من المنطقة الشرقية، ونشط الملك المعظم بجمع أعداد كبيرة، وكذلك الملك الأشرف، واتجه الجميع إلى مصر[2]. وبدأت الاستعدادات الإسلامية بنشاط، وكان الجميع مندفعاً لدعم قوات الملك الكامل[3]، فوصلت هذه الإمدادات إلى المنصورة[4]، يتقدمها الملك الأشرف موسى، وفي مؤخرتها الملك المعظم، وبينها الملك الناصر قلج أرسلان ابن الملك المنصور صاحب حماه[5]، والمجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص، والأمجد بهرام صاحب بعلبك[6]، فخرج الكامل واستقبلهم، "وأيقن بحصول النصر، والظفر بالعدو"[7]، وقويت معنويات المسلمين، وقدرت القوات الإسلامية بحوالي ٤٠ ألف فارس[8].

---

(١) جزيرة دمياط تقع بين فرع دمياط، وبحر أشموم، ويتقابل هذان الفرعان عند المنصورة على شكل مثلث قاعدته بحيرة تنيس، وراسه المنصورة. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، حـ٦،ص٢٣١ حاشية ٣ انظر الملحق.

(*) نودى بالنفير العام، وألا يبقى أحد، وذكروا أن ملك الفرنج قد اقطع ديار مصر فقال (؟)

"يهددونا بأهل عكا | أن يملكونا وأهل يافا
ومن لنا أن يلوا علينا | فالروم خير من الريافا"

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٣٢٢/٩.

(٣) ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٦١٩/٢/٨.

(٤) انظر الخريطة رقم ٤.

(٥) المقريزي، السلوك، ٢٤٢/١، أبو الفداء، المختصر، ١٢٤/٣.

(٦) ابن النظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ٩٢.

(٧) ابن واصل، مفرج الكروب، ٩٤/٤.

(٨) المقريزي، م.س، ٢٤٣/١.

و- عرض املك الكامل تسليم القدس للصليبيين

أصبح الجيش الإسلامي في مواجهة القوات الصليبية، ولا يفصل بين الطرفين إلا بحر أشموم، وكلا الفريقين في غاية الاستعداد، ومع أن الملك الكامل كان يتوقع الانتصار إلا أنه كان يخشى نجاح الصليبيين في هزيمة المسلمين، وتصبح الطريق مفتوحة أمام الصليبيين إلى القاهرة، لذلك تقدم بعرض للصلح بالشروط نفسها التي سبق أن تقدم بها[1].

لقد عرض الملك الكامل على الصليبيين مدينة بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا واللاذقية، وجميع الأراضي التي فتحها صلاح الدين عدا الشوبك والكرك مقابل جلاء الصليبيين عن دمياط، ولكنهم رفضوا ذلك، وطلبوا ٣٠٠ ألف دينار لإعمار بيت المقدس بالإضافة إلى الكرك والشوبك[2].

ز- المعركة الفاصلة:

لقد أصبحت المواجهة بين الطرفين أكيدة بعد رفض الصليبيين للصلح، وبعد ما تكاملت استعدادات الطرفين، فقد أحاط الصليبيون معسكرهم بالخنادق والأسوار، وكان المسلمون يسيطرون على ضفتي النيل من القاهرة حتى المنصورة بما في ذلك جوهر وطلخا متحصنين وراء بحر أشموم، وكانت المنطقة التي ستدور بها المعركة الحاسمة كثيرة البرك وقنوات الري.

وكان الأيوبيون في حماسة ظاهرة للجهاد[3]، ويستندون على قاعدة شعبية كبيرة تزودهم بالغذاء والعتاد، أما الصليبيون فكان غذاؤهم لا يكفيهم إلا بضعة أيام، إذ كانوا يعتقدون أن النصر سيحالفهم[4]، وسيحصلون على المؤن من المدن والقرى التي يحتلونها دون صعوبة.

---

(١) Runciman, A History of the Crusades ١١١/٢٣٥

(٢) ابن الأثير، الكامل ٣٢١/٩.

(٣) مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع على مصر، ٥٣.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ٣٢١/٩.

تراشق الطرفان بالمنجنيق، واستمرت المناوشات الخفيفة حوالي الشهر، تدارس خلالها الأخوة الملوك الكامل والمعظم والاشرف، مواقع القوات الصليبية، وتحركاتها البرية والبحرية، واتفقوا على إرسال بعض السفن المصرية في بحر المحلة لضرب مؤخرة السفن الصليبية[1]، وقطع خطوط المواصلات الصليبية البحرية إلى دمياط.

تقابلت السفن الإسلامية والصليبية، فتمكنت الأولى من أسر ثلاث قطع من الأسطول الصليبي بما فيها من الأموال والرجال والسلاح والمؤن[2]، فتشجع المسلمون بهذا النصر، وهاجموا السفن الصليبية الباقية فتشتت هذه الأخيرة، وقُطعت الطريق التي يستخدمها الصليبيون، بين دمياط ومعسكرهم، وأصيب الاسطول الصليبي بالشلل[3] بعد أسْرِ ست شواني وبطسة وجلاسة[4] من قبل المسلمين.

وتمكنت السفن الإسلامية من أسر مرمة (سفينة صليبية) والحراقات التي تحميها، وكلها محملة بالمؤن والسلاح، وعند ذلك أدرك الصليبيون أنهم يسيرون في أرض يجهلون طبيعتها وجغرافيتها[5].

وحاولت القوات الصليبية البرية عبور بحر أشموم لملاقاة المسلمين، إلا أن المنجنيقات الإسلامية أجبرت الصليبيين على التراجع[6]، فأرسل الملك الكامل بعض القوات الإسلامية التي تمكنت من التجمع قرب بحيرة تنيس، ومهاجمة الصليبيين من الخلف، فتشتت جهود القوات الصليبية بين القوتين الإسلاميتين، وأخذ الأهالي

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ٩٥/٤.

(٢) م.ن.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٤١/٦.

(٤) الجلاسة سفينة حربية كبيرة (سعاد ماهر، ٣٢٨).

(٥) ابن الأثير، م.س، ٣٢١/٩.

(٦) م.ن.

يكرون على الفرنج لإزعاجهم[١]، وهكذا نجح الملك الكامل في قطع خط الرجعة على الفرنج، وحاصرهم بقواته البرية.

واستكمالاً للقضاء على محاولة الزحف الصليبية على القاهرة، أمر الملك الكامل بعد العساكر الإسلامية بالعبور إلى معسكر الصليبيين، وتفجير قنوات النيل، وكان ذلك وقت الفيضان، فطغت المياه على جميع الطرق من أمام الصليبيين ومن خلفهم، ولم يبق لهم جهة يسلكونها إلا الشريط الضيق الملاصق للنيل الممتد من معسكر الصليبيين الشمالي حتى دمياط[٢]، وسرعان ما نصب المسلمون الجسور على النيل عند أشموم طناح، وعبروا للسيطرة على هذه الطريق الوحيدة للصليبيين إذا أرادوا العودة إلى دمياط، غرق معسكر الصليبيين بالمياه[٣]، وسُدّت جميع الطرق عليهم، وَصُعِب عليهم التقدم للأمام، ولم يعد لديهم إلا القليل من المؤن، وسرعان ما اجتمع القادة الصليبيون، وكان أمامهم خياران إما الإنسحاب إلى دمياط أو القيام بمحاولة انتحارية لزحزحة المسلمين عن مواقفهم، ولكنهم آثروا الانسحاب[٤].

حاول الصليبيون الانسحاب إلى دمياط يوم الخميس الموافق ٦ رجب ٢٦/٦١٨ آب ١٢٢١، وأشعلوا النيران في معسكرهم، وفي كل ما لا يستطيعون حمله[٥] من خيام وأمتعة حتى لا تقع في يد المسلمين، تنبه المسلمون إلى محاولة الانسحاب الصليبية، فتصدوا لهم، وازداد ارتفاع المياه، وشكلت مستنقعات، فتشتت القوات الصليبية بين هذه المستنقعات، وحاول الملك دي برين استنهاض همم

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢٤٦.

(٢) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢٤١/٢.

(٣) Setton, A History of the Crusaders, ١١/٤٢٠.

(٤) Eracles, Recueil des Historiens des croisades, H. occ. Vol. ٢.٣٣٠

(٥) المقريزي، م.س، ٢٤٤/١.

الصليبيين، والانقضاض على المسلمين، ولكن المسلمين تصدوا لهم، وعجز الصليبيون عن القتال لغوص خيولهم في الطين والمياه.

٦- استسلام الصليبيين وطلبهم الصلح:

أحس القادة الصليبيون بخطورة موقفهم، فالمياه تمنعهم من القتال، والجوع عضهم بنابه، والمسلمون يسيطرون على الموقف سيطرة تامة، واستمرارهم في المعسكر سيؤدي إلى هلاكهم، وسرعان ما أرسل المندوب البابوي بلاجيوس للملك دي برين يدعوه للتشاور وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وعندما اجتمع الإثنان اتفقا على أخذ رأي القادة الصليبيين لعرض الصلح على المسلمين(١).

أ- الصلح بين الكامل والصليبيين:

أرسل الصليبيون سفارة من جي الأول (Guy) صاحب جبيل، وجودفري مورست(٢) وجاك دي فتري (Jack de Vitry) إلى الملك الكامل، فأحسن الأخير استقبالهم، وطلبوا منه أن يسمح للقوات الصليبية الموجودة في مصر سواء كانت في دمياط أو خارجها بالإنسحاب في أمان ومعها ممتلكاتها، وأن يطلق المسلمون والصليبيون سراح الأسرى الذين لديهم في مصر والشام، وأن يعاد صليب الصلبوت للصليبيين على أن يتعهد الملك الكامل بإمداد الصليبيين بالمؤن اللازمة حتى يتم انسحاب الصليبيين من مصر، مقابل هدنة مدتها ثماني سنوات يكون من حق أي ملك أوربي خرقها، وتسليم دمياط وكل توابعها(٣).

استشار الملك الكامل إخوته وأهله، فأشار الملكان المعظم والأشرف بعدم الموافقة(٤)، وعدم إعطاء الأمان للصليبيين، وعليه أن يأسرهم جميعاً، وأنه لو فعل ذلك

---

(١) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ٥/٧٩.

(٢) Eracles, Recueil des Historiens des croisades, H. occ, vol.٢., ٣٥٠.

(٣) المقريزي، السلوك، ١/٢٣٧.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ٤/٩٧.

بإمكانه استرداد دمياط، بل يستطيع أن يسترجع جميع الإمارات الصليبية في الشام بعد أن يستسلم الجيش الصليبي المحاصر، ولكن الكامل كان يخشى مجيء الامبراطور فردريك II إذا ما أسر الصليبيين، ويرى أن استعادة دمياط بالقوة سيكلف غالياً وبخاصة أن بها عشرات ألوف الصليبيين، كما أن الخطر التتري أصبح يملأ الأسماع[1]، ولذلك وافق على الصلح، ووضع شروطاً عملية لتنفيذ ذلك[2].

اتفق المسلمون والصليبيون على تبادل الرهائن إلى أن يتم تسليم دمياط، وقدم الصليبيون الرهائن، كان من بينهم الملك جان دي برين، والمندوب البابوي بلاجيوس، ولويس دوق بافريا، ورؤساء جماعة الرهبان العسكرية، وهم جارتيه مونتاجو مقدم الاسبتارية بالأراضي المقدسة،وأخوه بطرس مونتاجو مقدم الفرسان التيوتون، وثمانية عشر آخرون[3].

أما الرهائن المسلمون فكان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل، وكان في الخامسة عشرة من عمره، وبعض خواصه[4] منهم شمس الملوك ابن أخت الملك الكامل[5].

تقررت الهدنة بعد تبادل الرهائن، وأقسم قادة الطرفين على تنفيذها[6] وارسلت سفارة صليبية إلى دمياط لإبلاغ حاميتها الصليبية بما تم عليه الاتفاق[7]، فتمردت الحامية، وهدمت بيوت الملك الصليبي، وجماعة الرهبان العسكرية، وقررت عدم تسليم المدينة للمسلمين، وقد شجعها على ذلك وصول إمدادات بعثها الامبراطور فردريك الثاني، عندها أرسل الملك دي برين أنه سيضطر إلى تسليم عكا إذا رفضوا تنفيذ المعاهدة، وأخيراً وافقت الحامية على تسليم المدينة، ولم يتأثر الملك

(١) ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٨/٢/٦٢٠.

(٢) Stevenson, The Crusaders in the East ٣٠٧.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٤١/٤.

(٤) م.ن، أبو الفدا، المختصر، ١٣١/٣.

(٥) ابن الجوزي، م.س، ٨/٢/٦١٩.

(٦) المقريزي، السلوك، ٢٤٢/١.

(٧) Runciman, A history of Crusades. P ١١١/١٢٩.

رفضوا تنفيذ المعاهدة، وأخيراً وافقت الحامية على تسليم المدينة، و لم يتأثر الملك الكامل بالخلاف الذي دار في دمياط بين الصليبيين حول تسليمها، إذ كان يعلم أن القوات الرئيسة للحملة واقعة تحت رحمته[1]، ولذلك خاف الصليبيون من عواقب ذلك[2].

عاني الصليبيون الجوع، والفيضان، فسارع الملك جان دي برين ورمى بنفسه بين يدي الملك الكامل، ورجاه تموين القوات الصليبية المحاصرة، فتأثر الملك الكامل، وأمر بإرسال الخبز والقمح والشعير للصليبيين لأربعة أيام، واستمر تموين الفقراء منهم لعشرة أيام أخرى، وهي المرحلة التي سبقت الجلاء.

وبعد ما استقرت الأوضاع بين الطرفين جلس الملك الكامل في المنصورة، ومد سماطاً عظيماً، حضره ما عنده من الرهائن الصليبية، ووقف أخوة الكامل المعظم والأشرف وبقية الملوك في خدمته[3]، وكان الملك الكامل قد فوض أخاه المعظم في التحدث نيابة عنه، وقال لرسول الفرنج، "الآن لا حكم لي وحديثكم مع ملك الشرق والأمر له"، وقد رأى الفرنج في هذا المجلس من عظمة الملك الكامل ما هالهم[4].

وفي اليوم الرابع لاستسلام الصليبيين أمر الملك الكامل بإقامة السدود، فانحسرت المياه عن الأراضي التي كانت عليها القوات الصليبية[5]، وكلف أخاه الملك الحافظ نور الدين أرسلان صاحب قلعة جعبر بناء جسر من السفن بين الضفة الشرقية، والضفة الغربية للنيل ليعبر عليه الصليبيون.

وبعد خروج القوات الصليبية من المنطقة الغارقة سلمت مدينة دمياط نهائياً للمسلمين يوم الخميس ١٩ رجب ٨/٦١٨ أيلول ١٢٢١، وكان تسليمها يوماً

---

(١) Runciman, Ibid

(٢) Stevenson, The Cursaders in the East, ٢٩٧.

(٣) ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٨/٦٥٣.

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب، ٤/٩٨.

(٥) Grousset, Histoire de Croisades, ١١١/٢٤٢.

وبعد خروج القوات الصليبية من المنطقة الغارقة سلمت مدينة دمياط نهائياً للمسلمين يوم الخميس ١٩ رجب ٦١٨/٨ أيلول ١٢٢١، وكان تسليمها يوماً مشهوداً، "عاد به الدين الإسلامي بعد ما ساءت به الظنون وخيف على الديار المصرية والشامية من الفرنج خوفاً شديداً"[١]. وعندما استلم المسلمون المدينة أطلق كل فريق ما لديه من الرهائن[٢]، ثم جلت القوات الصليبية عن مصر، وسار بعضها إلى أوربا بحراً فيما سار فريق آخر إلى عكا براً[٣]، وقيل إن الصليبيين حملوا معهم صليب الصلبوت لدى رحيلهم[٤].

وزود الملك الكامل الصليبيين المؤن والحاجيات الضرورية اللازمة لهم أثناء عودتهم إلى بلادهم، أما الأسرى فقد تم إطلاقهم بعد رحيل القوات الصليبية من دمياط، وكان بينهم أسرى منذ عهد صلاح الدين الأيوبي[٥]، وقدر عدد الأسرى الذي أطلق سراحهم من الصليبيين بحوالي ثلاثة آلاف عنصر.

عهد الملك الكامل إلى الأمير شجاع الدين جلدك المظفري التقوي باستلام مدينة دمياط وولاها له، وكانت المدينة حصينة جداً.

وكان للصليبيين صوار عظام بدمياط، فأرادوا أخذها إلى بلادهم، فمنعهم الأمير شجاع الدين من ذلك، فبعثوا إلى الملك الكامل يقولون "إن هذا الصواري لنا، وأن مقتضى الصلح أن ترجع إلينا"، فكتب الملك الكامل إلى شجاع الدين يأمره بإعطاء الصواري إليهم، ولكن الأمير اصر على الامتناع، وقال "إن الفرنج كسروا منبر جامع دمياط، وأهدوا قطعة لكل ملك من ملوكهم، وإذا أعادوا إلينا المنبر نرد

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ٩٩/٤.

(٢) Setton, A History of the Crusades, ٤٢٠.

(٣) ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٦٢٠/٨.

(٤) Runciman, A History of the Crusades. P.١٦٩/١١١.

(٥) المقريزي، السلوك، ٢٤١/١.

عليهم الصواري" فكتب الملك الكامل إليهم بذلك، فسكتوا، لقد أبدى الملك الكامل تسامحاً كبيراً مع الصليبيين، فزودهم أنواع الطعام الذي يحتاجونه[1]، وأرسله إلى معسكرهم قرب المنصورة.

انسحب الصليبيون من دمياط بعد ما قضوا في منطقتها ثلاث سنوات وأربعة أشهر وتسعة عشر يوماً، ودخلها الملك الكامل وفي رفقته أخوته وقادته، وعساكره، فكان يوماً خالداً، فأقيمت الاحتفالات، وارسلت البشائر بتحرير دمياط إلى الأقطار الإسلامية. وتبارى الشعراء في تمجيد هذا النصر، فقال شرف الدين بن عنين قصيدة منها[2].

سَلُوا صَهَواتِ الخَيلِ يوم الوَغى عَنّا إذا جَهِلت آياتُنا وألقنا اللُّدْنا

وأقام الملك الكامل لأخوته وأهله من الملوك الأيوبيين والأمراء مجلس طرب[3]، وقد غنت فيه جارية الملك الأشرف موسى بن الملك العادل "ست الفخر" ثم غنت جارية الملك الكامل، فتحمس قاضي غزة وأنشد شعراً[4]*. (وهذا من ابيات كثيرة).

ولما استقر الأمر عاد الملوك إلى بلادهم، ولكن الأفراح استمرت في مصر، واستمر تقاطر الشعراء على الملك الكامل لمدحه، وكان القاضي الأجل بهاء الدين

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ٤/١٠٠.

(٢) Campell, The Crusades, ٣٨٩.

(٣)المقريزي، السلوك، ١/١٨١.

(٤) ابن واصل، م.س، ٤/١٠١.

* أقام لهذا الدّين من سلّ سيفه صقيلاً كما سل الحُسام مجردا
فلم يَنْج إلا كلُّ شالوٍ مجدّلٍ ثَوَى منهمُ أو من تراه مقيّدا

زهير بن محمد بن القوصي من بين الشعراء الذين أشادوا بجهود الملك الكامل، ومقارعته الصليبيين[1].

ب- أسباب فشل الحملة:

انتشرت أخبار الحملة الصليبية الخامسة في الشرق والغرب، واحتلالها لمدينة دمياط مدة من الزمن، واستغرب الكثير فشل هذه الحملة التي كانت على وشك النجاح[2]، فما أسباب هذه الهزيمة والفشل.

لعل من أهم أسباب فشل الصليبيين ثبات القوات الإسلامية، وقدرة الملك الكامل على إعداد خطط الدفاع عن مصر، وتعديلها كل ما دعت الضرورة لذلك، ومساهمة الملوك الأيوبيين في دعم الملك الكامل، بالرجال والمال، ولا سيما الملك المعظم، وكان لخطة الملك الكامل التي نفذها جنده، براً وبحراً، وفتح مياه النيل على المعسكر الصليبي الفضل في هزيمة الصليبيين.

ومما سبق يمكننا أن ندرك سياسة الملك الكامل المرنة في مواجهة العدوان الصليبي على دمياط، وأسلوبه في إدارة المعركة، الذي كان له أثره الكبير في نجاحه لوقف زحف المعتدين. فقد حرص على أن يقود المعركة بنفسه، وأن يشرف على سيرها في مختلف المراحل، وأن يعد جميع الملاكات والمعدات للتصدي للمعتدين.

لقد اندفع الملك الكامل إلى ارض المعركة فرابط في العادلية مقابل الصليبيين يراقب حركاتهم وسكناتهم، وعندما احتلوا برج السلسلة توخى أن يقفل نهر النيل في وجه السفن الصليبية بإغراق عدد من السفن، وكان يستخدم أسلوب الهجوم أحياناً والدفاع أحياناً أخرى، واستنهض المسلمين لدعمه، وأثار حماس الرعية للوقوف أمام الصليبيين لدعم قدرات العساكر الإسلامية، ومنحهم الثقة والتقدير، وأحسن استغلال الأعراب في تصيد الصليبيين وقتلهم والنيل في إغراق المعسكر الصليبي.

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢٣٧/١.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٠٥/٤.

واستفاد الملك الكامل من الأخطاء التي وقع بها رجال الدين الفرنجة، وعلى رأسهم المندوب البابوي، ومحاولة الأخير التسلط على الحملة، وقيادته لها، مع أنه ليس عسكرياً وعدم قبوله لطلبات الصلح التي عرضها المسلمون، فأثار الملك الكامل حماس الجند للثبات وزاد من قدرتهم القتالية، وكسب ثقة الخليفة العباسي، وجعله يكتب إلى الممالك الإسلامية المختلفة لدعم جبهة القتال الإسلامية.

وأدرك الملك الكامل جهل الصليبيين بجغرافية مصر، ولا سيما طبيعة الطريق التي سلكوها صوب القاهرة، ذلك أنهم سلكوا الطريق المحاذي لفرع دمياط ماراً بفارسكور وشارمساح والمنصورة، وهو يمتاز بكثرة ترعه وقنواته، والمنطقة هذه تشبه شبكة صياد، فأحسن استغلالها بكثرة الكمائن للإيقاع بالصليبيين[1].

وأخطأ الصليبيون عندما ما أهملوا عامل الزمن، فلم يحسنوا استغلال الزحف على القاهرة، ذلك أن موعد الفيضان قد اقترب، وخطره ازداد، فكان الزمن عاملاً في هزيمة الصليبيين، ولو أنهم زحفوا مباشرة بعد سقوط دمياط في ايديهم فلربما اختلف الأمر[2]، فقد كان المسلمون في وضع ضعيف ، ونفسياتهم ليست عالية، فكان لتأخر الصليبيين في الزحف على القاهرة فرصة للمسلمين لإعادة تنظيم صفوفهم، واستقبالهم للنجدات من العالم الإسلامي، فتحسن وضعهم.

وربما ساعد اختلاف الكلمة بين الملك جان دي برين وبلاجيوس في هزيمة الصليبيين، إذ أن هذا الخلاف أثر في نفسيات الكثير من القادة والعساكر، فكان عطاؤهم ضعيفاً في المعركة، وخروجهم على القيادة واضحاً، فكان الصليبيون كثيراً ما يتصرفون من تلقاء أنفسهم، وعاد كثير من العساكر إلى بلادهم فيما كان الصليبيون يتهيأون للزحف على القاهرة، و لم يعبأ مئات العساكر لتعليمات بلاجيوس التي تمنع العودة إلى أوربا مع أنه هددهم بالحرمان.

---

(1) Runciman, A History of the Crusades ٣/١٨٩.

(٢) جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبي على مصر، ٢٤١.

وساهم الامبراطور فردريك II في هزيمة الصليبيين بطريق غير مباشر، فوعوده الكثيرة بالقدوم إلى المشاركة في الحملة كان عاملاً هاماً في تاخير كثير من الأمور كالهجوم على القاهرة أو غيرها انتظاراً لمجيء الإمبراطور لقيادة الحملة، ويبدو أن الإمبراطور كان همه الوحيد من وعوده للبابا المشاركة بالحملة هو أن يقوم البابا بتتويجه إمبراطوراً على ألمانيا، فبعد حصوله على ما يريد أخذ يماطل.

و لم يتوان الملك الكامل في عرض الصلح على أعدائه، وأجزل لهم العطاء إيماناً منه بأن الحوار والتفاوض هما البلسم الشافي لكل داء، و لم يشتط في شروطه عندما عرض الصليبيون الإنسحاب، بل كان ضعيفاً في مطالبه، ومع أن مستشاريه رأوا أنه من الافضل ترك الصليبيين يموتون جوعاً لقلة القوت إثر غرق معسكرهم بمياه النيل، إلا أنه آثر ألا يستفز الصليبيين في أوربا، وأن يعلم الإفرنج درساً في الإنسانية فلم تثره الجرائم التي اقترفوها لدى احتلالهم دمياط، فزود الجنود الصليبيين ما يحتاجون إليه من غذاء، وسمح لهم بمغادرة مصر بهدوء بعد ما مكثوا فيها مدى ثلاث سنوات وأربعة أشهر وتسعة عشر يوماً[(١)].

و لم ينس الملك الكامل فضل الملوك الذين وفدوا لنجدته، فأقام حفلة تكريماً لهم، وكرم الملك المعظم لخدماته الجلى بأن جعله الناطق الرسمي للمسلمين، وكان لاسترداد دمياط ورحيل الفرنج عن مصر صداه في جميع أنحاء العالم الإسلامي، فأقيمت الزينات، وأقبل الناس يهنئون الملك الكامل على ما بذله من جهد لحماية البلاد.

وهكذا أحسن الملك الكامل استغلال جميع الظروف لدفع خطر الصليبيين، و لم يستسلم لضغوط الهجمات الصليبية المتتالية، والنكسات التي أصابت الوضع العسكري لدى جنده، فألهمه الله الصبر، وخطط، وأحسن التخطيط، ومواجهة الصليبيين إلى أن حقق الله النصر.

---

(١) Campell, The Crusades, p ٣٨٩.



الفصل الثاني

تسليم بيت المقدس

أولاً: الظروف التي هيأت تسليم بيت المقدس.

ثانياً: الإتصالات بين الملك الكامل والإمبراطور فردريك الثاني.

ثالثاً: سير الحملة الصليبية السادسة.

رابعاً: صلح يافا وتسليم القدس للصليبيين.

خامساً: صدى تسليم بيت المقدس للإمبراطور فردريك الثاني.

سادساً: استمرار العلاقة بين الكامل والإمبراطور فردريك الثاني.

الفصل الثاني

تسليم بيت المقدس

تعاون أخوة الملك الكامل والملوك الأيوبيون في مواجهة العدوان الصليبي على مصر، ونجحوا في إحباط هذا العدوان الذي قاده الملك جان دي برين، ونائب البابا الكاردينال بلاجيوس في الحملة الصليبية الخامسة، التي انتهت بعقد هدنه بين الطرفين مدة عشر سنوات، ولكن الأخوة تنازعوا فيما بينهم بعد جلاء الصليبيين عن دمياط، واستعان الملك المعظم بجلال الدين منكبرتي خوارزم شاه، واستنجد الملك الكامل بالإمبراطور فردريك الثاني، و لم توقف الهدنة السابقة أطماع الصليبيين في الشرق الإسلامي، بل استمروا في تطلعاتهم لاحتلال بيت المقدس، وكان الإمبراطور فردريك الثاني الأمل في قيادة الحملة الجديدة لإعطائها الزخم الذي كان متوقعاً منها، وقد حاولت في هذا الفصل أن أوضح المواقف التي اتخذها الملك الكامل خلال قدوم الإمبراطور فردريك الثاني إلى بلاد الشام لتسلم بيت المقدس.

تهيأت الظروف للملك الكامل والإمبراطور فردريك الثاني التعاون فيما بينهما، إذ وعد الملك الكامل بالتنازل عن بيت المقدس للأمبراطور فردريك إذا دعمه ضد أخيه الملك المعظم، ولكن الأخير توفي، فتردد الملك الكامل في تنفيذ الوعد الذي قطعه، وبعد مفاوضات مضنيه سلم الملك مدينة بيت المقدس للصليبيين.

حاولت في هذا الفصل أن أبين الظروف الدولية التي هيأت لتعاون العاهلين الكامل وفردريك،، وسير الحملة السادسة إلى المشرق، وشروط صلح يافا،

ومواقف الملك الكامل في الرد على منتقديه، وحرصه على استمرار التعاون مع الإمبراطور فردريك الثاني فيما بعد.

أولاً: الظروف التي هيأت تسليم بيت المقدس.

لم تحقق الحملة الخامسة التي قادها الملك جان دي برين هدفها، وانتهت بمعاهدة صلح وقعها الملك الكامل وقادة الصليبيين عام ٦١٨/١٢٢١. إلا أن نتائج الحملة لم تطمئن الملك جان دي برين، ولم تصرفه عن محاولات احتلال بيت المقدس، فذهب بنفسه عام ٦١٩/١٢٢٢ إلى إيطاليا لمقابلة البابا، ليشرح له ما آلت إليه أوضاع الفرنجة من سوء في بلاد الشام بعد فشل الحملة السابقة، كذلك التقى الإمبراطور فردريك الثاني، وحثه على القيام بحملة جديدة على الشرق (الحملة السادسة) تنقذ موقف الصليبيين المتدهور[1] ثم زار فرنسا وإسبانيا لإثارة حماس ملكيهما للمساهمة في تخليص بيت المقدس من المسلمين.

أ- حالة مصر وبلاد الشام بعد الحملة الخامسة:

تحسنت مكانة الملك الكامل بعد خروج الصليبيين من دمياط عام ٦١٨/١٢٢١، واكتسب احترام العالم الإسلامي، وفرض سلطانه على الممالك الأيوبية، وتوقع أن يسير الأمراء والملوك الأيوبيون في فلكه، وأن يؤيدوا سياسته ومشاريعه المستقبلية، غير أن أخاه الملك المعظم حاول الخروج على طاعته، وتطلع لتوسيع أملاكه، فهاجم حماه واستولى على بعض أعمالها[2]، فأمره الملك الكامل بوقف العمليات العسكرية ضد حماة، فامتثل الملك المعظم لتعليمات أخيه، وكظم غيظه[3] إلا أن التوتر بين الملك المعظم وأخويه الكامل والأشرف[1] استمر، إذ اعتقد

(١) عاشور، الحركة الصليبية، ٢/٩٩٤، باركر، الحروب الصليبية، ١٠٩.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ٤/١٢٩.

(٣) المقريزي، السلوك، ١/٢٥٠، أبو الفدا، المختصر، ٣/١٣٢.

الملك المعظم أن أخويه السابقين تمالا عليه[1]، وترجم ذلك إلى خلاف شديد، عندما عاد الملك الأشرف من مصر إلى خلاط ماراً بدمشق و لم يقبل ضيافة أخيه الملك المعظم، ونزل في سرادق والده[2].

ب- استنجاد الملك المعظم بالخوارزميين:

سعى الملك المعظم إلى إضعاف شوكة أخويه الكامل والأشرف، فدعم التمرد الذي قام به أخوه شهاب الدين على أخيه الملك الأشرف في خلاط، إلا أن الأخير نجح في احتواء التمرد، كذلك نجح الملك الكامل في عزل أخيه الملك المعظم عن سائر الأمراء الأيوبيين، ولما شعر المعظم بالخطر الذي يتهدده اتصل بخوارزم شاه لدعمه، فأعانه على أخيه الملك الأشرف موسى، ووعده بأن تكون له الخطبة والسكة في دمشق[3]، وأقام الملك المعظم حلفا مع صاحب إربل، وأرسل ولده الملك الناصر داود ليكون رهينة[4] لديه دلالة على صدقه.

أحس الملك الأشرف بخطر الدولة الخوارزمية الذي بات يهدد الممالك الأيوبية قاطبة، إذ أصبحت أملاكها تجاور أملاك الأيوبيين، فهرع الأشرف عام ٦٢٣/١٢٢٦ إلى أخيه المعظم طالباً منه العمل بسرعة لتوحيد جبهة البيت الأيوبي، أمام الخطر الخوارزمي[5]، فاستغل الأخير الفرصة، وتمكن من إجباره على التعهد بمساعدته في الاستيلاء على حمص وحماه، ومهاجمة الملك الكامل في مصر، ولكن الأشرف ما كاد يفلت من يد أخيه المعظم حتى "رجع عن جميع ما تقرر بينه وبين أخيه المعظم، وتأول

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣/١٠٧.

(٢) ابن تغري بردي، م.س، ٦/٢٥٥.

(٣) المقريزي، م.س، ١/٢٥٢.

(٤) ابن تغري بردي، م.س.

(٥) أبو الفداء، المختصر، ٣/١٣٥.

في إيمانه التي حلفها أنه كان مكرها عليها، وأكد تحالفه مع الكامل، وأخبره بكل ما حدث"[١].

جـ- اتصال الملك الكامل بالإمبراطور فردريك الثاني:

أدرك الملك الكامل الخطر الذي يتهدده من تحالف أخيه المعظم مع خوارزم شاه، فكان أن رد على ذلك، بأن استعان بالامبراطور فردريك الثاني، وأرسل له الأمير فخر الدين يوسف وتعهد له بمنحه بيت المقدس، وجميع فتوحات صلاح الدين بساحل الشام[٢] ليشغل سر أخيه المعظم[٣]، لإضعاف شوكة المعظم وتحجيمه، أحسن الإمبراطور استقبال مبعوث الملك الكامل، ورد بسفارة مماثلة تحمل "هدية سنية وتحف غريبة، كان فيها عدة خيول، منها فرس الملك، بمركب ذهب مرصع بجوهر فاخر"[٤].

استقبل الملك الكامل مبعوث الإمبراطور بيراردوا بالسرور البالغ خارج القاهرة بنفسه، وأكرمه إكراما زائداً، وأعد له هدية فاخرة فيها الكثير من تحف اليمن والهند، وسرج من ذهب، وجوهرة بعشرة آلاف دينار[٥]، وكلف جمال الدين بن منقذ الشيرزي للسير بهذه الهدية.

عرج مبعوث الإمبراطور على دمشق، وطلب من الملك المعظم تسليم بيت المقدس، ولكن المعظم أغلظ له القول، وقال "قل لصاحبك ما أنا مثل الغير، وما له عندي سوى السيف"[٦].

---

(١) م.ن.

(٢) م.ن ١٣٨/٣.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٣٤/٤.

(٤) المقريزي، السلوك، ٢٦٠/١.

(٥) م.ن.

(٦) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٤٢٤/٨.

وبادر الملك المعظم بتجهيز العساكر إلى نابلس[1] لحماية القدس من مطامع الإمبراطور، وأنفق في هذه العساكر مبلغ تسعمائة ألف درهم[2]، ولكن الموت عاجله عن عمر يقارب السابعة والأربعين عام ٦٢٤/١٢٢٧، وخلفه ابنه الملك الناصر داود، ولا شك أن وفاة الملك المعظم عيسى وضعت حداً لمشاكل الملك الكامل، فزالت مخاوفه، وانهار التحالف بين خوارزم شاه وصاحب إربل والمعظم، فبدأ الملك الكامل يتطلع إلى ضم بلاد الشام تحت سلطانه.

د- شخصية الإمبراطور فردريك الثاني وطموحاته:

تعد حياة فردريك الثاني من أهم النقاط المثيرة للجدل في تاريخ أوروبا بأسرها، فقد عاش عند مفترق الطرق التي تفصل الشرق عن الغرب، (وشملت امبراطورية ألمانيا بكل مقاطعاتها فضلا عن إيطاليا وصقلية)، وهو ينحدر من عائلة هوهنشتاوفن[3] من أب ألماني هو هنري السادس وأم نصف إيطالية هي كونستانس وريثة عرش صقلية[4]، وقد تمكن هنري السادس من الإستيلاء على مملكة صقليه باسم زوجته كونستانس وأقام بها، وبعد وفاته سنة ٥٩٥/١١٩٨م تم تتويج أرملته كونستانس في بلرم على عرش صقلية، إلا أن المنية عجلت بوفاتها أيضاً في نهاية العام نفسه، تاركة ابنها الذي لا يتجاوز الثالثة من العمر تحت وصاية البابا إنوسنت الثالث(٥)، وقد عاش الإمبراطور في صقلية، وتميز منذ طفولته بميل خاص نحو الشرق وأساليب الحياة الشرقية، واتقن اللغة الإيطالية والألمانية والعربية، وربما كان إتقان اللغة العربية أكثر

---

(١) م.ن، م.س، ٤٢٧/٨.

(٢) يوسف حسن غوانمه، إمارة الكرك الأيوبية، ٢١٥.

(٣) عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ١٦٢/١.

(٤) الطيبي أمين توفيق، "دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس"، عاشور، "الإمبراطور فردريك الثاني والشرق العربي"، المجلة التاريخية المصرية، ١ المجلد الحادي عشر ١٩٦٣.

(٥) أحمد عزيز، تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة أمين توفيق الطيبي (الدار العربية للكتاب: ١٩٨٠) ٩٤.

من الألمانية لكون جزيرة صقلية كانت جزءاً من العالم العربي الإسلامي من الناحية الحضارية، وأن العرب المسلمين كانوا أغلبية بين سكانها في ذلك الوقت[1]، كذلك كان يتحدث اللغة الفرنسية واليونانية واللاتينية أيضاً[2]، وفي النصف الأول من القرن الثالث عشر تربع على عرش الإمبراطورية الألمانية، وقد شهد ذلك القرن نزاعا بين السلطتين الدينية والدنيوية لسيادة العالم المسيحي[3].

وتجسد هذا النزاع في شخصية فردريك والبابوية، فقد رفض فردريك الإنصياع لنزعة البابوية التي تؤكد على الاستئثار بالسلطتين الدينية والدنيوية، كذلك عارضت البابوية توحيد فردريك صقلية وألمانيا[4]، لأن ذلك التوحيد قد أدى إلى تهديد ممتلكاتها في إيطاليا[5]، وظلت البابوية تنظر إلى فردريك نظرة ريب بسبب علاقته القوية الودية مع ملوك العرب، وقد وصلت تلك العلاقة إلى اتخاذه قسماً من العرب حرسا خاصا له، لحمايته من دسائس البابا[6]، وكانت صقلية في تلك الحقبة التاريخية تزخر بمعطيات وآثار الحضارة العربية التي ازدهرت أيام الإمبراطور فردريك، وجعلت بلاطه ذا سمة عربية أكثر من سمته الإيطالية، وكان لشخصيته أثر كبير في جعل الحضارات العربية واليونانية واللاتينية تعيش جنبا إلى جنب في تسامح وسلم في صقلية[7]، إن هذه النبذة عن فردريك ستفيدنا فيما بعد، ولا سيما بعد حملته على الشرق، تلك التي انتهت برفد العالم الأوروبي بمعطيات الحضارة الإسلامية.

---

(١) Kantorowic Frederick the second. P١٢٢.

(٢) رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ٣/٣١٢.

(٣) عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ٣٩٤-٣٩٥.

(٤)الطيبي، "دراسات وبحوث"، ٦٩.

(٥)م.ن.

(٦) Kantorowic Op. Cit,. P.١٢٢.

(٧) الطيبي، م.س، ٦٩.

ثانياً: الاتصالات بين الملك الكامل والإمبراطور فردريك الثاني.

تطلع الملك الكامل لإقامة نوع من العلاقات السياسية مع الإمبراطور فردريك مستمداً من هذه العلاقات نوعاً من القوة التي تخيف منافسيه في الشام، وبخاصة الملك المعظم.

ومن المصادفات التاريخية أن الإمبراطور من جانبه كان يحاول أن يحسن مكانته في أوروبا بين الملوك والأمراء وأمام البابوية، فكان اتصال الملك الكامل بلسماً لمشاكله، إذ قطع وعداً للبابا بعد تتويجه إمبراطوراً على روما بالمشاركة في الحملة الخامسة المتجهة إلى دمياط، سنة ٦١٥/١٢١٨[١]، ولكن الإمبراطور أخذ يماطل في تحقيق وعده الذي كانت البابوية تنتظره بفارغ الصبر، وقد علل (عاشور) سبب مماطلته تلك بالخروج بحملة جديدة إلى الشرق بعدة أسباب منها خوفه أن يترك بلاده، وحرصه على ألا يدخل في حرب مع المسلمين، لأن إمبراطوريته في ألمانيا وإيطاليا كانت في حالة صراع، فقد اشتدت سطوة كبار أمراء الإقطاع في ألمانيا، وتألبت المدن اللمباردية في شمال إيطاليا عليه، فضلا عن رغبة البابوية في التصدي له، ومحاولتها إحلال الكوارث بألمانيا وإيطاليا[٢]، أما بالنسبة عدم رغبته في الدخول في حرب مع المسلمين، فيعزى إلى تأثره بالإسلام، وتسامحه مع المسلمين في الوقت الذي اشتدت فيه كراهية الغرب الأوروبي للإسلام[٣]، والشاهد التاريخي على ذلك ما قاله ابن واصل فقد وصفه بأنه كان "مائلا إلى المسلمين لأن مقامه في الأصل بلاد صقليه وأهل تلك الجزيرة مسلمون"[٤]، وتصرفاته التي قام بها في بيت المقدس كانت خير دليل على تأثره بالإسلام والمسلمين، وهذا ما سنوضحه تباعاً، وأضاف عاشور سبباً

---

(١) عاشور، الحركة الصليبية، ٢/٣٩٥.

(٢) عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ١/٣٩٦-٣٩٧.

(٣) عاشور، "الإمبراطور فردريك والمشرق العربي". ١٩٨. (مقال).

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ٤/٢٣٤.

آخر هو كراهية فردريك للبابوية والكنيسة الغربية التي ناصبته وأباه العداء[1]، ومما زاد من هذه الكراهية إقامته في الشرق وسؤاله عن مركز الخليفة عند المسلمين، فأجابه فخر الدين[2] بن شيخ الشيوخ "بأن نسب الخلفاء يرجع إلى الرسول محمدﷺ ، وأن الخلافة مستمرة في بيت النبوة[3] "فأعجب الإمبراطور بهذا النسب الذي يتنافى مع البابا الذي لم تكن له علاقة مع السيد المسيح، مَعَ أنّه يدعى الحق الشرقي في حكم المسيحيين[4].

التقى فردريك في سان جرمان بمندوبين بابوين، ووعدهما بأنه سوف يقود حملة جديدة ويتجه بها إلى الشرق[5]، وتعهد أيضاً سنة ١٢٢٧/٦٢٥ للبابا بإدارة الحرب ضد الشرقيين سنتين، وأمر بأن يبقى ألف فارس افرنجي في بلاد الشام خلال تلك السنتين لخدمته الخاصة، أو دفع خمسين ماركا مقابل أي مقاتل يتطوع لإكمال هذا العهد، كذلك وافق على تجهيز خمسين سفينة حربية ومائة سفينة أخرى لنقل المشاه تكفي لحمل عشرين ألف مقاتل مع ثلاثة فرسان بكل سفينة. ومعهم خدمهم بمرافقيهم، وليؤكد حسن نيته وضع مائة ألف أوقية من الذهب في خزينة هرمان فون سالزا في روما، على أن تعاد هذه الأموال إليه حال وصوله لتسديد تكاليف الحرب، وإذا أخفق بسبب من الأسباب كالموت مثلا، فتكرس هذه الأموال لحاجة القدس، وأقسم على هذه الشروط وأعلن في الوقت نفسه أن من ينكث بهذا القسم يستحق عقوبة الحرمان من الحقوق الدينية، ووافق الإمبراطور أيضاً على قرار العقوبة بصورة طوعية[6].

---

(١) عاشور، الإمبراطور فردريك والمشرق العربي، ١٩٩(مقال).

(٢) ورد ذكره في الفصل الأول.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٥١/٤.

(٤) عاشور، الإمبراطور فردريك والمشرق العربي، ١٩٩.

(٥) رينسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ٣١٥/٣.

(٦) م.ن.

إن شروط الإتفاقية تعد فريدة في نوعها من ناحية القسوة والصرامة، لأن الإمبراطور فردريك قدم موارد امبراطوريته إلى البابويه بسخاء، وتحمل عبء مسؤولية لم يقدر العالم الأوروبي كله على حملها، ولم تحتو الشروط على أية فقرة تعفيه من العقوبة حتى المرض الذي لا يقبل أن يكون عائقا في سبيل تنفيذه الحملة، أما في حالة وفاته فإن ابنه مسؤول عن تنفيذ هذه الحملة، ولم تنفذ هذه البنود في عهد أنوسنت الثالث المتشدد، وإنما نفذت خلال بابوية هونوريوس الثالث الذي اتصف بالسهولة، ومن المدهش أن فردريك نفسه الذي يعد أكثر الحكام استقلالا في القرون الوسطى قد قبل بصورة طوعية هذه المسؤولية[1].

وهكذا تهيأت الظروف لقيام الإمبراطور فردريك الثاني بحملته، ولم يكن استنجاد الملك الكامل الدافع الوحيد الذي حرك الإمبراطور فردريك الثاني للذهاب إلى الشام، وإنما كانت البابوية تضغط عليه ضغطاً شديداً للقيام بحملة صليبية جديدة تصلح الوضع الذي نجم من فشل الحملة الصليبية الخامسة، وغني عن البيان أن تلك الفترة تعرف في التاريخ الأوروبي باسم عصر البابويه والإمبراطوريه، نظراً لما احتدم من خلاف وما نشب من حروب بين السلطتين الدينية والعلمانية في غرب أوروبا، وكان الإمبراطور فردريك متخوفا من تنفيذ وعده الصليبي لئلا يترك البابا حراً طليق اليد في العدوان على مصالح الإمبراطوريه أثناء غيابه، ولذلك أخذ فردريك الثاني يماطل البابويه ويؤجل مشروعه الصليبي، فأصدر البابا غريغوري التاسع قرار الحرمان عليه عام ١٢٢٧/٦٢٤.

ثالثاً: سير الحملة الصليبية السادسة.

تهيأت الظروف لقيام الإمبراطور فردريك بحملة على المشرق بعد استنجاد الملك الكامل به، وأخذ البابا هونوريوس يهيء الجو لتنفيذ هذه الحملة، فحرص على

(١) Setton, A History of the Crusades, P.٤٤٠.

أن يزيد توطيد علاقة فردريك بالأرض المقدسة، فرتب زواج فردريك من إيزابيلا بنت جان دي برين[1] ملكة بيت المقدس عام ٦٢٢/١٢٢٥، توفيت إيزابيلا بعد زواجها بثلاثة أعوام، وبعد ما أنجبت طفلا اسمه كونراد (Conrad)، صاحب الحق الحق الشرعي في مملكة الصليبيين بالشام، وبهذا صار من حق فردريك أن يتولى العرش وصياً على كونراد، رغم احتجاج الملك جان دي برين، فاتخذ لقب ملك بيت المقدس باعتباره من حقوق ابنه من إيزابيلا[2]. وأخذ يمين الولاء من أمراء الإقطاع بالمملكة[3].

ظل البابا هونوريوس الثالث يلح على الإمبراطور فردريك للوفاء بوعده، والأخير يتباطأ، وفي عام ٦٢٤/١٢٢٧ أراد أن يلبي رغبة البابا، فأبحر من ميناء برنديزي (جنوب إيطاليا) على رأس حملة ضخمة، ولكن الحمى أصابته، كذلك انتابت صفوف الجيش نوبة مرض مدة قصيرة من الزمن أثناء انتظارهم لعبور البحر، فعاد فردريك كي يسترد صحته ، وأثناء ذلك مات هونوريوس الثالث، وتولى غريغوري التاسع، فاعتقد أن فردريك يتمارض ويتعمد المراوغة، فأصدر قرار حرمان من الكنيسة ضده[4] (Excommunication).

لقد فتح قرار الحرمان باب النزاع بين الطرفين الإمبراطور والبابا، ولكن الإمبراطور أدرك أن مصلحته تقتضي القيام بحملة على بلاد الشام حتى يفوت على البابا إظهاره في صورة مسيحي عاق، ويبدو أن ظروف الشرق هيأت الجو للأمبراطور للقيام بحملته، كذلك فإن شخصية الإمبراطور وافقت عقلية الملك الكامل وشخصيته، إذ توثقت العلاقات بينهما في عصر اشتد فيه العداء بين ملوك الصليبيين والمسلمين، وازدادت الحركة الصليبية عنفا، إلا أن شخصية الملكين، وما كان يحيط بهما من ظروف كان لها أثر كبير في توثيق هذه العلاقات الودية.

---

(١) ارنست باركر، الحروب الصليبية، ١١٢.

(٢) Runciman, A History of Crusades P.٣/١٧٦.

(٣) Runciman, Ibid, ٣/١٧٧

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٤٩/٤.

كان الكامل وفردريك الثاني يسبقان العصر الذي عاشا فيـــهن بشـــخصيتهما وعقليتهما المنفتحتين وثقافتهما الواسعة، فالعصر كان عصر تزمت ديـــني وحـــروب متواصلة، بينما كان كل منهما مثلا أعلى للحاكم المثقف الذي يُعـــنى بـــالإصلاح، وحرية الفكر، وإنشاء المدارس أكثر من العناية بالحرب، وسفك الدماء، وكان كـــل منهما لا يلجأ إلى السيف إذا استطاع أن يحل مشاكله بالحوار والسياســـة والحلـــول السلمية.

أ- إقلاع الإمبراطور إلى بلاد الشام:

حاول الإمبراطور فردريك الثاني القيام بحملته عام ١٢٢٧/٦٢٤ إلا أنه مـــرض، فعاد والفرقة الثالثة من جيشه، أما الفرقتان الأولى والثانية فقد سبقتاه إلى بلاد الشـــام، ولم تعرفا نبأ مرضه وعودته[١]، وقد أشار ابن الأثير إلى وصول الفرنج مـــن الغـــرب وصقلية إلى الشام في حوادث ١٢٢٨/٦٢٥، ثم أشـــار إلى وصـــول الإمـــبراطور في حوادث عام ٦٢٦ هـــ، "وكانت عساكره قد سبقته ونزلوا بالساحل"[٢] ولم يتمكـــن رجال فردريك الثاني الذي سبقوه من القيام بنشاط عسكري في انتظار وصولـــه، لقلـــة عددهم من ناحية[٣] ولنشاط الملك المعظم وشجاعته ويقظته[٤] من ناحية أخرى.

أقلع الإمبراطور بحملته الصليبية في صيف ١٢٢٨/٦٢٥ على رأس جيش صليبي صغير[٥]، (بعد ما انفض عنه كثيرون نتيجة لقرار الحرمان الذي أصدره البابا) استجابه للدعوة التي تلقاها من الملك الكامل بمنحه القدس، ولم ينس أنه خـــرج مـــن بـــلاده محروما من الكنيسة، وأنه اعتمد وعود الكامل له بإعطاء بيت المقدس، لذلك لم يحضـــر جيشا قويا، فعرض بذلك على أوروبا التي استبدت بها الدهشة، صورة محـــارب قطعتـــه

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبيه، ٦٥٨/٢، عن ١٧٠ Kantorowic, Frederick The Second,

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٣٧٨/٩، ابن واصل، م.س، ٢٣٤/٤.

(٣) Stevenson, The Crusaders in the East, ٣٠٨.

(٤) ابن الأثير ، م.س، ٣١٦/٩.

(٥) Campell. The Crusades p.٤٠٤.

الكتيسة، خلف وراءه أملاكه التي تعرضت لغزو جند البابا، الذين أعلن البابا غريغوري التاسع، كونهم محاربين صليبيين، يقاتلون ملكا غير مسيحي(١).

عرج فردريك الثاني على قبرص في طريقه إلى الشام، ليجعل الجزيرة تابعة للأمبراطورية الغربية تبعية فعلية، وليقوي مركزه في نظر الملك الكامل، واستقبل فردريك الثاني استقبالا طيباً، وأصبحت الجزيرة تابعة له وفقاً لقانون الإقطاع الجرماني، فبادر بتعيين نائب صقلي عنه في قبرص، وبث الحاميات في مختلف أنحاء الجزيرة، وعين موظفين ما ليين لجمع الدخل والضرائب(٢).

أبحر الإمبراطور فردريك الثاني من قبرص قاصداً عكا، فوصلها بعد أربعة أيام(٣) و لم يجد من غير اتباعه المباشرين إلا حظاً ضئيلا من الطاعة، وقدراً كبيراً من الإهانة(٤)، ولعله من الغريب أن البابا أخذ يعمل على ألا ينجح الإمبراطور فردريك الثاني في احتلال بيت المقدس، حتى لا يكسبه ذلك شرفا ونصراً بعد ما حرمه، بل أن البابا حرض الملك الكامل على عدم تسليم المدينة المقدسة للأمبراطور(٥).

ب- وفاة الملك المعظم:

استغل الامبراطور وفاة الملك المعظم سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦ فقام سنة ١٢٢٧/٦٢٥ بالاستيلاء على صيدا التي كانت مناصفة بين المسلمين والإفرنج(٦).

وكان لهذه الوفاة، اثر كبير في تغيير مجرى المباحثات، فنحن نعرف أن الملك الكامل كان قد استدعى الامبراطور عندما كان خائفا من أخيه الملك المعظم، أما

(١) آرنست باركر، الحروب الصليبية، ١١٣.

(٢) Kantorowic, Fredrick the Second. P.١٨١.

(٣) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ٢/١٠٠٦.

(٤) آرنست، م.س، ١١٣.

(٥) سعيد عاشور، أوربا في العصور الوسطى، ٤٠٢/١.

(٦) ابن الأثير، الكامل، ٤٧٧/١٢، ابن واصل، م.س، ٢٣٥/٤.

الآن وقد توفي الملك المعظم فقد زال الخطر الذي يشكله أكبر منافس لــــه، فــانتفت الحاجة إلى مثل هذا القرار.

جـــ- الموقف في بلاد الشام عند وصول فردريك الثاني:

قصد الإمبراطور فردريك الثاني الشرق معتمداً على فكـــرة واحـــــدة، هـــي الحصول على بيت المقدس من الملك الكامل، مقابل ما يقدمه له من مساعدات ضـــد أخيه الملك المعظم صاحب دمشق، ولكن فرديك أصيب بخيبة أمل شـــديدة عندمـــا وصل إلى الشام، فوجد أن الموقف تبدل بوفاة المعظم، واتفاق أخوية الملك الأشـــرف والكامل على اقتسام بلاد المعظم، بل أن الكامل خرج فعلا من مصر على رأس جيشه لتنفيذ الاتفاق، واحتل بيت المقدس ونابلس في عام ١٢٢٥/٦٢٥[(١)].

وكان الملك الناصر داود خليفة الملك المعظم أضعف من أن يقوم بمحاولة جدية لحماية ملكه الذي ورثه عن أبيه، فاستنجد بعمه الأشرف ضـــد الملـــك الكـــامل[(٢)] وحضر الأشرف إلى دمشق، وبعث برسالة لأخيه الملك الكامل يستعطفه، ويعرفـــه أنه ما جاء إلى دمشق إلا طاعة له، وموافقة لأغراضه، والاتفاق معه على منع الفرنـــج عن البلاد، ورد عليه الملك الكامل بأنه أيضاً ما جاء إلى الشام إلا لدفع الفرنجة الذيـــن احتلوا صيدا وجزءاً من قيسارية، وأن واجبهما حماية بيت المقدس التي فتحها عمـــهما صلاح الدين[(٣)].

انسحب الملك الكامل بعد ذلك إلى تل عجول (جنوبي غزة) لمراقبة الموقف، ولم يلبـــث أن لحق الأشرف بأخيه الملك الكامل، وهناك اتفقا على اقتسام أملاك المعظم وأعطيـــت دمشـــق

(١) ابن الأثير، الكامل، ٣٨٧/٩، ابن خلدون، العبر، ٣٥١/٥.

(٢) ابن الأثير، م.س، ٣٧٧/٩؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٥٢/٤.

(٣) انظر رسالة الملك الأشرف وأجابة الملك الكامل في الملحق رقم ١٣.

للأشرف، واستقر الوضع بين أبناء البيت الأيوبي، و لم يعد الملك الكامل محتاجا لمساعدة الامبراطور فردريك الثاني، مع أن الأخير جاء باستدعاء منه[1].

د- المفاوضات بين الكامل وفردريك الثاني:

ما أن وصل الإمبراطور فردريك الثاني إلى عكا عام ١٢٢٨/٦٢٥ حتى أرسل سفارة من رسولين إلى الملك الكامل تحمل له هدايا نفيسة من منسوجات حريرية، وأواني فضية وذهبية، وتطالبه بتحقيق وعده، وتسليم بيت المقدس، وقد حملت السفارة رسالة جاء فيها "الملك يقول لك كان الجيد والمصلحة للمسلمين أن يبذلوا كل شيء، ولا أجيء إليهم، والآن فقد كنتم بذلتم لنائبي في زمن حصار دمياط الساحل كله، وإطلاق الحقوق بالإسكندرية، وما فعلنا، وقد فعل الله لكم ما فعل من ظفركم، وإعادتها إليكم، ومَنْ نائبي؟ إن هو إلا أقل غلماني، فلا اقل من إعطائي ما كنتم بذلتموه إليه"[2].

استطاع فردريك بفضل مهارته وحذقه في استخدام مواهبه الدبلوماسية، والإفادة من المنازعات التي وقعت بين الملك الكامل وبين منافسيه في الشام أن يعقد معاهدة صلح، وتدل الشواهد على أن فردريك الثاني أتى إلى الشام ليفاوض لا ليحارب، حتى علق أحد المؤرخين على ذلك بأن فردريك بدا عندما غادر أوربا، وكأنه يزمع القيام بنزهة جميلة يزور فيها سلطان مصر[3] لأنه اعتمد على وعود الكامل بمنحه بيت المقدس.

وحين استقر الإمبراطور أرسل إليه الملك الكامل صلاح الدين الأربلي[4]، رسولا لإجراء مباحثات تسليم بيت المقدس، وبعد انتهاء الزيارة كتب صلاح الأربلي إلى الملك الكامل بيتين من الشعر بين فيهما رأيه في هذه المباحثات جاء فيها:

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢٦٦/١.

(٢) المقريزي، السلوك، ٢٦٦/١.

(٣) Grousset, Histoire des Croisades. ١١١ p.٢٨١.

(٤) صلاح الدين الأربلي: ابو العباس أحمد بن عبد السيد ابن قحطان الأربلي، الملقب بصلاح الدين، كان حاجبا عند مظفر الدين كوكبري صاحب أربل، اتجه سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م إلى بلاد الشام ومنها إلى مصر، وتمكن

زَعَمَ الزَعيمُ الأنبرور بأنّه سِلْم يدومُ لَنا عَلى أقوالِه
شَرِبَ اليَمينَ فإنْ تعرض ناكِثا فَلْيأكلَن لذاك لَحم شِمَالِه[1]

ويتضح لنا مما سبق أن الإمبراطور فردريك رحب بإقامة علاقات ودية مع الملك الكامل ، وأعتقد أيضا أن السلم سوف يدوم بين الطرفين ، بَيْد أن الرسول أكد له أنه إذا خالف سيلقى مصيرا يقضي عليه، وعلى ملكه.

تحير الملك الكامل في الموقف الذي يجب أن يتخذه من الإمبراطور، لأنه هو الذي دعاه إلى دمشق، وألح عليه في المجيء ليناصره على خصمه الملك المعظم، ويصور لنا المؤرخون مدى حيرة الملك الكامل في موقفه إزاء الإمبراطور فردريك الثاني، من ذلك ما يقوله ابن واصل "تحير الملك الكامل، و لم يمكنه دفعه ولا محاربته لما كان تقدم بينهما من الاتفاق، فراسله ولاطفه"[2]، ويقول أبو الفدا إن الملك الكامل استدعى فردريك إلى قصد الشام بسبب أخيه المعظم، فوصل الإمبراطور وقد مات المعظم، فنشب به الملك الكامل"[3]، وذكر ابن الوردي "إن الملك الكامل أرسل فخر الدين بن الشيخ يستدعي فردريك إلى الشام، فلما مات المعظم نشب به الكامل"[4]، وذكر المقريزي "فتحير الملك الكامل... وسفر بينهما الأمير فخر الدين بن الشيخ"[5]، ويعتقد أن وفاة الملك المعظم عدلت ميزان القوى في الممالك الأيوبية، فلم يعد الملك

بجهوده أن ينال منزله كبيرة، ووصل إلى منصب لم يصله غيره من الذين خدموا الملك الكامل. ينظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥/١٨٤-١٨٥.

فيما ذكر السعداوي: أن الملك الكامل ارسله سنة ٦٢٠هـ/١٢٠٦م إلى الامبراطور فردريك لتقرير قواعد العلاقة الودية بيهما، وذكر أيضاً في الشعر بدل الزعيم كلمة (اللعين) ينظر: السعداوي: الحرب والسلام ٨٥.

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥/١٨٦.

وقد تكون كلمة (الزعيم) تصحيفا لكلمة الزنيم وهي كلمة سباب بقرنية اللعين وربما تكون الزعيم بمعنى مزعوم، أي دعي.

(٢) ابن اصل، مفرج الكروب، ٤/٢٤٢.

(٣) أبو الفدا، المختصر، ٣/١٤١.

(٤) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢/٢٢٦.

(٥) المقريزي، السلوك، ١/٢٦٦.

الكامل في حاجه للفرنجة، كذلك أصبحت الأملاك الموعوده جزءاً من مملكته، وأضحى من واجبه أن يدافع عنها، إن لم يكن بعامل الرغبة في المحافظة على أملاكه، فعامل الحفاظ على سمعته أمام جماهير المسلمين، وبعث إليه الأمير فخر الدين بن الشيخ والشريف شمس الدين الأرموي قاضي العسكر[١] محاولا التنكر من وعده، وإطالة المفاوضات عله يجعل الإمبراطور يسأم ويعود.

ساء موقف الإمبراطور لطول المفاوضات التي اتخذت شكل محادثات جدلية ومحاورات فلسفية[٢]، وخلال هذه المحادثات اتجه فردريك إلى يافا وحصنها[٣]، وانتهز فرصة غزو جلال الدين خوارزم لأراضي الجزيرة الفراتية، فأرسل بعثة إلى الملك الكامل[٤] تحثه على تسليم بيت المقدس، ويستعطفه ويتذلل إليه، وقد أدرك الإمبراطور فردريك أن رجوعه إلى بلاده دون حصوله على بيت المقدس سيجعل موقفه حرجاً في أوروبا، وبخاصة أنه محروم من الكنيسة، وكثرت الإشاعات بوفاته وأن البابا أدعى لنفسه حق الوصاية على الإمبراطورية[٥].

استمر الملك الكامل في التنصل من وعوده، إذ كانت هذه الحملة لا تشكل أي خطر على المسلمين، لذا تجمدت الاتصالات بين الملك الكامل والإمبراطور خمسة أشهر[٦].

وأثناء ذلك شرع الإمبراطور في عمارة مدينة صيدا[٧]، وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج، وسورها خراب، فاستولى عليها وعمرها، ثم عاود الاتصال بالملك الكامل، وتذلل إليه وشرح الإمبراطور حرج موقفه، وأنشأ يرجو ويستعطف، حتى

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ٤/٢٤٢.

(٢) م.ن.

(٣) Stevenson, The Crusaders in the East. ٣١١.

(٤) ثعريني، الأيوبيون، ١٢٦.

(٥) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ٢/٩٦٥.

(٦) Kantorowic, Fredrick the second, p.١٨٥.

(٧) Eracles, Recueil des, Historiens de Croisades, p.٢/٣٧٢.

قيل إنه بكى في بعض مراحل المفاوضات[1]، وقد جاء في إحدى رسائله إلى السلطان "أنا أخوك واحترم دين المسلمين احترامي المسيح، وأنا وريث مملكة القدس، وقد جئت لأضع يدي عليها، ولا أروم أن أنازعك ملكك، فلنتجنب إراقة الدماء"[2].

وجاء في رسالة أخرى "أنا مملوكك، وعتيقك، وليس لي عما تأمره خروج، وأنت تعلم أني أكبر ملوك البحر، وقد علم البابا والملوك باهتمامي وطلوعي، فإن رجعت خايباً انكسرت حرمتي بينهم... وهذه القدس فهي أهل اعتقادهم وضجرهم، والمسلمون قد أخربوها، فليس لها دخل طائل، فإن رأى السلطان أن ينعم علي بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه، ويرتفع رأسي بين ملوك البحر"[3]، وأضاف ابن العماد الحنبلي "وأنا ألتزم بحمل دخلها لك"[4].

رابعاً: تخاذل الملك الكامل وتسليم القدس للصليبيين.

استمر الامبراطور في الاستعطاف، ولم تلبث الاستعطافات أن أتت أكلها، وأفلحت في التأثير في الكامل، وهو السلطان المتسامح البعيد عن التطرف في علاقاته مع الصليبيين، والذي سبق أن عرض مراراً عليهم أخذ بيت المقدس مقابل الجلاء عن دمياط، هذا إلى أن ما قام به فردريك الثاني من تحصين يافا، جاء بمثابة مظاهرة عسكرية جعلت الملك الكامل يخشى قيام فردريك وبقية الجموع الصليبية بالشام بعمل حربي ضده، وهو الشعور الذي فسره المقريزي بقوله، "إن الكامل خاف من غائلته عجزا عن مقاومته"[5].

---

(1) Conder, The Latin Kingdom, p٣١٣.

(2) Kantorowic, Fredrick the second, ١٨٥.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ٤/٢٣٥.

(4) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ٥/١١٨.

(5) المقريزي، السلوك، ١/٢٢٨.

وكانت المقامرة في حرب ضد الإمبراطور والصليبيين عندئـذ تعـني بالنسبة للملك الكامل وقوعه بين ثلاثة أعداء هم: ابن أخيه الملك الناصر داود من ناحية، والخورزمية التي استنجد بها الناصر داود من ناحية ثانية، ثم الصليبيين، وفي ضوء هذه الحقائق كلها، وتحت تأثير رسول الملك الكامل في المفاوضات، الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ، تنازل عن بيت المقدس.

وإذا كان الملك الكامل قد أحس بأنه ليس في مصلحته في تلك الظروف أن يصطدم بالصليبيين بالشام أو يثير حرباً معهم، نظراً للخلافات الداخلية بين أبناء الأسرة الأيوبية من ناحية، ولتخوف الأيوبيين من الخوارزمية ومن خلفهم من ناحية أخرى، فإنه كان يحس في الوقت نفسه بأن أي تساهل مع الصليبيين أو تفريط في حقوق المسلمين سيثير عليه الرأي العام في البلاد الإسلامية ولا سيما في دمشق[1].

أ- صلح يافا:

أخيراً عقد الملك الكامل في ربيع الأول ٦٢٧/ شباط ١٢٢٩ اتفاقية مع الامبراطور فردريك الثاني، عرفت بصلح يافا[2]، وحضر مراسيم توقيع الاتفاقية في يافا من الجانب الأيوبي فخر الدين وأخوه كمال الدين ولدي شيخ الشيوخ، والشريف شمس الدين الأرموي ت٦٣٠/١٢٣٢ قاضي العسكر، والصلاح الأربلي والأمير صفي الدين بن سودان[3]، ومن الجانب الإفرنجي هرمان سلزا رئيس الطائفة الألمانية، وتوماس فون أكوين والجراف فون أكير.

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٥٢/٤، المقريزي، م.س، ٢٦٨/١.

(٢)سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ٣٦٤/٢، ذكر عاشور أنه أخذها من المقريزي، م.س ٢٢٠/١، ولما بحثت في المصدر السابق لم أعثر على ما يشير إلى ذلك.

(٣) ابن النظيف الحموي ، التاريخ المنصوري،٧٧.

كتبت صيغة الاتفاقية باللغتين العربية والفرنسية[1] ووقع عليـــها الطـــرفـــان، وحلفا على التزامها، ووقع الإمبراطور عليها بعد أسبوع، فيما وقع علـــى بنودهـــا الملك الكامل في الوقت نفسه[2]، وتم تسليم بيت المقدس للصليبيين في شـــهر ربيـــع الأول ٦٢٦/ شباط ١٢٢٩، وشمل الاتفاق البنود التالية:

- مدة الاتفاق عشر سنوات ميلادية[3].
- تبقى المناطق التي أخذها الصليبيون قبل الصلح بأيديهم، وتشـــمل قـــلاع الشقيف، وتبنين وجبله وكوكب وبيروت، وصيدا، ويافا، والجدل، واللد، والرملة، وعسقلان، وبيت جبريل[4].
- تبقى بيت المقدس خربة، ولا يجدد سورها[5]، وتكون قراها للمســـلمين، وتكون تابعة للوالي بالبيرة الواقعة شمالي القدس.
- يبقى المسجد الأقصى والصخرة بيد المسلمين، ويمارسون فيهما الشـــعائر الدينية، من أذان وصلاة[6] ويتولاها قوام مسلم، ولا يدخلها الصليبيون إلا للزيارة[7].
- يأخذ الصليبيون بيت المقدس، والناصرة، وبيت لحم.

---

(١) Gottschil, Al malk Al. Kamil p١٥٧

(٢) ابن الأثير ، الكامل، ٣٨١/٩، ابن الأثير، كنز الدرر، ٢٩٢.

(٣) ابن واصل ، م.س، ٢٤٢/٤، ذكر المقريزي أن مدة الهدنة عشر سنوات وخمسة أشهر أربعين يومـــا، م.س، ٢٦٨/١. Eracles, Recueil des. Historiens de Croisades ٢/٣٧٤

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٤٢٩/٣.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٤١/٤.

(٦) أبو الفدا، المختصر، ١٤١/٣.

(٧) ابن واصل، م.س، ٢٤١/٤، أبو الفدا، م.س، ١٤١/٣، الحنبلي، الأنس الجليل، ٤٠٦/١.

- يعطى للصليبيين بعض القرى الواقعة على الطريق من عكا إلى القدس[1]، حتى لا يتعرض الصليبيون القادمون من عكا لزيارة القدس للعدوان، وتبقى سائر المدن والقرى بيد المسلمين[2].
- إطلاق سراح الصليبيين، ومن ضمنهم الأطفال الذين أسروا[3] في حملة الأطفال السابقة[4].
- تعهد الإمبراطور المشاركة في الدفاع عن الملك الكامل ضد أي عدو حتى ولو كان من الإفرنج، كذلك تعهد أيضا عدم تقديم أية مساعدة لحكام انطاكيا وطرابلس، وحكام المناطق الإفرنجية الأخرى في بلاد الشام[5].

وسرعان ما وضعت هذه الاتفاقية موضع التنفيذ، "فنودي بالقدس بخروج المسلمين، منه، وتسليمه إلى الفرنج"[6]، وأعلن فردريك الثاني في جنوده "اشكروا الله واحمدوه إذ أتم عليكم نعمته، وإن إتمامها كان معجزة من الله، وليس نتيجة الشجاعة أو الحروب، وما أتمه الله لم تستطع قوة من قوى البشر على الأرض إتمامه لا بكثرة العدد، ولا بالقوة، ولا بأية وسيلة أخرى"[7].

اطمأن الملك الكامل من ناحية الفرنج، ولكي يضمن ولاء أمراء البيت الأيوبي قام بتوزيع الأموال عليهم، فمنح أخاه الملك العزيز عثمان صاحب بانياس خمسين

---

(١) ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٤٣١/٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٣/٣، ابن السوردي، تتمة المختصر، ٢٢٧/٢.

(٢) أبو الفدا، م.س، ١٤٣/٣.

(٣) ابن واصل، م.س، ٢٤٢/٤.

(٤) Stevenson, The Crusaders in the East, P.٣٢٢.

(٥) Lane Poole, History of Egypt, P.٢٢٧.

(٦) ابن واصل، مفرج الكروب، ٣٤٣/٤، المقريزي، السلوك، ٢٣١/١.

(٧) زغريد هونكه، شمس العرب، ٤٢٧.

ألف دينار[1]، وأعطى ابنه الظاهر غازي عشرة آلاف دينار وقماشاً نفيسا وخلعا سنية، وقدم إلى الأمير عز الدين ايدمر المعظمي عشرين ألف دينار، وأقطعه بمصر، فتستروا على تسليم بيت المقدس وتفريط الملك الكامل بها. أخذ القادة المسلمون بأسلوب الملك الكامل في توزيع المال لكسب ولاء المتنفذين في مختلف الأقطار والتستر عليهم.

لقد أرضى الملك الكامل الإمبراطور خوفاً من غائلته، وعجزا عن مقاومته، وصار يقول[2] "إنا لم نسمح للفرنج الابكنائس، والمسجد على حاله، وشعار الإسلام قائم، ووالي المسلمين متحكم في الأعمال والضياع".

واعتذر ملك الفرنج للأمير فخر الدين بقوله[3] "ولولا أخاف انكسار جاهي، ما كلفت السلطان شيئا من ذلك، وأنه ما له غرض في القدس، ولا غيره، وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج".

وقد رأى الكامل أنه إن شاقق الإمبراطور يفتح له باب محاربة الفرنج ، ويتسع الخرق، ويفوت عليه هدف ما خرج بسببه ، فرأى أن يرضى الفرنج بمدينة القدس خرابا، وأنه قادر على انتزاعها متى شاء[4].

ب- زيارة الامبراطور بيت المقدس:

استأذن الإمبراطور فردريك الثاني من الملك الكامل زيارة بيت المقدس فأجابه الملك الكامل إلى ما طلبه[5]، وسير القاضي شمس الدين قاضي نابلس في خدمته، ومرافقته، فسلمه مفاتيح المدينة المقدسة، وسار معه إلى المسجد الأقصى ، وطاف معه

(١) المقريزي، السلوك، ٢٧٢/١.

(٢) المقريزي، م.ن، ٢٦٨/١.

(٣) ابن واصل، م.س، ٢٤٤/٤.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٤٤٤.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٣/٣.

المزارات[1] التي في الصخرة، وقد وصف سبط بن الجوزي زيارة الإمبراطور فقال[2]، "ولما دخل الانبرور قبة الصخرة، رأى قسيساً قاعداً عند الصخرة يأخذ من الفرنج قراطيس، فجاء إليه الانبرور كأنه يطلب منه الدعاء فلكمه فرماه إلى الأرض"، وقال يا خنزير "السلطان تصدق علينا بزيارة هذا المكان، وأنتم تفعلون فيه هذه الأفاعيل؟ لئن عاد ودخل واحد منكم على هذا الوجه لأقتلنه".

وقال سبط[3] ونظر الانبرور إلى الكتابه في القبة، وهي "طهّر هذا البيت المقدس صلاح الدين من المشركين" فقال، "ومن هم المشركون؟ ثم قال الانبرور للقوام"، هذه الشباك التي على أبواب الصخرة من أجل أيش؟ "قالوا لئلا يدخلها العصافير، فقال قد اتى الله إليكم بالخنازير".

وأضاف ابن الجوزي[4] "ولما دخل وقت الظهر، وأذن المؤذن، قام جميع من كان معه من الفراشين والغلمان، ومعلم وكان من صقليه يقرأ عليه المنطق، فصلوا، وكانوا مسلمين، وكان الأنبرور أشقر أمعط في عينيه ضعف، ولو كان عبداً ما يساوي ٢٠٠ درهم"، وقال[5] "الظاهر من كلام الانبرور أنه كان دهريا، وإنما كان يتلاعب بالنصرانية".

وكان الملك الكامل قد امر القاضي شمس الدين قاضي نابلس أن يأمر المؤذنين ما دام الأنبرور في القدس أن لا يصعدوا المنابر ولا يؤذنوا في الحرم، فنسي القاضي أن يُعْلم المؤذنين، فصعد المؤذن عبد الكريم تلك الليلة، وقت السحر والأنبرور في دار القاضي، فجعل يقرأ الآيات التي تختص بالنصارى كقوله تعالى **﴿ما اتخذ الله من ولد**،

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢٣٧/١.

(٢) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ١٣٤/٨.

(٣) م.ن.

(٤) المقريزي، م.س، ٢٦٩/١.

(٥) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ١٣٤/٨.

ذلك عيسى بن مريم﴾[1] ... ونحوها، فلما طلع الفجر استدعى القاضي المؤذن عبد الكريم، وقال له "ايش عملت؟ السلطان رسم كذا، وكذا"، فلما كانت الليلة التالية ما صعد عبد الكريم المأذنه، فلما طلع الفجر استدعى الانبرور القاضي شمس الدين[2]، فقال له "يا قاضي، أين ذلك الذي طلع بارحة أمس المنارة، فعرفه أن السلطان أوصاه بوقف الأذان، فقال الانبرور "أخطأتم يا قاضي، تغيرون أنتم شعاركم وشرعكم ودينكم لأجلي، فلو كنتم عندي في بلادي، هل كنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم، الله الله لا تفعلوا هذا، هذا أول ما تنقصون عندنا[3]."

ومما سبق يلاحظ أن الملك الكامل أخطأ بوقف الأذان والتسبيح حتى أن الامبراطور عاب عليه هذا التصرف، وأوضح أنه كان يرغب في سماع أذان المسلمين،وتسبيحهم في الله، وقد اعتقد العيني أن الإمبراطور كان يبطن اسلامه ويتلاعب بالنصرانيه[4]، وذكر المقريزي أن الامبراطور قال[5] "والله إنه كان أكبر غرضي في المبيت بالقدس أن اسمع أذان المسلمين وتسبيحها في الليل" وعندما دخل الامبراطور بيت المقدس، اتجه إلى كنيسة القيامة، وتوج نفسه بيده، وقد فسر المؤرخون ذلك بما يلي:

- رفض رجال الدين تتويج إمبراطور محروم من الكنيسة.
- آثر الإمبراطور تتويج نفسه حتى يثبت للبابا ورجال الدين أنه تسلم التاج في هذا المكان البالغ الأهمية (كنيسة القيامة) من الله مباشرة، دون حاجة لرجال الدين أو البابا[6].

---

(١) قرآن كريم.

(٢) رافق القاضي شمس الدين، الامبراطور، وسلمه بيت المقدس، ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٤٤/٤.

(٣) سبط بن الجوزي، م.س، ٤٣٤/٨.

(٤) العيني، عقد الجمان، ٨٣/١٨.

(٥) المقريزي، السلوك، ٢٧٠/١.

(٦) عاشور، أوربا العصور الوسطى، ٣٩٨.

وأثناء وجود الإمبراطور في بيت المقدس وصلها أسقف قيسارية، ليوقع قرار الحرمان على المدينة المقدسة، فاستاء الإمبراطور لذلك، وعدها إهانة كبيرة لشخصه، وعلم بمؤامرة ضده، فغادر المدينة بعد يومين و لم يغير من شعائر الإسلام شيئاً، وأحسن إلى أهلها، فذهب إلى يافا، ثم اتجه إلى عكا، ومن ثم غادرها بحراً إلى قبرص ليقضي فيها بضعة أيام، وأخيراً سافر إلى إيطاليا فوصلها ٦٢٦/١٢٢٩[١].

خامساً: صدى تسليم بيت المقدس للإمبراطور فردريك الثاني.

أ- رفض المسلمين للاتفاق:

لقي خبر تسليم بيت المقدس صدى كبيراً في نفوس أهل الشام وأثار السخط والأسى لدى كل من المسلمين والصليبيين، فعندما "نودي بالقدس بخروج المسلمين منها وتسليمها إلى الفرنج"[٢]، وقع الضجيج والبكاء، وعظم الصراخ والعويل والإنكار وحزن المسلمين لخروج القدس من أيديهم[٣] "واستعظموا ذلك وأكبروه، ووجدوا له من الوهن والتألم لما يمكن وصفه"[٤]. وأنكروا على الملك الكامل العمل الذي يتنافى مع الفتح الكبير، والأثر العظيم الذي سبق أن قام به عمه صلاح الدين عندما تمكن من تحرير بيت المقدس من الصليبيين[٥].

وبلغ الإنكار أوجه عندما حضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى معسكر الملك الكامل، وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان، فأمر بمصادرة ما معهم من القناديل الفضية، والآلات، وزجرهم، وقال لهم "امضوا أنى شئتم..."[٦].

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٧٢/٦.

(٢)المقريزي، السلوك، ٢٦٩/١.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٤٣/٤.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ٣٧٩/٩.

(٥) ابن واصل، م.س، ٢٤٣/٤.

(٦) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٦٣٣/٨، المقريزي، م.س، ٢٦٩/١.

وأخذ الملك الناصر داود في التشنيع على عمه الكامل لكي يكسب الملوك الأيوبيين إلى جانبه، وطلب من الشيخ شمس الدين يوسف سبط الشيخ جمال الدين بن الجوزي الواعظ، (وكان له قبول عند الناس) في أن يجلس بجامع دمشق للوعظ، فجلس الشيخ، وذكر فضل القدس، وما ورد فيها من الأخبار والآثار ومكانته في الدين الإسلامي[1]، ومما قاله "وانقطعت عن البيت المقدس وفود الزائرين، يالوحشة المجاورين ! كم كانت لهم في تلك الأماكن من ركعة، وكم جرت لهم على تلك المسائل من دمعة، تالله لو صارت عيونهم عيونا لما وفت، يا خجلة ملوك المسلمين، لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات، لمثلها تنقطع القلوب من الزفرات، لمثلها تعظم الحسرات"[2] وعندما سمع الناس قول ابن الجوزي اشتد البكاء، وعلا النحيب والعويل.

وتحمس الشعراء، فقيلت للمناسبة قصائد مأسوية حزينة، ومنها قصيدة سبط بن الجوزي التالية التي تبلغ ٣٠٠ بيت منها: [3]

عَلَى قُبّةِ المعْراجِ والصَّخْرةِ التي ... تَفاخِرُ مَا في الأرْض منْ صَخَراتِ

مَدَارسُ آيات خَلتْ مِنْ تِلاوةٍ ... وَمَنْزلُ وَحيٍ مُقْفرِ العَرَصات

وقال شاعر آخر قصيدة مطلعها:

عَزيزٌ عَلينا أن نُرى القُدسَ تَخْرب ... وَشمسُ مَبانيه تَزولُ وتَغْربُ

ب- معالجة الملك الكامل لموقف المسلمين الرافضين للصلح:

ولقد واجهت الملك الكامل في أثناء بقائه في فلسطين مشاكل عديدة، فقد قام المسلمون بشن الهجمات والإغارة على الزوار في القدس، وفي الطرقات المؤدية إلى الأماكن المقدسة[4].

(١) سبط بن الجوزي، م.س، ٨/٦٥٤.
(٢) م.ن، ابن واصل، م.س، ٤/٢٤٥.
(٣) ابن واصل، مفرج الكرب، ٤/٢٤٥، أبو الفداء، المختصر، ٣/١٤٢.
(٤) هونكه، فضل العرب على أوربا، ٣٣٥.

أحس الملك الكامل بورطته على فعلته، وبعث رسله إلى بعض الأقطار الإسلامية لتسويغ ذلك، فأرسل جمال الدين الكاتب الأشرفي إلى البلاد الشرقية وإلى الخليفة العباسي "لتسكين قلوب الناس، وتطمين خواطرهم من انزعاجهم لأخذ الفرنج القدس"[١]، وكان الملك الكامل يعتقد أن الفرنج لا يمكنهم الامتناع بالقدس مع خراب أسواره، وأنه إذا قضى غرضه واستتبت الأمور له، كان متمكناً من تطهيره من الفرنج وإخراجهم منه، وقال الكامل " وإنا لم نسمح لهم إلا بكنائس،، وأدر خراب، والحرم، وما فيه من الصخرة المقدسة، وسائر المزارات بأيدي المسلمين على حاله، وشعائر الإسلام قائم على ما كان عليه، ووالي المسلمين متحكم على رساتيقه وأعماله"[٢].

ومن خلال الأحداث التي عاشها المسلمون نلاحظ أن الملك الكامل قد أساء التصرف في تفريطه بالقدس، إذ كان يساوم عليه كلما أحس بالخطر الذي يهدد مركزه، فكان حريصا على الاحتفاظ بحكم مصر، ومستعداً لتقديم التنازلات للإفرنج، وهذا يتناقض مع قوله أنه غير مستعد للتفريط بالمدينة المقدسة في رسالة بعث بها لأخيه الملك الأشرف عام ٦٢٥/١٢٢٧ "إنني ما جئت إلى هذه البلاد إلا بسبب الإفرنج، فإنهم لم يكن في البلاد من يمنعهم عما يريدونه... وأنت تعلم أن عمنا صلاح الدين فتح بيت المقدس، فصار لنا بذلك الذكر الجميل ... فإن أخذه الإفرنج حصل لنا من ذلك سوء الذكر... واي وجه يبقى لنا عند الناس، وعند الله تعالى؟"[٣]. ولا شك أن قول الملك الكامل هو للاستهلاك ويناقي ما يبطن، وينافي تفريطه بالقدس.

وكان جيش الإمبراطور فردريك الثاني ضعيفاً، قليل العدد، وتأييد الصليبيين له ضعيفاً، فلم يحسن الكامل استغلال هذا الموقف وقدم بيت المقدس للفرنج على طبق

---

(١) ابن النظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ١٧٩.

(٢) ابن واصل، م.س، ٤/٢٤٤.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٩/٣٧٩.

من فضة من أجل تحقيق أطماعه في الشام، و لم يغفر له معاصروه هذه الزلة الشنيعة[1]، حتى أن أمراء جيشه عارضوه، ومنهم الأمير سيف الدين بن أبي زكري الذي أشار عليه بإبقاء دمشق لابن أخيه الناصر داود، والاتحاد مع أخيه الأشرف فيجتمع الثلاثة، ويقاتلون العدو "فإما لنا وإما علينا، ولا يقال عن السلطان إنه أعطى الفرنج القدس "[2]، ولكن السلطان غضب عليه، وأمر باعتقاله وأرسله إلى مصر حيث سجنه.

واستمر رفض الجماهير الإسلامية للاتفاقية، وامتد إلى درجة جزع منها الملك الأشرف، فأرسل إلى أخيه الكامل يلومه ويعاتبه فرد عليه بالقول: "ما أحوجني إلى ذلك إلا المعظم مشيراً إلى أن المعظم قد أعطى الإمبراطور من الأردن إلى البحر، وأعطاه الضياع التي من باب القدس إلى يافا وغيرها"[3].

لكن ابن أيبك ذكر النص بالشكل الآتي "ما أحوجني إلى ذلك إلا المعظم، فإنه أعطى الانبرور من الأردن إلى البحر، والضياع من باب القدس إلى يافا، فاحتجت أنا أن أعطيه القدس أيضا"[4]، ولا يخفي ما في كلمات الملك الكامل التي ينقلها سبط ابن الجوزي من التسويغ لتخفيف وقع المصاب، ولعل الملك الكامل قد أغفل أنه هو الذي استدعى الإمبراطور عام ٦٢٤/١٢٢٦ لمساعدته في الحد من نفوذ أخيه الملك المعظم الذي ازداد بتحالفه مع الخوارزمية، يضاف إلى هذا أن مثل هذا العمل لا يمكن

---

(١)استعظم المسلمون ذلك وكبروا (الكامل، ٣٧٨/٩)، أما سبط بن الجوزي فيقول "فقامت القيامة في جميع بلاد المسلمين، يا خجلة ملوك المسلمين لمثل هذه الحادثة" مرآة الزمان، ٤٣٢/٨، ويقول ابن واصل، "وانكروا على الملك الكامل هذا الفعل واستشنعوه منه"، مفرج الكروب، ٢٤٤/٤، وشاهد ابن واصل، وعظ سبط بن الجوزي في جامع دمشق، فقال "فلم ير في ذلك اليوم إلا باك أو باكيه"، مفرج الكروب، ٢٤٦/٤.

(٢) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٦٥٤/٨.

(٣) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٦٥٤/٨.

(٤) ابن أيبك: كنز الدرر، ٤٩٣/٧، ستين – زيتر، تاريخ سلاطين، مصر والشام وبيت المقدس، (ليدن: ١٩١٩) ٢٣٠. إلا أنه ذكر في النص "إلا أن المعظم صاحب دمشق أخونا...الخ".

أن يصدر عن الملك المعظم، وذلك لما اتسمت به سياسته من مواقف دونتها المصادر التاريخية، فقد رفض استقبال مبعوث الإمبراطور.

وقام بتجهيز قوة عسكرية عام ٦٢٤/١٢٢٦ أرسلها إلى نابلس خوفا من اتفاق الإمبراطور مع الملك الكامل[١]، مع العلم أن الملك المعظم قد تمكن من الحصول على كتب الإمبراطور من طريق امرأة استخدمها لهذا الغرض[٢]، وفي الوقت نفسه طلب الملك المعظم من والي الشوبك أن يقوم بنفي راهب يعيش في أحد جبالها، فنفذ الوالي طلبه، ثم أمره بعد مدة بإعادة الراهب، وتكريمه، بإعطائه قطعة أرض ومائة دينار تقديراً للخدمة التي اسداها للملك، وذلك بحصوله على معلومات عن تحرك الإمبراطور، وأن قرار النفي ما كان إلا وسيلة اتبعها الملك المعظم يخفي بها طريقة حصوله على إخبار الإمبراطور فردريك.

جـ- رفض الصليبيين للصلح:

و لم يعجب الصليبيين استرداد فردريك الثاني بيت المقدس، وأخذوا يعبرون عن غضبهم بشتى الصور، فقالوا إن "كرامة المسيح كانت تحتم أن تُؤْخَذ المدينة المقدسة بحد السيف، وليس بطريق الاستجداء والبكاء كما فعل الإمبراطور"[٣]، وبخاصة أن المسلمين احتفظوا لأنفسهم بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة، وهذا ما لا يجوز.

وقال بعض الصليبيين "إنه لا قيمة لحصول الصليبيين على بيت المقدس دون الكرك والشوبك، وهذا ما جعل الصليبيين يرفضون عرض الملك الكامل عليهم تسليم القدس أثناء الحملة الخامسة، لأنهم أدركوا أنه لا بد من أحياء "مملكة بيت المقدس" بما فيها أراضيها في الأردن"[٤].

---

(١) سبط ابن الجوزي،م.س، ٨/٦٤٦-٦٤٨.

(٢) للمزيد ينظر: سبط ابن الجوزي، م.ن، ٦٤٦.

(٣) Stevenson, The Crusaders in the East, p. ٣١٣.

(٤) Runciman, A History of the Crusades P.١١١/١١٨.

وقللت الداوية والاسبتارية من قيمة استرجاع القدس على يد امبراطور محروم من الكنيسة، ومطرود من رحمتها، كذلك عاب الداوية على الامبراطور فردريك الثاني إبقاء المسجد الأقصى في يد المسلمين، ولذلك لم يعترف الصليبيون بفضل الامبراطور باستعادة القدس، بل بخسوا عمله، مما جعل بطريك مملكة بيت المقدس جيرولد يصدر قرار الحرمان على المدينة المقدسة، وعلى من فيها من النصارى إذا استقبلوا الامبراطوار المحروم.

وبعد يومين من دخول الإمبراطور بيت المقدس، وصل إليها أسقف قيسارية ليوقع قرار الحرمان على المدينة وفقاً لقرار البطريك جيرولد، وتوقفت على أثر ذلك الصلوات في الكنائس، وامتنع الكهنة عن أداء المراسم الكنسية، وحُرّض الجيش على العصيان، وقُذِف الإمبراطور والفرسان بالقاذورات[1].

وعلى الرغم من أن الذي حققه فردريك الثاني باتفاقه مع الملك الكامل كان أنجح مما حققته الحروب الصليبية كلها بعد معركة حطين ٥٨٣/١١٨٧، فإن أعداء الإمبراطور لم يتركوا فرصة للعمل ضده إلا استغلوها، فقد أرسل فرسان المعبد سراً برسالة يبدو أنها كانت بإيحاء من البابا غريغوري التاسع" يخبرونه فيها بأنهم أي الفرسان قد علموا أن الإمبراطور سيخرج بصحبة نفر من إتباعه من بيت المقدس إلى نهر الأردن للصلاة، وهم يدعون السلطان الكامل لانتهاز هذه الفرصة للفتك بالإمبراطور، وقتله... اشمأز الكامل من خيانة هؤلاء الفرسان، فأرسل إلى الإمبراطور نفسه هذا الخطاب المختوم بختم ريس فرسان المعبد"[2]، وأشار ابن الجوزي إلى هذه المؤامرة فقال[3] "بقي الامبراطور يومين في القدس، ثم عاد إلى يافا خوفا من الداوية".

---

(١) هونكه، شمس العرب، ٤٢٩.

(٢) حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ٢٠٥.

(٣) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٦٥٥/٨.

ثار الصليبيون في عكا على اتفاقية صلح يافا، واستمر الصراع بينهم مستحكماً ردحا من الزمن، بل أن الإمبراطور جمع رجال الدين وزين لهم سياسته لدى زيارته عكا، وعندما قوبل بالمعارضة أغلق أبواب عكا، ووضع حراسة مشددة حول بيت الداوية، وقصره ودار البطريك[1].

ولقد واجه الإمبراطور فردريك الثاني أعمال شغب ومعارضة، فقد عدت الاتفاقية تسوية مخزية واستسلاما يائسا[2]، فأخذ رجال الدين يحرضون على أعمال السلب والنهب، وبلغت الخصومة ذروتها عندما ألقى رجال الدين الأوساخ على الإمبراطور وفرسانه[3].

واختلفت الآراء في تحليل شخصيتي الملك الكامل والإمبراطور فردريك الثاني واثرهما في تسليم بيت المقدس، فقد ذكر الشيال أن الملك الكامل والإمبراطور فردريك بشخصيتهما وثقافتهما يجسدان صورة واحدة تختلف عن العصر الذي عاشا فيه، فغلبت عليهما شخصية المثقف الذي لا يلجأ إلى السيف إذا ما تمكن من حل مشكلاته بالطرق السلمية، فالملك الكامل صورة شرقية من الإمبراطور، إن لم يكن الإمبراطور صورة غربية من الملك الكامل[4]، فيما شبه باركر الحملة السادسة بأنها نوع من المساومة الحقيرة تمت بين الإمبراطور فردريك المشهور بحريته الفكرية وميله نحو الشرق وبين الملك الكامل، فهي ذات مظهر دنيوي ودبلوماسي مجرد من الدين[5]، في حين أن البابوية اتهمت فردريك بأنه ساوم الكفار بدلا من أن يذبحهم[6].

وأكد لين بول أن هذه الاتفاقية على الرغم من أن بنودها أثارت استياء المتطرفين في المعسكرين الإسلامي والمسيحي إلا أن مراعاة بنودها تجعل الملك الكامل يستفيد أكثر مما يخسر، فالأراضي التي ضحى بها لم تكن ذات قيمة كبيرة، أنه

(١) Runciman. A History of the Crusades P.١١١/١٩٠.

(٢) Stevenson, The Crusaders in the East, p.٣١٣.

(٣) هونكة، فضل العرب على أوربا، ٣٣٥.

(٤) الشيال، دراسات في التاريخ الإسلامي، ٤٧.

(٥) باركر، الحروب الصليبية، ١١٥.

(٦) Lane-Poole, History of Eygpt, P.٢٢٧.

تمكن من الإبقاء على الأماكن المقدسة في القدس للمسلمين، بينما كانت فوائد تعهد الامبراطور بالدفاع عن الملك الكامل مدهشة وكبيرة للغاية[1].

ومع كل موجات السخط والإنكار التي حدثت فقد تمت السيطرة عليها بمرور الأيام، ووافقت جميع الأطراف عليها بعد تصالح الباب مع الإمبراطور عام ٦٢٨/١٢٣٠، وأخذت الاتفاقية طريقها بوصفها واقعة تاريخية قبل بها الجانبان[2].

وعدت الاتفاقية نقطة تحول في التفكير العالمي، فقد ظهر أنصار يدعون إلى السلام وحل المشكلات عن طريق المفاوضات لا القوة، فالسلام الذي حل بين أصحابا لديانتين الإسلامية والمسيحية جعلهم يسخرون من الحروب التي دارت بين الطرفين، والشاهد على ذلك ما قاله سفير الإمبراطور للبابا في مدينة ليون "في القدس وعلى مشهد من العالم اثبتت سياسة فردريك أن صداقة الأمراء العرب وفرت كثيراً من إراقة الدماء المسيحية"[3].

وما حاوله القديس فرنسيس أثناء العدوان الصليبي على دمياط يؤيد ذلك، فالتقى مع الكامل عام ٦١٥/١٢١٨ آملا في إحلال السلام بين الصليبيين والمسلمين، بيد ان التوجه نحو السلام لم يأت من محاولة القديس فرانسيس[4]، بل جاء من شخصية الإمبراطور فردريك الثاني.

---

(١) Lane- Poole, Ibid.

(٢) Stevenson, The Crusaders in the East, P.٣١٤.

(٣) هونكه، فضل العرب على أوربا، ٣٣٤/٣٣.

(٤) ولد فرنسيس الأسيس Francis of Assisi عام ٥٧٨/١١٨٢ في أومبريه وتعلم قراءة اللاتينية وكتابتها والأدب واللغة الفرنسية، وفي عام ٥٩٩/١٢٠٢، اشترك مع القوات البابوية على حرب الإمبراطورية، وعند عودته انقطع للعباده، وحضر سنة ٦٠٥/١٢٠٨ قداساً ذكر فيه القس أقوال السيد المسيح، فتأثر بها، وبدأ يلقي مواعظ مماثلة للناس، فالتف حوله ١٢ مريداً رحلوا إلى روما للحصول على موافقة الباب انوسنت الثالث، وهكذا تأسست الطريقة الفرنسيسكية، وهي الطريقة التي كان اتباعها يتلقون مواعظهم في الشارع، ولا يمتلكون أي شيء، واستمر القديس على حياة الزهد إلى أن توفي عام ٦٢٦/١٢٢٨. The New Encyclopaedia Britannica, Vol, ٧ P.٦٨٢, (See Biady I.C. Francis of Assisi).

د- تعليقات عامة على الصلح:

ومن خلال الأحداث التي عاشها المسلمون، نلاحظ أن الملك الكامل قد أساء التصرف في تفريطه بالقدس على الرغم مما قدمه من مبررات، لأنه كان يساوم على بيت المقدس، كلما أحس بالخطر يحيط به ويهدد مركزه، فكان حرصه على الاحتفاظ بحكم مصر يدفعه دائما إلى الاستعداد لتقديم التنازلات للافرنج، فقد سبق له أيام استيلاء الإفرنج على دمياط أن عرض عليهم فكرة تسليم بيت المقدس مقابل الانسحاب من دمياط.

يضاف إلى هذا أن الموقف في بلاد الشام أصبح لصالح الملك الكامل بوفاة أخيه المعظم، وأن الإمبراطور فردريك عندما جاء إلى بلاد الشام كانت القوة التي معه صغيرة، ولا بد أن الملك الكامل قد علم بحجمها عندما فاوضه الإمبراطور، وكان الإفرنج في بلاد الشام مستائين من الإمبراطور، ولم يقف أحد بجانبه، فضلا عن رفض الإفرنج في أوربا مساعدته، فهو محروم من رضا الكنيسة بقرار من البابا[1]، بل لقد قيل عن البابا غريغوري التاسع أنه حرض رؤساء الداوية والاسبتارية على إرسال رسول سري إلى الملك الكامل، يخبره بأن الإمبراطور عازم على الحج مع عدد قليل، وأن الفرصة سانحة للقضاء عليه، ولكن الملك الكامل لم يفعل شيئا[2]، ولقد كان بإمكان الملك الكامل أن يكون بطلا عظيما فيما لو دخل معركة مع الإفرنج وحافظ على بيت المقدس، الذي يعد استرجاعه الأول من أمجاد الأيوبيين التي أنجزوها بقيادة السلطان صلاح الدين، الذي نذر في حياته كما تخبرنا رواية حوارية مع بهاء الدين بن شداد على أن يطرد آخر إفرنجي في بلاد الشام، ثم يتوجه بعد ذلك عبر البحر لمحاربة الإفرنج في أراضيهم[3]، وتدل المصادر التاريخية المعاصرة لصلاح الدين

---

(١) Lane-Poole, History of Eygpt, p.٢٢٥.

(٢) الطيبي، دراسات وبحوث، ٧٩.

(٣) ابن شداد، بهاء الدين، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال ط(القاهرة: ١٩٦٧) ٢٠٣.

بأنه لم يعقد معاهدة صلح مع الإفرنج، وإنما كان الهدف عنده عقد هدنة مؤقتة لاستجماع القوة والتموين، ومواصلة الجهاد فيما بعد، حيث يعود إلى البلاد. سكانها وعمارها "فإذا عادت أيام الحرب عدنا وقد استظهرنا وزدنا..."[1].

ومما زاد من حراجة موقف الملك الكامل ما كان عليه بيت المقدس من مركز ديني عظيم لدى المسلمين، وخير دليل على قدسية هذا المكان الآية القرآنية الكريمة بسم الله الرحمن الرحيم **﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾**[2]، وجاء ابن شداد بالخطبة التي ألقاها صلاح الدين بعد فتح بيت المقدس، وفيها ذكر لفضائل بيت المقدس، ومكانته بقوله "فهو موطن أبيكم إبراهيم ومعراج نبيكم عليه السلام، وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام، وهو مقر الأنبياء ومقصد الأولياء... وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله إماما بالملائكة وكلمته التي ألقاها على مريم وروحه عيسى الذي كرمه الله برسالته وشرفه بنبوته...".

هـ- مدى الالتزام باتفاقية الصلح:

إن الاتفاقية التي عقدت بين الإمبراطور فردريك الثاني والملك الأيوبي لم تنه حالة الصراع المستمر بين الإفرنج والأيوبيين في بلاد الشام، فقد قام الإفرنج في أواخر عام ١٢٢٩/٦٢٦ بالإغارة على حصن بعرين ونهب ما فيه[3]، واشتبك المسلمون والمسيحيون في القدس مرات عديدة، وفي عام ١٢٣٠/٦٢٧ حدث تصادم آخر بين الإفرنج الذين خرجوا من حصن الأكراد إلى حماه، والتقى بهم الملك المظفر محمود،

(١) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ٣١٣.

(٢) القرآن الكريم، سورة الإسراء: الآية(١).

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٤٨٨/١٢، ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٧٩/٤.

صاحب حماة عند قرية أفيون[1]، وتمكن من دحرهم، وأسر عدداً منهم، وعاد إلى حماة منتصراً[2].

وتكررت غارات الإفرنج في بلاد الشام، فقد أغاروا عام ١٢٣١/٦٢٨ على جبله[3]، ثم اتجهوا إلى ناحية المرقب وحصن بانياس، فتصدى لهم عسكر حلب بقيادة بدر الدين الوالي، وعقدت اتفاقية بينهم وبين الاسبتارية والداوية في عشرين شعبان من العام نفسه، واستمر فرسان الداوية والاسبتارية بحركاتهم في بلاد الشام إلى أن تمكن الأيوبيون عام ١٢٣٧/٦٣٤ من مقاومتهم والحد من نفوذهم[4].

سادساً: استمرار العلاقة بين الملك الكامل والإمبراطور فردريك.

لم تتوقف الصلة بين الملك الكامل والإمبراطور، بل استمرت الرسل تتردد بين الطرفين، فبعد عودة الإمبراطور إلى بلاده، أرسل رسالة إلى فخر الدين يبين له فيها شوقه إليه[5]، ويدعو له بالخير ودوام حكم الملك الكامل، ويشكو له ما فعله البابا[6].

وبينما كان الملك الكامل بالجزيرة عام ١٢٣٠/٦٢٧ وصله رسول الإمبراطور فردريك الثاني، ورسالة إلى فخر الدين بن شيخ الشيوخ[7] يبلغه أخبار بلاده، وخلافه مع البابا، كما وصل إلى حران شخص يقال له أحمد بن أبي القاسم المعروف بالرمان صاحب قلاع الجبال في صقلية، وهي ١١ جبلا وفيها قلاع علوا ، وجنش، وجاطوا و... فالتقى الملك الكامل، وبث شكواه له، وبين أن الإمبراطور فردريك

---

(١) قرية غرب حماة.

(٢) ابن واصل، م.س، ٣٠٣/٤، أبو الفدا، المختصر، ١٤٦/٣-١٤٧.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٥٠٤/١٢.

(٤) ابن العديم، زبدة الحليب، ٢٠٩/٣-٢١٠.

(٥) للمزيد ينظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ١٣١/٤-١٣٣، ابن العديم، م.س، ٣٢٠/٣-٣٢٣.

(٦) الرسالة في الملحق رقم ١٠.

(٧) ابن النظيف الحموي، كتاب تاريخ المنصوري، ١٧٥.

الثاني غدر ببلاده، وأخرج السكان المسلمين البالغ عددهم حوالي مائة وسبعين ألفـــا، وطلب من الملك الكامل التدخل لوقف قتل هؤلاء السكان، وإعادهم إلى بلادهــم، أو السماح لهم بالذهاب إلى مصر سالمين، فكتب الكامل كتاباً بذلك إلى الإمبراطور[1].

واستمرت العلاقة قائمة بين الإمبراطور فردريك وأبناء الملك الكامل بعد وفـــاة الأخير، فقد طلب الإمبراطور من لويس التاسع إلا يهاجم مصر، ولكنه لم يســـتجب له[2]، ولما وجد الإمبراطور إصرار لويس التاسع على القيام بهذه الحملة أرسل أحـــد موظفيه إلى الملك الصالح نجم الدين ايوب يبلغه بالحملة، ويطلـــب منـــه الاســتعداد لمواجهتها[3] ، بل إنه قام بعدة هجمات داخل أوربا لعرقلة هذه الحملة[4].

و لم تقتصر الاتصالات مع الإمبراطور فردريك الثـــاني على الملك الكامل، بـــل شملت بعض الملوك الأيوبيين في الشام، فقد أجاب الملك الجـــواد الأيـــوبي[5] عـــام ١٢٣٣/٦٣٠ على رسالة[6] الإمبراطور بعد سنوات من توقيع اتفاقية تســـليم بيـــت المقدس (يافا)، وفي هذا إشارة إلى تبادل الرسائل بين الطرفين، والحرص على اســتمرار العلاقات بينهما، ومن أبرز العبارات التي جاء فيها أنه "لا فرق بين المملكتين ويقصـــد بذلك المملكة الأيوبية، ومملكة فردريك الثاني"[7]، وتدل أن هذه المراسلات حفلـــت

---

(١) ابن النظيف الحموي، م.ن، ١٧٩.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٤٧/٥.

(٣) ذكرى عبد العزيز، الدولة الأيوبية، ٢٧.

(٤) مصطفى الكناني، العلاقات بين جنوه والشرق الأدنى، ٣٩٣.

(٥) الملك الجواد: يونس بن مودود بن العادل محمد بن ايوب خدم عند عميه الملكين المعظم والكامل، وشـــارك الأخير في حصاره لدمشق، وتسلم دمشق بعد وفاة الملك الكامل، إلا أن ابن عمه الصالح نجم الدين أخذهـــا منه وعوضه عنها بسنجار، ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ٣٩٦/٤.

(٦) انظر الملحق رقم (٨).

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٧/٧.

بروح الود والأخاء بين الملكين الكامل وفردريك على نمط الكتب الإسلامية المتبادلة، وتبدأ بكلمة[1]. **بسم الله الرحمن الرحيم**

واستمرت العلاقة قائمة بين الإمبراطور فردريك والأيوبيين أيضاً حتى بعد وفاة الملك الكامل، فقد ساندت قوة عسكرية مصرية سنة٦٣٧/١٢٣٩ الإمبراطور فردريك على أعدائه في أوربا[2].

ومن أغرب ما نجده في العلاقات الودية التي كانت بين الإمبراطور فردريك والملك الكامل أن الإمبراطور فردريك لم ينس محبته للملك الكامل وللإسلام بعد مرور السنوات، فعندما استولى الإفرنج على ميورقة سنة ٦٣٦/١٢٣٩ استمر أهلها المسلمون في مقاومة الإفرنج، غير أن الجزيرة تعرضت إلى أسوأ عمليات التعسف والاضطهاد، فأُسِر عدد كبير من أهلها، وتألم عدد كبير من ملوك الإسلام وغيرهم لما أصاب هذه الجزيرة، وعرض عدد من الملوك فدية لإطلاق سراح هؤلاء الأسرى، وما كان من الأمبراطور فردريك الثاني الذي كان يكن التقدير والإعجاب للمسلمين إلا أن تطوع لإنقاذ عدد من هؤلاء الأسرى[3]، وكانت رواية ابن خلكان خير ما يعبر عن مشاعر الإمبراطور فردريك تجاه المسلمين فقد قال: "كان عنده من الأسرى المأخوذين من مدينة ميورقة من الغرب عند استيلائه عليها جماعة فأحضرهم... بين يديه، وقال لهم ياحجاج قد أعتقتكم عن الملك الكامل، وسيرهم مع قصاد تقودهم إلى عكا، وأمر بحل قيودهم عند قبره وإطلاق سبيلهم"[4].

ولا يخفى ما في هذه الرواية من المبالغة، كأن المؤرخين الذين شهدوا مودة الإمبراطور فردريك للملك الكامل وحبه له قد أعجبوا بشخصيته، فجعلوا ينسبون

---

(١) انظر نص رسالة الملك الكامل في الملحق رقم ١٧.

(٢) مصطفى حسن محمد الكناني، العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامي، ٣٩٣.

(٣) عصام سالم: جزر الأندلس المنسية في التاريخ الإسلامي لجزر البليار ، ط١، ٤٤٠.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٩١/٥.

إليه مثل هذه الروايات التي يعززها عندهم ما كان قد أقامه من علاقات ودية وثقافية مع الأيوبيين لا سيما الملك الكامل...[1]

وهكذا اكتسب الملك الكامل من والده الملك العادل حب السلطنة، والميل إلى معالجة المشاكل بالطرق السلمية، والحوار ما أمكنه ذلك، فبادر مرات عديدة إلى طلب الصلح من الصليبيين أثناء غزوهم لدمياط، على أن يسلم بيت المقدس، وعند اختلافه مع أخيه الملك المعظم، وتحالف الأخير مع صاحب اربل، وخوارزم شاه اتصل الكامل بالإمبراطور فردريك الثاني ليكون سنداً له وقوة ضد أخيه، ووعده بالقدس، ومما يجلب الانتباه أن الملك الكامل رغم حبه للسلم والصلح، لم يحاول الاتصال بأخيه الملك المعظم لتسوية الأمور بينهما.

وعندما توفي الملك المعظم وزال خطره حاول الملك الكامل التنصل من وعده للإمبراطور، إلا أنه خشي مواجهة حملة صليبية جديدة، فتنازل عن بيت المقدس ومناطق كثيرة و لم يحاول مواجهة الحملة السادسة.

لوحظ أن الملك الكامل كان متسامحاً خلال مفاوضاته مع الإمبراطور، فقد تأثر بكلمات الأخير، وخضع لتأثيرات الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، كما كانت عقلية الملك الكامل تتشابه وعقلية الإمبراطور فردريك، فهما ليسا متزمتين في عقيدتهما، وبهذا ارتبطا بعلاقات ودية مبعثها محبة كل منهما العلم، واهتمامهما بقضاياه، ورعايتهما لرجاله، واشتراكهما في المناظرات الأدبية والعلمية التي كانت تعقدها في بلاطيهما النخبة من أهل الفكر، وقد بعث فردريك إلى الملك الكامل بعدة مسائل مشكلة في الهندسة والحكمة والرياضة، فعرضها على علم الدين قيصر الحنفي، وأرسل جوابها إليه[2]، وكما كان الإمبراطور فردريك معروفاً بالتسامح مع المسلمين، فقد بلغ من عطف الكامل على رعاياه درجة جعلت الكنيسة القبطية تعد

---

(١) انظر الاتفاقية بين الملك الكامل والإمبراطور.

(٢) المقريزي، السلوك، ٢٣٢/١.

أكثر الملوك إحساناً إلى ابنائها، وقد عرف القديس فرنسيس الأسيسي ذلك عنه، فزاره وباحثه في بعض أمور الدين[1].

وكان الإمبراطور فردريك معروفا بالتسامح مع المسلمين، وعندما أبحر إلى بلاد الشام، لم يتخذ الصليب علماً له، لأن البابا قد سحبه منه، فاتخذ عوضا عنه النسر، الذي أصبح لقباً له منذ ذلك الحين، و لم يكن جاداً في حرب المسلمين، وإنما هدفه كان إطفاء غضب الكنيسة عليه، وجاءت الفرصة الحسنة عندما أرسل له الملك الكامل.

وتصرف الإمبراطور بأعمال أثارت دهشة المسلمين، منها: أنه زجر قسيساً كان ينوي دخول المسجد الأقصى، ثم طرده وهدد كل من يدخل المسجد منهم بغير إذن من المسلمين، وقال إنما نحن مماليك السلطان الكامل، وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس فلا يتعدى أحد منكم طوره، وغضب عندما لم يسمع الآذان، قائلا هل يجوز أن تغيروا شعائركم لمجرد إرضائي، ثم أعطى مبلغاً من المال لمرافقه لإيصاله إلى المؤذن تشجيعا له.

ولا شك أن الإنفتاح الذي كان يتمتع به الملك الكامل كان لا يتناسب وعقلية المسلمين آنذاك، إذ أنه لما ورد الخبر إلى دمشق بتسليم القدس عم الغضب بين الناس جميعاً وتصرفوا بطريقة عفوية، واعتبروا ذلك العمل كفراً وخروجاً على الدين[2]، وقامت المآتم في جميع بلاد المسلمين[3]، وتضايق الناصر داود من ذلك، وأخذ في التشنيع على عمه الملك الكامل، وطلب من سبط بن الجوزي أن يجلس بجامع دمشق، ويذكر ما جرى على البيت المقدس، ويروي ابن الجوزي فيقول "رأيت من جملة من لديهم الحمية الإسلامية فجلست بجامع دمشق، و لم يتخلف من أهل دمشق أحد"[4].

ورأى كثير من المسلمين أن تسليم بيت المقدس للإمبراطور كان دون مسوغ، واتهم الملك الكامل بالخيانة، والتفريط في مكان مقدس.

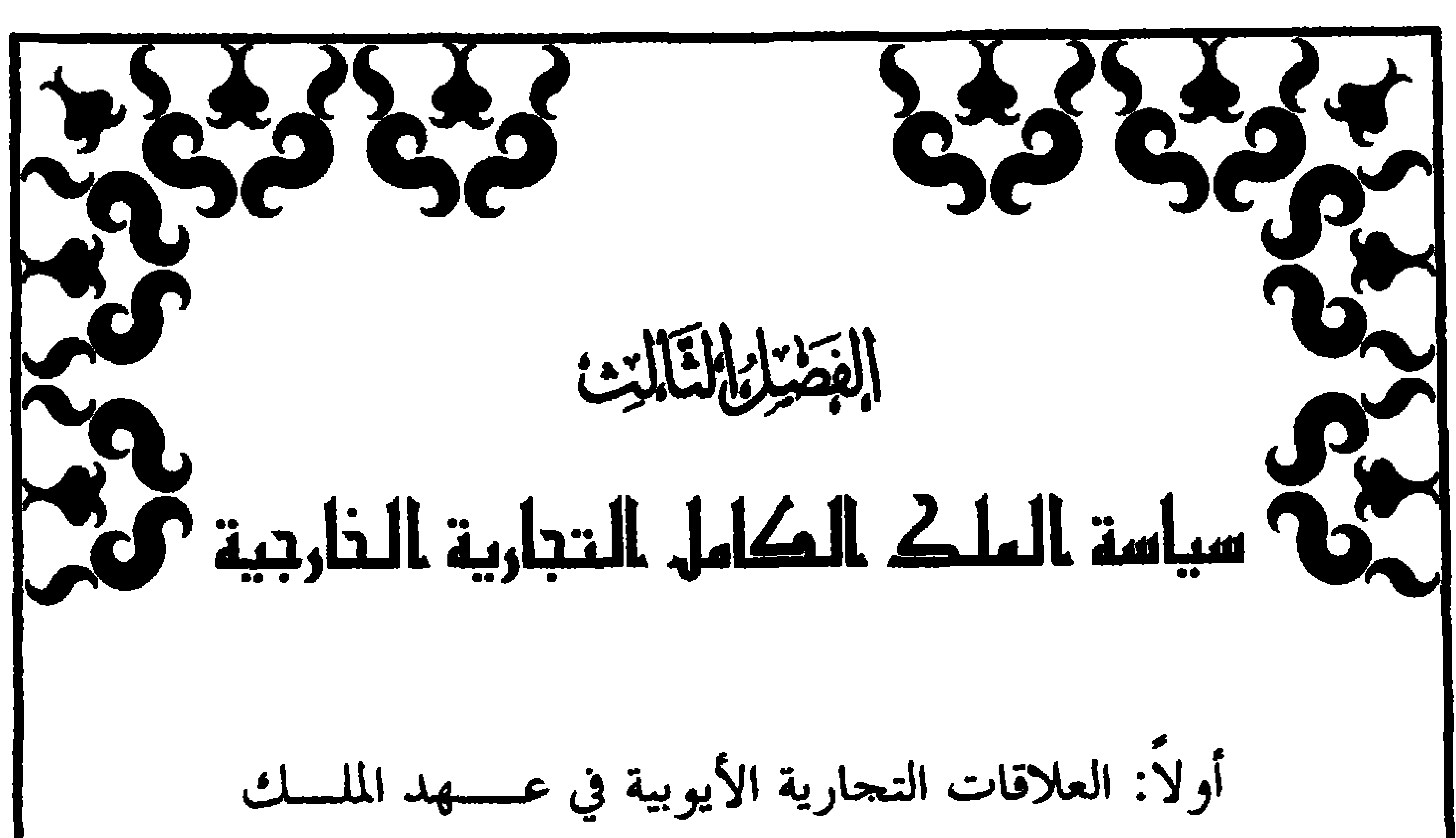
---

(١) فليب حتي، تاريخ العرب، ٢/٧٧٤.

(٢) يوسف غوانمه، إمارة الكرك الأيوبية، ٢٢٣.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ٤/٢٤٦.

(٤) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٨/٤٣٢.



الفصل الثالث

سياسة الملك الكامل التجارية الخارجية

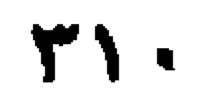
أولاً: العلاقات التجارية الأيوبية في عـــهد الملـــك الكامل.

ثانياً: المعاهدات التجارية.

ثالثاً: السلع التجاريـــــــة.

رابعاً: الطرق التجاريـــــــة.

خامساً: الرسوم الجمركية.



الفصل الثالث

سياسة الملك الكامل التجارية الخارجية

أسهمت المصالح الاقتصادية إسهاماً قوياً في دفع كل من المسلمين والفرنج للدخول في اتصالات دبلوماسية متبادلة، وعقد معاهدات واتفاقات لتحقيق مصالحهم الاقتصادية التي كانوا حريصين عليها أشد الحرص، وخاصة ما كان منها متعلقاً بالعلاقات التجارية، ولذلك خُصّص هذا الفصل للعلاقات التجارية بين مصر والشام مع الدول الأخرى في عهد الملك الكامل، ومع أن هذه العلاقات كانت تتعرض لكثير من الهزات ولا سيما خلال الحروب، إلا أنها تعد ذات أهمية واضحة في سياسة الملك الكامل الخارجية لدعم الاقتصاد، وتحسين المستوى المعيشي للأهالي، وتتفق مع عقليته المنفتحة على التعاون مع الأوروبيين.

ويجب أن يؤخذ في الحسبان عندما نعالج العلاقات التجارية بين مملكة الكامل وغيرها من الدول الأخرى، أنه يصعب حصر هذه العلاقات بفترة حكم الملك الكامل الزمنية، وبالرقعة الجغرافية التي يحكمها بدقة، ذلك أن التجارة الخارجية هي نتاج عوامل تراكمت منذ عهد صلاح الدين ، وتنامت في اثناء حكم الملك العادل، واستمرت هذه النظم سائدة في عهد الملك الكامل، وكانت الأراضي الأيوبية في عهد الملك العادل تشكل دولة واحدة، ولا حدود فاصلة بين أجزائها، وعندما توفي الأخير، وانقسمت البلاد إلى إمارات أيوبية يمتلكها الأخوة الكامل والمعظم والأشرف، وغيرهم لم تكن هذه الحدود بين هذه الممالك واضحة، وإنما كانت في مد وجزر، وكانت التجارة تنتقل بين مختلف أجزاء الممالك الأيوبية دون تحفظ، ولم تؤثر الخلافات بين الملوك الأيوبيين بصورة واضحة في التجارة والتجار، ولذلك لا بد من

الإشارة إلى التجارة الخارجية بصورة عامة في مصر والشام، مع التركيز على مصر لأنها مملكة الملك الكامل.

وقد قسمت الفصل إلى عدد من العناصر الرئيسية التي شملت لمحة عن العلاقات التجارية الأيوبية الأوروبية، والمعاهدات التجارية، والسلع التجارية، والطرق التي كان التجار يستخدمونها، والرسوم الجمركية التي كانت تفرض على السلع التجارية.

أولاً: العلاقات التجارية الخارجية في عهد الملك الكامل.

كان المد الصليبي وتزايد نفوذه في بلاد الشام عاملا هاماً في نمو التبادل التجاري مع الأوروبيين، فأخذت الأساطيل الأوروبية التجارية تتوافد على موانئ مصر والشام، ولا سيما سفن البنادقة، وجنوة وبيزة ومرسيليا وغيرها من المدن التجارية، وتطلع الأوربيون إلى الحصول على التوابل والبهارات اللازمة لإعداد المأكولات أمثال القرفة وجوز الهند والزنجبيل والأعشاب اللازمة لصناعة العقاقير، بالإضافة إلى أخشاب البخور والعطور والحرير والأحجار الكريمة، وكان الشرق الإسلامي في حاجة لاستيراد سلع لأعمال البناء كالحديد والنحاس والأخشاب

لقد اقتضت حاجة كل من الأيوبيين والأوربيين إلى السلع هذه التبادل التجاري بين الطرفين، خاصة إذا ما أخذنا أنه لم يكن في استطاعة المسلمين أو الفرنج الانفراد بالتجارة، واحتكارها، فالأرباح الوفيرة كانت سبباً أساسياً في دعم العلاقات التجارية بين الطرفين، حتى أنه يجوز القول بوجود نوع من التكامل في التبادل التجاري بينهما، فالأساطيل الفرنجية استأثرت بمهمة نقل السلع بحراً من موانئ مصر والشام إلى موانئ أوربا، وبالعكس، أما السلع الشرقية فكانت تحت سيطرة المسلمين، وكانت تنقل من منشئها في الشرق الأقصى وشرق أفريقيا إلى مصر والشام، فأصبح المسلمون يتحكمون في أهم الطرق العالمية التجارية بين الهند وشرق إفريقيا ومصر والشام.

والباحث المدقق لا تخفى عليه هذه الشواهد التي تدل على حرص كل من المسلمين والفرنجة على تحقيق التعامل التجاري بينهما بالرغم من العداء، فالأرباح الوفيرة التي كان يحصل عليها الطرفان كانت سبباً أساسياً في دعم العلاقات التجارية، وعززت حاجة أسواق أوربا لبعض السلع من الشرق التبادل التجاري بين مصر وأوربا.

وكانت مصر تتمتع بمركز تجاري مهم، إذ تقع على الطرق التجارية بين الشرق الأقصى وأوربا، وقد وفر الملك الكامل الطمأنينة والراحة للتجار، ووطد الأمن على طول الطرق البرية بين سورية ومصر والبحر الأحمر، وأنشأ الخانات على طول الطرق الرئيسية للتجارة في مصر[1]، وأظهر استعداداً لفتح بلاده أمام التجارة الأوربية، ذلك أنه كان يدرك أن التجارة تنتعش في ظل الأمان، وتكسد وتضعف بالقيود وانعدام الأمن.

وقد ازدهرت الموانئ المصرية في عهد الأيوبيين، وكان لاهتمام الملك بالأمن، وحرصه على المحافظة على توفير الطمأنينة للتجارة أثره في انتعاش التجارة، وساهم الأسطول التجاري الكبير في تنشيط التجارة،إذ كان يتكون في عهد الملك الكامل من حوالي ١٥٠ سفينة[2]، وكان التجار المسلمون يحرصون على الصدق في القول، وضبط المواعيد، والأمانة وعدم الغش[3].

كثرت الأسواق والفنادق، وتحسنت العلاقات التجارية مع الدول في الشرق الأقصى ومدن إيطاليا التجارية، وكانت الأسواق تقام في أوقات معينة في المدن، إذ كانت كل طائفة من التجار تقيم لها سوقاً في جزء من أقسام السوق الكبير، مثل القطانين، والنحاسين، وسوق البهارات و...

---

(١) فايد عاشور، العلاقة بين البندقية والشرق الإسلامي، ٢١٤.

(٢) م.ن، ٢٥٣.

(٣) م.ن، ٢٥٢.

وكانت بعض الأسواق تقام في أيام معينة من الأسبوع كسوق الجمعة للحيوانات، وكانت الدكاكين تمتد على طول الشارع، وتشجيعا للتجارة الخارجية وعلى الجانبين في مدن مصر والشام، خصصت الفنادق للتجار الأجانب، فكانوا يضعون بضائعهم في الأدوار السفلى، ويقيمون في الأدوار العليا، ويغلقون على أنفسهم بإقفال رومية[1].

وقد أدى ذلك إلى أن انتشار الوكالات التجارية في العهد الأيوبي ولا سيما في عهد الملك الكامل، والوكالات تشبه الفنادق، حيث ينزل التجار القادمون من الخارج، وانتشرت القياصر[2]، كذلك كانت الحمامات منتشرة لراحة التجار[3].

وكانت القاهرة مركزاً تجارياً هاماً، وبها الفنادق المتخصصة للتبادل التجاري، وتشمل كل أنواع السلع المحلية والشرقية والأفريقية والأدوية، ومن فنادقها المشهورة "الكارم"[4]، وفندق ابن قريش، وكان مُلْكاً للقاضي شرف الدين إبراهيم ابن قريش، وانتقل إلى ورثته في عهد الملك الكامل؛ وخان السبيل بناه بهاء الدين قراقوش، وخصصه لأبناء السبيل بغير أجرة، وبه بئر سقاية[5]، وفندق منكورس، وفندق الصالح، وكان يشرف على كل فندق موظف مسؤول أمام الدولة، فكان عليه أن يغلق الفندق في الليل حيث يبقى النزلاء طوال الليل، كما يغلق وقت صلاة العصر[6].

---

(١)توفيق اسكندر، بحوث في التاريخ الاقتصادي، ١٥٧.

(٢)القياصر هي مجموعة من المباني العامة أعدت للتجار، وبها حوانيت للسلع، ومصانع، ومخازن يقيم فيها الصناع والتجار بأجر (المقريزي، الخطط، ٩٣/٢).

(٣)المقريزي، الخطط، ٢/ ٨٠.

(٤)فايد عاشور، م.س، ٢٤٠.

(٥)المقريزي، م.س، ٩٣،١

(٦) فايد عاشور، العلاقة بين البندقية والشرق الإسلامي، ٢٥٣.

وقد انتشرت الفنادق في الإسكندرية، وقوص، وعدن، وتعز، ودمشق وغيرها من المدن، وقد كانت هذه الفنادق تتعرض أحياناً للكوارث والحرائق، وقد أشار أبو شامة إلى حريق الفنادق في دمشق عام ٥٩٦/١٢٠٠ لاختلاف أمراء بني أيوب فيما بينهم[١]، والفنادق أبنية ضخمة تشبه الحصون، يتألف الواحد منها من طوابق، يستخدم الطابق الأول مخازن، وحوانيت تفتح أبوابها على فناء داخلي، يجري فيه تعبئة البضائع وتفريغها، أما الطوابق العليا فيسكنها التجار.

واهتمت الدولة براحة التجار الأجانب في فنادقهم، فكان لهم الأفران والحمامات والكنائس، ويتولى الإشراف على كل فندق مشرف يتولى النظر في أموره.

ثانياً: المعاهدات التجارية.

بدأت العلاقات التجارية مع مدن إيطاليا جنوه وبيزا والبندقية في عهد الدولة الفاطمية، فكانت البندقية تنقل الأخشاب اللازمة لبناء سفن الأسطول المصري[٢]، وسار صلاح الدين على نهج الفاطميين، فعزز العلاقات التجارية مع المدن التجارية، وأعطى تسهيلات لتجارها، فسمح لأهل بيزا المقيمين بالإسكندرية بإقامة فندق وحمام وكنيسة، وترك لهم الحرية في العباده، وتوريد المواد الحربية كالحديد والخشب والقطران مع مصر والشام[٣].

وتابع الملك العادل سياسة أخيه صلاح الدين وذلك بالتعاون التجاري مع المدن الإيطالية، فعقد معاهدة تجارية عام ٥٩٨/١٢٠٢ مع البندقية تضمنت:

- إعطاء التجار البنادقة حياً في الإسكندرية.

(١) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ١٦.

(٢) فايد عاشور، م.س١٦٩.

(٣) م.ن.

- ضمان سلامة الحجاج المسيحيين الذين يزرون الأماكن المقدسة من طريق البندقية.

وفي عام ١٢٠٨/٦٠٥ جدد هذه المعاهدة ، وسمح للبنادقة ببناء فندق في الإسكندرية[١]، وفي عام ١٢١١/٦٠٨ عقد الملك الكامل اتفاقية تجارية مع البندقية حصلت بموجبها على امتيازات تجارية في وادي النيل والاسكندرية، وتعهدت بمنع أي هجوم صليبي على مصر[٢]، وفي عام ١٢١٥/٦١٣ جددت هذه الاتفاقية.

واستمرت العلاقات التجارية بين البندقية وبيزا وجنوة في التحسن[٣]، إذ شهدت مصر تزايداً ملحوظاً في عدد التجار الإيطاليين، وكان التنافس شديداً بين المدن الإيطالية، ويبدو أن البندقية كانت تتمتع بمكانة متميزة مع الأيوبيين، ومن مظاهر هذه المكانة[٤]:

- تعيين كاتب في الديوان يتولى الإرشاد على السلع التجارية وملاحظتها وبيعها[٥].
- السماح للتجار البنادقة بالقدوم إلى موانئ مصر للتجارة، وتبادل السلع مع المسلمين، وتوفير الأمن والحماية لهم.
- الإعفاء من بعض الرسوم، وتخفيض الرسوم التي على تجارقم عن الرسوم التي يدفعها التجار الأجانب.
- التوصية بحسن معاملة البنادقة وتجنب الإساءة إليهم.

(١) العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ابن تغري بردي، السلوك، ١٧٣/٦، ابن الكثير، البداية والنهاية، ٢٦/١٣.

(٢) فايد عاشور، العلاقة بين البندقية والشرق، ٢٣١.

(٣) كان التجار الاوربيون ولا سيما البنادقة، والبيازنه والجنويون يجيئون إلى مصر لممارسة نشاطهم التجاري في فصل الصيف، ويؤثرون تمضية الشتاء بين أهلهم.

(٤) فايد عاشور، م.س، ٢٥، Heyd, Histoire du Commerce, P.٤٠٦

(٥) فايد عاشور، مرجع سابق، ٢٥.

- السماح للقناصل البنادقة في مصر بالإشراف على العلاقات بين البلدين، والعمل على حل مشاكل جاليتهم والقضاء بين أعضاء الجالية، والتدخل لدى السلطان إذا اقتضى الأمر .

واستمر البنادقة في الارتباط بمعاهدات تجارية تتجدد بين الحين والآخر، وكانت تركز على:

- السماح لهم ببناء الفنادق، وكنيسة، وحمام ومخبز ومقبرة لدفن موتاهم[1].
- السماح لهم بالعيش في حي خاص يطبقون فيه عاداتهم وتقاليدهم، شريطة التزام البنادقة احترام تقاليد المسلمين، فلا يشربون الخمر في رمضان أو في الشوارع.

وبهذا منح البنادقة الأولوية بين الجاليات التجارية الأخرى في مصر[2]، حتى أنهم كانوا يسكون النقود في صور، فسمي بالدينار الصوري، وكان المسلمون يتعاملون به تسهيلا لصفقاتهم التجارية[3].

حرص الملك الكامل على إنعاش التجارة مع أوربا، ولكنه كان حريصا أيضاً على مراقبة أعمال التجار والحد من نشاطهم التخزيني، فقد شدد الملك الكامل عام ١٢١٦/٦١٣ على التجار الأوربيين عند محاولتهم الثورة في مدينة الإسكندرية، فتحول هؤلاء التجار عن مصر، وصار وصولهم إلى عكا بالبضائع وبيعهم بها، وتسريب قسم منها إلى مصر.

---

(١) جوزيف، نسيم، العدوان الصليبي على بلاد الشام، ٣٢٩.

(٢) العريني، مصر في عهد الأيوبيين، ٢٠٧. Runciman, A History of the Crusades, P.٣/١١٣.

(٣) زكي النقاش، العلاقات التجارية، ١٩١.

وقد استقبل الملك الكامل عام ١٢١٥/٦١٢ أسقف سيفالوا في القاهرة لتجديد المعاهدة التجارية بين صقلية ومصر، وقد جددت المعاهدة التجارية بين البلدين في العام نفسه[1].

و لم تكن مصر وحدها التي ارتبطت بمعاهدات تجارية مع الدويلات الإيطالية، إذ جرى عقد معاهدات بين أمراء الشام وبين الصليبيين، ولا سيما البيازنة، والبنادقة، ففي عام ، ١٢٠٨/٦٠٥ أرسلت البندقية سفيراً إلى حلب، عقد معاهدة تجارية مع غياث الدين غازي صلاح الدين صاحب المدينة، وكان للبندقية امتيازات وفيرة في اللاذقية وجبيل اللتين ضمتا إلى حلب، وحصلت البندقية بمقتضى هذه المعاهدة على حق بناء فندق وحمام وكنيسة في حلب، وتحدد رسوم الدخول والخروج بنحو ١٢% على السلع العائدة للبنادقة.

وفي عام ١٢٢٥/٦٢٢ استطاع سفير البندقية في حلب أن يخفض المكوس، وجعلها ٦%، وحصل على ضمانات من الملك العزيز بن الملك الظاهر(صاحب حلب) بشأن سلامة ممتلكات البنادقة في حالة الوفاة، والسماح لتجار البندقية بامتلاك فندق وكنيسة وحمام ومخبز[2].

وتوطدت العلاقات التجارية بين الملك الكامل وأوربا بعد معاهدة صلح دمياط ١٢٢١/٦١٨، وأخذت هذه التجارة تزدهر تدريجيا، إلى أن بلغت الذروة بعد صلح يافا، إذ أثرت الظروف السياسية الطيبة بين الملك الكامل، والإمبراطور فردريك في العلاقات التجارية.

وكان التجار الأجانب يقيمون في فنادق خاصة بهم، إذ كان للبنادقة بالإسكندرية فندقان، (Fondaci) تولى إدارة الجمارك المصرية (الديوان) صيانتهما

---

(١) السعداوي، السلام والحرب، ٨٥.

Heyd, Histoire du Commerce, P.١/٣٧٥. (٢)

والمحافظة عليهما، بالإضافة إلى فندق في كل من دمشق وبيروت وطرابلس، وحلب، واللاذقية، وكان لتجار جنوا فندق في دمشق، وآخر في بيروت(1)، كما كان لتجار مدينة بيزا فندق في الإسكندرية، وآخر في القاهرة.

وكان يقوم موظف بإدارة كل فندق افرنجي يطلق عليه اسم الفندقي، يُختار من أصحاب الجاه والمنزلة، مهمته الإشراف على شؤون الفندق وإدارة أعماله.

وتضمنت المعاهدات حماية الحجاج في أراضي السلطان ورعاية التجار البنادقة، و عدم إجبارهم على دفع أكثر مما هو مقرر عليهم من الضرائب(2). وقد نظمت المدن الإيطالية نقل الحجاج المسيحيين، فكانت تقوم سنوياً برحلتي عبور (Passagia)، الأولى في آذار أو رحلة عيد الفصح، والثانية رحلة الخريف. (وفي البداية كان هذا الاسم يطلق على مجموعة سفن التجار)، وتمثل هذه الفرصة المثلى للسفر إلى الحج. وكانت رحلة عيد الفصح مرغوبة أكثر.

وكانت مصلحة المدن البحرية الإيطالية في حركة الحجيج على درجة من الجسامة، بحيث أصبحت مرسيليا ٦٣٢/١٢٣٤ محصورة في هيئات الفرسان الدينية. وجعلت البندقية موعد العودة عام ١٢٣٣ يوم ٨ من أيار لرحلة عيد الفصح. ويوم ٨ من تشرين لرحلة الخريف. وهكذا فإن الموسم كان محدوداً في مدة قصيرة. إذا لم يكن المرء يستطيع أن يبقى في الأراضي المقدسة نصف سنة أو سنة كاملة.

وكان يشرف على الجاليات التجارية الفرنجية في مصر والشام قناصل، يستبدلون كل عامين إلا إذا اقتضت الضرورة استبدالهم لظروف طارئة، وكان هؤلاء القناصل ممثلين لدولهم، وهمزة وصل بين أبناء جلدتهم والسلطة المحلية وبين حكوماتهم في أوربا من جهة أخرى، وكان القنصل مسؤولا عن إدارة شؤون جالية

---

(1) Heyd, Histoire du Commerce, P.٤٣٢.

(2) سامي سعد، أسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى، والجمهوريات الإيطالية، ٧٣.

بلاده، ورعاية مصالحها ورفع الظلم عنها، فكان يحق لكل قنصل مقابلـــة السـلطان لعرض مشاكل جاليته، وكانت مهمة القنصل الإشراف على وصول السفن التجاريــة إلى الموانئ المصرية والشامية ومغادرتها، كذلك كان القنصل مســؤولا أمــام الملــك الكامل عن كل ما يصدر عن رعاياه من مخالفات للقوانين والتقاليد الإسلامية.

❖ الحظر على التجار:

كانت العلاقات التجارية كثيراً ما تتعرض لبعض النكسات، بسبب قرار البابــا الذي فرض "ضريبة صلاح الدين" على التجارة[١]، والتي كان هدفها مقاومة صــلاح الدين، وتوفير المال لغزو الاراضي المقدسة، واسترجاعها من أيدي المسلمين بعد مــا حررها صلاح الدين، كما أن الحملة الصليبية على دمياط عام ١٢١٨/٦١٥، وتــأييد المدن الإيطالية لها جعل الملك الكامل يلغي الاتفاقات التجارية معها، كالاتفاقية الــتي بين مدينة بيزا، والملك الظاهر والتي أجازت لبيزا بناء فندق في القــاهرة وآخــر في الاسكندرية[٢]، وأصدرت البندقية قراراً تحظر فيه على تجارها تصدير الخشب والحديد والقار إلى مصر، وفرضت عقوبات قاسية على المخالفين، وصادرت أمــوال التجــار الذين يشترون السلع القادمة من مصر والشام[٣].

وظهر نظام ثابت للضرائب في كل من فرنسا وانجلترا عــام ١١٥٨م، عــرف باسم ضريبة لإنقاذ الأراضي المقدسة (Ad Sustentionem terrae Hiersolimitannae)[٤].

واستهل البابا انوسنت الثالث عهده بمنع التجارة مع المسلمين، وشددت البابوية عام ١٢١٥/٦١٢ على الحظر التجاري مع المسلمين في مصر والشام، وجعل الحرمــان جزاء كل من يتعامل مع المسلمين، وخاصة من يقدم أو يبيعــهم المــؤن والســلاح،

---

(١) فايد عاشور، العلاقة بين البندقية والشرق الإسلامي، ٢٥٣.

(٢) Cook, Studies in the Economic P.٦٦.

(٣) Heyd op. Cit, p.٦

(٤) آرنست باركر، الحروب الصليبية، ٨١.

وتكررت أوامر البابا بمنع التجارة مع المسلمين[1]، مما يدل على أن هذه التجارة كانت ذات أثر فعال، وأن الأوربيين كانوا يحاولون تهريب هذه المواد باستمرار.

وأصدر البابا قراراً آخر يهدد كل من يتجاسر أن يبيع للمسلمين الحديد أو الأسلحة أو الأخشاب التي تستخدم في بناء السفن، وكل من يدخل في خدمة المسلمين مرشداً لسفنهم أو قائداً لها، سوف يتعرض للحرمان من الكنيسة، ولا يكون جزاؤه إلا مصادرة متاعه، وضياع حريته الشخصية[2].

وعند الاستعداد للحملة الصليبية الخامسة أمعن مجمع اللاتران المنعقد عام ٦١٢/١٢١٥ في تشديد الحظر، وجعل الحرمان من الكنيسة جزاء كل من يقدم المؤن والأسلحة للمسلمين[3].

وكان المسلمون يحرمون كذلك كل متعاون مع الصليبيين، وقد وضع الفقهاء شروطاً للتعامل معهم وقت الحرب[4]، ولهذا كادت التجارة تتوقف بين الأيوبيين والصليبيين في عهد الملك الكامل أثناء العدوان على دمياط عام ٦١٨/١٢٢١، غير أن المصالح المشتركة لكل من الأيوبيين والبنادقة جعلتهم يلتقون ويتفاهمون في معظم الأحيان، فحاولت البندقية عام ٦٢٣/١٢٢٥ الاتجار مع حلب، وعقدت معاهدة تجارية مع الملك العزيز بن الظاهر فنالت بعض التسهيلات الجمركية[5].

ولم تتوقف التجارة بين أوربا ومصر وبلاد الشام كلياً، ويؤكد ذلك ما تكرر من صدور أوامر البابا بمنع التجارة مع المسلمين، ففي عام ٦١٢/١٢١٥ بالغ مجمع اللاتران في تشديد الحظر على التجارة، وجعل الحرمان من الكنيسة جزاء كل من

---

(١) Hedgson, The Early History of Venice P. ١٦٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٣٢٣/٩، المقريزي، السلوك، ٧٩/١.

(٣) Heyd, Histoire du Commerce, p.٤٠٥.

(٤) فايد عاشور، العلاقة البندقية والشرق، ٢٦٥.

(٥) سامي سعد، أسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى والجمهوريات الإيطالية، ٧٣.

يقدم المؤن والأسلحة للمسلمين[1]، ومع ذلك فقد استمرت السفن التجارية الأوربية من بلاد اليونان، والبندقية في الوصول إلى الإسكندرية.

وتحسنت العلاقات التجارية بين مصر أيام الملك الكامل والإمبراطور فردريك الثاني بعد تسليم الأول القدس للإمبراطور، فعاد البنادقة إلى ممارسة التجارة مع مصر عام ٦٢٧/١٢٢٩، وحصلوا على امتيازات كانوا يتمتعون بها.

وسمح لأهل بيزا المقيمين بالإسكندرية بإقامة فندق وحمام وكنيسة، وكذلك حرية العبادة، وحق استعمال موازينهم ومقاييسهم الخاصة، تشجيعاً لهم على توريد المواد الحربية من الخارج إلى مصر، وخاصة الحديد والخشب والقطران[2].

إلا أن البنادقة لم يستردوا وضعهم السابق في الإسكندرية بعد فشل الحملة الخامسة، لأنهم شجعوا الحملة، ومع أنهم عادوا إلى متاجرهم فلم يكونوا موضع ثقة المسلمين[3].

ثالثاً: السلع التجارية.

راجت التجارة في عهد الملك الكامل لانتعاش بعض النباتات التي يحتاجها الأوربيون، فكان المصريون يزرعون كثيراً من النباتات للتجارة، واستخراج الزيت منها لاستخدامه في العلاج، كالبيلسان والخس والخروع والقرطم، وكذلك خشب الأبنوس الأبلق، ونبات الأهليلج[4][5] والخيار شنبر[6]، والتمر الهندي.

---

(1) Heyd, Histoire du Commerce , ٤٠٥.

(2) فايد عاشور، العلاقة بين البندقية، ٢٥٦.

(3) Heyd, Op, cit ,p. ٤١٦.

(4) ابن مماتي، قوانين الدواوين، ٦٣٢.

(5) الإهليلج نبات كالتوت، ابن مماتي، ص٣٦٢ حاشية ٩.

(6) شجر له ثمر كالخرنوب يستعمل كملين لطيف، المنجد، ١٩٨.

وساهمت الصناعة المصرية في زيادة السلع التجارية، وكانت صادرات مصر الزجاج والصوان والتمر والزبيب والصوف والثياب الملونة، وقصب السكر، وحبال الليف، والخيش، والزئبق، والحصر، والقفاف، والكتان الرفيع[1]، والنطرون[2].

كانت الدول الأوربية في حاجة ماسة إلى ما يرد من سلع على مصر من الشرق الأقصى، وبخاصة البخور والعطور والفضة والبيلسان لاستخدامه في الأدوية، بالإضافة إلى الشب والملح والمنسوجات التي تستوردها البندقية لبيعها لدول أوربا.

وكانت مصر تستورد التوابل، وجوز الهند، وجوز الطيب، والكافور، والقرنفل، وسائر منتجات الهند، والعاج من أفريقيا والهند، والبخور والتمر من الجزيرة العربية، واللؤلؤ، والقرفة والمسك من التبت، وتخزنها في مستودعات كبيرة، وتعيد تصديرها إلى أوربا[3] وكذلك الشب[4][5].

وكانت البندقية تحضر إلى مصر الأسلحة والحديد والأخشاب والقطران والفضه، والرقيق الذين تأتي بهم من جميع أنحاء أوربا، وكان البنادقة قد باعوا الأطفال الذين شاركوا في الحملة الصليبية عام ٦١٢/١٢١٥ في الإسكندرية ودمياط[6]، وكان تجار البنادقة ينقلون إلى مصر الأقمشة الصوفية من انجلترا، وبعض المصنوعات من ألمانيا، والفواكه الجافة والأسماك المجففة، ونسيج القنب والكتان والصوف[7]، وتشير

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ٢٠٣.

(٢) معدن كان الأوربيون ينقلونه إلى بلادهم.

(٣) توفيق اسكندر، بحوث في التاريخ الاقتصادي، ٧٩، العريني، الأيوبيون، ٢٤.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣/٤٤٥.

(٥) حجر يستخدم في الصباغ الأحمر، ويوجد بصحراء وصعيد مصر، م.ن.

(٦) فايد عاشور، العلاقة بين البندقية والشرق الإسلامي، ٧٩.

(٧) م.ن.

الاتفاقات التجارية مع المدن الإيطالية إلى أن صناعة الفخار ولا سيما المطلية بالمينـــاء كانت معفاة من الرسوم الجمركية[1].

وكان الأوربيون يستوردون بذور الكتـــان بكميـــات كبـــيرة[2]، وكذلـــك المنسوجات القطنية والأصواف من دمياط وهنسا[3]، وقصب السكر والسكر الأبيض، ويستورد الإيطاليون من بلاد الشام الفواكه والتمور والملـــح[4] والحبـــوب والزيـــت والصابون والزجاج والخزف[5]، ومواد الصيدلة[6]، وقدور القناديل، والعسل والجلد.

وكان الأوربيون حريصين على استيراد بعض المصنوعات المصرية، ولا ســـيما الزجاج الشفاف جداً[7] والفخار البديع الدقيق الصنعة، وتشير الاتفاقات التجارية مـــع مدن إيطاليا إلى أن هذه المصنوعات كانت معفاة من الرسوم الجمركية[8]. واســـتورد الإيطاليون الأصباغ، والورق، والزيت الحار[9] الذي كان يســـتخدم في المصـــابيح، وكذلك الخردل[10]، وحرص الأوربيون على استيراد الســـجاد واللؤلـــؤ والعطـــور والمنسوجات الحريرية والصوفية، والبسط التي كـــانت تحـــاك في بنـــها وأســـيوط، ونوتة[11].

---

(١) محمد كرد علي، خطط الشام، ٥٩/٣.

Cook, Studies in Economics, p.٥٥(٢)

Hyd, Histoire du Commerce, Vol, ١١, p.٥٨٧.(٣)

(٤)الكناني، العلاقات بين جنوه والشرق الأدنى الإسلامي، ٣٠٨.

(٥) عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب، ١٨٧.

(٦) زكي النقاش، العلاقات الثقافية والاجتماعية بين العرب والإفرنج، ١١٨.

(٧) زكي النقاش، العلاقات الخارجية والثقافية، ١٨٣.

Hitti, History of the Arabs. ٦١٢. (٨)

(٩) محمد كرد علي، خطط الشام،٥٩/٣.

(١٠) كان يستخرج من البنجر واللفت (محمد كرد علي. خطط الشام، ٥٩/٣).

(١١) اشتهرت نوتة بحياكة كسوة الكعبة المشرفة (المقريزي، الخطط، ٧٧/١).

وكانت مصر تصدر بعض التحف المعدنية المزخرفة بأشكال هندسية ونباتية[1]، وأجهزة الاسطرلاب[2].

رابعاً: الطرق التجاريــة.

انتعشت التجارة بين مصر والشام من جهة وبين المدن الإيطالية، والهند، وشرق أفريقيا من جهة أخرى، وقد ساعد موقع الدولة الايوبية في مصر والشام وســيطرتها على الطرق البحرية والبرية بين أوربا والشرق الأقصى على ذلـك[3]، كمـا كـان لامتداد موانئ مصر على ساحل البحر المتوسط والبحر الأحمر العامل الهام في ازدهـار التجارة من مصر وإليها، والقيام بالوساطة التجارية بين الهند وأوروبا.

لقد كانت القوافل التجارية دائمة السير بين الشام ومصر عن طريق الشـوبك والكرك[4] أو غزة ورفح، وكانت دمشق محطة رجال القوافل الذاهبة إلى بلاد الشـام والجزيرة الفراتية والعراق[5].

وكانت السفن التجارية تمخر عباب البحر المتوسط من موانئ مصـر، وبـلاد الشام، إلى مدن إيطاليا وبيزا وجنوة والبندقية، وكانت أكثر الطرق البحرية نشاطاً:

- البندقية – الإسكندرية وبالعكس.
- أوروبا– سوريا، ومصر وبالعكس.

---

(١) عثر على إبريق معدني، وعليه بعض الكتابات الكوفية التي تشير إلى أن عمر بن حاجي حلدك صنعـة عـام ٦٢٣/١٢٢٦ في عهد الملك الكامل، والإبريق موجود في متحف المتروبوليتان في نيويورك (محمد عبد العزيـز مرزوق، الفن الإسلامي في العصر الأيوبي، ٧١.

(٢) الاسطرلاب موجود في متحف اللوفر (سعيد عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين، ١٤٩).

(٣) فايد عاشور، العلاقة بين البندقية والشرق الإسلامي، ٢١٤.

(٤) حرص الملك الكامل على أن يستولي على حصن الشوبك لتأمين طريق القوافل التجارية والحجاج المسـلمين التي تمر من البحر الأحمر إلى دمشق عبر الصحراء الأردنية التي يسيطر عليها هذا الحصن. (انظر الملحق رقم٨).

(٥) زكي النقاش، العلاقة الاجتماعية، ٩٨.

- مصر، الهند، وشرق أفريقيا.

كانت الموانئ الأيوبية ذات أهمية للتجارة بين الشرق والغرب، حيث تنقل التجارة القادمة من أوربا إلى البحر الأحمر ، وكانت إيله، والقلزم، وجدة، أهم الموانئ التجارية الواقعة على البحر الأحمر[1]، كذلك اشتهرت عيذاب وعدن وقوص[2].

وكانت البضائع تحمل على ظهور الإبل والدواب بين القلزم والبحر، حيث تقوم الأساطيل التجارية بنقلها إلى البحر المتوسط والبحر الأحمر، ومن ثم إلى المحيط الهندي وخليج العرب.

تزايدت مع مرور الوقت أهمية الطرق التجارية المارة بمنطقة مصر والشام، فالطريق البري الممتد من الصين إلى آسيا الصغرى وموانئ البحر الأسود، عانى من عدم استقرار في البلاد، وأصبح الجزء الأكبر من التجارة ينقل بطريق البحار، وقد أخذ التجار ينحرفون عن الطريق المار بالخليج العربي لأسباب أمنية، واجتذبهم الطريق الدولي الممتد من المحيط الهندي إلى مصر، بعد أن تبين للتجار مميزات هذا الطريق وتفوقه على غيره في نقل البضائع.

وكانت السفن تتجه من المحيط الهندي إلى اليمن، وبخاصة ميناء عدن، حيث تواصل مسيرها في البحر آمنة، ومنه كانت تنقل البضائع إلى الموانئ المصرية الواقعة على البحر المتوسط، وبخاصة الإسكندرية.

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣/٤٩١.

(٢) ابن مماتي، قوانين الدواوين، ٣٢٥.

❖ الموانئ الرئيسة:

وقد اشتهر الكثير من الموانئ مراكز تجارية أبرزها:

ميناء الإسكندرية: كانت تعد أعظم ثغور مصر، حتى إنها سميت سوق العالمين[1]، وكانت مركزا تجاريا هاما، وقد قال عنها ابن بطوطة[2]: "كانت أجمل ثغور مصر وأعظمها شأناً، وأهلها على يقظة من أمور البحر، والاحتراز من العدو، وقد اهتم بتحصينها الأيوبيون لحمايتها من كل خطر".

- دمياط: ثغر جميل كثيرة البساتين[3].
- تنيس: ثغر هام في المصانع الحربية والحديدية، والمنسوجات.
- القلزم: تقع على البحر الأحمر، عامرة بأسواق السلاح[4].
- الفرما: مركز تجاري هام، وسوق عالمية.
- عيذاب: كانت تتمتع بأهمية تجارية[5]، وأصبحت من الموانئ الهامة على البحر الأحمر[6]، بحر (القلزم)[7].

وقدر الأسطول التجاري العامل في البحرين المتوسط والأحمر والنيل في عهد الملك الكامل بحوالي ١٥٠ سفينة[8]، منها بعض السفن السريعة، وكانت تستخدم

---

(١) ابن مماتي، قوانين الدواوين، ٣٢٥.

(٢) ابن بطوطه، الرحلة، ٩/١.

(٣) ياقوت، معجم البلدان، ٣١٢/٢.

(٤) فايد عاشور، العلاقة بين البندقية والشرق الإسلامي، ٢١٤.

(٥) ابن مماتي، م.س، ٣٤٧.

(٦) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٥/٢.

(٧) فايد عاشور، م.س، ٢٦٥.

(٨) ابن مماتي، م.س.

لنقل السلع والمسافرين، وخزن الغلات والماء[1]، بالإضافة إلى سفن الشواني الحربية المستخدمة لنقل مؤونة الجيش والفرسان والخيول[2].

خامساً: الرسوم الجمركية.

اهتم الأيوبيون بالجمارك لصلتها الوثيقة بعمليات التبادل التجاري، فكانت تؤخذ في الموانئ ومراكز الحدود البرية، وكانت السفينة إذا رست في الميناء صعد إليها موظفو الجمارك (الأمناء)، مهمتهم تسجيل جميع السلع التي على ظهر السفينة، وتقدير قيمتها، فيما يذهب التجار إلى مكان التفتيش لمنع التهريب، ودفع الرسوم المقررة على البضائع، وبعد دفع الرسوم، يسمح للتجار بنقل البضاعة إلى الفندق، أو الوكالة ليجري تثمينها ثانية إذا احتج التجار، وجرت العادة ألا تبحر السفينة إلا إذا دفعت الرسوم المقررة عليها، أما الرسوم الجمركية فكانت تقدر وفقاً لسياسة الدولة التجارية، وقوة احتمال الأسواق، وكان يمكن تأجيل دفع هذه الرسوم إلى العام القادم على أن تتضاعف[3].

وكانت الدولة تعاقب الذين يتهربون من دفع الرسوم الجمركية، ولكنه لا يحق القبض على التاجر الأجنبي إلا بأمر السلطان أو المسؤولين[4]، وكانت الرسوم تخفض على الواردات والمواد الاستراتيجية لدور الصناعة التي تحتاجها الدولة، كالخشب والحديد والقار، وكان البنادقة يدفعون رسوماً أقل من الرسوم الجمركية التي يدفعها

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٣/٢.

(٢) فايد عاشور، العلاقة بين البندقية والشرق ٢٥٧.

(٣) م.ن، ٢٦٦.

(٤) م.ن، ٢٦٧.

التجار الأجانب الآخرون، وفقاً للمعاهدات التجارية، كذلك كان المسلمون يدفعون أقل مما يدفعه التجار الأوربيون، إذ كان عليهم أن يدفعوا الزكاة من مالهم(١).

وكانت البضاعة التي لا تباع تعفى من الرسوم الجمركية، أي تعاد رسوم جمركتها(٢)، ويجوز إعادة تصديرها، وكان التجار يدفعون أجور الحمالين، وعمليات الوزن، والسمسرة والمترجمين(٣).

وكانت الدولة تتقاضى ١٠-٢٠% من ثمن البضائع(٤)، وكان السلطان يلغي الرسوم أحيانا تشجيعا للتجارة، كما فعل صلاح الدين عندما ألغى المكوس الخاصة بالبهار ورسوم السمسرة، واستعمال الميزان تخفيفا عن المسلمين، وتوفيراً للعدل.

وقد أوجدت الدولة نظام السمسرة، ومنحت السماسرة رخصاً لممارسة مهنتهم، لتسهيل عملية البيع والشراء، كذلك وفرت الطمأنينة والراحة والعدل للتجار، ووطدت الأمن على طول الطرق البرية ولا سيما الصحراوية، وساحل البحر الأحمر، وبين مصر وسورية، وأنشأت خانات وفنادق على الطرق الرئيسية للتجارة على نفقتها الخاصة، تأميناً لراحة التجار وحماية لهم(٥).

وسمحت الدولة لقناصل الدول الأجنبية بالإشراف على جالياتهم، ومقابلة السلطان في حالات الشكوى والتظلم، فتقدم الشكاوي إما كتابة أو مشافهة، وكان القنصل المرتشي إذا تسامح في القانون، أو أساء إلى النظم والأعراف التجارية، يعاقب وذلك بوسمه بالكي في النار في جبهته، لإظهار جريمته، وحتى يكون عبرة لغيره(٦)، ولا

---

(١) فايد عاشور، العلاقة بين البندقية والشرق، ١٣٣.

(٢) فايد عاشور، م.ن، ٢٦٥.

(٣) سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها، ٢٥٨.

(٤) فايد عاشور، م.س، ٢٦٥.

(٥) فايد عاشور، م.ن، ٢٦٥.

(٦) م.ن، ٢٥٧.

يعود إلى إرتكاب جريمة الرشوة في المستقبل، وكان القناصل يجتمعون مع السلطان مرة واحدة في السنة على الأقل، لمناقشة شروط المعاهدات التجارية، ومعالجة المخالفات في بعض بنودها.

وبهذا تعددت الضرائب التي كان يدفعها التجار الأجانب، منها ضريبة الصادر والوارد، ويتولى الديوان تحصيل هاتين الضريبتين، فتؤخذ ضريبة الوارد على البضائع التي تباع فعلا، أما التي لم تجد لها سوقاً في البلاد فلا يدفع أربابها عنها، ويجوز لهم إعادة تصديرها على ألا تكون من هذه السلع الحديد والخشب والقار.

أما ضريبة الصادر فيجري تحصيلها عن جميع السلع التي يشتريها التجار الأجانب من مصر والشام ، وعن الأموال التي تخرج من البلاد، ويجري تحصيل رسوم السمسرة والترجمة إلى جانب هذه الضرائب، وكانت المراكز الجمركية موجودة في الداروم عند حدود مصر، والجسر الحديدي بين حلب وأنطاكية.

ومما سبق نلاحظ أن التجارة كانت مستمرة بين مصر وأوربا وأفريقيا والهند خلال حكم الملك الكامل، وأن الأخير حرص على استمرار المعاهدات التجارية التي عقدت مع الدولة الأخرى، وأنه كان يجدد هذه المعاهدات كلما سنحت الفرصة.

وكانت الموانئ المصرية نشطة في تجارتها ولا سيما الإسكندرية، ودمياط، وقوص بالإضافة إلى عيذاب وعدن.

وكان التجار المسلمون يقومون بالوساطة التجارية بين الهند وأوربا، فيخزنون سلعهم في مخازن كبيرة في الموانئ المصرية والشامية.

وحرص الملك الكامل على توفير الراحة للتجار الأجانب، والسماح لهم بإقامة الفنادق، والسماح لمثل أو قنصل لكل بلد بإدارة شؤون أبناء جلدته من الجاليات الأجنبية، بل شجع القناصل على مقابلته لبث شكواهم كلما احتاج الأمر إلى مساعدته.

وكانت التجارة تتعرض أحيانا لنوع من الفوضى أثناء الحروب، فكانت قرارات البابا تمنع التجارة مع المسلمين، ولا سيما تجارة السلع الحربية كالحديد والأخشاب والقار، إلا أن التجار كثيراً ما كانوا يهربون بضاعتهم إذا سمحت لهم الفرصة.

واجهت التجارة بين المسلمين والفرنج مشاكل وعقبات، إذ كان الشك ينتاب المسلمين في التجار الأجانب، ونواياهم أثناء الحرب، فكان المسلمون يخافون من أعمال التجسس، وإثارة الفتن من قبل هذه العناصر، كما حدث عام ٦١٣/١٢١٦ في الإسكندرية، وكانت طرق المواصلات البرية والبحرية بحاجة إلى جهود متواصلة يبذلها المسؤولون من الفرنج لتحقيق أمان التجار وسلامة بضائعهم، ولم تتحدث المعاهدات التجارية بين الطرفين عن استمرار الأمان لهؤلاء التجار، وبخاصة أن تلك الحقبة لم تعرف وجود سفراء دائمين أو دبلوماسية مستقرة تتولى الإشراف على المعاهدات ، وتعمل على تسوية المشاكل التي يواجهها رعايا الدول.

لاحظنا أن سياسة الملك الكامل الخارجية راعت الظروف التي كانت تعيشها المنطقة، فكانت سياسته مرنة اتخذت إطارين، الإطار الحربي والإطار السلمي ، ففي الجانب الحربي اضطر إلى مواجهة العدوان الصليبي بعد وفاة والده الملك العادل بصبر وثبات، وأحسن استغلال المعطيات التي توافرت له، إذ كان مرناً في خططه الحربية.

لقد نجح الكامل في حشد القوات الإسلامية المحيطة به، ولا سيما عساكر المماليك الأيوبية لمواجهة العدوان على مصر، واستنفر العربان وأهالي مصر، واستخدم الكر والفر في الحرب، واتبع سياسة الهجوم والدفاع، واستغل تزايد مياه نهر النيل أحسن استغلال لإغراق المعسكر الصليبي، وشل حركتهم، ولكنه لم يغال في معاملته للفرنجة عندما انتصر عليهم، بل سيطرت عليه الروح الإنسانية فزودهم الطعام، وعاملهم برفق، ولم يفرض عليهم شروطاً قاسية في الصلح، بل كان واقعياً أملا في

كسب ثقة الفرنجة في إنهاء حالة الحرب معهم، وإلى سنوات كما نصت معاهدة الصلح.

و لم يتخل الملك الكامل عن الصلح والسلام، فمد يده بعد لأي للإمبراطور فردريك الثاني، وعقد معه صلح يافا، وتنازل فيه عن مدينة بيت المقدس، وبعض المناطق المؤدية إليها حتى لا يثير أوربا في حملة جديدة، و لم يتقبل اقتراحات جنده، الذين نادوا بمواجهة الإمبراطور فردريك الثاني الذي وصل إلى عكا بقلة من الجند، وحاول الملك الكامل توضيح موقفه من تسليم بيت المقدس للخليفة العباسي ولعامة المسلمين، عندما ذكر أنه قادر على استعادة المدينة المقدسة بسهولة، وأنه سلم بيوتا خربه، في الوقت الذي استمر في الإشراف على المسجد الأقصى والحرم القدسي.

وتطلع الملك الكامل إلى تأثير حالة السلم في اقتصاد بلاده، فأولى التجارة رعايته، وعقد معاهدة تجارية مع البندقية، وحرص على توفير الراحة والتسهيلات اللازمة للعمليات التجارية التي تقوم بها مصر مع أوربا، والهند وافريقيا، واهتم بالطرق التجارية كل اهتمام، فاستأذن ابن أخيه الملك الناصر داود في تملك قلعة الشوبك لضمان استمرار سير القوافل التجارية في صحراء الأردن بأمان، ولكنه لم يتردد في الضرب بيد من حديد على أيدي التجار الأوروبيين الذين حاولوا إثارة الفوضى في الإسكندرية أثناء العدوان الصليبي على دمياط.

الخاتمة

ظهر الأيوبيون في النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي عندما أسس السلطان صلاح الدين دولته على أنقاض دولة سيده نور الدين محمود زنكي، فوحد القوى الإسلامية لمواجهة الصليبيين، وتصفية مراكزهم وقلاعهم في بلاد الشام.

توفى صلاح الدين عام ٥٨٩/١١٩٣، وقسمت مملكته بين أبنائه، فتصارعوا فيما بينهم، فاستغل عمهم الملك العادل هذا التنافس والخلاف لصالحه، و لم تمض سنوات قليلة حتى أزاح من طريقة أبناء أخيه صلاح الدين، وأصبح سلطان الدولة الأيوبية في مصر والشام والجزيرة، فقسم البلاد بين أبنائه، وترك لكل منهم إدارة البلد التي يمتلكها، ولكنه بقي صاحب السلطة العليا.

وكان الكامل والمعظم والاشرف أبرز أبناء الملك العادل، وكان الكامل أكبر الأبناء الأحياء بعد وفاة أخيه مودود، فاعتمد الملك العادل عليه، لما لمسه من قدرة علىمعالجة كثير من المواقف، فكان نائباً له في الجزيرة، وساعده في حصار ماردين عام ٥٩٥/١١٩٩، ودعمه في مواجهة ابني صلاح الدين الملكين الأفضل، والظاهر لدى محاصرهما دمشق عام ٥٩٦/١٢٠٠، ثم أصبح الملك الكامل نائباً لأبيه في مصر.

اتخذ الملك العادل سياسة الدفاع في مواجهة الحملات الصليبية، وجنح إلى مسالمتهم كلما أمكن ذلك، اعتقاداً منه أن مسالمة الفرنج في بلاد الشام ستصرفهم عن طلب معونة أوربا، مع أن كل ملك وقع معه هدنة كان قصده التقاط الأنفاس ليتمكن من مواصلة جهوده للإعداد لحملة أوربية جديدة، وقد شهد الملك العادل بداية الحملة الخامسة.

توفي الملك العادل عام ٦١٥/١٢١٨، وترك السلطة لابنه الكامل في رعاية ١١ أخاً (رزق العادل ١٦ ولداً ذكراً عدا البنات، توفي ٤ منهم في حياته، وبقي اثنا عشر أحدهم الملك الكامل)، فاحترموا رغبة أبيهم، وأظهروا له الطاعة.

وقد اكتسب الملك الكامل الكثير من صفات والده العسكرية والإدارية، ومال إلى مسالمة الصليبيين، وإلى اصطناع السياسة معهم كلما أمكن ذلك، إذ كان مثقفاً، منفتح العقل، متسامحاً.

انفرد الملك الكامل بحكم مصر ما بين ٦١٥/١٢١٨ و ٦٣٥/١٢٣٧، حاول خلالها الانفراد بزعامة الأيوبيين وإعادة وحدة مصر والشام والجزيرة تحت سلطته، فركز سياسته الداخلية والخارجية نحو هذا الهدف.

لقد كشفت الدراسة أن الملك الكامل حاول تثبيت ملكه في مصر، فركز سياسته على نشر الأمن، ومعاقبة المتمردين، وقطاع الطرق، وتوفير العدل، والتعليم، وتحسين الاقتصاد بزيادة الأراضي التي تعتمد على الري، وأصلح النظام المالي، وتطلع إلى اكتساب ثقة الرعية، والعلماء، فكان يوزع الزكاة على الفقراء، ويقرب العلماء والشعراء، ويرعى أهل الذمة، ولا سيما الأقباط، ولكنه لم يتردد في معاقبة المشايعين لابن الخليفة الفاطمي العاضد عندما حاولوا الخروج على أعراف البلاد.

كانت الثقة التي غرسها الملك العادل بين أبنائه قوية، فتعاونوا فيما بينهم لدى عدوان الصليبيين على دمياط، وتفرد الملك الكامل بزعامة الأيوبيين، واجتمعت حوله جيوشهم، فداخله الطمع، وتطلع إلى امتلاك دمشق بعد ما زال خطر الصليبيين، وانسحبوا من دمياط، وأشارت الدراسة إلى أن الملك الكامل لم ينجح في جعل الملوك الأيوبيين عصبة متماسكة من حوله يستشيرهم، أو يتظاهر باستشارتهم، في شؤونه العامة حتى يطمئنوا إليه، وإنما عمد إلى تقريب أخيه الأشرف، فنفر منه أخوه المعظم، وبدأت صفحة من العداء بينهما، فضعفت قوى الأمراء وتفرقت كلمتهم بين مؤيد

للكامل ومخالف له، و لم يحسن استغلال وفاة أخيه الملك المعظم بتقريب ابنه الملك الناصر داود، وإنما استمر في سياسته لنزع دمشق إلى أن ملّكها لأخيه الملك الأشرف.

وحاول الملك الكامل جمع ملوك الأيوبيين بتزويجه بناته لملوك الكرك، وحلب وحماة، ولكن الأمور لم تصف بينه وبين الملوك الأيوبيين، وإنما داخله الغرور عام ١٢٣٣/٦٣١ عندما كشف سياسته بتطلعه إلى ضم بلاد الشام وتعويض ملوكها بأراضي السلاجقة الروم، فوقف له الملك الأشرف وألب عليه بقية الملوك الأيوبيين، فازداد تمزقهم، ولكن الملك الأشرف توفي فجأة عام ١٢٣٧/٦٣٥ فانفرط عقد الملوك الأيوبيين المعادين للملك الكامل، وصفا الجو للكامل، فضم مدينة دمشق بعد انتزاعها من أخيه الصالح إسماعيل، وبذلك أعاد الوحدة الأيوبية التي كان يتطلع إليها بعد كفاح طويل استمر حوالي عشرين عاماً، وثمن غال، شاع فيه جو من الحذر والخوف، وهدم خلاله صروح المحبة والمودة والاطمئنان والاستقرار التي نعم بها الناس في عهد صلاح الدين، ولكنه لم ينعم بحكم دمشق إلا بضعة أشهر فتوفي في العام الذي مات فيه أخوه الملك الأشرف.

وبينت أن الملك الكامل حرص على كسب رضى الخليفة، إذ احتلت الخلافة العباسية مكانة كبيرة في نفسه، فكانت كلمة الخليفة نافذة، وشفاعته مقبولة، يدعى له من على المنابر، وتسك النقود باسمه، وكان الخلفاء يحترمون الكامل، ويستعينون به، ويقلدونه حكم البلاد.

و لم يأل الملك الكامل جهداً للحد من الفوضى التي استعرت في اليمن، فبعث ابنه الملك المسعود عام ١٢١٥/٦١٢ للسيطرة عليها، ووقف الفوضى فيها، فتم له ذلك، وضم مكة والحجاز، ولكن الملك المسعود توفي عام ١٢٢٩/٦٢٦، فنازع عمر بن رسول الملك الكامل فاستأثر بن رسول بهما.

وفي خضم النزاع بين الملك الكامل وأخيه المعظم استعان الأخير بالدولة الخوارزمية، فاعتدت على خلاط وأملاك الملك الأشرف الشرقية، فتحالف الملك الكامل والأشرف مع سلاجقة الروم لوضع حد للعدوان الخوارزمي عام ١٢٣١/٦٢٨، وهُزمَ الخوارزميون، ولكن الملك الكامل آثر التصالح مع خوارزم شاه لأنهما ملكان لدولتين مسلمتين فتم ذلك.

واغتر السلطان السلجوقي لدى انتصاره على خوارزم شاه، فتمادى في عدوانه على الأراضي الأيوبية في الجزيرة، فتصدى له الملك الكامل، ولكن الأخير هزم وخسر بعض المدن، إلا أن الملك الكامل لم يتقبل الهزيمة فعاود الكرة على سلاجقة الروم عام ١٢٣٥/٦٣٣، وتمكن من استعادة أراضيه التي فقدها قبل سنتين.

وعندما سمع الملك الكامل سوء سلوك الملك المسعود الأرتقي صاحب آمد، استأذن الخليفة العباسي بتأديبه، وتقدم عام ١٢٣٢/٦٢٩ نحو المدينة وقصفها بالمجانيق إلى أن استسلم صاحبها، وأخذ الملك الكامل يتوسع في الأراضي الأرتقية إلى أن أكدوا ولاءهم له .

لقد كان الملك الكامل حريصاً على العلاقات الطيبة مع الممالك الإسلامية إلا إذا فرض عليه غير ذلك.

ووضحت الدراسة أن سياسة الملك الكامل الخارجية تراوحت بين السياسة العدائية لمن عاداه، والجنوح إلى السلم كلما كان ذلك ممكناً. ومع أنه كان حريصاً على مواجهة الصليبيين لدى غزوهم مصر، فقد سار الصليبيون مساراً جديداً إذ اتجهوا لاحتلال مصر عام ١٢١٨/٦١٥ بدلاً من الشام، غرضهم القضاء على الدولة الأيوبية في مصر، مصدر القوة والزعامة والجهاد، وحصن الإسلام الأمنع، والمصدر الذي يتهدد الصليبيين باستمرار في بلاد الشام.

انطلق الصليبيون من عكا، وتمكنوا في غفلة من المصريين من النـــزول علـــى ارض جيزة دمياط، إذ لم يخطر ببال المسلمين أن يغدر بهم الصليبيون لارتباط الطرفين، بمعاهدة صلح، وتلكأ الصليبيون في التقدم نحو دمياط مما أعطى الفرصـــة للمـــلك الكامل نائب الملك العادل في مصر لإعداد العدة لمواجهة العدوان.

اندفع الملك الكامل بقواته لمواجهة الصليبيـــين وعســكر في العادليـــة، إلا أن المعتدين تمكنوا بعد هجمات متواصلة من احتلال برج السلسلة، وقطـع السلاســـل التي تمنع مرور السفن إلى دمياط، فأمر الملك الكامل بإغراق السفن في نهر النيل لمنـــع مرور الصليبيين، وأثناء ذلك توفي الملك العادل، فاستغل الأمير عماد بن أحمـــد بـــن المشطوب ذلك، وحاول التآمر على الملك الكامل، فانسحب الأخير من العادلية ممـــا، مهد الطريق أمام الصليبيين لاحتلال العادلية ومحاصرة دمياط.

حرص الملك الكامل على إعادة تنظيم قواته، واستمرار الاتصال مـــع حاميـــة دمياط المحاصرة، والحد من فاعلية هجمات الصليبيين على المدينة، باتبـــاع سياســـة الهجوم أحياناً والدفاع أحياناً أخرى لإرهاق الصليبيين.

وأخيراً تسور الصليبيون مدينة دمياط، واقتحموها ووضعوا السيف في رقـــاب أهلها، وأسرفوا في القتل والنهب على مرأى من الملك الكامل، فعرض الأخير الصلـــح واعدا بالتنازل عن القدس مقابل انسحاب المعتدين من دمياط، ولكن العرض لم يجـــد قبولاً لدى المتزمتين من الصليبيين.

استنهض الملك الكامل العالم الإسلامي، والملوك الأيوبيين، واســتنفر العربـــان والأهالي، فعادت الثقة إلى المعسكر الإسلامي، واشتد القتال بين المسلمين والصليبيـــين، وابلى المسلمون بلاءً حسناً، وخلال ذلك ارتفعت مياه النيل، فأمر الملك الكامل بفتـــح ثغرة في أحد السدود فأغرق المعسكر الصليبي، وعجز الفرنجة عـــن القتـــال لغـــرق معسكرهم، وقلة القوت عندهم، وعرضوا الصلح على أن ينسحبوا من دمياط.

وافق الملك الكامل على طلب الصلح، وانسحب الصليبيون بعد وصولهم أرض مصر بثلاث سنين وأربعة أشهر وتسعة عشر يوماً.

لقد أكدت الدراسة أن الصليبيين لا يؤمن شرهم، فقد ثبت أن الصلح الذي وقعه الملك الكامل وقادة الحملة الصليبية على دمياط لم يكن إلا غطاء ينقذ الصليبيين من الورطة التي وقعوا فيها لدى غرق معسكرهم،وفرصة ليعدوا لحملة جديدة، إذ ثبت ذلك عندما اتجه الملك جان دي برين إلى أوربا لاستنهاض البابا وملوك أوربا لتخليص بيت المقدس من المسلمين، وشاءت الظروف أن يستنجد الملك الكامل بالامبراطور فردريك الثاني لمواجهة خطر أخيه المعظم الذي تحالف مع صاحب اربل، وخوارزم شاه، ووعده بالقدس إذا لبى دعوته، فكان ذلك فرصة مناسبة للإمبراطور للقيام بحملته استجابة لكل من البابا والملك الكامل.

توفي الملك المعظم ١٢٢٧/٦٢٤ وسرعان ما استولى الكامل على بيت المقدس ونابلس، وما لبث أن قدم الإمبراطور فردريك إلى عكا ١٢٢٨/٦٢٥، وطالب الملك الكامل بتنفيذ وعده، وتسليمه بيت المقدس، ولكن الأخير حاول التملص من وعده بعد انفراط عقد حلف المعظم مع خوارزم شاه، وكوكبري، إلا أن الإمبراطور فردريك استمر في طلبه ومناوراته، واستعطاف الملك الكامل الكامل إلى أن استجاب الأخير، وتنازل عن بيت المقدس.

استهجن الناس تفريط الملك الكامل بالقدس دون مصوغ، وطالب بعض جنده بمواجهة الإمبراطور فردريك الثاني بقوة وحزم، ولا سيما أنه قليل الجند محروم من الكنيسة، فاستاء الملك الكامل لهذه الدعوة، وسجن بعض الجند وسخط الناس على الملك، واتهموه بالخيانة، وشنع العلماء عليه، وتردد بعض أقاربه في تأييده، فرشاهم ببضعة آلاف من الدنانير.

وأشارت الدراسة إلى أن الملك الكامل حرص على إنعاش اقتصاد بلاده، فأقام العلاقات التجارية مع مدن إيطاليا ودول أوربا، وقام ووفر الخدمات المناسبة كالفنادق في الإسكندرية وغيرها، وحمى طرق القوافل التجارية، لتشجيع التجار الأوربيين على تنشيط التجارة مع مصر والشام، واستوردت مصر السلع التي تحتاجها أوربا من الهند وشرق أفريقيا، كالتوابل والعاج وغيرها، فكانت الموانئ المصرية والشامية مستودعات ضخمة لهذه السلع، يأتي إليها التجار الأوربيون فيحصلون على ما يريدون.

لقد أدى انتعاش التجارة بين مصر والشام من جهة، وأوربا والشرق من جهة أخرى، إلى تحسين اقتصاد دولة الملك الكامل، حتى أنه ترك خزانة الدولة عامرة بعشرات ألوف الدنانير الذهبية عندما مات.

ومما سبق يمكن أن نبرز سياسة الملك الكامل الداخلية بما يلي:

- اهتم الملك الكامل بشؤون البلاد الداخلية فنشر الأمن، وحد من نشاط قطاع الطرق، وتطلع إلى نشر التعليم ففتح دار الحديث الكاملية، وحسن عطاء الدواوين بالحد من السرقة والرشوة، واهتم باقتصاد البلاد فحفر القنوات وزاد الأراضي الزراعية بالكشف عن الجسور، ومنع الفيضان، واصلح النظام النقدي.
- حرص على كسب رضى الخليفة العباسي، إيماناً بقدسية الخلافة، ورغبة في كسب تأييدها في صراعه مع الصليبيين.
- ركز على وحدة الأيوبيين، (فزوج بناته لأصحاب حلب وحماة والكرك لتحسين صلاته الملوك والأمراء الأيوبيين) تحت هيمنته.

- تطلع إلى إقامة علاقات طيبة مع الممالك الإسلامية، كلما أمكنه ذلك حتى لا يضعف الوحدة الإسلامية فتصالح مع الخوارزمية، ولكنه لم يدعم دولتهم عندما اشتد ضغط التتر عليهم.

أما سياسته الخارجية فقد ركزت على المحافظة على سلامة بلاده، ومحاولة حل مشاكله مع الصليبيين بالطرق السلمية، وتدعيم اقتصاد بلاده بعقد معاهدات تجارية مع أوربا.

إن شخصية الملك الكامل في تلك الحقبة كانت نموذجاً فريداً فقد استوعب الظروف السياسية التي ظهرت في العالم ، فرفع شعار السلام.

ويتهم الملك الكامل بما يلي:

- أولى مصلحته الخاصة والمحافظة على سلطته كل اهتمام، فلم يحسن استغلال أقاربه وأخوته في تشكيل وحدة أيوبية متراصة، بل نكل بكثير من الملوك الايوبيين منهم الملك المعظم وابنه الناصر داود، والناصر بن المنصور صاحب حماة.
- كانت القدس نقطة مساومة عنده، فكلما تضايق عرض التنازل عنها حفاظاً على مركزه.

آمل أن أكون قد أعطيت البحث حقه من الدراسة والإعداد، مع أنني أعترف بأن البحث يحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث.

الملاحق

١- الخرائط:

ملحق رقم ١ خريطة الإمارات الصليبية في الشام والجزيرة.

ملحق رقم ٢ خريطة جنوب بلاد الشام.

ملحق رقم ٣ خريطة شمال سوريا والجزيرة.

ملحق رقم ٤ خريطة مواقع القوات الإسلامية والإفرنجية في دمياط.

ملحق رقم ٥ خريطة سير القوات الصليبية من دمياط نحو المنصورة.

ملحق رقم ٦ مخطط الأسرة الأيوبية.

ملحق رقم ٧ قائمة بأبناء الملك العادل.

ملحق رقم ٨ خريطة الطرق التجارية البحرية.

ملحق رقم ٩ خريطة الطرق التجارية البرية.

ملحق رقم ١٠ مخطط دار الحديث الكاملية.

٢- الرسائل:

ملحق رقم ١١ رسالة فردريك الثاني إلى الكامل.

ملحق رقم ١٢ رسالة الملك جواد إلى فردريك الثاني.

ملحق رقم ١٣ رسالة الملك الأشرف إلى الكامل والإجابة عليها.

٣- ملاحق متنوعة:

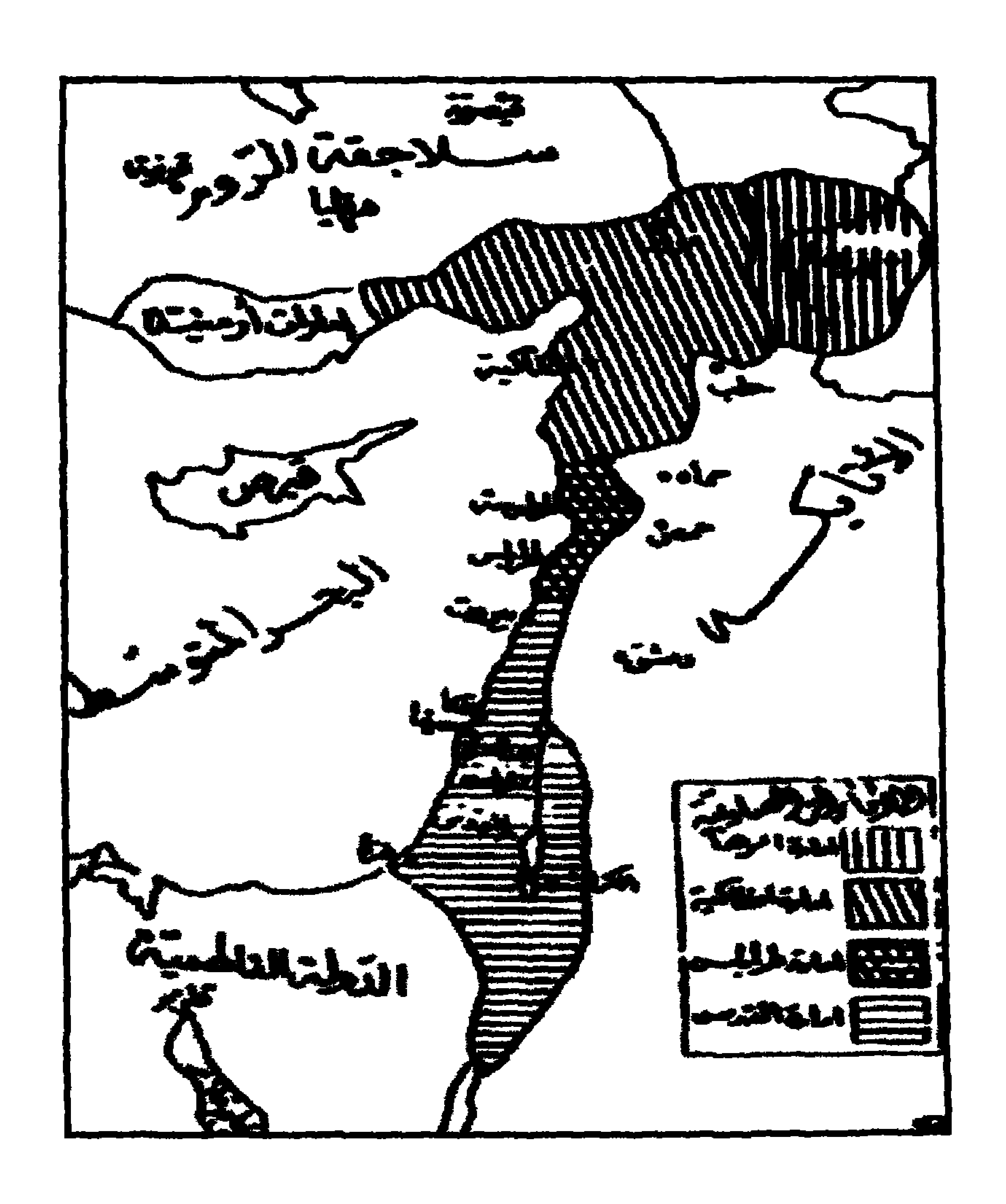
ملحق رقم ١٤ البندق، والفتوة.

ملحق رقم ١٥ مياه النيل

ملحق رقم ١٦ تواريخ مقارنة.

ملحق رقم ١

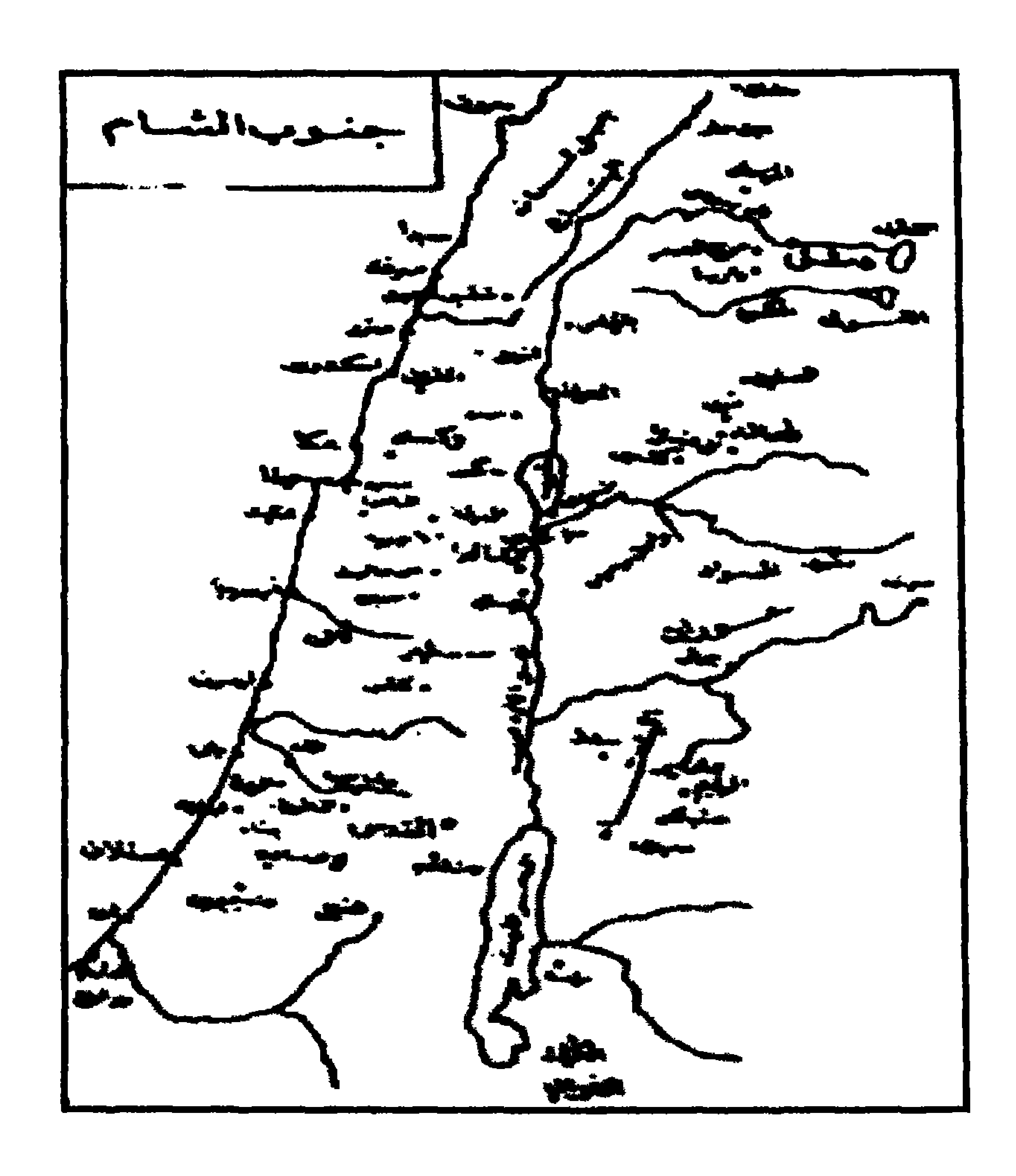
الإمارات الصليبية في بلاد الشام والجزيرة[١]



(١) حسين مؤنس، تاريخ الدولة الإسلامية وحضارتها، ص ١٥٣.

ملحق رقم ٢

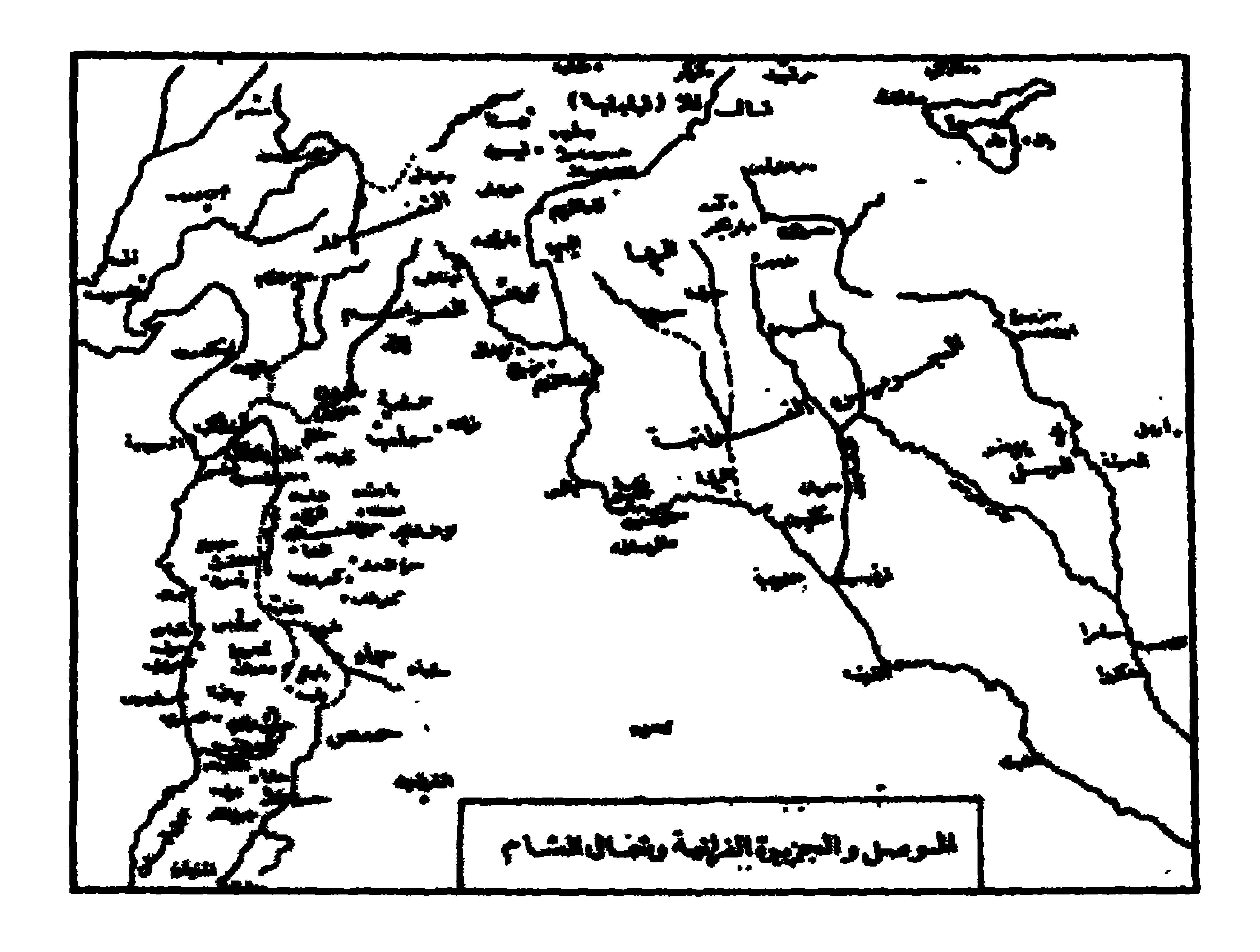
خريطة جنوب بلاد الشام



خاشع المعاضيدي الوطن العربي والغزو الصليبي.

ملحق رقم ٣

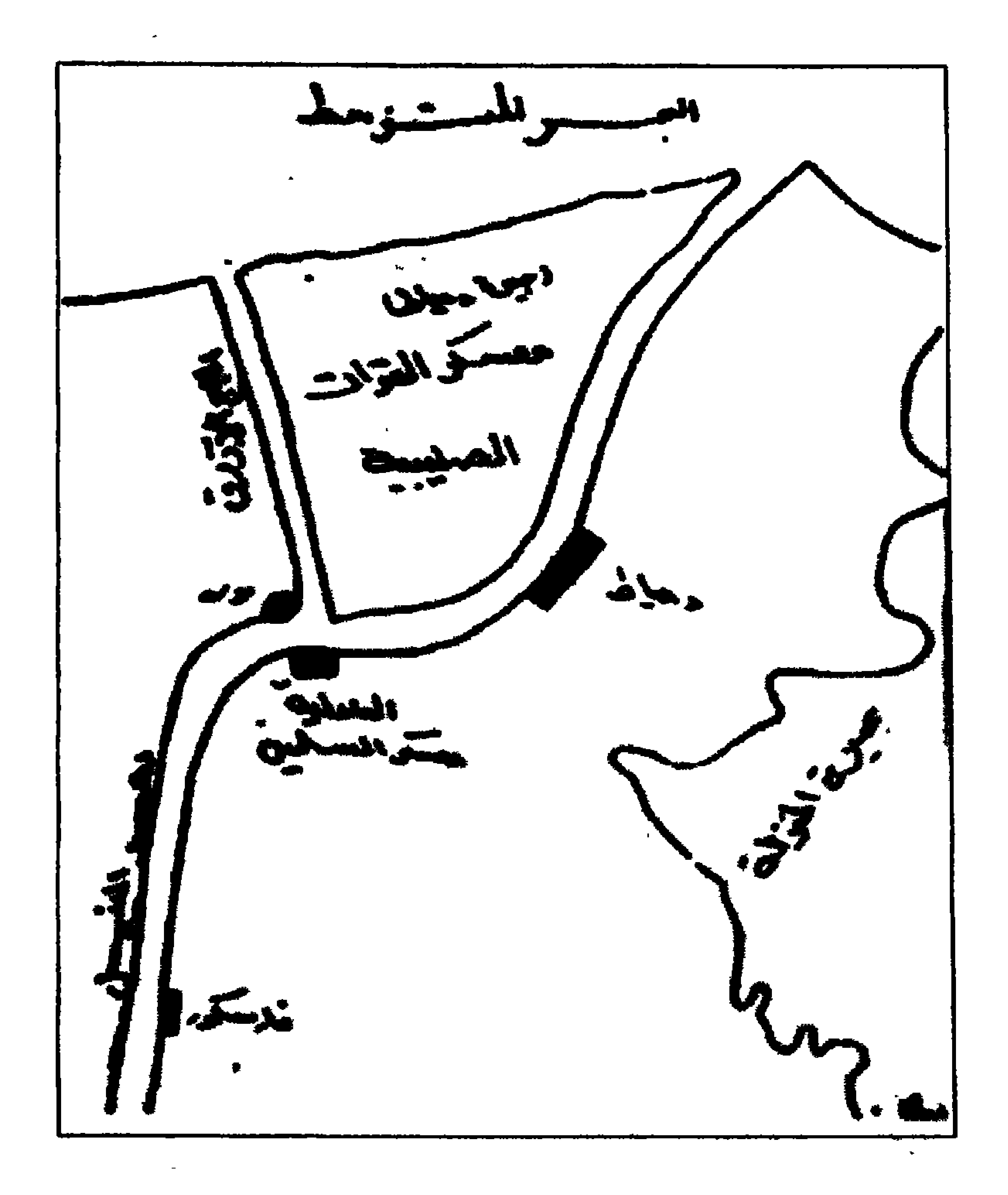
خريطة الموصل والجزيرة الفراتية وشمال الشام



المرجع . شح المعاضيدي، خاشع ، بلاد الشام، ١٨٢.

ملحق رقم ٤

خريطة مواقع القوات الإسلامية والإفرنجية في دمياط



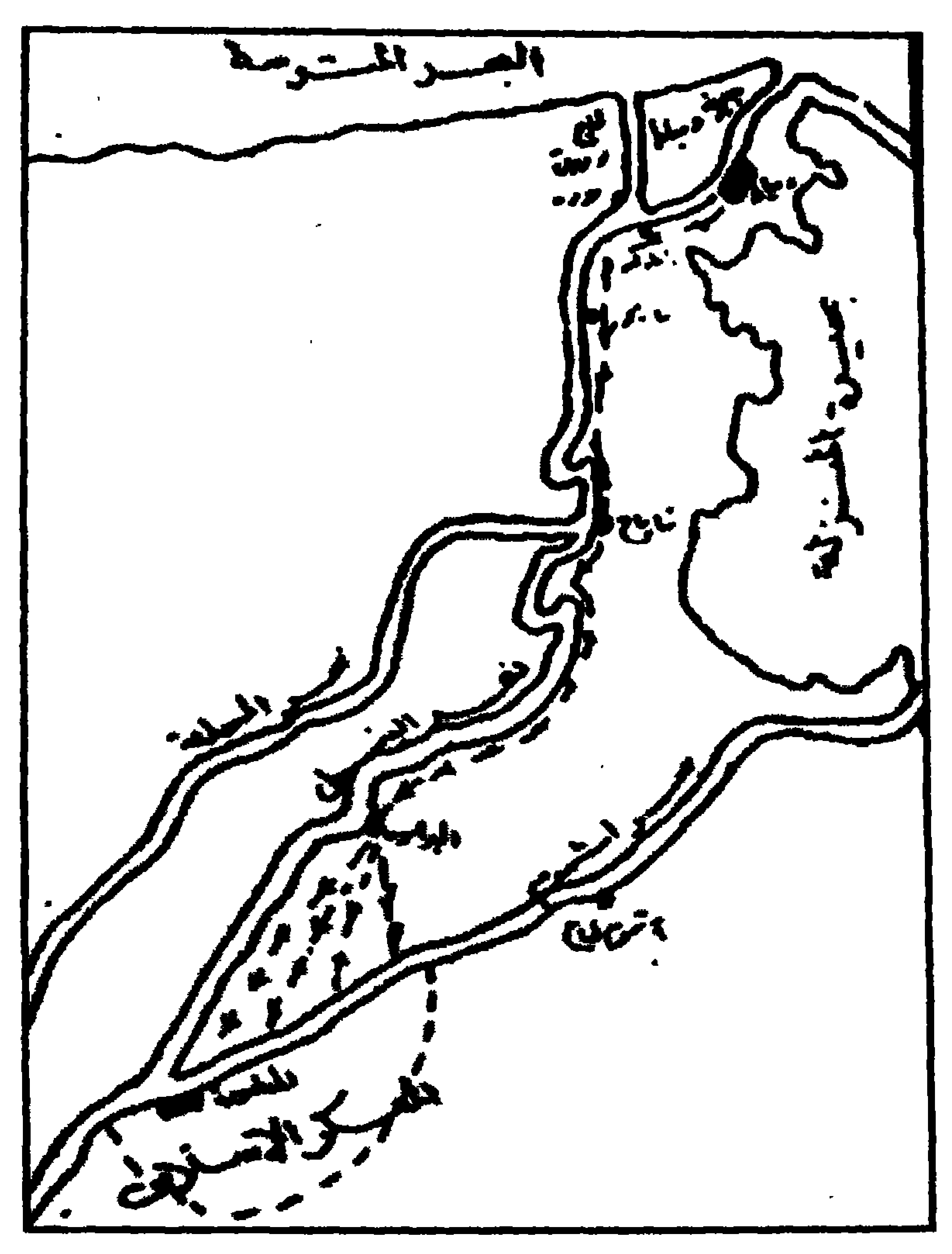
مواقع القوات الإسلامية والصليبية في الفرة من يونين ١٢١٨ إلى ٤ فبراير ١٢١٩م

(ربيع أول إلى ١٧ ذو القعدة ٦١٥هـ)

محمود عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ٢٣٤.

ملحق رقم (٥)

خريطة سير القوات الصليبية من دمياط نحو المنصورة

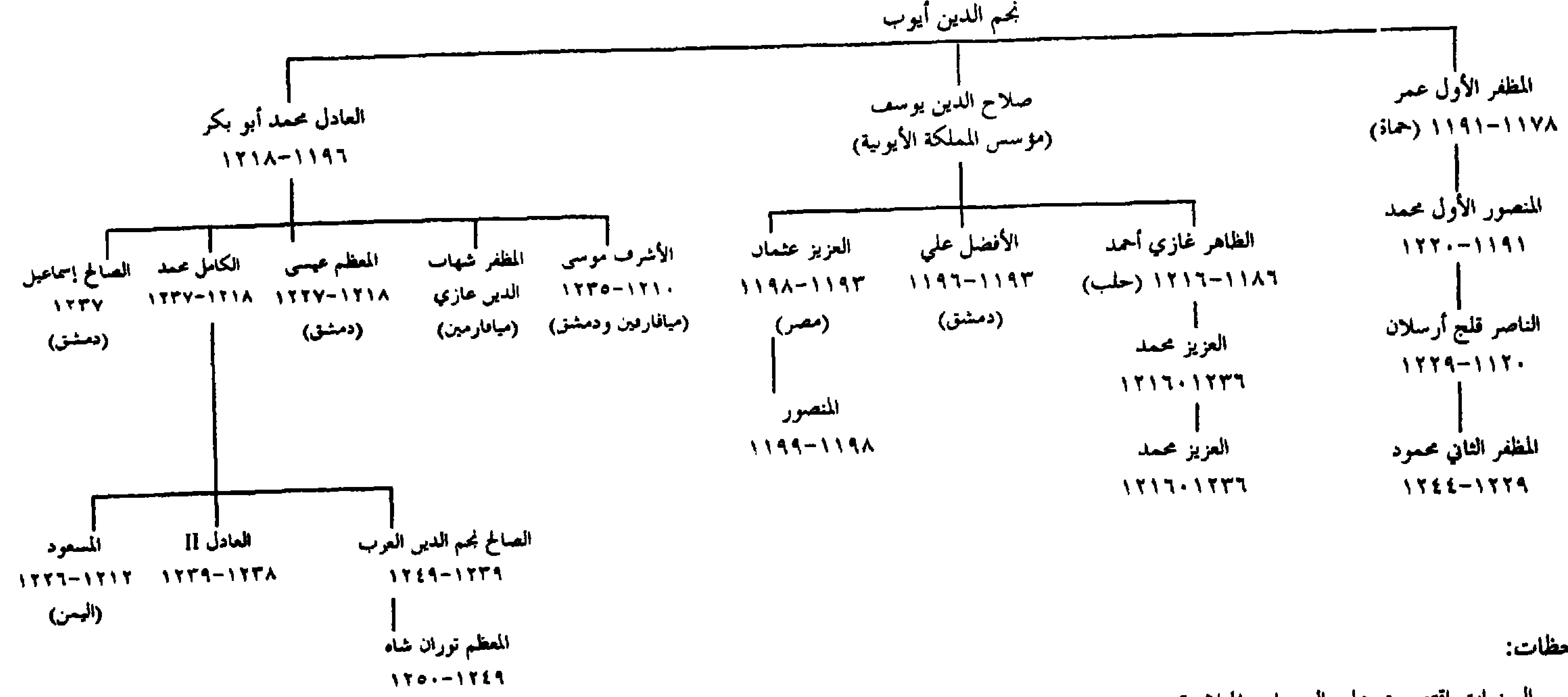


ــــ ــــ خط سير القوات الصليبيه من دمياط إلى المنصورة

ابتداء من (٢٧ يوليو ١٢٢١م/ ٢٥ جمادى الثاني ٦١٨هـ)

محمود سعيد، الحملة الصليبية الخامسة، ط٢.

ملحق رقم (٦) مخطط الأسرة الأيوبية



ملاحظات:

أ- السنوات اقتصرت، على السنوات الميلادية.

ب- تشير الأرقام إلى السلاطين أما الأسماء الأخرى فكانوا ملوكاً لبعض المناطق ويحكمون في ظل السلاطين.

جـ- المرجع: سعيد عاشور، الحركة الصليبية. (بتصرف).

ملحق رقم(٧)

أولاد الملك العادل(*)

- شمس الدين مودود، توفي في حياة أبيه، والد الملك الجواد شمس الدين، مات الأخير في حياة أبيه، وترك ولداً اسمه مظفر الدين يوسف وملك دمشق[1].
- الملك الكامل محمد.
- الأشرف مظفر الدين موسى، صاحب الشرق، وخلاط بعد أخيه الملك الأوحد[2]، ثم ملك دمشق.
- المعظم عيسى، صاحب دمشق.
- الأوحد نجم الدين أيوب، صاحب خلاط. كان سفاكاً للدماء، مات في حياة أبيه[3].
- الفائز إبراهيم، ويلقب سابق الدين.
- شهاب الدين غازي، صاحب ميافارقين.
- العزيز عماد الدين عثمان، كانت بيده بانياس.
- مجد الدين حسن، توفي في حياة أبيه، ودفن في بيت المقدس.
- الحافظ نور الدين أرسلان، صاحب قلعة جعبر.
- الصالح عماد الدين إسماعيل، كانت له بصرى، ثم ملك دمشق.
- المغيث عمر، توفي في حياة أبيه، وترك ولداً سمي بالمغيث شهاب الدين محمود.
- تقي الدين عباس، وهو أصغرهم.

(*) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٧٢،٦.

(١) المقريزي، السلوك، ٢٢٧/١.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ٨٧/١٣.

(٣) المقريزي، م.س، ٢٢٧/١.

- المفضل قطب الدين أحمد توفي في عهد الملك الكامل بمصر.
- القاهر اسحاق.
- الناصر صلاح الدين خليل.

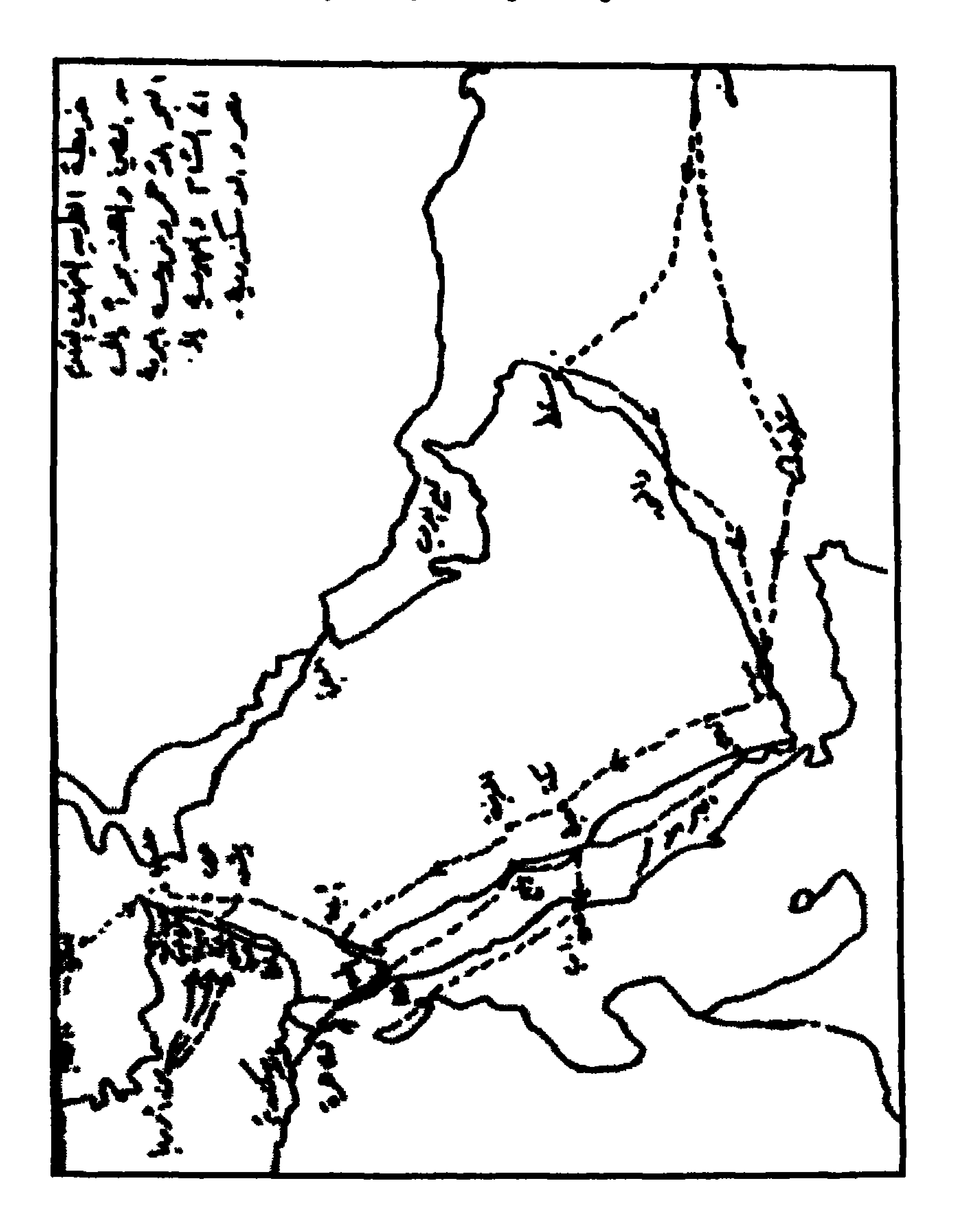
بنات الملك الكامل(*)

- عاشوراء خاتون، زوجة الملك الظاهر الناصر صاحب الكرك.
- فاطمة خاتون، زوجة الملك العزيز بن صلاح الدين حلب.
- غازية خاتون،زوجة الملك المظفر صاحب حماة.

(*) المقريزي، السلوك، ١/٢٨٣.

ملحق رقم (٨)

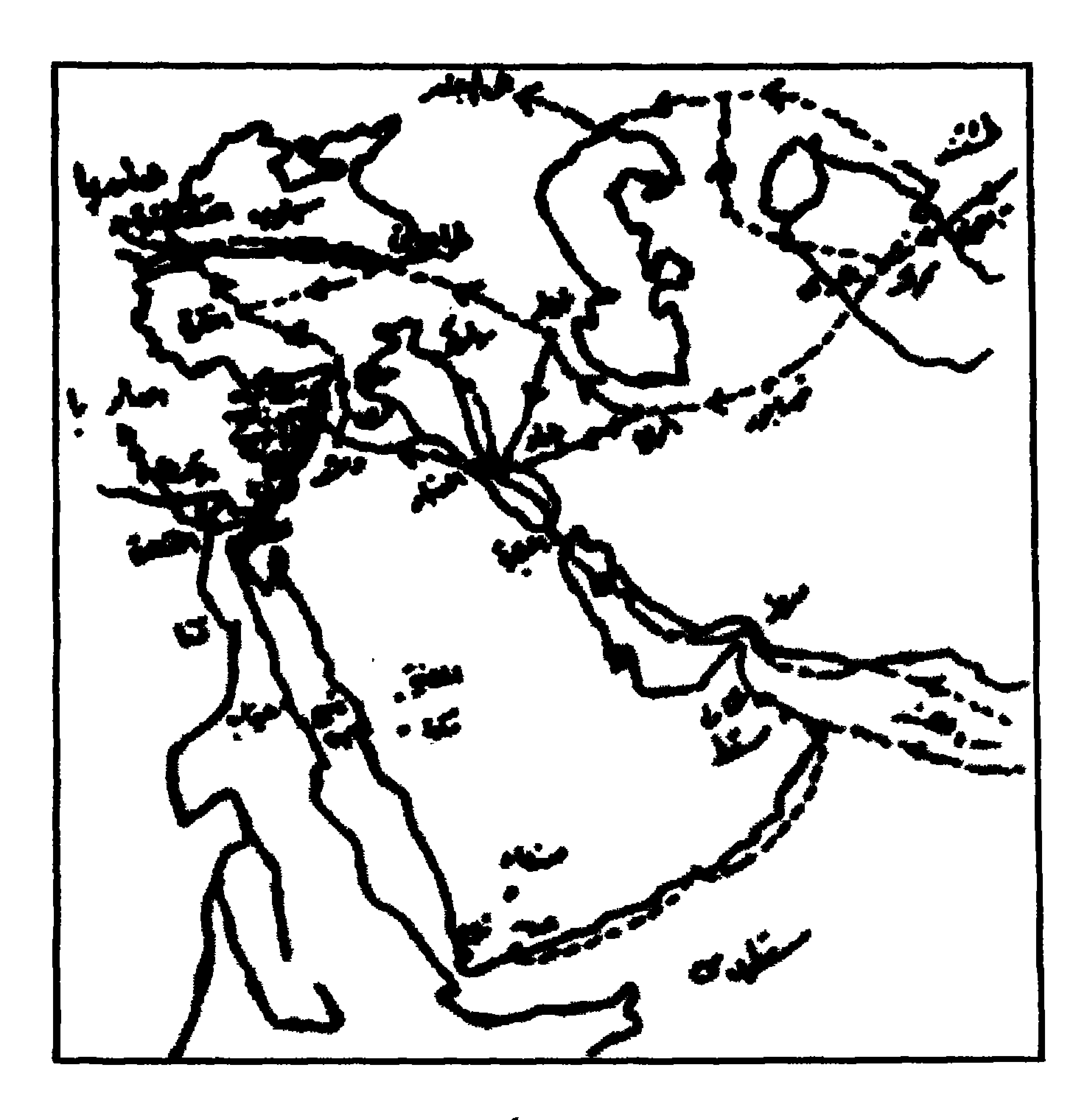
خريطة الطرق التجارية البحرية



يوسف حسن غوانمة ، إمارة الكرك الأيوبية.

ملحق رقم (٩)

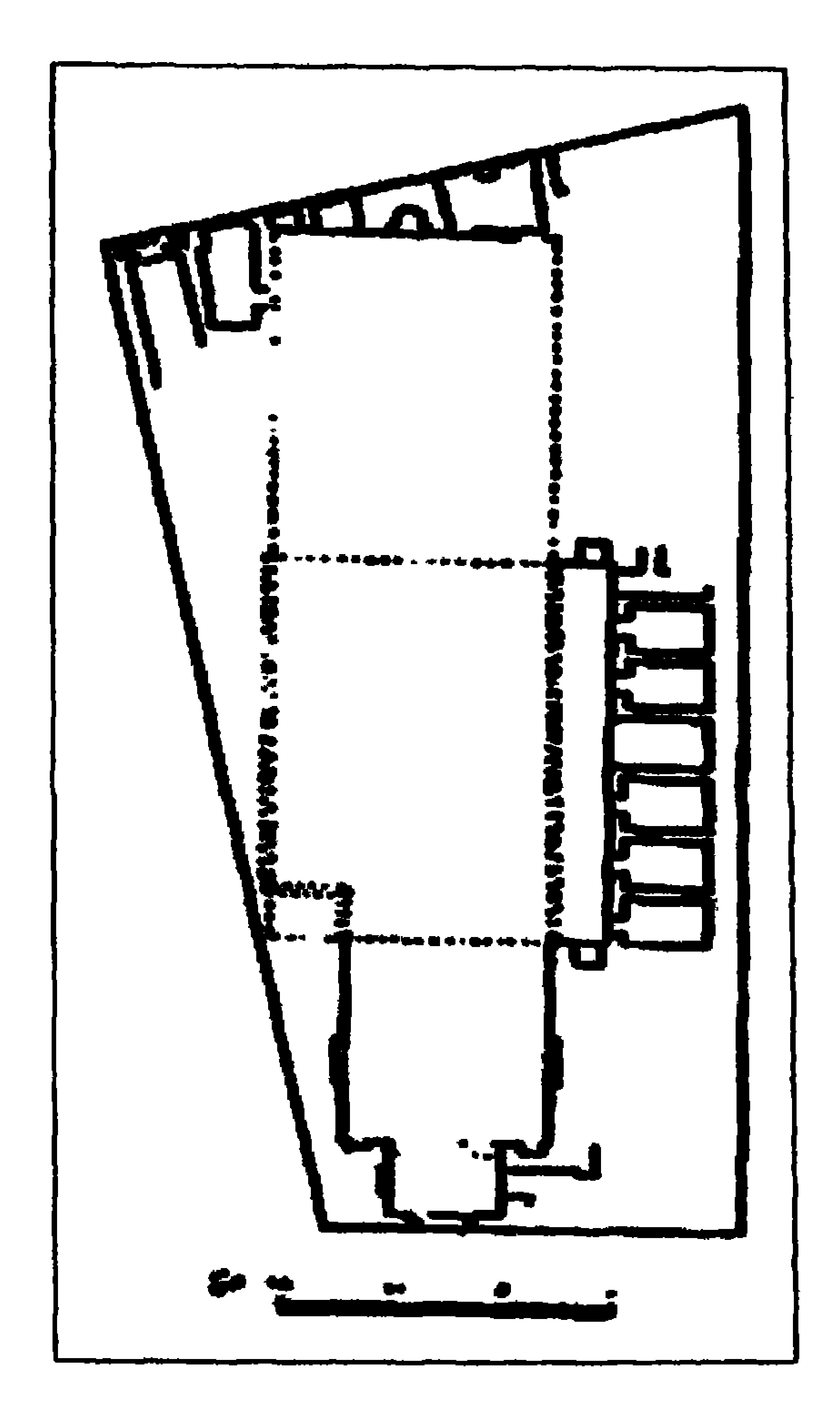
خريطة الطرق التجارية البرية (*)



خريطة الطريق التجاري القادم من الصين والهند بحراً إلى الخليج العربي وفروعه البرية والنهرية إلى آسيا الصغرى وموانئ شرق البحر المتوسط

(*) يوسف حسن درويش غوانمه، إمارة الكرك الأيوابية.

ملحق رقم (١٠)



محاولة لجنة حفظ الآثار العربية لرسم تخطيط المدرسة الكاملية

أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها.

ملحق رقم (١١)

رسالة فردريك الثاني إلى الكامل

"بسم الله الرحمن الرحيم. عنوانه ترجمته. قيصر المعظم امبراطور رومية فردريك بن /الامبراطور هنريك بن الإمبراطور فردريك المنصور بالله المقتدر بقدرته، المستعلي بعزته، مالك ألمانية ولمبردية[1] وتسقانه[2] وإيطالية وانكبيرده[3] وقلورية[4] وصقلية، ومملكة الشام القدسية، معز إمام رومية، الناصر للملة المسيحية، بسم الله الرحمن الرحيم شعر: (من الطويل)

رَحَلْنَا وَخلَّفْنَا القُلُوبَ مقِيمَةً

تَخلَّتْ عَنِ الأجْسامِ والجِنْسِ والنوعِ

وآلَتْ عَلَى أنْ لا تُخِلَّ بودِّكُم

مَدَى الدَّهْرِ وانسَلَّتْ تُنَكِّب عَنْ طَوْعِي

لو ذهبنا إلى وصف ما نجده من عظم الشوق، ونكابده من أليم/ الاستيحاش والتوق، إلى المجلس السامي الفخري أدام الله أيامه، وسرمد أعوامه، وثبت في الرياسة أقدامه، وحرس مودته وإكرامه، وأجرى على سبيل النجاح مرامه، وسدد عبده وكلامه، وأجزل من النعم اقسامه، وجدد من الجديدين سلامة للزمنا في الخطاب شططا، وحِدنا عن الصواب غلطا، إذ منينا بروعة استيحاش، بعد سكون وإيناس، ولوعة فراق، في إثر غبطة واشتياق، فرأينا السلو ممتنعاً، وحبل التجلد منقطعا، ومأمول التماسك قد عاد جزعا، وشمل الاصطبار منصدعا: (من الطويل)

وقَدْ كُنْتُ لَوْ خُيِّرتُ بَيْنَ فِرَاقِكُمْ

وبَيْنَ حَمامي قُلْتُ يُدْرِكُني نَحبي

---

(١) لمبردية: مقاطعة إيطالية عاصمتها ميلانو.

(٢) تسقانة: مقاطعة بإيطاليا عاصمتها فلوونس.

(٣) يقول ياقوت (ج١، ص ٣٩٢) عن الانكبردة إنما بلاد واسعة من بلاد الفرنج بين القسطنطينية والأندلس.

(٤) قلورية: هي كلابريا، مقاطعة بجنوب إيطاليا.

وتخاله، أكرمه الله، ملنا، واعتاض بغيرنا، واختار فراقنا، وتناسى ودادنا، فعزينا أنفسنا بقول أبي الطيب[1]. (من البسيط)

إذا تَرَحَلْتَ عَنْ قومٍ وَقَدْ قَدَرُوا

ألا تُفَارِقَهمْ فالرَّاحِلُونَ هُم

وبعد، فعلمنا أنه محب لسماع السار من أنبائنا وأخبارنا، والحميد من آثارنا، نشعره حسبما شرحناه له بصيدا أن البابا- باء بالغدر والخديعة- أخذ إحدى قلاعنا المنيعة تسمى منت مسين[2]، أسلمها له اباطها اللعين، وعند ذلك رام المزيد، فلم يمكنه لانتظار أهل طاعتنا لرجوعنا السعيد، فاضطر إلى أن زعم أننا متنا، وحلف القردنالية[3] على ذلك وعلى أن رجوعنا مستحيل، وراموا خداع العامة بمثل هذه الأباطيل، وأنه ليس أحد بعدنا يحسن حراسة/ بلادنا وحفظها برسم ولدنا مثل البابا، فلإيمان هؤلاء الذين هم أئمة الدين وخلفاء الحواريين، انخدعت جماعة من الطغام والمفسدين، فعند وصولنا إلى ميناء برنديس المصونة، ألفينا الملك جوان واللمبرديين في الدخول في ملكنا معاندين، وقع خبر ورودنا متشككين، لما قرره القردنالية عندهم باليمين، وكتبنا ورسلنا بوصولنا سالمين. داخل أعداءنا الجزع، وحل بهم الروع والفزع ونكصوا إلى ورائهم خاسرين مسافة يومين، وارتد أهل طاعتنا إلينا طائعين، وكذلك اللمبرديين الذين كانوا معظم عسكرهم لم يرضوا لأنفسهم أن يوجدوا على سيدهم مخالفين منافقين، وانصرفوا على أدبارهم أجمعين، وأما الملك المذكور وأصحابه/، فأحاط بهم الحياء والخوف، واجتمعوا إلى موضع ضيق يخافون الانصراف عنه، والخروج منه، بلا يقدرون على ذلك، لأن البلاد بأسرها قد عادت لنا وإلى طاعتنا. ونحن في خلال ذلك قد جمعنا عسكراً مديداً من الألمانية الذين كانوا معنا في الشام، والذين انصرفوا قبلهم ورمتهم الريح إلى بلادنا، وغيرهم من أمنائنا ورؤساء دولتنا، واستعددنا نجد السير إلى بلاد أعدائنا.

---

(١) انظر بيت المتنبي في ديوانه (ط، صادر ١٩٥٨) ص ٣٣٣.

(٢) في الأصل: "قسين".

(٣) في الأصل: "القردمالية".

وبعد فما نؤثر من المجلس مواصلة كتبه متضمنة شـــرح سـعيد أحوالـه ومهماتـه وحاجاته، وأن يقري سلامنا على جميع أكابر العسكر وغلمانه ومملوكيه ودخلته، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته. كتب ببرلت المصونة بتاريخ الثالث والعشرين من شـهر أوسـو للأندقتنس الثاني[1].

وهذه[2] نسخة الكتاب الثاني. الترجمة كالأول: "فيه من الأخبار بما نشعره به. أنا قد جمعنا عسكراً كثيراً، وأنا نجد السير إلى قتال من هم بانتظارنا،و لم يهرب أمـام وجـهتنا، والآن قد حدث من الأمر حسب حدسنا، وذلك أنهم كانوا قد حاصروا قلعة من قلاعنـا ونصبوا عليها المنجنيقات وما شابهها من الدبابات[3] والآلات[4]، فلما أحسوا بإقبالنا مـع بعد المسافة بينهم وبيننا، لم يتمهلوا إلي، بل أحرقوا ما عملوه من سائر آلاتهـم، وانهزمـوا هاربين أمامنا، ونحن نجد السير في طلبهم وتفريق شملهم، وتبديد جمعهم، وطلب البابا حيثما وجدناه، ورده خاسئاً على قفاه، نادماً على ما نواه، وما نجده من الأخبار فنحن نكـاتب المجلس إن شاء الله".

ابن النظيف الحموي، التاريخ المنصوري.

---

(١) ترجم أماري كلمة أسو إلى "أوت"، ويبدو أن جملة الاندقتنس الثاني تعني نوعاً من التاريخ كان يؤرخ به في ذلك الوقت. انظر أماري، مجلة الأرشيف، ص١٢٢.

(٢) في الأصل: "وهذا".

(٣) الدبابة: آلة حربية، انظر المقريزي، ج١، قسم١، ص ٩٦.، هامش ٨.

(٤) في الأصل: "وآلات".

ملحق رقم (١٢)

رسالة الملك الجواد الايوبي إلى الإمبراطور فريدريك الثاني (فرانك) حاكم صقلية (شعبان ٦٣٠هـ/ مايو ١٢٣٣م):

نص الرسالة[١]:

"... وردت المكاتبة الكريمة الصادرة عن المجلس العالي، المولى الملك، الأجل، الأعز الكبير، المؤيد، الخطير، العالم العامل، الظهير العادل، الأوحد، المجتبى، شمس الملة النصرانية، جلال الطائفة الصليبية، عضد الأمة الفرنجية، فخر أنباء المعمودية، عمدة الممالك ضابط العساكر المسيحية، قيصر المعظم فلان معز أمام روميه، نبت الله لديه نعمه، وعزز موارد جوده وديمه، وأمضى صوارم عزائمه وأعلى هممه، ولا برحت أنوار سعده، تتلالا، وأخبار مجده، تبسط وتتعالى وسحائب الألسنة الناطقة بحمده تستهل وتتولى، إلى أن يتحلى جيد الضحى بعقود الليل، وتطلع الشعرى من مطالع سهيل — فجدد إنشاء على جلاله، وأكد المديح لإحسانه وافضاله، وأنفس أسباب المودة والحصافة، وشدد أواخي الإخلاص والموافاة فاستبشرت النفوس بورود وسرت القلوب بوفوده، ووقف منه على الإحسان الذي تعرفه، ووجد عقده مشتملا على جواهر الوداد الذي تألفه، فشكر الله على هذه الألفة المنتظمة والمحبة الصادقة المكرمة. والمجلس العالي الملك الأجل أعلى الله قدره، ونشر بالخير ذكره، أولى من أهدى المسرات، بورود المراسم والحاجات، ووصل الإنس بكريم المكتبات، مضمنة السوانح والمهمات.

---

(١) ويفهم من هذه الرسالة أنها كانت ردا على رسالة بعث بها فريدريك الثاني إلى الملك الجواد. وفي هذا إشارة إلى تبادل الرسائل بين الطرفين والحرص على استمرار العلاقات بينهما. ومن أبرز العبارات التي وردت في الرسالة والتي تؤكد علاقات المودة والصداقة كانت تلك العبارة التي جاء فيها أنه "لا فرق بين المملكتين" ويقصد بذلك المملكة الأيوبية ومملكة فريدريك الثاني.

فأما ما ذكره المقام العالي السلطاني الملكي الكاملي الناصري – زاده الله شرفا وعلوا– من أنه لا فرق بين المملكتين، فهذا هو المعتقد في صدق عـــهده، وخـــالص وده، ولا زال ملكه عاليا، وشرفه ناميا، إن شاء الله تعالى.

ابن النظيف الحموي، التاريخ المنصوري

ملحق رقم (١٣)
رسالة من الأشرف إلى الملك الكامل

تقدم الملك الكامل باتجاه القدس فظن صاحب القدس ابن الملك المعظم أن الكامل يقصده، فأرسل إلى عمه الملك الأشرف يستنجده، فحضر الأشرف بنفسه عنده. ثم خاف الأشرف أن يقصده الكامل فأرسل إليه يقول أنه ما أتى دمشق إلا طاعة له، وموافقة لأغراضه، والاتفاق معه على منع الفرنج.

فأجابه الكامل بما يلي:

إني ما جئت إلى هذه البلاد إلا بسبب الفرنج، فإنهم لم يكن في البلاد من يمنعهم عما يريدونه، وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية و لم يمنعوا، وأنت تعلم أن عمنا السلطان صلاح الدين فتح البيت المقدس، فصار لنا بذلك الذكر الجميل على تقضي الأعمار وممر الأيام، فإن أخذه الفرنج حصل لنا من سوء الذكر وقبح الأحدوثة ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذي ادخره عمنا، وأي وجه يبقى لنا عند الناس وعند الله تعالى.

الكامل في التاريخ لابن الأثير ج١٢، ص ٤٨٠.

ملحق رقم (١٤)

البندق

البندق كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص أو غيرها، وهي فارسية بلفظها واستعمالها، ويسموها أيضا الجلاهقات جمع جلاهق. فكان الفرس يرمون هذا البندق عن الأقواس كما يرمون النبال. واقتبس العرب هذه اللعبة في أواخر أيام عثمان بن عفان، وعدوا ظهورها في المدينة منكراً[1]، ثم الفوها حتى شكلوا فرقا من الجند ترمي بها، وقد رأيت أن الرشيد كان عنده فرقة يقال لها النمل، تسير بين يديه ترمي البندق على من يقف في طريق الموكب. وكان رماة البندق في العصر العباسي طائفة كبيرة يخرجون إلى ضواحي المدن يتسابقون في رميه على الطير ونحوه[2]، ويعدون ذلك من قبيل الفتوة، ويغلب في رماة البندق أن يشتغلوا بتطيير الحمام. ولهم زي خاص يمتاز بسراويل كانوا يلبسونها ويسمونها سراويل الفتوة. وكان العيارون من أهل بغداد يلبسونها في أواخر الدولة. حتى إذا أفضت الخلافة إلى الناصر لدين الله العباسي المتوفى سنة ٦٢٢هـ جعل لرمي البندق شأنا، لأنه كان ولعابه، وباللعب بالحمام المناسيب (أي المنسوب ذي الأصل المعروف)، وكان يلبس سراويل الفتوة. وقد بلغ من رغبته في ذلك أن جعل رمي البندق فناً لا يتعاطاه إلا الذين يشربون كأس الفتوة ويلبسون سراويلها، على أن يكون بينهم روابط وثيقة نحو ما عند بعض الجمعيات السرية. وجعل نفسه رئيس هذه الطائفة يدخل فيها من شاء ويحرم من شاء. وكتب سنة ٦٠٧هـ إلى ملوك الأطراف الذين يعترفون بخلافته أن يشربوا له كاس الفتوة ويلبسوا سراويلها، وأن ينتسبوا إليه برمي البندق ويجعلوه قدوتهم فيه، فأجابوه إلى ذلك فمن أراد الانتظام في سلك هذه الطائفة يأتي بغداد فيلبسه الخليفة السراويل بنفسه.

---

(١) ابن الأثير ٩٠، ج٣.

(٢) الأغاني ٩٣، ج٢٠.

فبطلت الفتوة في البلاد جميعها إلا من لبس سراويلها منه، ومنع الرمي بالبندق إلا من ينتسب إليه. فأجابه الناس في العراق وغيره إلا إنساناً اسمه ابن السفت من بغداد هرب إلى الشام، فأرسل الخليفة إليه يرغبه ببذل المال ليرمي عنه، وينتسب في الرمي إليه، فلم يفعل فلامه بعضهم على ذلك فقال:" يكفيني فخراً أنه ليس في الدنيا أحد لا يرمي للخليفة إلا أنا"[1].

وكان لرمي البندق شأن كبير في العصور الإسلامية الوسطى بالعراق والشام ومصر وفارس وغيرها. وخط البندقانيين بالقاهرة ينسب إلى صناعة أقواس البندق[2]، ثم تفننوا في رمي البندق بالمزاريق أو الأنابيب، بضغط الهواء من مؤخر الأنبوب بما يشبه أنابيب البندق... فلما اخترعوا البارود صاروا يرمون البندق به من تلك الأنابيب، وسموا هذه الآلة بندقية نسبة إليه، ومن قبيل رمي البندق رمي النشاب في البرجاس، وهو غرض في الهواء أو على راس رمح أو نحوه يطلبون إصابته بالنشاب، وهي لعبة فارسية أول من لعبها من الخلفاء الرشيد.

ومما يدخل في الألعاب والملاهي لعبة الشطرنج، وهي هندية الأصل أخذها العرب عن طريق الفرس، وأول من لعبها من الخلفاء الرشيد أيضاً، وهو أول من لعب النرد كما تقدم، ولا تزال هاتان اللعبتان شائعتين إلى اليوم.

جورجي، زيدان، تاريخ التمدد الإسلامي.

---

(١) ابن الأثير ٢٠٢، ج١٢، وأبو الفدا، ١١٩ و ١٤٢، ج٣، وابن خلدون، ٣، ج٣.

(٢) المقريزي، ٣١، ج٢.

ملحق رقم (١٥)

الوضع المائي في نهر النيل

السنة الهجرية	عمق الماء القديم		الزيادة		المصدر (النجوم الزاهرة)
	اصبع	ذراع	اصبع	ذراع	
٥٩٧	٠	٢	١٦	١٥	١٨٠/٦
٥٩٨	١٤	١	٢٣	١٥	١٨٢/٦
٦٠١	٦	٤	٨	١٨	١٨٩/٦
٦٠٣	٠	٥	٤	١٧	١٩٣/٦
٦٠٥	٢٠	٥	١١	١٦	١٩٧/٦
٦٠٦	٢٠	٥	١٦	١٦	٢٠٠/٦
٦٠٧	لم يوجد له قاع		٤	١٥	٢٠٣/٦
٦٠٨	٦	٤	١٠	١٦	٣٥٠/٦
٦٠٩	١٠	٤	١١	١٦	٢٠٨/٦
٦١٠	١٠	٤	١	١٧	٢١٠/٦
٦١١	١٤	٣	٨	١٦	٢١٢/٦
٦١٢	٠	٤	١٨	١٦	٢١٥/٦
٦١٣	٤	٤	٢٣	٢٦	٢١٩/٦
٦١٤	١٤	٤	١٧	١٧	٢٢٦/٦
٦١٥	٦	٦	٦	١٦	٢٤٧/٦
٦١٦	١/٢	٤	–	١٧	٢٥١/٦
٦١٧	١/٢	٣	٨	١٦	٢٥٣/٦
٦١٨	٦	٣	٢	١٧	٢٥٥/٦
٦١٩	٧	٣	٣	١٧	٢٥٧/٦
٦٢٠	١/٢	٤	–	١٧	

السنة الهجرية	عمق الماء القديم		الزيادة		المصدر (النجوم الزاهرة)
	اصبع	ذراع	اصبع	ذراع	
٦٢١	٠	٣	٢٣	١٦	٢٦٠/٦
٦٢٢	١/٢	٤	١٩	١٦	٢٦٣/٦
٦٢٣	٢٠	٤	١	١٦	٢٦٦/٦
٦٢٤	٢٠	٤	١٢	١٧	٢٦٩/٦
٦٢٥	١٩	٥	٥	١٨	٢٦٩/٦
٦٢٦	٣	٤	١١	١٦	٢٧١/٦
٦٢٧	٠	٢	٣	١٦	٢٧٣/٦
٦٢٨	١/٢	١	٠	١٦	٢٧٥/٦
٦٢٩	٨	٣	٣	١٦	٢٧٨/٦
٦٣٠	١٠	٤	٦	١٦	٢٧٩/٦
٦٣١	٠	٥	٣	١٦	٢٨٢/٦
٦٣٢	٠	٥	١٣	١٦	٢٩٢/٦
٦٣٣	١٧	٥	٢	١٧	٢٩٦/٦
٦٣٤	٠	٧	٢٣	١٦	٢٩٩/٦
٦٣٥	١/٢	٤	٠	١٧	١٠٢/٦

ملاحظة: كتبت بالسنة الهجرية لأن المصدر اعتمد السنوات الهجرية فقط

ملحق رقم (١٦)

تواريخ مقارنة

السنة الهجرية	تبدأ بالتاريخ الميلادي في	السنة الهجرية	تبدأ بالتاريخ الميلادي في	السنة الهجرية	تبدأ بالتاريخ الميلادي في
٦٠١	٢٩ أغسطس١٢٠٤	٦١٦	١٩ مارس ١٢١٩	٦٣١	٧ أكتوبر ١٢٣٣
٦٠٢	١٨ أغسطس١٢٠٥	٦١٧	٨ مارس ١٢٢٠	٦٣٢	٢٦ سبتمبر ١٢٣٤
٦٠٣	٨ أغسطس ١٢٠٦	٦١٨	٢٥ فبراير ١٢٢١	٦٣٣	١٦ سبتمبر ١٢٣٥
٦٠٤	٢٨ يوليو ١٢٠٧	٦١٩	١٥ فبراير ١٣٣٣	٦٣٤	٤ سبتمبر ١٢٣٦
٦٠٥	١٦ يوليو ١٢٠٨	٦٢٠	٤ فبراير ١٢٢٣	٦٣٥	٢٤ أغسطس ١٢٣٧
٦٠٦	٦ يوليو ١٢٠٩	٦٢١	٢٤ يناير ١٢٢٤	٦٣٦	١٤ أغسطس ١٢٣٨
٦٠٧	٢٥ يونية ١٢١٠	٦٢٢	١٢ يناير ١٢٢٥	٦٣٧	٣ أعسطس ١٢٣٩
٦٠٨	١٥ يونية ١٢١١	٦٢٣	٢ يناير ١٢٢٦	٦٣٨	٢٣ يوليو ١٢٤٠
٦٠٩	٣ يونية ١٢١٢	٦٢٤	٢٢ ديسمبر ١٢٢٦	٦٣٩	١٢ يوليو ١٢٤١
٦١٠	٢٣ مايو ١٢١٣	٦٢٥	١٢ ديسمبر ١٢٢٧	٦٤٠	١ يوليو ١٢٤٢
٦١١	١٣ مايو ١٢١٤	٦٢٦	٣ نوفمبر ١٢٢٨	٦٤١	٢١ يولية ١٢٤٣
٦١٢	٢ مايو ١٢١٠	٦٢٧	٢٠ نوفمبر ١٢٢٩	٦٤٢	٩ يونية ١٢٤٤
٦١٣	٢٠ إبريل ١٢١٦	٦٢٨	٩ نوفمبر ١٢٣٠	٦٤٣	٢٩ مايو ١٢٤٥
٦١٧	١٠ إبريل ١٢١٧	٦٢٩	٢٩ أكتوبر ١٢٣١		
٦١٥	٣٠ مارس ١٢١٨	٦٣٠	١٨ أكتوبر ١٢٣٣		



المصادر والمراجع

أولاً المصادر العربية.

ثانياً: المراجع العربية.

ثالثاً: المراجع المعربة.

رابعاً : المصادر والمراجع الأجنبية.



أولاً: المصادر العربية.

١- ابن ابي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم السعدي ت٦٦٨/١٢٦٩، **عيون الأبناء في طبقات الأطباء** (جزءان)، القاهرة، المطبعة التجارية، ١٩٥٨.

٢- ابن الأثير، علي بن أحمد بن ابي أكرم الشيباني، ت٦٣٠/١٢٣٢.

أ- **التاريخ الباهر**، تحقيق، عبد القادر طليمات، القاهرة ١٩٦٣.

ب- **الكامل في التاريخ**، ٩ أجزاء، بيوت، دار صادر، ١٩٦٦.

٣- ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد الحنصي المصري ت ٩٣٠/١٥٢٤ **تاريخ مصر المعروف باسم بدائع الزهور في وقائع الدهور**، ٣ أجزاء، القاهرة، مطبعة بولاق، ١٨٩٤.

٤- ابن ابن أيبك، أبو بكر بن عبدالله بن أيبك الدواداري ت ٧٣٦/١٣٣٥، **كتر الدرر وجامع الغرر**، الجزء السابع وهو الدرر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، تحقيق سعيد عاشور، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٧٢.

٥- ابن بطوطة، أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللواتي، ت ٧٧٩/١٣٧٧، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، المعروف برحلة ابن بطوطة، جزءان، القاهرة، المكتبة التجارية، ١٩٥٨.

٦- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، ت ٨٧٤/١٤٦٩، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة**، دار الكتب العربية، ١٩٣٥.

٧- ابن جبير، محمد بن أحمد، ت٦١٤/١٢١٧، رحلة بن جبير، تحقيق حسين نصار، القاهرة، ١٩٥٥.

٨- ابن الجوزي، شمس الدين ابو المظفر، يوسف ابن قزا ت٦٥٤/١٢٥٧، **مرآة الزمان**، حيدر أباد، د.ت.

٩- ابن خلدون، عبد الرحمن محمد ت٨٠٨/١٤٠٦، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ٧ أجزاء، القاهرة، مطبعة بولاق، ١٢٨٤هـ.

١٠- ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم ١٢٨٢/٦٨١، **وفيات الأعيان وأبناء الزمان**، ٧ أجزاء، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧٠.

١١- ابن سناء الملك، القاضي السعيد هبة الله بن القاضي الرشيد جعفر، **الديوان**، تحقيق محمد إبراهيم نصر، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة ١٩٦٩.

١٢- ابن شداد، القاضي بهاء الدين ابو المحاسن يوسف ١٢٣٤/٦٣٢ **النوادر السلطانية، والمحاسن اليوسفية**، تحقيق محمد محمود صبح، سلسلة كتب ثقافية ١٩٦٢.

١٣- ابن العبري، غريغوري الملطي، ت١٢٨٦/٦٨٥، تاريخ مختصر الدول، بيروت، دار المسيرة، (لا.ت).

١٤- ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي ١٦٧٨/١٠٨٩، **شذرات الذهب في اخبار من ذهب**، بيروت، دار المسيرة، ١٩٧٩.

١٥- ابن كثير، الحافظ عماد الدين ابو الفدا إسماعيل القرضي ١٣٧٢/٧٧٤، **البداية والنهاية**، ١٤ جزءاً، بيروت، ١٩٧٨.

١٦- ابن مماتي، القاضي الوزير شرف الدين ابو ا لمكارم الأسعد ت١٢٠٩/٦٠٦، **كتاب قوانين الدواوين**، تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة، مطبعة مصر، ١٩٥٨.

١٧- ابن نظيف الحموي، أبو الفضل محمد بن علي، ت؟ **التاريخ المنصوري**، تحقيق أبو العيد دودو، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، ١٩٨١.

١٨- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، ت١٢٩٨/٦٩٧، **مفرج الكروب في أخبار بني ايوب**، ٥ أجزاء، الأجزاء الثلاثة الأولى تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٥٣-١٩٦٠، الجزءان الرابع والخامس تحقيق حسين ربيع، وسعيد عاشور، القاهرة، دار الكتب، ١٩٧٢، ١٩٧٧.

١٩- ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر بن عمر، ت١٣٤٨/٧٤٦، **تتمة المختصر في أخبار البشر**، مجلدان، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، بيروت، دار المعرفة، ١٩٧٠.

٢٠- أبو شامة شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي ت١٢٦٧/٦٦٥

أ- **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، جزءان، تحقيق محمد حلمي محمد، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة، ١٩٦٢.

ب- **الذيل على الروضتين**، تحقيق عزت العطار، القاهرة، ١٩٤٧.

٢١- أبو الفداء الملك المؤيد عماد إسماعيل بن الملك الأفضل، ت٧٣٢/١٣٢١، **المختصر في أخبار البشر**، ٤ أجزاء، بيروت، دار المعرفة، ١٩٧٠.

٢٢- البنداري، قوام الدين الفتح بن محمد البنداري الأصفهاني، ت ٦٤٢/١٢٤٤، "**سنا البرق الشامي**" مختصر البرق الشامي لعماد الدين الكاتب الأصفهاني، ت ٥٩٧/١٢٠٠، تحقيق رمضان ششن، بيروت، مطابع الأمان ١٩٧٠.

٢٣- الحنبلي، أبو اليمن القاضي مجير الدين الحنبلي، ت ٩٤٧/١٥٢١، **كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، عمان، مكتبة المحتسب، ١٩٨١.

٢٤- الخزرجي علي بن حسن، **العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية**"، تحقيق، محمد بسيوني عسل، القاهرة، ١٩١١.

٢٥- السبكي، تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين، ت٧٧١/١٣٦٨، طبقات الشافعية الكبرى، ١٠ أجزاء، بيروت، دار المعرفة، (د.ت).

٢٦- السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن، ت ٩١١/١٥٠٥، **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم، القاهرة، الدار القومية للطباعة، ١٩٦٥.

٢٧- الشيرزي عبد الرحمن، **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، القاهرة، ١٩٤٦.

٢٨- العماد الأصفهاني، ابو عبدالله محمد بن صفي الدين أبو الفرج محمد، ت ٥٩٦/١٢٠٠، **الفتح القسي في الفتح القدسي**، حققه محمد محمود صبح، القاهرة، الدار القومية للطباعة، ١٩٦٥.

٢٩- القلقشندي، ابو العباس أحمد بن علي، ت ٨١١/١٤١٨.

أ- **صبح الأعشى في صناعة الانشا**، ١٤ جزءاً، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٣.

ب- **مآثر الأناقة في معالم الخلافة**، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، بيروت، ١٩٨٠.

٣٠- المقدسي، أبو عبدالله محمد بن أحمد، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط٢، القاهرة ١٩٠٦.

٣١- المقريزي، أحمد بن علي، ت٨٤٥/١٤٤١.

أ- **السلوك لمعرفة دول الملوك ٤ أجزاء**، تحقيق، محمد مصطفى زيادة، القاهرة، مطبعة الكتب، ١٩٧٠.

ب- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ٣ اجزاء، القاهرة، بولاق، ١٣٧٠.

٣٢- النابلسي، عثمان إبراهيم، **لمع القوانين المضيئة في دواوين الديار المصرية**، د.ن.

٣٣- النسوي، محمد بن أحمد، **سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي شاه خوارزم**، تحقيق حافظ أحمد حمدي، القاهرة، ١٩٥٣.

٣٤- النعيمي، عبد القادر محمد بن عمر بن يوسف ت٩٢٧/١٥٢١ **الدارس في تاريخ المدارس**، جزءان، تحقيق الأستاذ جعفر الحسيني، دمشق، المجمع العلمي، ١٩٤٨.

٣٥- ياقوت الحموي، شهاب الدين ابي عبدالله الحموي الرومي، ت٦٢٦/١٢٢٩، **معجم البلدان**، ٥ أجزاء، القاهرة، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٣٦.

ثانياً: المراجع العربية.

٣٦- أحمد، عزيز، **تاريخ صقلية الإسلامية**، ترجمة أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٠.

٣٧- أحمد، محمد حلمي، **مصر والشام والصليبيون**، القاهرة، جامعة القاهرة، ١٩٨٢.

٣٨- اسكندر، توفيق اسكندر، **بحوث في التاريخ الاقتصادي**، القاهرة، ١٩٦١.

٣٩- الأكوع، القاضي إسماعيل بن علي، **المدارس الإسلامية في اليمن**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥.

٤٠- بيروت، أحمد حمد، **الحياة العقلية في الحروب الصليبية بمصر والشام**، القاهرة، دار يقظة مصر للطبع والنشر، ١٩٧٢.

٤١- برجاوي، سعيد أحمد، **الحروب الصليبية في المشرق**، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٤.

٤٢- باشا، عمر موسى، **الأدب في بلاد الشام في عهد الزنكيين والأيوبيين والمماليك**، دمشق، المكتبة العباسية (د.ت).

٤٣- بيومي، علي، **قيام الدولة الأيوبية في مصر**، القاهرة، دار الفكر الحديث بمصر، ١٩٥٤.

٤٤- توفيق ، عمر كمال، **الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين**، الإسكندرية مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٦.

٤٥- الجميلي، رشيد عبدالله، **تاريخ الدولة العربية الإسلامية**، العصور العباسية المتأخرة بغداد، الجامعة المستنصرية، ١٩٨٩.

٤٦- حتي، فليب، **تاريخ العرب**، بيروت، دار غندور، ١٩٨٠.

٤٧- حبشي، حسن، **نور الدين والصليبيون**، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٤٧.

٤٨- الحجي، حياة ناصر، **أحوال العامة في حكم المماليك**، الكويت ١٩٨٤.

٤٩- حسن، حسن إبراهيم.

أ- **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي**، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٥٧.

ب- **الفاطميون**، القاهرة، مطبعة النهضة المصرية، ١٩٥٧.

٥٠- حسين، حسن عبد الوهاب.

أ- **تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي**، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٢.

ب- **تاريخ جماعة الفرسان التيوتون**، الإسكندرية، دار المعرفة ١٩٨٩.

٥١- حمادة، ماهر، **الوثائق السياسية والإدارية**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٠.

٥٢- خليل، عماد الدين

أ- **الإمارات الأرتقية في الجزيرة**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٠.

ب- **عماد الدين زنكي**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥.

٥٣- ربيع، حسنين محمد، **النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين**، القاهرة، جامعة القاهرة، ١٩٦٤.

٥٤- رفعت، محمد، **الأطلس التاريخي**، القاهرة، ١٩٣٩.

٥٥- زكار، سهيل، **مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية**، دمشق، ١٩٧٥.

٥٦- زيادة، محمد مصطفى، **حملة لويس التاسع على مصر، وهزيمته في المنصورة**، القاهرة، ١٩٦١.

٥٧- زيادة، نقولا، **لمحات من تاريخ العرب**، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦١.

٥٨- زيتون، عادل

أ- **العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى**، دمشق، ١٩٨٠.

ب- **تاريخ المماليك**، دمشق، المطبعة الجديدة، ١٩٨٦.

٥٩- زيدان، جورجي، **تاريخ التمدن الإسلامي**، بيروت، ١٩٨٤.

٦٠- سالم، سيد عبد العزيز سالم

أ- **تاريخ الإسكندرية وحضارها في العصر الإسلامي**، الإسكندرية، دار المعارف ١٩٦٩.

ب- **تاريخ الأيوبيين والمماليك**، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٢.

٦١- سالم عصام، **جزر الأندلس المنسية في التاريخ الإسلامي**، لجزر البليار، بيروت، ١٩٨٤.

٦٢- سعد، سامي، **أسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى والجمهوريات الإيطالية، القاهرة، ١٩٧٦.**

٦٣- سعداوي، نظير حسان

أ- **التاريخ الحربي المصري**، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٥٧.

ب- **الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي**، القاهرة، مطبعة النهضة المصرية، ١٩٥٧.

٦٤- سلام، محمد زغلول، **الأدب في العصر الأيوبي**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٨.

٦٥- سليمان، أحمد السعيد، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، جزءان، القاهرة، دار المعارف، ١٢٧.

٦٦- الشلبي، أحمد، **موسوعة التاريخ الإسلامي**، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٠.

٦٧- الشيال، جمال الدين

أ- **مصر والشام بين دولتين**، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٤٧.

ب- **دراسات في التاريخ الإسلامي**، القاهرة، دار النهضة المصرية، ١٩٦٣.

٦٨- الصياد، فؤاد عبد المعطي، **المغول في التاريخ**، القاهرة، دار القلم، ١٩٦٠.

٦٩- طرحان، إبراهيم علي، **النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى**، القاهرة، ١٩٦٨.

٧٠- الطيبي، أمين توفيق، **دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس**، تونس١٩٨٤.

٧١- العارف، عارف، **المفصل في تاريخ القدس**، القدس، مكتبة الأندلس، ١٩٤٧.

٧٢- عاشور، سعيد عبد الفتاح

أ- **أوربا في العصور الوسطى**، القاهرة، دار النهضة المصرية، ١٩٦٤.

ب- **تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى**، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٧٦.

ج- **الحركة الصليبية** ج٢، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٧٦.

د- **مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك**، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٣.

٧٣- عاشور، فايد حماد محمد، **العلاقات بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامي في العصر الأيوبي**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٠.

٧٤- العبادي، أحمد مختار، **قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام**، بيروت، النهضة العربية، ١٩٦٩.

٧٥- العبود، نافع توفيق، **الدولة الخوارزمية**، جامعة بغداد، ١٩٧٨.

٧٦- عبد الوهاب، حسن، **من روائع العمارة الإسلامية**، القاهرة، ١٩٦٥.

٧٧- العريني، السيد الباز

أ- **الشرق الأدنى في العصور الوسطى، الأيوبيون**، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٦٧.

ب- **مصر في عصر الأيوبيين**، القاهرة سلسلة الألف كتاب، ١٩٦٠.

ج- **المماليك**، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٦٧.

٧٨- عزيز، أحمد، **تاريخ صقلية الإسلامية**، ترجمة أمين توفيق الطيبي، بيروت، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٠.

٧٩- علي، وفاء محمد، **قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام**، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٤٠٧.

٨٠- عمارة محمد، **معارك العرب ضد الغزاة**، بيروت، ١٩٧٢.

٨١- عمران، محمود سعيد، **الحملة الصليبية الخامسة**، ط٢، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٥.

٨٢- الغامدي، عبدالله سعيد محمد، **صلاح الدين والصليبيون**، مكة المكرمة، المكتبة الفيصلية، ١٩٨٥.

٨٣- غنيم، اسمت، **الدولة الايوبية والصليبيون**، الإسكندرية، دار المعرفة، ١٩٨٥.

٨٤- غوانمة، يوسف درويش، **إمارة الكرك الأيوبية**، عمان، دار الفكر، ١٩٨٠.

٨٥- فكري، أحمد، **المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها**، الإسكندرية، دار المعارف، ١٩٦١.

٨٦- القزاز، محمد صالح، **الحياة السياسية في العصر العباسي الأخير**،العراق، النجف، ١٩٧١.

٨٧- قلعجي، قدري، **صلاح الدين الأيوبي**، بيروت، شركة المطبوعات للنشر، ١٩٩٢.

٨٨- كرد علي، محمد، **خطط الشام**، ٣ أجزاء، بيروت، دار العلم للملايين ١٩٧٣.

٨٩- الكناني، مصطفى حسن محمد، **العلاقات بين جنوة والشـــرق الأدنى الإســـلامي**، تقـــديم جوزيف، نسيم يوسف، الإسكندرية، ١٩٨١.

٩٠- كمال الدين، أحمد، **السلاجقة في التاريخ**، القاهرة، د.ت.

٩١- ماجد، عبد المنعم

أ- **تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى**، القاهرة، دار القلم، ١٩٦٠.

ب- **الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي**، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٠.

٩٢- ماجد ، عبد المنعم

أ- **ظهور خلافة الفاطميين في مصر**، الإسكندرية، ١٩٧٦.

ب- **الناصر صلاح الدين**، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية، ١٩٥٨.

٩٣- ماهر، سعاد، **مساجد مصر وأولياؤها الصالحون**، القاهرة، دار الفكر العربي ١٩٧٦.

٩٤- محمد، حسنين عبد النعيم، **سلاجقة إيران والعراق**، بغداد، ١٩٥٩.

٩٥- مرزوق، ، محمد عبد العزيز، **الفن الإسلامي في العصر الايوبي** القاهرة، ١٩٦٣.

٩٦- المطوي، محمد العروسي، **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**، تونس، ١٩٥٤.

٩٧- المعاضيدي، خاشع، **الحياة السياسية في بلاد الشام في العصر الفـــاطمي**، بغـــداد، ١٩٧٥.

٩٨- المعاضيدي، خاشع، وآخرون، **الوطن العربي والغزو الصليبي**، بغـــداد، منشـــورات البحث العلمي،١٩٨١.

٩٩- نصر، محمد إبراهيم، **ابن سناء الملك**، القاهرة، المطبعة الثقافية، ١٩٧١.

١٠٠- النقاش، زكي، **العلاقات الاجتماعية والثقافية بين العرب والإفرنج خلال الحـروب الصليبية**، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٤١.

١٠١- نوري، محمد علي، **سياسة صلاح الدين فى مصر والشام والجزيرة**، بغداد، مطبعـــة الإرشاد، ١٩٧٩.

١٠٢- الهرفي، محمد علي، **شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام**، القـــاهرة، دار الاعتصام، ١٩٧٩.

١٠٣- يوسف ، جوزيف نسيم

أ- **تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب**، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٤.

ب- **العدوان الصليبي على بلاد الشام**، بيروت، دار النهضة، ١٩٨١.

ج- **العدوان الصليبي على مصر**، بيروت، دار النهضة، ١٩٨١.

١٠٤- يوسف حمد أحمد عبدالله، **بيت المقدس من العهد الراشدي وحتى نهاية الدولة الأيوبية**، القدس، دارة الأوقاف، ١٩٨٢.

دوائر المعارف:

١٠٥- جماعة من الأساتذة: **الموسوعة العربية الميسرة**، بيروت، دار النهضة، ١٩٨١.

١٠٦- جماعة من الاساتذة: **الموسوعة العربية**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٢.

مقالات:

١٠٧- التكريتي، محمود ياسين، **"قيام الحكم الأيوبي في اليمن"** ص٢٠٣، مجلة المجمع العربي العراقي، الجزء الرابع، المجلد الثاني والثلاثون، ١٩٨٢.

١٠٨- عاشور، سعيد، **"الإمبراطور فردريك الثاني والشرق العربي"**، المجلة المصرية، المجلد الحادي عشر ١٩٦٣، ص٨٧.

ثالثاً: المراجع المعربة:

١٠٩- باركر، أرنست، **الحروب الصليبية**، ترجمة السيد الباز العريني، القاهرة، مطبعة البيان العربي، ١٩٦٠.

١١٠- جواتيا، بن، س.د، **دراسات في التاريخ والنظم الإسلامية**، تعريب وتحقيق، عطية القوصي، الكويت، ١٩٨٠.

١١١- جوا نفيل: **مذكرات جوا نفيل، أو القديس لويس**، ترجمة حسن حبشي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٨.

١١٢- رايا، تامار، **السلاجقة، تاريخهم وحضارتهم**، ترجمة لطفي الخوري، بغداد، ١٩٦٨.

١١٣- زامباور، **معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي**، ترجمة زكي محمد حسن وآخرون، القاهرة، جامعة فؤاد الأول، ١٩٥١.

١١٤- سميل.س، **الحروب الصليبية**، ترجمة سامي هاشم، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٢.

١١٥- شاوندر البير، **صلاح الدين الأيوبي**، ترجمة سعيد أبو الحسن، دمشق، طلاس للدراسات والترجمة، ١٩٩٣.

١١٦- مابر، هانس إيرهارد، **تاريخ الحروب الصليبية**، ترجمة عماد الدين غانم طرابلس، مجمع الفاتح للجامعات، ١٩٥٠.

١١٧- هونكه، سيغريد، **فضل العرب على أوربا**، ترجمة فؤاد حسين علي، القاهرة، ١٩٦٤.

رابعاً

أ- المصادر والمراجع الأجنبية:

118- Campell, G.A. **The Crusades**, London, 1935.

119- Conder G.R. **The Latin Kingdom of Jerusalem**, London, 1897.

120- Duggon. A, **The Story of the Crusades** (1097-1291) London, 1963.

121- Eracles, **Recueil des Historiens des Croisades.**
 * Historiens occidentaux 5 Vols.
 * Historiens orientaux 5 Vols.

122- Grousset, R, **Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem**, Vol 111 Paris 1936.

123- Hassanin, Rabie, **The Financial System of Egypt**, London, Oxfor University Press, 1972.

124- Heyd "W", **Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age**, 2 Vols, Leipzig, 1886.

125- Hitti, Phil. K. **History of the Arabs**, London, 1937.

126- Kantorowic, Ernist, **The Reign and life of Friedrich** II, Mannas Apulien Bonn 1985.

127- Lane Poole Stanley **A History of Egypt in the Middle** Ages, London1966.

128- Runciman, (Steven) **A History of the Crusades**, 3 Vols, Cambridge. 1957.

129- Setton, K.M. **A History of the Crusades**, 2 Vols, Pensylvania, 1958.

130- Stevenson, W.B **The Crusaders in the East**, Beirut, 1986.

ب- الموسوعات الأجنبية:

131- Encyclopaedia of Islam, London 1935.

132- Encyclopaeida Brtannica U.S.A 1968.

القدس

بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل الأيوبي



